

12

الكتاب الثانى عشر




مركز جامعة القاهرة
للغات والترجمة

يهودية بلا إله

تأليف
يعقوب ملكين

ترجمة وتعليق
د. أحمد كامل راوى

مراجعة
د. أحمد محمود هويدى

مشروع
جامعة القاهرة للترجمة

CAIRO UNIVERSITY'S PROJECT FOR TRANSLATION

هذا المشروع ..

يسعى المركز، في إطار طفرة التغيرات النوعية، إلى إطلاق مجموعة من المشروعات التنويرية؛ ومن هذه المشروعات: مشروع جامعة القاهرة للترجمة؛ لاسيما أن العالم المعاصر يشهد نموًا هائلا في البحوث الأكاديمية في شتى المعارف كما وكيفًا. وتحتاج هذه الطفرة البحثية أن يواكبها طفرة موازية في سبل الترجمة الأكاديمية الرصينة، حتى تصبح متاحة لجميع الباحثين.

ويهدف المركز من ذلك إلى تعميق دوره في إثراء الحياة الثقافية والأكاديمية، وتحسين القدرات التنافسية للجامعة على المستوى الدولي، وإقامة علاقة من التفاعل المعرفي والإبداعي بين الثقافتين العربية والعالمية، وتأسيس منبر للإبداع الفكري والثقافي في شتى صنوف المعرفة الإنسانية، بما يحقق نوعا من التواصل بين العديد من الميادين والحقول المعرفية المختلفة، وتفعيل التواصل الحضاري بيننا وبين أمم العالم التي لها بصماتها على الفكر العالمي.



مركز جامعة القاهرة
للغات والترجمة


يهودية بلا إله

يهودية بلا إله

تأليف

يعقوب ملكين

ترجمة وتعليق

د. أحمد كامل راوي

مراجعة

د. أحمد محمود هويدى

الناشر

مركز جامعة القاهرة للغات والترجمة

اسم الكتاب : يهودية بلا إله

اسم المؤلف : يعقوب ملكين

ترجمة وتعليق : د. أحمد كامل راوي

مراجعة : د. أحمد محمود هويدي

سنة النشر : ٢٠١٢م

الناشر

مركز جامعة القاهرة للغات والترجمة


بسم الله الرحمن الرحيم

مشروع جامعة القاهرة للترجمة

الأستاذ الدكتور محمد عثمان الخشت
مدير مركز جامعة القاهرة للغات والترجمة

يسعى المركز في الوقت الحالي إلى تكثيف نشاطه الثقافي والمعرفي بضخ مجموعة من المشروعات التنويرية التي تتخذ المنهج العلمي أداة لها. ومن هذه المشروعات: مشروع جامعة القاهرة للترجمة؛ لاسيما أن العالم المعاصر يشهد نموًا هائلا في البحوث الأكاديمية في شتى المعارف كما وكيفًا. هذه الطفرة البحثية تحتاج أن يواكبها طفرة موازية في سبل النشر الأكاديمي، حتى تُصبح متاحة لجميع الباحثين. وتأمل إدارة مركز جامعة القاهرة للغات والترجمة، أن يقوم بدوره المأمول في ترجمة العلوم الإنسانية، خاصة فيما يتعلق بنشر البحوث الأصيلة التي تقدم مساهمة حقيقية في مجال العلوم الإنسانية خاصة والمجال الثقافي بصفة عامة.

ويهدف المركز من ذلك إلى تعميق دوره في إثراء الحياة الثقافية والأكاديمية، وتحسين القدرات التنافسية للجامعة على المستوى الدولي، وإقامة علاقة من التفاعل المعرفي والإبداعي بين الثقافتين العربية والعالمية، وتأسيس منبر للإبداع الفكري والثقافي في شتى صنوف المعرفة الإنسانية، بما يحقق نوعا من التواصل بين العديد من الميادين والحقول المعرفية المختلفة.

ولا شك أن الترجمات الرصينة للثقافة العالمية، في مجتمع المعلومات والثورة المعرفية، تلعب دورًا جوهريًا في التفاعل الثقافي؛ فمن خلالها تمتد جسور بين مجتمعات بشرية متباينة، تُفتح أبواب التواصل الاقتصادي والاجتماعي، بل وحتى السياسي، يتم التبادل الثقافي والانفتاح على الآخر. بالترجمة ترى الأنا الآخر، أو يعبر الآخر للأنا، وتتولد حياة إثر أخرى دون توقف، تتخلق المفاهيم وتتطور باستمرار، تُحلق الأفكار في سماوات عوالم عدة وتزرع في أراض جديدة لتنمو من جديد.

وبالترجمة تتعلم الشعوب أهمية المثاقفة، وتسير نحو تخفيف التباينات الشديدة، وتخلق النموذج العام للتواصل الحضاري.

إن للحضارة أطوارًا ومراحل، ولكل طور ومرحلة شعب من الشعوب يحمل مشعل الحضارة، إذ ليس باستطاعة أي شعب أن يحمل هذا المشعل إلى الأبد، بل هو يأخذه من شعب سابق ويسلمه إلى شعب لاحق... يأخذ ويعطي.. مستفيدًا من مجمل الإنجازات التي توصلت إليها الشعوب الأخرى قبله... ناقلاً ما وصل إليه وما استطاع أن يطوره بإمكاناته الذاتية إلى ما بعده... وعملية النقل هنا تعتمد اعتمادًا رئيسًا على الترجمة.

ومن هنا سعى مركز اللغات والترجمة التخصصية في إطار طفرة التغيرات النوعية إلى إطلاق مشروع جامعة القاهرة للترجمة، ويهدف هذا المشروع إلى تقديم أفضل ما أنتجته قرائح المفكرين والعلماء فى العصر الحديث مترجما إلى اللغة العربية بدقة متناهية وبأسلوب عربى شائق، آملين أن يكون في هذا إسهام مرموق للجامعة في النهضة الفكرية والعلمية والأدبية الراهنة، وتفعيل التواصل الحضاري بيننا وبين أمم العالم التي لها بصماتها على الفكر العالمي.

وبالفعل تم إطلاق المشروع، حيث تم الانتهاء من العديد من الكتب من اللغات المختلفة: اليونانية، والفارسية، والعبرية، والفرنسية، والإنجليزية، فضلا عن ترجمة كتابين من العربية إلى الفرنسية والإنجليزية.

وجاري ترجمة عشرات الكتب من مختلف اللغات السابقة، فضلا عن اللغات اليابانية، والصينية، وااللاتينية، والأسبانية.

* * * *

مقدمة المترجم

في وقت تتعالى فيه أصوات اليهود باتهام الإسلام بالتفسخ والتصدع والضعف والانقسام، وأنه دين يحث المؤمنين به على التطرف والعنصرية والمغالاة، وفى وقت يدعى فيه اليهود بأن اليهودية هى ديانة التوحيد الحق التى أثرت بوحدانيتها فى ديانات التوحيد الأخرى وأنها ديانة راسخة متماسكة ذات قيم إنسانية تحث على المساواة والخير والعدل تأتى ترجمة هذا الكتاب الذى آلينا على أنفسنا أن نقدم ترجمته ردا على تلك الادعاءات الباطلة والاتهامات الزائفة، هذا الكتاب الذى كتبه واحد منهم فجاء مطابقا لقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا ﴾ "وشهد شاهد من أهلها" (سورة يوسف من الأية ٢٦) ليكون الرد أوقع والنقد ألذع .

إن هذا الكتاب عمل يثبت تفسخ اليهودية وهشاشتها ويكشف عن الانقسامات والتصدعات الكثيرة والخطيرة داخلها والعنصرية التى تفوح منها عاكسا الوجه الحقيقى لليهودية، ونظرة اليهود المعاصرين لها.

يقدم هذا الكتاب موقف غالبية اليهود اليوم من اليهودية ويقدم تعريفا جديدا لها فهم ينظرون إليها على أنها ثقافة لليهود تشمل بداخلها ديانة ذات تيارات كثيرة. وتعريف اليهودية كثقافة يوسع نطاق دلالة مفهوم اليهودية ويجعلها لا تتطابق مع الديانة فهى ثقافة اليهود فى كل عصر، ثقافة ممثلة فى مجمل إبداعات أعمال فنية وأدبية وفكر وأنماط حياة وطقوس دينية وعلمانية ومبادىء سلوكية.

وتاريخ اليهودية على هذا الأساس هو تاريخ ثقافة "شعب اليهود"[1]. (كما

---

(١) شعب اليهود: مفهوم صهيونى ينطلق من تصور وحدة الأقليات اليهودية فى أنحاء العالم وعبر التاريخ ومن الإيمان بأن هذه الأقليات تكون قومية متكاملة أو على الأقل عندها كل مقومات القومية. وهذا التصور هو أحد أسس الفكرة الصهيونية التى ليس لها أى سند فى الواقع فالأقليات اليهودية لم تكن مطلقا داخل بناء تاريخى يهودى مستقل وإنما كانت موجوده داخل أبنية تاريخية متباينة تتفاعل معها وتساهم فيها وترقى برقيها =

يزعمون) ويشمل تطور التيارات الدينية والعلمانية التي تحتويها بما في ذلك الإبداع الديني والعلماني الذي نشأ بها في الماضي والحاضر.

وفي إطار النظرة إلى اليهودية على أنها ثقافة نجد تعريفًا جديدًا للمفاهيم الأساسية السائدة لدى اليهود؛ حيث نجد أن الديانة بناء على هذا الفهم يُنظر إليها على أنها أحد أشكال الثقافة، وتضم تيارات كثيرة متناقضة. ولقد مرت الديانة اليهودية بتحولات جذرية في كل عصر مما نتج عنها توقف أبناء الطوائف الدينية نفسها عن الحفاظ على قسم كبير من فرائض الشريعة في معظم مجالات حياتهم، وأن معظم اليهود في العالم وفي إسرائيل صاروا غير متدينين فهم لا يحافظون على أحكام الشريعة ولا يترددون على المعبد ولا يسترشدون بالحاخامات ولا يرسلون أبناءهم إلى المدارس الدينية.

ويعترف الكتاب بفشل كل المحاولات التي أرادت بلورة الديانة اليهودية كديانة واحدة متجانسة ويشير إلى التعددية التي هيمنت عليها على مر العصور ويقدم وصفًا تفصيليًا لهذه التعددية الفكرية والدينية في كل عصر على حدة ، ويرى أنها مبدأ موجه في الفكر اليهودي ومميز له.

ويميط الكتاب الذى بين أيدينا عن الصراعات الحادة بين التيارات الموجودة في اليهودية مما يجعل كل تيار كيهودية قائمة بذاتها ويرى أن هناك عوامل أيديولوجية واقتصادية وسياسية تحرك الصدامات بين التيارات المتعارضة. ويميط اللثام عن الاختلافات بين تلك التيارات والتي تتمثل في أساليب العبادة وطقوس الأعياد والمواقف الأيديولوجية تجاه التاريخ اليهودي والنظرة إلى الإله ودوره في حياة البشر وفي الاعتراف بحقيقة الآخرة والبعث ودور الدولة اليهودية والنظرة إلى المستقبل والنظرة إلى الشريعة وأحكامها.

ويوضح الكتاب الحروب الثقافية والفكرية التي صاحبت التيارات اليهودية

=

وتتخلف بتخلفها فاليهودى فى روسيا كان روسيا وفى اليمن كان يمنيا وهو أمريكى فى الولايات المتحدة .
وعندما تم اغتصاب فلسطين هاجرت اليها أقليات يهودية من جميع دول العالم لايربط بينها أى رابط تاريخى أو ثقافى أوعرقى ومن هنا ينبغى رفض الادعاء الصهيونى الكاذب فاليهود لم يكونوا أبدا شعبا له تاريخ وحضارة قومية مثل أى شعب آخر .

المتناقضة على مر تاريخهم قديمًا وحديثًا ويرى أن تلك الحروب لا زالت تدور رحاها بين اليهود المعاصرين، فبعد قيام إسرائيل تفاقمت بالتدريج حدة الحرب الثقافية بين التيارات الدينية والعلمانية؛ حيث تدور الآن حول مراكز قوى وحول موارد اقتصادية ومالية كما أنها تأخذ كذلك شكل صراع بين أحزاب؛ حيث إن بعض أعضاء التيارات الدينية الممثلة في أحزاب سياسية ينصاعون لحاخامات غير منتخبين لكنهم يستطيعون التأثير في قرارات الكنيست[1] والحكومة عن طريق المعينين من قبلهم.

ويكشف الكاتب عن أعمال العنف الدموية التي صاحبت تلك الحروب الثقافية والفكرية على مر العصور والتي أهمها في العصر الحالي اغتيال رئيس حكومة إسرائيل إسحاق رابين لأنه عمل على دفع مسيرة السلام للأمام.

ويبرز الكتاب حقيقة انفتاح اليهودية على ثقافات الشعوب الأخرى وتأثرها بها قديمًا وحديثًا، ويرى أن هذه التأثيرات قد أدت إلى ظهور أجيال يتمتعون بثقافات ولغات مختلفة. كما يعرض مفاهيم جوهرية لدى اليهود وينتقدها مثل مفهوم "الشعب المختار" والذي يعتبر اليهود أسمى من كل الشعوب وأنهم مختارون من قبل رب العالمين، ويرى أن هذا الاعتقاد يشكل خطرًا على عقلية المؤمنين به وإنسانيتهم وهو يمثل تعصبًا دينيًا وسيآسيا يجب التحرر منه وأن يحل محله مفهوم جديد وهو "شعب له حق الاختيار".

ويشير الكتاب إلى وجود عناصر يهودية متطرفة دينيا وقوميا تعمل ضد الإنسانية كلها وتتسم بالتعصب الأعمى الذي يطال إنسانية الآخرين، مثل الطبيب اليهودي الذي قام بعملية قتل جماعي للمسلمين أثناء صلاتهم في الحرم الإبراهيمي. كما يعترف بوجود

---

(١) الكنيست : هو البرلمان الإسرائيلي تكون لأول مرة عام ١٩٤٩ بمقتضى القانون الانتقالي، ثم صدر قانونه الأساس عام ١٩٥٨ م. ويضم الكنيست ١٢٠ مقعدا ،ويحوى تسع لجان دائمة: لجنة الكنيست، ولجنة الدستور والقانون والقضاء، واللجنة المالية، واللجنة الاقتصادية، ولجنة الشئون الخارجية والأمن، ولجنة الإدارة الخارجية، ولجنة الخدمات العامة، ولجنة التعليم والثقافة ولجنة العمل. تجرى انتخابات الكنيست كل أربع سنوات ويمضى دورتين كل عام.
كامل أبو جابر : نظام دولة إسرائيل ،إطار القرار السياسى . المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، معهد البحوث والدراسات العربية ، القاهرة ١٩٧٣ م ص ٧٥ ـ ٩٦.

فرائض دينية في العهد القديم تحث على اللاإنسانية وتتناقض مع القيم الإنسانية والأخلاقية؛ مثل الفرائض التي تحث على قهر النساء والتعامل المهين مع غير اليهود واضطهاد الأقليات وإبادتهم.

ويعرض الكتاب التخبط الذي يسود بين اليهود في موقفهم من الإله وتصورهم له فيقدم عرضًا تفصيليا للتصورات المختلفة والمتناقضة لصورة الإله في كل عصر وتغلغل فكرة التعددية الإلهية بين اليهود، وكذلك موقف اليهود المعاصرين من فكرة الإلوهية.

ويوضح المؤلف مدى تأثير التيار الأرثوذكسي[1] على السياسة الإسرائيلية وتوجهاتها بالرغم من كونه تيار الأقلية، ويرجع ذلك إلى انقسام اليهود غير المتدينين إلى معسكرين متخاصمين في نظرتهم للعرب والسلام والحرب، وبسبب احتياج كلا منهما إلى الأقلية الدينية الصغيرة سعيا وراء الحكم.

ويكشف مؤلف الكتاب عن نظرة اليهود المعاصرين للصهيونية؛ حيث يعتبرونها حركة تحرر قومي لليهود تتميز بأنها سعت لتحرير اليهود من الانحطاط القومي والعيش كأقليات يمكن تحملها أو اضطهادها ومن تأثير الحركات المعادية للسامية وأنها سعت

---

(١) التيار الأرثوذكسى: شاع استخدام مصطلح الأرثوذكسية بعد ظهور الحركة الإصلاحية فى غرب أوربا، وكان استخدام هذا الاسم تعبيرا عن المعارضة من جانب اليهود للتغيرات التى أدخلها الاصلاحيون على العقيدة اليهودية، ومن الطريف أن الاصلاحيين هم الذين استخدموا مصطلح الأرثوذكس ليعرفوا به التقليديين من اليهود والأتقياء منهم، ومع ذلك فقد تقبلت الجماعة اليهودية التقليدية هذا الاصطلاح.وتم استخدام هذا الاصطلاح لأول مرة فى إحدى المجلات الصادرة فى برلين عام ١٧٩٥ م . ومن المعروف أن هذا الاصطلاح مستعار من المسيحية وربما كان من الخطأ اطلاقه على جماعة يهودية، ففى المسيحية نجد أن كلمة أرثوذكس تعنى "الاعتقاد الصحيح " وهى تنطبق على المسيحية حيث تلعب العقيدة دورا مهما فى نظام الإيمان الصحيح.

وكان أول من قدم الموقف الأرثوذكسى وشرحه ودافع عنه هو الحاخام شمشون رفائيل هرش (١٨٠٨ ـ ١٨٨٨) ويؤمن اتباع التيار الأرثوذكس إيمانا كاملا بالتوراة والشريعة المكتوب والشفوية وبكل كتب التراث اليهودى. ويسيطر التيار الأرثوذكس على المؤسسات الدينية فى إسرائيل.

للمزيد انظر: د. إسماعيل راجى الفاروقى: الملل المعاصر فى الدينى اليهودى. مكتبة وهبة القاهرة الطبعة الثانية ١٩٨٨ ص ٦٢ ـ ٦٧.

لتحرير اليهود من سلطة المؤسسات الدينية التي طالبت بدوام الشتات والانتظار السلبي حتى مقدم المسيح المخلص.

ويكشف مؤلف الكتاب عن ماضي اليهودية؛ حيث تأثير الأبحاث والاكتشافات الأثرية وآراء المفكرين والمعتقدات والتفسيرات الجديدة للنصوص القديمة. ويؤثر هذا على المواقف السياسية ليهود إسرائيل وعلى نظرتهم إلى مسيرة السلام وعلى رسم حدود الدولة؛ حيث يوجد من بينهم من يقدس كل مكان يمكن أن يُنسب إليه حدث تاريخى، بينما يرى آخرون فى الحدود الدائمة التغيير للاستيطان والممالك اليهودية فى الماضى مبررا لتسوية إقليمية مقابل السلام. كلاهما يعتمد فى نظرته على الماضى لكن بعيون الحاضر.

وقد عرض المؤلف الخلاف بين الأغلبية السكانية العلمانية والأقلية الدينية بإسرائيل ويرى أنه خلاف حول أيهما أسمى وأفضل : قوانين الديمقراطية أم الشريعة الدينية. ومن هذا الخلاف انبثقت سائر الخلافات بين المتدينين والعلمانيين بإسرائيل، مثل الخلاف بشأن تفضيل القيم الإنسانية على فرائض الشريعة، والخلاف حول المساواة التامة بين النساء والرجال، والخلاف حول التعليم الإنسانى اليهودى، وحول قانون العودة، وقوانين التهود، وتعريف الانتماء إلى اليهودية، ومكانة المحاكم الربانية وحقوقها وتشكيلها، وواجب التجنيد، وفرض أحكام يوم السبت[1] وشرائع دينية أخرى على العلمانيين، وغير ذلك من أوجه الخلاف المتصاعدة بين الجانبين.

---

(١) السبت : يوم السبت من الأيام المقدسة عند اليهود ، ويعد واحداً من أسس اليهودية، فيوم السبت من الأيام المقدسة التى حرم العمل فيها مثل أيام الأعياد تمجيداً لهذه الأيام "وفكرة تحريم العمل فى يوم السبت مؤكدة بكل أهمية فى الوصايا العشر ، وارتبط يوم السبت فى العهد القديم بعملية خلق الكون وخروج بنى إسرائيل من مصر. "ويشير هذا فى مضمونه إلى أن هذا اليوم ليس للراحة الجسدية فحسب بل يجب تخصيصه للنشاط الدينى والروحى وأن يتذكر اليهودى هذين الحدثين وأن يشكر الرب وينفذ أوامره .ولأهميه يوم السبت فقد خصص التلمود مبحثاً خاصا لكيفيه الاحتفال بأيام السبت " وما يجب على اليهودى أن يعمله من ساعة غروب شمس الجمعة إلى غروب شمس السبت .
أنظر:

Joseph. morris. Judaism as Greed and Life. Rev. Ed.london and New york 1910 p 154.

ويناقش الكتاب العهد القديم من خلال رؤية نقدية ثقافية ؛ فيقدم الدور الذى يلعبه العهد القديم فى الثقافة اليهودية وفى حياة كل التيارات والفرق اليهودية حيث يرى الكاتب أن العهد القديم لعب دورا حيويا فى كل ثقافات اليهود وبخاصة فى تجديد الثقافة العبرية فى فلسطين خلال المائة وعشرون عاما الأخيرة. ويكشف الكاتب عن نظرة قطاع عريض من يهود اليوم للعهد القديم ، كتابهم المقدس، على أنه مثل أى أدب قصصى وشعرى ويشكل أدب العهد القديم أيضا وثيقة تاريخية تعكس واقع اجتماعى وروحانى وثقافى لأبطال ومبدعى العصر الذى ظهر فيه هذا الأدب.

ويميط مؤلف الكتاب أيضا عن التعددية الدينية والتناقضات داخل العهد القديم حتى أنه يكشف لنا عن الانحراف عن التوحيد داخل العهد القديم ووجود إبداعات علمانية داخل ذلك الكتاب المقدس.

هذا ونسأل الله أن يكون هذا الكتاب إضافة جديدة فى مجال الدراسات اليهودية كاشفا عن الفكر اليهودى المعاصر وتوجهاته.

والله ولى التوفيق

د. احمد كامل راوى

* * * *

مقدمة مؤلف الكتاب

يعرض هذا الكتاب موقف العلمانية من اليهودية والنظرة إليها على أنها ثقافة والنظرة إلى العهد القديم على أنه أدب وإلى الإله على أنه بطل أدبي فى أدب العهد القديم. فالعهد القديم هو الأساس المشترك الوحيد لكل الفرق اليهودية ولكل التيارات وثقافاتها الدينية والعلمانية فى إسرائيل وخارجها.

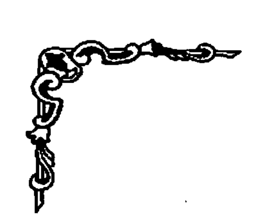
يشير الكتاب إلى التعددية التى هيمنت على اليهودية بوصفها ثقافة اليهود فى كل العصور ؛ ثقافة ممثلة فى مجمل أعمال فنية وأدبية وفكر ونمط حياة وطقوس دينية وعلمانية للأعياد والشعائر والمبادىء السلوكية.

ويشمل الحديث العلمانى الإنسانى الذى يناقش اليهودية على أنها ثقافة إعادة تحديد مفاهيم أساسية مثل : اليهودية، العلمانية، ديانة، إنسانية، قيم إنسانية، بهدف استيعاب قيم أخلاقية إنسانية عامة فى إطار الثقافة اليهودية وعلاقتها بثقافة الشعوب وانفتاحها عليها.

اعتبار ثقافة الحاضر هى أساس لفهم ثقافات العصور الماضية وتوضيحها ، بداية من عصر العهد القديم حيث نشأة جماعة اليهود وحتى عصرنا هذا. وتكشف الدراسات حول ثقافة اليهود مدى ارتباطها بالعهد القديم وبجزء كبير من إبداعاته فى كل العصور والأجيال.

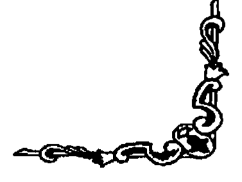
ويناقش الجزء الثانى من الكتاب أدب العهد القديم من خلال رؤية نقدية ثقافية؛ حيث لعب أدب العهد القديم دورا حيويا فى كل ثقافات اليهود وبخاصة فى تجديد الثقافة العبرية فى فلسطين خلال المائة وعشرون عاما الأخيرة. ومثل أى أدب قصصى وشعرى يشكل أدب العهد القديم أيضا وثيقة تاريخية تعكس الواقع الاجتماعى والروحانى والثقافى لأبطال ومبدعى العصر الذى ظهر فيه هذا الأدب.

* * * *



الجزء الأول

اليهودية كثقافة



الفصل الأول

اليهودية بوصفها ثقافة في ضوء معتقدات اليهود العلمانيين

يؤمن اليهود العلمانيون بحرية اختيار اليهود لسلوكهم في اليهودية وبحقهم في التحرر من هيمنة الديانة ومن وجوب الحفاظ على فرائضها. كما يؤمن اليهود العلمانيون بالتحرر من التفاسير الدينية المقتصرة على أدب العهد القديم[1] والأعياد والتقاليد، والتحرر كذلك من إبداعات الأدب اليهودي التي ألفت في كل تياراته. وتعضد المعتقدات السائدة بين اليهود العلمانيين الإنسانيين النظرة إلى اليهودية باعتبارها ثقافة وليس باعتبارها دين.

○ الإيمان بأن الهوية القومية اليهودية هي أن يكون الفرد عضوا في جماعة اليهود وغير مرهونة بديانة الفرد. فاليهود هم أناس أعضاء في جماعة اليهود أو المنضمين إليها بأي طريقة. وتتجلى يهوديتهم في إدراكهم ليهوديتهم كما يدركها الآخرون، تماما مثلما يدرك الإنجليز أو الفرنسيون أن قوميتهم هي عضوية في شعبهم ومشاركة في ثقافته .

---

(١) اللفظ الوارد في الكتاب هو لفظ تناخ – لفظ تناخ إحدى تسميات كتاب اليهود المقدس وهي التسمية الأكثر شهرة وهذه التسمية مأخوذه من الحرف الأول من كل كلمة من أقسام كتاب اليهود المقدس فالتاء تشير إلى لفظ التوراة، والنون تشير إلى الانبياء، والخاء تشير إلى المكتوبات أي أن هذه التسمية اختصار لأقسام العهد القديم الثلاثة .

○ الإيمان بأن الانضمام إلى جماعة اليهود غير مشروط بالتهود الديني. ولكنه يتحقق من خلال الانضمام إلى أسرة أو جماعة يهودية، وأنها عملية فردية مستمرة غير ملزمة وغير مشروطة بطقس ديني أو آخر، وهكذا انضم رجال ونساء إلى اليهود منذ عصر العهد القديم وحتى عصرنا.

○ الإيمان بقيم إنسانية توافق مبدأ "هليل" القائل: "ما تبغضه لاتفعله لغيرك" وهى حيوية لنكون إنسانيين ولقيام مجتمع يحدث فيه إضفاء الطابع الإنسانى، فالقيم الإنسانية هى وسائل لتقييم وتفضيل السلوك والقوانين، وهى مبنية على الإيمان بأن الإنسان هو مصدر السلطة ومبتكر الفرائض والقوانين، ومبتكر الإله.

○ الإيمان بالقيم الإنسانية وبالإنسانية نفسها بوصفها قيمة سامية سائدة بين اليهود العلمانيين، المتحررين من الديانة، والمتدينين على حد سواء. وفى إطار هذه القيم تخضع للاختبار: القوانين، وفرائض الشريعة، والأنظمة وسلوك الأفراد والجماعات. وتنبع أخلاقيات الفرد لاستيعاب القيم الإنسانية من عملية دمج الفرد إنسانيا فى المجتمع وذلك عن طريق التعلم فى الأسرة والطائفة، وفى ثقافة المجتمع الذى يعيش فيه.

○ الإيمان بأن إنسانية الفرد مرهونة بانتمائه القومي؛ حيث إن العملية الإنسانية، أى تحويل الفرد إلى إنسانى، تبدأ فى الأسرة ثم الطائفة ثم المجتمع واللغة ثم الثقافة القومية التى يتعلمها الفرد.

لاتوجد ثقافة أسمى من الثقافة القومية، ولكن كل أمة تحيا بين مجموعة أمم وثقافات، وأى ثقافة قومية تندمج وتتأثر وتشكل جزءا من ثقافة دولية. وعلى ذلك فإن الدراسات اليهودية تندرج تحت دراسات ثقافة الشعوب التى نشأت وتعيش فيها اليهودية.

الإيمان بحرية اختيار الأسلوب الذى يحقق اليهود من خلالها كونهم يهودًا

ويهوديتهم، فاليهود ليسوا "الشعب المختار"؛ بل هم شعب الاختيار بمعنى أنهم شعب كل أعضائه ملزمون باختيار طريقة تحقيق يهوديتهم؛ فى أحد التيارات اليهودية الكثيرة الموجودة فى اليهودية، وكذلك اختيار أسلوب حياة أبنائهم وتعليمهم، والتعبير عن اختياراتهم التى اختاروها.

الإيمان بأن اليهودية بوصفها ثقافة تشتمل على ديانة وليست مطابقه لها، وذلك على نقيض الإيمان بأن اليهودية ديانة فقط. إن الإيمان باليهودية بوصفها ثقافة يؤثر فى النظرة إلى الديمقراطية وفصل سلطات الدين عن الدولة، وتتحول اليهودية إلى عنصر مؤثر فى السياسات والتعليم الإنسانى وفى مجموع مصادر اليهودية. وتشمل اليهودية ثقافة اليهود الديانة اليهودية بكل تياراتها: الصدوقيين[1]، الفريسيين[2]، الأرثوذكس،

---

(١) الصدوقيون: يعود بعض العلماء بأصل الصدوقيين إلى الكاهن الأعلى صادوق الكاهن الأعلى لسليمان والذى ورثت ذريته هذا المنصب حتى ١٦٢ ق . م. وقد كان للصدوقيين تأثير كبير فى المجالين السياسى والاقتصادى. أما الدين بالنسة لهم فقد ارتبط بالهيكل وطقوسه بدون قاعدة دينية لاهوتية قوية، ومع اعترافهم بسلطة العهد القديم، فقد رفضوا الاعتقاد فى الارواح والملائكة والبعث، كما رفضوا التراث الشفوى أو ما يسمى بالشريعة الشفوية غير المكتوبة. وقد اهتموا بالتفسير الحرفى للعهد القديم ، ورفضوا كل التجديدات والتشريعات الجديده التى طورها الفريسيون واعتبروها من البدع .

وقد انتهى وجود الصدوقيين مع خراب الهيكل عام ٧٠ م على يد الرومان (وبزال الهيكل زالت سلطات الصدوقيين الدينية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية.

انظر: د. محمد خليفة حسن أحمد: تاريخ الديانة اليهودية . القاهرة ١٩٩٦، ص ٢٠٨، ٢٠٩.

(٢) الفريسيون: يعنى اسم الفرقة حرفيا "المنفصلون أو المعتزلون". ويمثل الفريسيون فرقه دينية سياسية خلال الهيكل الثانى، وقد تبنى الفريسيون التعليم الدينى اليهودى التراثى أو التقليدى. وقد كون الفريسيون جماعة صغيرة مغلقة على نفسها، وتعيش حياة جماعية وبخاصه فى المأكل وتحافظ على قواعد الطهارة وحاولوا فرض سيادتهم على الهيكل. وقد صاغوا حياة الناس داخل الإطار التشريعى الذى غطى كل مجالات الحياة التى أعطوها اساسا دينيا لاهوتيا وناقشوا مسائل القدر والخير والشر وخلود الروح والحشر. وقد أقروا مبدأ القضاء والقدر، وأمنوا بالحياة بعد الموت وقدوم المسيح وبيوم الحساب. واصدروا أحكاما جديدة تتضمن الاعتراف بالتطور والنمو والمرونة التى مكنت اليهودية من الاستمرار.

محمد خليفة حسن أحمد : تاريخ الديانة اليهودية . القاهرة ١٩٩٦، ص ٢٠٦ - ٢٠٨.

الإصلاحيين[١]، المحافظين[٢]، الحسيدية[٣] والمسيحانية[٤] وغيرها. فاليهودية ليست

---

(١) التيار الإصلاحي: يتمثل التيار الإصلاحي في الحركة الدينية اليهودية المسماة باليهودية الإصلاحية وقد كان ظهور هذه التيار استجابة للحقوق التى منحتها الثورة الفرنسية ،والفرصة التى سنحت لاشتراك اليهود فى المجتمع الأوربى ،وقد رأى أصحاب هذه الحركة أن على اليهود أن يدخلوا بعض الإصلاحات على الديانة اليهودية، وتغيير بعض العادات والتقاليد اليهودية لمواجهة التحديات التى يفرضها العصر الذى يعيشه اليهود ومجابهته التغير الذى يطرأ على المجتمع عامة.

ومن التعديلات التى سنتها هذه الحركة تقصير الصلاة اليهودية، واستخدام اللغة الدارجة لغة حديث، بل وسمحت باستخدامها فى الخطب والمواعظ الدينية ، وهجر اليهود التابعون لهذه الحركة كثير من العادات اليهودية، وانشقوا على كثير من السنن التى سنها التلمود، ومن أهم زعماء هذا التيار دافيد فرايد لندر (١٧٥٦ - ١٨٣٦) وأبراهام جايجر (١٨١٠ - ١٨٧٤).

انظر: د. محمد خليفة حسن أحمد : الحركة الصهيونية : طبيعتها وعلاقتها بالتراث الدينى اليهودى، دار المعارف ، القاهرة ١٩٨١، ص ٦٦.

(٢) التيار المحافظ: يعتبر هذا التيار مرحلة وسط بين التيارين الأرثوذكسى والإصلاحى، ويهدف إلى التوفيق بين التيارين، فهذا التيار لا يتفق مع التيار الإصلاحي فى تحرره من التقاليد اليهودية، ويخالف أيضا التيار الأرثوذكس فى بعده عن التنوير ومجاراة الحضارة؛ لذلك حاول هذا التيار التوفيق بين التقليد الدينى اليهودى بكل ما يحويه من مقدسات وبين الواقع الذى تعيشه والمتطلبات التى يفرضها العصر الحديث

للمزيد انظر: د .إسماعيل راجى الفاروقى: الملل المعاصر فى الدينى اليهودى. ص ٨١ - ٩٨.

(٣) الحسيدية: حركة دينية اجتماعية أسسها إسرائيل بعل شيم طوف (١٦٩٩-١٧٦١) ومن أهم تعاليم بعل شيم طوف أن الجميع متساوون أمام الله وأن طهارة القلب أفضل من التعليم، وحث على الصلاة والعبادة والزهد. وقد لجأ إلى الحركة كل اليهود الذين تأثروا بفشل الحركات المسيحانية. وقد تبع الحركة العديد من المتعلمين والمثقفين فى لتوانيا. وقد لقيت الحركة معارضه شديده من السلطات اليهودية الأرثوذكسية وذلك بسبب اتجاهها اللاهوتى الصوفى وإيمانها بوحدة الوجود واعتبر هذا من الهرطقة . ومارس الحسيديم تأثيرا ثقافيا واجتماعيا كبيرا بين اليهود .

للمزيد انظر: محمد خليفة حسن: تاريخ الديانة اليهودية. ص ٢١٦ - ٢١٨.

(٤) المسيحانية : وهى فكرة غيبية تقوم على أساس الاعتقاد فى قدوم مسيح مخلص وظيفته السياسية تحقيق الخلاص القومى لشعبه ثم أضيفت إلى هذه الوظيفة السياسية وظيفة دينيه تعطى للمسيح المخلص دور تحقيق الخلاص الدينى لشعبه ، ووضعت فى التراث اليهودى شروط وعلامات للمسيح المخلص أهمها انتسابه إلى بيت داود، والقيام بأعمال بطولية خارقة. ويجمع اليهود فى القدس التى يتخذها عاصمه له . ويحكم اليهود العالم وتخضع لهم الأمم.

وقد ظهر على العصور الكثير من المسحاء الكذبة ،ومن أشهرهم ثيوداس ويهوذا الجليلى، وبركوففا، وإسحاق بن يعقوب عويديا، وداود الرائى، وشبتاى تسفى الذى خلف أكبر تأثير مسيحانى فى تاريخ اليهود .

مطابقة لأى تيار منها؛ بل تشمل دائما تيارات يهودية كثيرة. ويسود فى عصرنا الاعتقاد بعظم التيارات المتضمنة فى اليهودية - اليهودية غير الدينية بكل تيارتها.

يسود الإعتقاد بأن الإله بمثابة بطل أدبى بين يهود كثر يؤمنون بأن يهوه، مثل آلهة كل الشعوب، ابتكره وشكله رجال ونساء فى إبداعات أدبية قديمة داخل ثقافة اليهود. وعاش أيضا الإله يهوه مثل أبطال أدبيين آخرين فى هذا الأدب - مثل موسى، داود، إرميا - كعنصر فعال فى ثقافة اليهود وفى إدراك اليهود المتدينين الذين آمنوا ويؤمنون بوجوده أيضا خارج نطاق الأدب. أما فى الثقافة اليهودية العلمانية فيواصل الإله لعب دور البطل الأدبى فى الإبداعات التى تترك انطباعا على القراء حتى وإن لم يؤمنوا بوجود الإله فى الطبيعة أو خارجها وكذلك إن لم يؤمنوا بأن للإله سلطة يجب الانصياع لأوامرها.

يتناقض الإيمان بأن اليهود يحققون يهوديتهم من خلال آداء واجباتهم تجاه المجتمع ونشاطهم فى ثقافة شعبهم مع الاعتقاد بأنه يمكن تحقيق يهوديتهم من خلال الحفاظ على أحكام الشريعة فقط. ولقد اعتقد أنبياء كثر بأفضلية العدل الاجتماعى على أحكام الطقوس الدينية مثل : القربان والصلاة. ولا يوجد تطابق بين التيارات اليهودية والتمسك بأهداب الديانة اليهودية فمعظم اليهود فى عصرنا " غير متدينين" بالمعنى المعهود لهذا المفهوم فى الديانة لليهودية: فهم لا يحافظون على الفرائض والصلوات ولا يترددون على المعبد ولا يرسلون أبناءهم إلى مدارس دينية ، ولا يمتثلون لفتاوى الربانيين ولا يصوتون لصالح أحزاب دينية.

○ الإيمان بأن للديانة اليهودية فى عصرنا تأثيرًا هامشيًا فقط على حياة غالبية اليهود وثقافتهم. فللأحزاب السياسية الدينية فى إسرائيل تأثير كبير على نظام الدولة بواسطة الائتلافات الحكومية. ولقد كان للديانة اليهودية بكل تياراتها تأثير حاسم على ثقافة اليهود حتى القرن التاسع عشر؛ وذلك فى الفترات التى كان للديانات فى كل ثقافات الشعوب تأثير حاسم على أسلوب حياتهم وثقافتهم. ولكن منذ نهاية القرن التاسع عشر تقلص بالتدريج تأثير الديانة على حياة معظم اليهود فى العالم وأصبح لها فى نهاية القرن العشرين تأثير ثانوى فى حياتهم.

○ الإيمان بأن العهد القديم هو أساس اليهوديـة والقاسـم المشترك الوحيـد لكـل التيارات اليهودية ويتعارض هـذا مـع الاعتقـاد بـأن التلمـود[1] والـشريعة هما مـصدرا اليهودية وأساسها. وتعرض أنتولوجيا العهـد القـديم تـشكيلة إبـداعات أدبيـة وتـدوين أحداث وقضايا وتأملات وبلاغة وشعرًا غنائيًا-دينيًا ودنيويًا- تمثل مجتمعة ثقافة "شـعب اليهود" فى مرحلة تكوينه. وتتجلى ثقافة اليهود فى هـذا العـصر القـديم فى العهـد القـديم وتوصف به باعتبارها ثقافة تتصادم فيها تيارات دينيـة وأيـديولوجيات متناقـضة تـرفض بعضها البعض، مثل ديانة عبدة يهوه الذين يعتقدون بتجريد الإلـه ووحدانيتـه، فى مقابـل ديانة اليهود عبدة العجل والبعل والعشتروت.

○ الإيمان بأن التعددية سمة مميزة لكل فترات ثقافة اليهود، و تعـد بمثابـة تواصـل للتعددية فى اليهودية والتى ظهرت فى ثقافة عصر العهـد القـديم. وتتمثـل اليهوديـة ذات التيارات الكثيرة، فى كل عصر وجيل، فى تشكيلة إبداعات فكرية وأدبية وفنية تتجلى فيهـا معتقـدات متناقـضة مثـل: التـصوف والفلـسفة العقليـة فى العـصر الوسـيط، الحـسيدية والهسكالاة فى العصر الحديث، ومتدينون وعلمانيون فى عصرنا.

○ الإيمان بعالمية القيم الإنسانية ووفقا لها فإن "قيم يهوه" هـى قـيم إنـسانية عامـة ذات طابع يهودى. وتتضح القيمة الـسامية لهليـل فى مقولـة "جملـةالتوراه كلهـا"؛ حيـث

---

(١) التلمود: كتاب فقهى مقدس عند اليهود أشبه بموسوعة تضم الدين والـشريعة والتـاريخ والأدب والعلـوم الأخرى.ويشتمل على فصول عدة فى الزراعة والصناعة والمهن الحرة والربا والضرائب وقوانين الملكية والرق والميراث والأعداد والفلك والتنجيم وغير ذلك .

ويوجد تلمود : تلمود بابلى وتلمود مقدسى . وقد تم تدوين التلمـود المقدسـى فى نهايـة القـرن الرابـع ،بيـنما التلمود البابلى الذى يعد أحدث من المقدسى فقد تم تدوينه فى نهاية القرن الخـامس وبدايـه القـرن الـسادس الميلادى .

وقد أكسب المؤمنون بالتلمود هذا الكتاب قدسيته خاصة وجعلوه العمود الفقرى فى البناء الروحانى لليهودية فى كافة صورها .

ولكن مع المكانة العظيمة التى يحتلها التلمود ومدى المعتقدين به من اليهود، فإنه هناك بعض الطوائف والفرق اليهودية الأخرى لاتؤمن به ولاتقدسه على الاطلاق بل وتهاجمه فى معظم الأحيان .

للمزيد انظر:مصطفى عبد المعبود سيد : التطهر فى التشريع اليهودى من خلال المشنا. رسـالة ماجـستير غـير منشورة، جامعة القاهرة ١٩٩٩ص ٣٠ -٣٢ .

تستخلص القيم الإنسانية العامة والتى تتجلى فى الوصابا والتوراة[١] وتعاليم الأنبياء: مثل مبدأ تفضيل العدل الاجتماعى على أحكام الطقوس الدينية. وتتوافق هذه القيم وتمتزج بوجه خاص مع شعار "كانط" القائل "إن المبدأ الإنسانى الأخلاقى العام هو فقط الأخلاقى، وإن كل إنسان هو غايه وليس وسيلة.

○ الإيمان بوجود عناصر معادية للإنسانية فى اليهودية عملت ولا تزال تعمل ضد الإنسانية- وهى متعصبة قوميًا وعنصريًا . ويوجد فى العهد القديم القيم التى تعبر عن معتقداتهم، وكذلك فى كل آداب اليهود التى نشأت منذ إتمام العهد القديم. وتناقض هذه المبادئ المعادية للإنسانية مبادئ "هليل" فهى توصى بغبن النساء، والتعامل المهين لغير اليهود، أو توصى بقتل سكان المدن المهزومة بما فيهم النساء والأطفال (كما ورد فى سفر التثنية أو فى سفر يهوشع وصموئيل).

○ الإيمان بالتعددية ليس فقط بوصفها سمة تميز ثقافة اليهود، بل أيضا بوصفها مبدأ أساسيا فى تطور الفكر والشريعة، ويعبر المبدأ التلمودى "هذه وتلك أقوال الإله الحى" عن اعتراف بشرعية الاختلاف وضرورته من أجل الاقتراب من الحقيقة. فكل خلاف يشجع ويطور النقد المتبادل، ويكشف عن مفاهيم وصعوبات يجب التصدى لها. كما يوجد فى التلمود أيضا المفهوم الثورى "عدم الحسم"، والذى يحسم الخلاف بالاعتراف بوجود قضايا لا حل لها، ووجود خلافات لا يمكن تسويتها.

○ الإيمان بأن اليهودية ليست أيديولوجية بل مسار تدريجى. فلم تكن الشريعة

---

(١) التوراة : أحد مسميات كتاب اليهود المقدس وذلك من قبيل إطلاق الجزء على الكل، وكلمة توراة تعنى التعليم – الشريعة، والتوراة أحد أقسام الكتاب المقدس الثلاثه : توراة، وأنبياء، ومكتوبات. وتتكون التوراة من خمسة أسفار:التكوين والخروج واللاوين والعدد والتثنيه . وتشير هذه التسميات إلى مضمون كل سفر من الأسفار الخمسة .

وتتضمن أسفار التوراة تاريخ اليهود منذ بدء الخليقة إلى فترة التيه فى سيناء، وتشمل على وصايا وتعاليم شرعية كالعبادات والصلوات والنذور والقرابين وواجبات الكهنة وحقوقهم. وتجعل التوراة قصص تاريخ بنى إسرائيل أساسا للتشريع. وربما كان هذا هو سبب تسمية هذا الجزء من العهد القديم بالتوراة

للمزيد انظر: د . محمد بحر عبد الحميد: اليهودية. ص ٣٥ : ٩٨.

دستورا بل كانت تعاليم متطورة من الشريعة ومتغيرة من خلال أفراد ابتدعوها، ومن خلال إصلاح مستمر، وهى مستمرة أيضا فى عصرنا فى التيارات التى تغير صيغ الصلوات والطقوس والعادات والفرائض وفقا لمعتقداتهم والظروف المتغيرة. ولقد تصرف بهذا الشكل حاخامات التوراة الشفهية[1] على عكس الأرثوذكس فى المؤسسة الدينية الكهنوتيه الصدوقية.

○ الإيمان بمبادئ الديمقراطية والتى من بينها الانصياع لحكم الأغلبية والدفاع عن الأقلية وآرائها. ويستند هذا الرأى إلى جذور فى ثقافة التلمود والتى تؤمن برأى الأغلبية؛ حيث اعتقدوا بأنه لا يوجد شخص يتحدث باسم الإله ، ولذلك أسندت صلاحية اتخاذ القرار لغالبية بشرية. ومنهم من اعتقد بأن رأى الأغلبية البشرية هو الحاسم حتى لو كان قرار الأغلبية مناقضًا لرأى الإله (كما ورد فى قصه موقد عخناى) وفى الوقت نفسه يجب الدفاع عن رأى الأقلية والحفاظ عليه، لأنه قد يأتى يوما ويتضح أنه رأي صائب (حسب رأى رابى يهودا).

○ الإيمان بأن حقوق الإنسان وقيم الديمقراطية توافق المبادئ التى تتجلى فى وثيقة تأسيس دولة إسرائيل. وبأن القوانين الأساسية التى تشكل حجر الزاوية لدستور الدوله اليهودية تستمر فى تطوير الشريعة المفتوحة للتغيرات فى اليهودية. وأن قوانين كتلك وفصل السلطات، والتى هى من أسس الديمقراطية فى الدولة اليهودية من شأنها إعادة النظر مجددا فى كل أحكام الشريعة المعادية للإنسانية وتلغى صلاحيتها، مثل الفرائض التى تحث على غبن النساء واللاتى يمثلن نصف السكان، أو الأقليات الدينية مثل اليهود الإصلاحيين والمحافظين أو أناس آخرين تسىء الشريعة معاملتهم كالصم والأبناء غير الشرعيين أو غير المؤهلين للزواج.

○ الإيمان بانفتاح اليهودية على تأثيرات ثقافات الشعوب وهو ما ميز اليهودية فى كل عصورها، و يتعارض هذا مع الإيمان بميزة الانغلاق فى جيتوات روحانية عن طريق قصر التعليم على دراسة الأدب التشريعى التقليدى. ولقد شجع انفتاح اليهودية على

---

(١) التوراة الشفهية (المشنا وشروحها المعروفة بالجمارا اللذان كونا معا التلمود).

تأثيرات ثقافات الشعوب على الإبداع اليهودى الأصيل منذ عصر العهد القديم وحتى عصرنا وأثرى ذلك اليهودية فى كل فترة من فترات تاريخها، وأفرز أجيالا ذوى ثقافة واسعة، لديهم ثقافات ولغات متنوعة، كما أتاح لليهودية التأثير فى ثقافات الشعوب الأخرى عن طريق الديانات التوحيدية التى تأثرت بها.

o الإيمان بتجدد الاحتفال بيوم السبت والأعياد التاريخية والخاصة بوصفها جزءًا من نمط حياة اليهود المتحررين من الديانة التشريعية. وتمثل عملية التجديد والتغيير هذه تواصلا لمراحل تطور وتغيير مرت على أعياد بنى إسرائيل منذ عصر العهد القديم وحتى عصرنا. وتدل على ذلك مئات القصص الجديدة حول الفصح والتى ابتكرت فى اليهودية المعاصرة بتياراتها الدينية والعلمانية. وأصبحت الأعياد الدينية التى تطورت من أعياد القربان والطبيعة واسترضاء الرب فى عصرنا فى اليهودية العلمانية إلى أعياد قومية وتاريخية بلا مغزى دينى.

o الإيمان بخصوصية اليهود فهم جماعة لها خصوصيتها مثل كل الشعوب. والشعوب لها خصوصيتها ليس فقط بسماتها المميزة بل أيضا بتعريفها. فتعريف الشعب السويسرى يختلف عن تعريف الشعب الفالشى أوالأمريكى أو اليهودى. وكما أن سيرة حياة الفرد تحدد شخصيته ، كذلك فإن التاريخ الشخصى للشعب وثقافته يحدده ويميزه فى آن واحد.

o الإيمان بتراث تاريخى قومى واحد مشترك لذوى المعتقدات الدينية والمتحررة من الدين، التى تتعارض مع بعضها البعض، والوعى بالتراث التاريخى وبالمصير المشترك يميز اليهودية عن جماعات فى الشعوب التى ساد فيها معتقد دينى واحد (كاثوليكى، بروتستانى، شيعى، سنى. إلخ) بجانب الإيمان بموروثات تاريخية قومية مختلفة (فرنسية، إيطالية، نرويجية، ألمانية، مصرية، إيرانية وغيرها). ويتيح هذا التميز تواصل الاحتفال بأعياد تاريخية حتى بعد أن فقدت طابعها الدينى، كما يتيح دراسة اليهودية بوصفها ثقافة وتاريخًا، يشمل ديانتها، وذلك عن طريق يهود ليسوا متدينين لكنهم يبغون معرفة ثقافتهم القومية والتراث التاريخى الفاعل فيها فى عصرنا.

o الإيمان بأن الصهيونية تمثل حركة التحرر القومى لليهود، وهى متميزة عن أى حركة تحرير قومى أخرى. فالصهيونية سعت لتحرير اليهود من الانحطاط القومى والعيش كأقليات يمكن تحملها أو اضطهادها ومن تأثير الحركات المعادية للسامية، من المعتدلة حتى الإجرامية، فى الماضى والحاضر. ولأن الصهيونية هى حركة علمانية فى أساسها فقد سعت لتحرير اليهود من سلطة قيادة المؤسسات الدينية اليهودية، والتى طالبت باستمرار الشتات والانتظار السلبى حتى مقدم المسيح المخلص. ونجحت الصهيونية فى تحقيق هدفها بإقامة دولة يهودية لكل اليهود الذين رغبوا أو أجبروا على الهجرة إليها. وقد أرست أركانها قبل الحدث النازى وظهرت حيويتها فى أعقابه.

o الإيمان بمسيرة السلام كشرط لنجاح الصهيونية. فالسلام مع الدول العربية والتى حاولت إبادة دولة إسرائيل وشعبها حتى بدأ التسليم بوجودها بجوارهم، وهو شرط لاستمرار نجاح حركة التحرر القومى لليهود. وفشل هذه المسيرة من شأنه أن يعيد المخاطر التى واجهتها الصهيونية والدولة اليهودية.

* * * *

الفصل الثانـي

تحديـد المفاهيم الأساسيـة
فى الحديـث عن اليهوديـة بوصفها ثقافـة

حيوية تعريف المفاهيم للحديث والحوار

إن تعريف مفهوم يعنى الدور الذى ننسبه إلى الكلمة التى تـشير إليهـا فى إطـار نقـاش معين. ومن المحتمل أن وصف وتمييز دلالات لمفاهيم أساسية سائدة فى حديث اليهود العلمانين قد يساعد فى الحوار بينهم وبين أنفسهم، وبينهم وبين يهود ينتمون إلى تيارات أخرى.

تشمل المفاهيم الأساسية فى النقاش حول اليهودية على سبيل المثـال مـايلى: ثقافـة، ديانة، يهودية، إبداع يهودى، مصادر اليهودية، يهودية متحـررة، تيـارات يهوديـة، إنـسانية وقيم إنسانية، تعليم إنسانى، ديانة يهودية، مستوى ثقافى، قيم، قيم يهوديـة، ثقافـة قوميـة، انتماء قومى، تعصب قومى وعنصرى، تعددية فى اليهودية، وحدة الـشعب، الإلـه بوصـفه بطلا أدبيا، انفتاح على ثقافات الشعوب، شعب اختيار.

بالطبع كان أبطال "كارول" على حق فى رواية "أليس فى بلاد العجائب" عنـدما ادعوا: "إن الكلمات هى ملك لنا، ومن حقنا منحها أى دلالة تخطر على بالنا". كما صـنف فيطجنشطين أيضا فى مقولته إنـه بـدون اتفـاق حـول الـدور الـذى نحملـه للكلـمات فى الحديث فلا احتمال لأن يفهم هذا ذاك. إن "الدلالة" هى إلا الوظيفة المتفق على أن تلعبهـا الكلمة فى حديث معين (الكلمات هى مثل أدوات فى"لعبة" نحدد "دلالتها" أو وظيفتهـا. وفى وصفنا لوظيفة الأدوات المشتركة فى اللعبة وقواعدها تأخذ الأداة دلالة مختلفة فى لعبـة الدُاما أو فى لعبة الشطرنج على سبيل المثال).

ويعد توضيح المفاهيم وتحديدها أمرا حيويا فى فهم كل ادعاء ونقاش. ويمكـن فى كل حديث أن ننسب دلالات مختلفة لمفاهيم أساسية.

أعرض فى الفصول التالية تعريفات ووصف دور مفاهيم ودلالتها حسبما يفهمها كثير من اليهود العلمانيين، فى مشاركتهم أثناء النقاش حول يهوديتهم. إن تعريفات من هذا القبيل تؤدى دورا حيويا فى كل حوار مبنى على اتفاق بالنسبة لمعنى المفاهيم الأساسية، حتى وإن كان الحوار بين أطراف آرائها مختلفة.

إن تعريف الدلالة يعنى أيضا التحديد، أى وضع حد حول معنى الكلمة والخروج من سياج المعانى التى لا نقصدها. ويقدم كل تعريف افتراضات مسبقه تناسب معتقدات تتعلق بموضوع النقاش. إن تعريف اليهودية على سبيل المثال باعتبارها ثقافة يعكس اعتقادًا مناقضًا لتعريف اليهودية باعتبارها ديانة فقط . لأن هذا التعريف يوسع نطاق دلالة مفهوم اليهودية. فالديانة اليهودية ليست فقط مجموعة شرائع وأحكام، بل هى أيضا مجموعة إبداعات وظواهر وعادات يهودية دينية وغير دينية تشكل سويا البيئة الروحانية التى يتربى ويتعلم فيها أفراد اليهود.

تعريف المفاهيم

"ثقافة" شعب

إننا نستخدم مفهوم "ثقافة" لجماعة من الناس و"ثقافة اليهود" بصفة عامة بمعنى: مجموعة متميزة من أنماط الحياة، واللغة، والإبداعات فى أساس التراث التاريخى والروحانى، والأعياد والرموز المشتركة، وسلوك التعليم وأنماطه، والنظرة إلى الأرض، والماضى المشترك ، والتقاليد والتجديدات التي تطرأ عليها. ومجمل ثقافة كهذه تميز وتوحد الطائفة، أو المجتمع القومى، أو مجموعة من الأمم.

وحيث إن اليهودية تشمل تيارات كثيرة تختلف عن بعضها البعض فى ثقافتها فنحن نفرق بين "ثقافة قومية" مشتركة لكل الشعب وبين ثقافة طائفة (مثل ثقافة يهود اليمن، أو ثقافة يهود أمريكا) أو ثقافة تيار موجود داخل الجماعة - مثل ثقافة اليهودية العلمانية أو ثقافة اليهودية الحريدية[1].

---

(١) الحريديين: يطلق على اليهود المتدينين المغالين فى التشدد، والذين يعادون الصهيونية ويكفرون الدولة ويعيشون فى عزلة، اسم الحريديم. والمفرد حريد بمعنى ورع ،تقى. والحريديم ليسوا كالمتدينين العادين، بل =

تتميز الثقافة اليهودية الإسرائيلية عن ثقافات اليهودية، فبينما التيارات اليهودية فى بلدان العالم مختلفة عن بعضها البعض فى شكل اندماجها فى ثقافة البلد والشعب الذى يعيشون فيه، نجد أن الثقافة اليهودية الإسرائيلية متطورة بوصفها ثقافة قومية مستقلة ومتأثرة بالطبع بثقافات الغرب والشرق، لكنها لا تحيا فى أى ثقافة منها. وتنبع خصوصية ثقافة اليهودية الإسرائيلية من إحياء اللغة العبرية كلغة حديث وإبداع، ومن خلال لقاء متطور بين ثقافات يهودية تطورت فى عشرات من البلاد والثقافات.

ترتبط كل ثقافة قومية بمجموعة روابط مع ثقافات مجموعة من الشعوب، مثل ثقافة شعوب الغرب، وثقافات الشرق الأدنى وما شابه ذلك. ويجب للإلمام بثقافة شعب معرفة ثقافة الشعوب التى أثرت فى تطورها فى الحاضر والماضى. وتعد الديانة واحدة من الوجوه الكثيرة للثقافة، فأحيانا نجد أن تأثيرها مهيمن فى كل مجالات النشاط الثقافى، كما فى ثقافة اليهود حتى القرن الثامن عشر، وأحيانا نجد أن تأثيرها ضئيلا كما فى التيارات اليهودية فى القرن العشرين .

إننا نميز بين "ثقافة " و"حضارة" وعلى حد تعبير بوبر فى كتاب "وجه إنسان" فإن "الحضارة" تُعد تشكيلا عقليًا لنظام علمي وعملي يحقق المنفعة. و يُطبق هذا النظام ويتحقق من خلال أنظمة وأدوات. أما "الثقافة" فهى رصد لحركة حياة الإنسان للتعبير

=

هم خلاف الجميع ، إنهم يرتدون ملابس ذات لون أسود ،ويرتدون غطاء أسود للرأس أسفل قبعه سوداء ويرسلون ذقونهم. ويعيش الحريديم فى جو العصر الوسيط، ويتحدثون اليديش . وهم واثقون بأنهم يملكون الحقيقة لفهمهم واطلاعهم على الكتب اليهودية المقدسة (وبصفة خاصة التلمود) وأن طريقهم هو الطرق الصائب الوحيد. ويستخدمون وسائل الاكراه الدينى والتدخل فى حياة الآخرين، وكل الوسائل لديهم مشروعة بما فى ذلك استخدام سلاح الاعتداء والمتفجرات حتى ضد اليهود الأخرين الضالين. ويشنون حربا على الثقافة العلمانية للمجتمع الإسرائيلى ويعتبرون أنفسهم يشنون حربا مقدسة باسم الرب.

ويرفض الحريديون الدولة قبل قدوم المسيح، والكنيست فى نظرهم تدنيس لأوامر الله وإهانة للتوراة؛ لان قوانينه تناقض شريعة موسى عليه السلام.

للمزيد انظر: رشاد عبد الله الشامى: القوى الدينية فى إسرائيل بين تكفير الدولة ولعبة السياسة.عالم المعرفة، المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب. الكويت.عدد ١٨٦ . ١٩٩٤ ص ٣٠١ - ٣١٣.

عنها وتطلعاتها وتجربتها للحصول على شكل ماهيتها. وعـلى نقـيض هـذه الحركـة فكـل شيء موجود ما هو إلا مادة لتـشكيل صـورة، إبـداعاتها غـير متكـررة، ورموزهـا تفهـم كحقيقة للنفس. وعلى عكس الحضارة فإن الثقافة لا تتجمع بل يجـب ابتكارهـا مجـددا فى كل عصر، وإبداعات الثقافة ليست وسيلة لغاية بل هى غاية فى حد ذاتها. وتكمن دلالتها الذاتية فى داخلها وتملأ الحياة. وتشمل الثقافة أشكالا مـن خلالهـا يـشكل الإنـسان ذاتـه بمواد وتقاليد يمنحها له المجتمع الذى يعيش فيه.

وإننا نجد تعبيرًا فى الإبداعات المثالية التـى تمثـل ثقافـة معينـة عـن تفـرد مبـدعها وتميزه وتفرد الإنسان وتميزه. ويعد الإبداع والتقاليـد وجهـين للثقافـة ولكـل مـنهما معًـا قيمة ثقافية.

يـهـوديـة

اليهوديـة هـى اسـم الثقافـة التعدديـة والمتطـورة لليهـود، والتـى تـشمل ديـانتهم وتياراتها، ولاتتطابق اليهوديـة مـع الديانـة اليهوديـة فى أى صـيغة مـن صـيغها. وتـاريخ اليهودية هو تاريخ ثقافة اليهود، ويشمل تطور التيارات الدينية والعلمانية التى فيهـا بـما فى ذلك الإبداع الدينى والعلمانى الذى نشأ بها فى الحاضر وفى كل العصور.

عاش فى القرن العشرين معظم اليهود بـين شـعوب أوربـا وأمريكـا والتـى مـرت ثقافتها بمراحل علمنة متطرفة، وحولت هذه العلمنة الحثيثـة غالبيـة اليهوديـة إلى "ثقافـة علمانيـة " متحـررة مـن الديانـة التـشريعية. ومعظـم الإبـداعات اليهوديـة - "مـصادر اليهودية"- التى نشأت فى القرن الأخير هى ثمار الإبداع اليهودى غير الدينى.

لقد أحدثت الصهيونية وتطور الكيان الثقافى والسياسى الإسرائيلى تحولا فى تاريخ اليهود وثقافتهم فى القرن العشرين حتى قبل قيام الدولـة. وبـدأ تطـور اليهوديـة فى دولـة إسرائيل يؤثر عـلى كـل التيـارات الموجـودة فى اليهوديـة. وتختلـف "اليهوديـة" فى القـرن العشرين فى مبادئها وسماتها المميزة عن اليهودية فى عصر العهد القديم (من فـترة الترحـال وحتى العـودة إلى صـهيون فى عهـد الفـرس)، والعـصر الهلينـستى (مـن غـزو المقـدونى

وحروب المكابيين[1] وحتى إتمام العهد القديم والمشنا[2])، والعصر البيزنطى والعصر الوسيط وعصر النهضة الأوربية والتنوير اليهودى وعصر التحرر الذاتى، كما تختلف عن يهودية القرنين التاسع عشر والعشرين. وتأتى خصوصية اليهودية فى القرن العشرين فى مقابل التيارات اليهودية فى الماضى - والتحول فى نظرتها إلى التمسك بالديانة والانتماء القومى: قطع العلاقة بينهما، وفض الطوائف التقليدية والانتماء إلى المركز الروحى والسياسى المتطور فى إسرائيل.

لقد بدأ فى القرن التاسع عشر النظر إلى اليهودية باعتبارها ثقافة شعب وليست ديانة. وتطور فى دوائر المثقفين والباحثين بغرب أوربا "علم الدراسات اليهودية" الذى يبحث ثقافة الشعب. وطرأ منذ ذلك الحين وحتى نهاية القرن العشرين تحول دائم فى صور الواقع

---

(١) المكابيين: لفظ اتصفت به أعضاء الأسرة اليهودية التى حملت لواء المعارضة ضد السلطة اليونانية ، وهى الأسرة التى عرفت أيضا بأسرة الحشونيين. وهناك اختلاف فى أصل هذه التسمية وكيفية اشتقاقها؛ فالبعض يقول إنها مشتقة من لفظ "مكابى" وتعنى المطرقة، وهى الكلمه التى كنى بها يهوذا وهو الابن الاكبر للكاهن متتيا الحشمونى والذى قاد الثورة بعد أبيه وأنه قد كنى بها لشدة بأسه وشجاعته وحدة الضربات الساحقة التى ألحقها بأعداء اليهود . وفى قول آخر أن يهوذا قد لقب بهذا اللقب لأنه كان كالمطرقة التى جعلها الرب على أعدائه من اليونانيين واليهود. وهناك فريق آخر من العلماء - وهم الكثرة الغالبة - يعتقدون أن الأصل العبرى للفظ مكابى هو مكون من الحروف الأول للفقرة الواردة فى سفر الخروج (١٥/ ١١) والتى تنص "من كمثلك بين الألهة يارب" وقد اتخذ يهوذا من هذه الفقرة شعارا له ، وأصبح يلقب بالمكابى ثم انسحب اللفظ على بقية أعضاء الأسرة الذين أكملو ما بدأه ماتتيا ويهوذا وأصبحت تعرف باسم المكابيين، كما أصبحت تعرف أيضا بأسرة الحشمونيين نسبة إلى الجد الأكبر لها الذى كان يدعى حشمون .
انظر : منى ناظم الدبوس : أضواء على تاريخ اليهود من القرن الخامس قبل الميلاد إلى القرن الثانى الميلادى. ص ٣٩، ٤٠.

(٢) المشنا : هى مجموعة الأحكام والتعاليم والتفاسير والوصايا التشريعية التى تناقلت عبر الأجيال شفاهةً، من عهد موسى ﷺ حتى عهد «يهودا هاناسى» الذى قام بتنسيقها وتسجيلها، والمشنا تتضمن شروحاً وتفاسير مفصلة للتوراة وأحكامها ، كما تشتمل على أحكام وقوانين لم ترد فى التوراة وإنما تم استنباطها قياساً لتوافق ظروف وأحوال اليهود طبقاً لطبيعة العصر الذى يعيشون فيه ، فى جملة لتراكم خبرات وتجارب حاخامات اليهود عبر مئات السنين.
وتحتل المشنا مكانة بالغة الأثر فى التراث اليهودي وعلى كافة الاتجاهات ، الدينية، والاجتماعية، والاقتصادية، والسياسية. فاليهود يعتبرونها مصدراً من مصادر التشريع يأتى فى المقام الثاني بعد التوراة مباشرة.
انظر:مصطفى عبد المعبود سيد : التطهر فى التشريع اليهودى من خلال المشنا. ص٨.

التاريخى للتيارات اليهودية فى الماضى. و ظهرت فى ضوء الأبحاث، والفكر والإبداع المتحرر من ديانة الشريعة التى تطورت فى هذه الفترة يهودية الماضى فى ثوب جديد.

يظهر فى اليهودية الإسرائيلية- العلمانية فى معظمها- فيض إبداعات غير مسبوق، ونشاط تعليمى يهودى مكثف وتشمل أطره معظم الشباب اليهودى فى العالم، والعدد الأكبر لمؤسسات يهودية خاصة بالتعليم العالى، حيث أكبر تركيز للمؤسسات والأعمال البحثية فى مجالات اليهودية، ودور نشر للكتب اليهودية، ومسارح يهودية، وشركات إنتاج أفلام سينمائية وتليفزيونية لليهود. و يزداد تأثير اليهودية العلمانية الإسرائيلية في كل التيارات اليهودية فى كل البلدان مع ازدياد تسريع هذا التطور وتراكم الخبرة والإبداعات التى نشأت ولا تزال تنشأ فى إسرائيل.

إبداعات يهودية

الإبداعات اليهودية هى إبداعات متأثرة بانتساب مبدعيها إلى اليهودية أو تنضم إلى مجمل الإبداعات التى تحسب ضمن ثقافة اليهودية الخاصة بعصر أو تيار من التيارات الموجودة بين اليهود.

وتتمثل ثقافة شعب معين فى إبداعاته الخاصة وتتقبلها أحيانا شعوب أخرى على أنها جزء من إبداعاتها الكلاسيكية (مثل الإلياذة، الأوديسا، إبداعات العهد القديم، إبداعات شكسبير). وتؤلف مجموعات من بين الإبداعات اليهودية "مصادر اليهودية" وتمثل عصورا فى تاريخها. فتشكل مجموعة الإبداعات التى جمعت فى أنتولوجيا العهد القديم نموذجا لمجموعة تمثل ثقافة اليهود من فترة نشأته وتاريخه فى هذه الفترة، كما تنعكس فى وعيه وذاكرته الجماعية.

بما أن الديانة كانت العنصر المهيمن فى ثقافة بنى إسرائيل فى العصر القديم ، كما لدى كل الشعوب الأخرى، فتشكل معظم الإبداعات فى أنتولوجيا العهد القديم وثيقة تدل على تمسك مؤلفيها بالديانة.

أدرجت فى عملية جمع العهد القديم وتحريره أيضا إبداعات دنيوية، مثل: نشيد الأناشيد ولفائف أستير؛ حيث لا يذكر فيها اسم الإله، كما لا ينتمى إليها الأبطال والمؤلفون مطلقا.

تمثل الإبداعات اليهودية الواردة فى العهد القديم ، معظمها بالعبرية وأجزاء معينة بالأرامية، التعددية التى سيطرت على ديانة اليهود وثقافتهم فى هذا العصر. وتُعرض فى كتابات مؤرخى هذه الفترة وفى خطابات الأنبياء والقصص والدراما الفلسفية (أيوب)، والأشعار والفكر، والقوانين والأحكام، التيارات والاتجاهات المتنوعة التى نشطت فى ثقافة اليهود وفى مجالات الشعائر والديانة، والإبداع الفنى والأدبى، والأعياد والطقوس، والفن والآراء.

ويمكن أن تمثل مختارات تشبه تلك التى جاءت فى مجموعة العهد القديم مجمل اليهودية بوصفها ثقافة اليهود فى كل فترة من فتراتها. وتتمثل يهودية الحاضر فى إبداعات يهودية فى الشعر والأدب القصصى والدراما والسيناريوهات وفكر وأبحاث وعلم التأريخ وما كتب فى القانون وفى فن الرسم والنحت، والموسيقى والمسرح والسينما وفى كل اللغات والبلدان التى نشأت فيها إبداعات يهودية معاصرة.

ديانة

الديانة هى إحدى أشكال الثقافة: وتشمل مجموعة عبادات دينية وأحكام شرعية ومعتقدات. و بصفة عامة تضم الديانة الإيمان بوجود إله فوق البشر وهو موجود فى الطبيعة وخارجها، وهو مصدر السلطة والأوامر الأخلاقيه وغير الأخلاقية. وفى معظم الديانات ينسب للآلهة قوة العقاب والثواب، حسب رغبتها أو وفقا للتعاليم المسموعة من قبل الذين يتظاهرون بالحديث باسم الرب ويمثلونه. وفى معظم الديانات يثق أبناء الجماعات المتدينة فى كلام المتحدثين باسم الإله؛ وكأنه قد مُنحت لهم سلطة الإله من خلال الوساطة بينه وبين البشر: مثل الكهنة، الحاخامات، القساوسة، الأنبياء وغيرهم.

وتلزم الديانة فى معظم الحالات أعضاء طوائفها بالإخلاص لمؤسساتها ولزعمائها وممتلكاتها الاقتصادية والانصياع لكل تعاليمهم والدفاع عنهم وعن سلطتهم أمام كل معارضيهم.

يأخذ الانصياع لزعماء الديانة أحيانا أشكالا متطرفة ، مثل: الانصياع للبابا والذى حسب اعتقاد الكثير من أفراد الطوائف الكاثوليكية لا يمكن أن يخطأ، أو الانصياع لحاخامات يلعبون دور زعماء سياسيين، وكذلك لأعضاء برلمانيين منتخبين بطريقة

ديمقراطية. و لا يرتبط الانصياع لزعيم دينى أو حاخام بـرأى المنتخبـين الـذين يختـارهم الجمهور ليكونوا مشرعين فى البرلمان، و الذى يلغى المبدأ الديمقراطى بفضله تم انتخابهم لمنصبهم.

تشجع الديانة فى معظم الحالات مشاعر الخوف من العقاب بعد المـوت أو الخـوف من مخلوقات و ظـواهر فـوق طبيعيـة وغـير متوقعـة موجـودة وراء العـالم الـذى ندركـه بحواسنا ووعينا. و تشجع معظـم الـديانات فى المقابـل أعـضاء جماعتهـا وطوائفهـا عـلى الإيمان بأنهم أسمى من كل أبناء الديانات والمعتقدات الأخرى وأسمى من غير المتـدينين، فى نظرهم وحسب تفسيرهم.

يؤمن أفراد وزعماء متدينون فى حالات كثيرة أن لهم الحـق أو مـن واجـبهم فـرض أحكام ديانتهم على غير المتدينين أيضا ، أو على أبناء الديانات الأخرى، أو على منْ تناقض عقيدته عقيدتهم.

ديـانة يهـوديــة

تحتوى الديانة اليهودية على تيارات كثيرة، تؤدى بنـسب مختلفـة وبأشـكال مختلفـة أحكام الشريعة. وهذه التيارات متناقضة ومتصارعة مـع بعـضها الـبعض، مثـل تيـارات الأغلبية المحافظة والإصلاحية وتيارات الأقلية الأرثوذكسية. والمشترك بين كل التيارات فى الديانة اليهودية هو التمسك بأحكام الشريعة (وفق صيغ مختلفة) والاشـتراك فى صـلوات وأدعية للإله، ودراسة إبداعات أدبية يهودية دينية قديمة، وإيـمان بـتراث تـاريخى مـشترك كامن فى العهد القديم، وعضوية أو زيارات للمعبد فى إطار التيار الذى ينتمون إليه.

نشطت الديانة اليهودية كعنصر مؤثر فى ثقافة اليهود وفى غالبية إبداعاته حتى قبـل حوالى مائتى عام. وتتسم الديانة اليهودية بكثرة التحولات التى طرأت عليها فى كل عصر من تاريخها وبكثرة التيارات والاتجاهات المتعارضة والتى نشطت بها فى الماضي أيضا ، منذ زمن موسى وهارون حتى عصرنا. ولقد حاول كثيرون منذ إتمـام العهـد القـديم والمـشنا والتلمود بلورة الديانة اليهودية كديانة واحدة ومتجانسة اعتمادا على نظام أحكـام شريعـة ثابتة، طبقا لآراء الغالبية الموجودة فى التلمود.

اتخذ لدى معظم الطوائف المتدينة اليهودية مبدأ الانصياع لأحكام الشريعة والصلاة، إذ أن الفروق بين النصوص الملزمة هى أحيانا فروق حاسمة فى تأثيرها على حياة المؤمنين (مثل الفرق بين السماح بتعدد الزوجات وتحريمه، صيغ الصلاة، النظرة إلى السحر، النظرة إلى التوراة الشفهية وإلى كتاب (شولحان عاروخ) "المائدة المرتبة" وصيغ تفاسيره). والديانة اليهودية بوصفها ديانة فرائض فعلية لا تلزم الإيمان بظاهرة إلهية محددة.

ولقد طرأت فى القرنين السابع عشر والثامن عشر تحولات جذرية على اليهودية وديانتها مع ظهور عوامل تغيير جذرى وهى: انتشار القبالاه[1] والمسيحانية، وسبينوزا والفلسفة اليهودية، والحسيدية ومعارضيها، وحركة الإصلاح، والحركة الأرثوذكسية الجديدة، وحركه التنوير اليهودى[2]، والمحافظون المعتدلون والمحافظون المتعصبون، والمعادون للصهيونية، والحركات العلمانية القومية والحركات الدينية الصهيونية.

وتقلص على خلفية تلك التغيرات تأثير عقيدة الشريعة اليهودية الراسخة فى التقاليد المقدسة. ففى القرن التاسع عشر وعقب التحرر الذاتى الروحانى زادت مسارات العلمنة لدى اليهود كما فى معظم شعوب أوربا.

---

(١) القبالاه: اسم لحركة تصوف يهودية ظهرت فى القرن الثالث عشر الميلادى وتبلورت هذه الحركة فى اتجاهين: اتجاه عملى واتجاه نظرى. فقد ظهر الاتجاه العملى فى الشرق ثم انتقل إلى إيطاليا فى النصف الأول من القرن التاسع الميلادى وبعد ذلك فى ألمانيا . وتتخذ مدرسة هذا الاتجاه العملى الصلوات والابتهال والتأمل سبيلا للتقرب إلى الذات العلية، ومعرفته وحبه حبا خالصا منزها عن كل غرض وأملا فى التجلى الإلهى. أما الاتجاه النظرى فقد ازدهر فى أسبانيا وجنوب فرنسا، واتبع علماء هذا الاتجاه المناهج الفلسفية فى الاقناع.
انظر : رشاد عبد الله الشامى: الرموز الدينية فى اليهودية . ص ١٦١.

(٢) حركة التنوير اليهودية: وتسمى بالمسكالاه؛ وهى حركة الاستناره اليهودية وظهرت بين يهود أوربا فى منتصف القرن الثامن عشر، حوالى ١٧٥٠ م واستمرت حى عام ١٨٨٠ تقريبا. وكانت تنادى بأن على اليهود أن يحاولوا الحصول على حقوقهم المدنية الكاملة عن طريق الاندماج فى المجتمعات التى يعيشون فيها، وأن يكون ولاؤهم الأوحد لهذه المجتمعات وليس لقوميتهم الدينية .
ويعتبر أدب حركة الهسكالاه البداية الفعلية للأدب العبرى الحديث، وأهم سماته أنه حول الاتجاه من أدب دينى إلى دنيوى مما يعد نقطة تحول مهمة فى تاريخ الأدب العبرى؛ كما أنه تأثر تأثراً كبيراً بالآداب الأوربية، فقد أخذ الأدباء اليهود فى تلك الفترة على أنفسهم مهمة تنوير يهود الجيتو اجتماعياً ودينياً وفكرياً مقلدين فى هذا اسلوب أدباء الغرب، وكتب أدباء هذه المرحلة الشعر والرواية والقصة.

إن حركات الهجرة الجماعية وتفكيك البلدة اليهودية فى نهايـة القـرن التاسـع عـشر وتجمع السكان اليهود فى مدن عواصـم الثقافـة الغربيـة قـد غـير شـكل الديانـة وشـجع مسارات العلمنة فى اليهودية.

مرت الديانة اليهودية وأحكام الشريعة بتغيرات بعيـدة المدى فى معظـم الطوائـف الدينية المنتشرة فى بلدان الغرب. فقد ألغت غالبية الطوائف المقصورة النسائية بالمعبد، وفى هذا الجزء ظهرت نساء تشغل منصب حاخام ومرتل ومفتى وقاضى شرعـى، كـما طـرأت تغيرات فى صيغ الصلوات والشعائر، وتوقف أبناء الطوائف الدينية عن الحفاظ على قـسم كبير من أحكام الشريعة فى معظم مجالات حياتهم.

إن معظم اليهود فى العالم وفى إسرائيل ليسوا متدينين: فهم لا يحافظون على أحكـام الشريعة، ولايترددون على المعبد، ولايسترشدون بالحاخامـات، ولا يرسـلون أبنـاءهم إلى المدارس الدينية.

عاد التيار الأرثوذكسى فى إسرائيل ليكون قوة مؤثرة بفضل انقـسام اليهوديـة غـير الدينية إلى معسكرين متخاصمين فى نظرتهم إلى العرب والسلام والحرب. وبسبب حاجـة كل منهما إلى الأقلية الدينية الصغيرة من أجل الحكـم فى الديمقراطيـة الإسرائيليـة. وتمثـل الجماعات الدينية فى إسرائيل حوالى ٢٠ ٪ من السكان فقط فى نهاية القـرن العـشرين، كـما كان الوضع فى بداية عهد الدولة.

يـهـودية مـتـحــررة

اليهودية المتحررة هى يهودية متحررة من قوانين الشريعة أى يهودية يهـود علمانيـين كـما أن "اليهوديـة الحريديـة" هـى يهوديـة يهـود أرثـوذكس متطـرفين، كـما أن اليهوديـة الصهيونية الدينيـة هـى يهوديـة الأرثـوذكس الجـدد فى إسرائيـل، مـنهم مـن يتجـه نحـو الحريديين ويقترب منهم، ومنهم معتدلون يبتعدون عنهم.

وتُعد اليهودية المتحررة أكبر التيارات ولكنها الأقـل تأسيـسا وتنظيميـا عـن بـاقى التيارات اليهودية. فاليهودية المتحررة عبارة عن جمهـور بـدون طوائـف. ويعـيش معظـم اليهود فى العالم فى أنماطها ومعتقداتها لكنهم تقريبا ليسوا منتظمين فى طوائـف قائمـة عـلى

مؤسسات (ماعدا أكثر من مائتى كتلة للحركة الكيبوتسية[١] العلمانية فى إسرائيل وحوالى ستين جماعة علمانية فى أمريكا).

تعبر حياة اليهود المتحررين عن المعتقدات والآراء السائدة بينهم فيما يختص بمبادئ السلوك وحقوق الإنسان والواجبات تجاه المجتمع والشعب. إنهم يعبرون عن سلطة الإنسان باعتباره إنسانًا: فى النقد، و تغيير التقاليد وتجديدها. وتشكيل القيم التي من خلالها يمكن تقييم وتفضيل الشرائع والعادات أو رفضها.

يتحرر اليهود العلمانيون بتوجيه تلك المعتقدات من أحكام الشريعة غير المستحسنه لديهم، لكنهم يتبنون عادات وتقاليد أو فرائض تخضع لاختبار النقد الإنسانى. إنهم اجتازوا اختبار القيم الأخلاقية المفيدة لجوهر حياة الفرد والأسرة والطائفة.

يحافظ اليهود العلمانيون على تقاليد يهودية مفيدة ومبهجة، مثل: وجبات السبت والاحتفال ببهجة العيد للأسرة والأصدقاء، وإيقاد الشموع أثناء المآدب الاحتفالية، وأحيانا أناشيد ونصوص تقليدية مع تغيير فى شكلها ومضمونها، حسب المناسب فى نظرهم والملائم لمعتقداتهم، وتغيرات مثل كتابة قصص فصح جديدة، وابتكار قصص ليوم الخامس عشر من شباط أو لعيد الاستقلال[٢].

---

(١) الكيبوتس : هو أهم أنواع البناء الاستيطانى وأكثرها شهرة وأشدها تأثيرا على الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية فى إسرائيل. وكلمة كيبوتس فى دلالتها اللغوية تعنى تجميع، وهى إشارة إلى تجميع اليهود فى مكان واحد، أما دلالتها الاجتماعية فهى تشير إلى مستوطنة صهيونية ثقافيه تضم مجموعة من المستوطنين اليهود يعيشون داخل حيز معين من الأرض، حياة جماعية إشتراكية تعاونية، فالأراضى والمبانى والآلات، وكل شئ داخل الكيبوتس ملك الجماعة ولا مكان فيه للملكية الخاصة أو الثروة الخاصة. وقد اعتمد الكيبوتس ـ فى صدر إنشائها ـ على النشاط الزراعى، ولكن فى مرحلة لاحقة ـ تطور نشاطها فشمل النشاط الصناعى. وكان النشاط العسكرى ملازما للكيبوتس منذ إنشائها وحتى الآن.

(٢) "عيد الاستقلال" ترجمة لعبارة «יום העצמאות» العبرية. مصطلح صهيونى ويقصد به العيد الذي يحتفل فيه الإسرائيليون بإنشاء إسرائيل ويوفق ١٤ مايو ١٩٤٨. ويبدأ الاحتفال بالنفخ فى البوق. وبعد ذلك يبدأ موكب حملة المشاعل من مقبرة هرتسل ويتبعه استعراض عسكرى كبير يتم فيه عرض أحدث الأسلحة التى حصلت عليها الدولة الصهيونية. ولا ندرى سبب تسمية هذا العيد بعيد الاستقلال فكلمه الاستقلال تستخدم فى العالم الثالث عادة للإشارة لاستقلال بلد مستعمر فى آسيا وأفريقيا عن القوة الامبريالية الغربية التى تستعمره، أما بالنسبة لإسرائيل فقد تم إعلان الدولة الصهيونية حينما نجح =

اليهودية المتحررة هى يهودية غالبية اليهود وغالبية المبدعين اليهود فى العالم فى القرن العشرين في إسرائيل وخارجها. وقد ابتكرت معظم الإبداعات اليهودية فى عصرنا فى إطار اليهودية المتحررة وانضمت إلى ثقافتها؛ حيث يُستخدم بعضها فى نظم تعليمها، وتشكل نماذج مختارة منها أسس السلوك المشتركة فى حديث اليهود العلمانيين المثقفين فى اليهودية العلمانية بإسرائيل، ونماذج لذلك: إبداعات هيانا، وبيالك، وتشيرنحوفسكى، وألترمان، وشالوم عليخم، وعجنون، ويزهار، وبوبر، وبرينر، وسيجل، ودينتسيجر، وماهلر، وبرنشطين... وغيرهم.

يجب على التعليم فى اليهودية المتحررة السعى لتعريف المتعلمين ثقافة شعبهم وثقافة الشعوب التى يعيشون فيها، مثلما فى كل واحدة من تيارات اليهودية. وتؤدى الثقافة التى يتم إكسابها فى أطر اليهودية المتحررة إلى تعريف متعلميها باليهودية وثقافة العالم معا و التعريف بالإنسانية على أنها نظام ثقافة وقيم أخلاقية إنسانية عامة ويهودية على حد سواء.

مصادر اليهودية

بما أن اليهودية ثقافة متطورة ومتغيرة فى كل عصر فإن مصادرها موجودة فى الإبداعات التى تمثل كل العصور والتيارات والحركات بين اليهود. وبتطور الثقافة اليهودية يستمر العمل بإبداعات قد ابتكرت قبل مئات السنين بجانب إبداعات ابتكرت فى الحاضر.

إن التعرف على المصادر اليهودية يوجب الخروج عن "خزانة الكتب اليهودية"

=

المستوطنون الصهاينة فى احتلال جزء من فلسطين وطردوا سكان البلد الأصليين وفرضوا وجودهم عن طريق القوة المسلحة. أى أن ما يسمى "باستقلال" الإسرائيلى هو فى واقع الأمر احتلال واستيطان؛ أى أنه عكس المتعارف عليه للكلمة.

انظر: غازى السعدى: الأعياد والمناسبات والطقوس لدى اليهود. دار الجليل، عمان ١٩٩٤، ص ١٨.

ذلك اللفظ الذى تحول إلى لقب يطلق على أدب التلمود والمدراش[1]، الأدب الذى يُقال عنه أنه يمثل جوهر اليهودية.

تضم مصادر اليهودية القديمة والجديدة كل الإبداعات التى تمثل ثقافة اليهود فى كل وسائل الإعلام التى نشأت بها. ولقد تطورت هذه الإبداعات فى : الأدب والفكر و الصور الجبسية و الموسيقى بالمعابد القديمة، والرسم والنحت فى فترة الهياكل الثلاثة الأولى ليهوه ومن العصر الهيلينستي وحتى عصرنا، و الموسيقى والمسرح، و السينما والتليفزيون.

صارت ثقافة اليهود فى القرن العشرين ثرية بإبداعات كثيرة أكثر من الثلاث آلاف سنة التى سبقتها فى تاريخها. ويتجلى هذا الثراء فى تشكيلة الإبداعات التى ابتكرت فى ثقافة اليهود باللغات المختلفة وفى تيارات الطوائف المختلفة وفى كمية الإبداعات الموجودة بين أيدينا.

إن المنطلق فى التعليم اليهودى فى أى تيار من تيارات اليهودية هو معرفة العادات والقيم والإبداعات الأدبية والفنية السائدة والتى تمثل ثقافة الحاضر و يتعرف الدارس من خلالها على الثقافة اليهودية التى يدرسها. وعند بلوغه، وبالقدر الذى يتيح له الفرصة والحرية لفعل هذا، فإن الدارس يكون معرضا لكل تيارات اليهودية فيتعرف على تيارات أخرى فى اليهودية وثقافات أخرى.

على اليهودية المتحررة من قوانين الشريعة أن تسلك هذا النهج. وينبغى فى كل فصول الدراسة، و كل الموضوعات أن تختار من مصادر اليهودية التى نشأت فيها خلال

---

(١) مدراش: كلمة عبرية تعنى بالعربيه" دراسة - بحث - تفسير . وتشير إلى إكتشاف الأمور المدونة فى العهد القديم إضافة إلى معناها السطحى . وقد وضعه التنائيم والأمورئيم لتحديد الشرائع المستجدة فى الحياة . وهناك مدراشان :" مدراش هجاداه " ويتناول القصص والحكايات والأساطير اليهودية، و"مدراش هالاخاه "(مدراش التشريعات) ويختص بالشرائع الدينية ويطلق على مدونى مدراش هجاداه اسم ربنان دأجاداتا (معلموا الهجاداه)

انظر : رشاد عبد الله الشامى: الرموز الدينية فى اليهودية . مركز الدراسات الشرقية العدد (١١) ٢٠٠١ ص ١٦٠.

المائتى عام الأخيرة؛ حيث تشكل هذه المصادر منطلقا لتعريف الدارس بثقافة المجتمع العلمانى الذى يعيش فيه، وللطريق الذى يوضح مصادر اليهودية بتياراتها، وفى العصور الأخرى والتى تحدث وقعًا وتؤثر فى اليهودية المعاصرة .

"الانتماء إلى اليهودية" - "من هو اليهودى"[(١)]

الانتماء إلى اليهودية كناية عن ثقافة الفرد اليهودى. ويعد الإنسان يهوديا طالما أنه ولد وتربى فى أسرة أو فى طائفة يهودية أو لأنه انضم إلى جماعة اليهود من خلال انضمامه إلى أسرة أو طائفة يهودية. والانتماء إلى اليهودية أو الانضمام إلى جماعة اليهود ليس مشروطًا بديانة الفرد أو بالتيار العلمانى أو الدينى الذى ينتمى إليه، وعلى ذلك فإن الانتماء إلى اليهودية أو الانضمام لجماعة اليهود مشروط بعملية تهود ما.

ولأن اليهود جماعة لها خصوصيتها، مثل كل الشعوب، ليس فقط فى سماتها بل أيضا فى تعريفها فإن الانتماء إلى اليهودية له كذلك خصوصية. فمنذ أن منحت الإمبراطورية الرومانية "جنسية رومانية" لأبناء القوميات المختلفة، ومنذ أن بدات دول قومية تمنح "جنسية " لمواطنيها فهناك من يتبادلون مفاهيم "انتماء قومى" و"جنسية فى دولة".

يوجد اليوم فى إسرائيل على سبيل المثال أكثر من خمسة ملايين مواطن هم يهود إسرائيليون بجانب مليون مواطن ليسوا يهودا وهم "فلسطينيون إسرائيليون" و"دروز إسرائيليون" و"مسيحيون إسرائيليون".

---

(١) من هو اليهودى: لاتوجد مسألة شغلت المجتمع الإسرائيلى منذ تأسيس دولة إسرائيل وحتى وقتنا الحاضر، مثل مسألة تعريف من هو اليهودى. فقد أثارت هذه المسألة كل قطاعات المجتمع الإسرائيلى، ومست كل المستويات فخاض فيها السياسيون والحاخامات والمفكرون على مختلف انتماءاتهم سواء كانوا داخل إسرائيل وخارجها.وشغلت المؤسسات السياسية والحزبية فى إسرائيل. وقد عرف اليهودى بأنه من يؤمن باليهودية كدين وتراث، والمولود من أم يهودية، أو من تهود على يد حاخام أرثوذكسى. ولكن هذا التعريف لم يكن جامعا مانعا ذلك لأنه لاينطبق على أى يهودى فى فلسطين، فيهود الهند الذين هاجروا إلى إسرائيل لم تعترف دار الحاخامية بيعضهم؛ لأنهم يمارسون الزواج المختلط، وغير ذلك من الأمثلة التى لايشملها هذا التعريف. ولم تصل دولة إسرائيل إلى تعريف جامع مانع لمن هو اليهودى .

للمزيد انظر : محمد عبد الوهاب المسيرى: موسوعة المفاهيم والمصطلحات الصهيونية. مركز االدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام .القاهرة ١٩٧٤. ص ١٧٠ - ١٧١.

لا تنقص الهوية القومية لليهود والفلسطينين من كونهم إسرائيليين، تماما مثلما أن الانتهاء للقومية الفالشية لاتنقص من كونهم مواطنى بريطانيا، والانتهاء للقومية الفرنسية للكويبك لا ينتقص من كونهم "كنديين".

إن الهوية القومية و"الانتماء إلى اليهودية" فى هذا الإطار غير مرهون برغبة أو باختيار، فهو يتحدد من خلال الأصل الأسرى ومسيرة التعلم فى مجتمع قومى. وفى حالات تشذ عن القاعدة فقط فإنه يكون نتيجة انضمام الفرد إلى الشعب طواعية، وهو يتم بصفة عامة بانضمامه إلى أسرة أو طائفة فى هذا الشعب.

إنسانيـــة، قيـم إنسـانيــة

الإنسانية هى القوة الكامنة الموجودة فى كل مخلوق بيلوجى يُسمى إنسانا. وتنبع إنسانية الإنسان من القدرة على الفعل، والتى تتحول إلى مجموعة خصائص مكتسبة للذين يتربون فى مجتمع إنسانى، تماما كما أن سمة الذئب هى صفة مكتسبة لكل من تربى فى قطيع ذئاب (حتى وإن كان رضيع بشرى وترك بينهم).

والإنسانية هى أيضا نتاج لتحقيق قوة كامنة خاصة بالإنسان والتى تحل فى العملية الإنسانية عن طريق تعلم فى مجتمع قومى وفى مجتمع الشعوب التى عايشتها أمته. ومن هنا فإن إنسانية الإنسان مشروطة بتعليمه فى ثقافة قومية؛ لأنه لا يوجد فى الواقع ثقافة أسمى من الثقافة القومية.

إنسانيـة مرتبطـة بقوميـة فرديـة

يرتبط التعليم فى الثقافة القومية بوعى وانفتاح على ثقافة الأمم التى يعيش فيها الشعب الذى يتعلم فيه الإنسان. وهذا الاستنتاج نابع من أنه لا يوجد فى الواقع شعب لا يعيش فى مجتمع شعوب أخرى ولاتوجد فى العالم ثقافة لم تتأثر ولم تشكل جزءا من ثقافات شعوب أخرى. ويشذ عن هذا، على سبيل المثال، قبائل منعزلة منذ عصور، مثل قبائل البابوئه التى أُكتشفت فى فيجى عن طريق أبناء الشعوب الأخرى فى القرن العشرين فقط.

تعد الإنسانية مجموع الصفات التى يكتسبها الإنسان فى سياق العملية الإنسانية عن طريق الخضوع لسلطة المجتمع وعملية التثقيف. وتشمل الإنسانية استيعاب قيم

إنسانية بفضلها يستطيع المجتمع العيش كمجتمع تتحقق فيه إنسانية الإنسان وفيه تتحسن باستمرار ماهية حياته.

إنســانيــة

تتحول الإنسانية إلى معيار لتقييم وتفضيل القيم، وأشكال التعليم، والعادات والتقاليد، والشرئع والأحكام. ويمكن أن تمثل مقولة بروتاجورس "الإنسان هو معيار كل الأمور" القيم الإنسانية بما أنها تتحدث عن فرد إنساني، أي "صاحب قيم إنسانية". ولايستطيع الفرد العنصرى أو المتطرف قوميا وعنصريا أن يكون معيارا لتقييم وتفضيل أخلاقى، لأن قيمه تتنجاهل واجباته تجاه الغير والإنسانية عامة، ولأن سلوكه على هذا النحو يؤدى إلى معاداة لإنسانية المستعبِدين والقاهرين والمستعبَدين والمقهورين فى داخلها. ويؤدى استعباد النساء إلى معاداة لإنسانيتهن وإنسانية مضطهديهن، ويؤدى استعباد شعوب وقهرها إلى معاداة إنسانية المحتلين ومن وقع عليهم الاحتلال.

واللاإنسانية هى فقدان القدرة على التمييز بين الخير والشر لدى الإنسان- ويُعرف هذا الوضع فى علم النفس بالسيكوباتية. وتتجلى اللاإنسانية فى السلوك الذى لايضع الغير فى الاعتبار سواء أكان فردًا أم أبناء جنس معين أم شعب، كما تتجلى اللاإنسانية فى الأنانية المفرطة والتى تضر بقدرة المجتمع فى أن يلعب دورا إنسانيا وبشكل يمنع غالبية الأفراد من تحقيق القوى الإنسانية المميزه لهم.

وتؤدى اللاإنسانية للحكام والمحكومين فى الأسرة وفى شعب أو فى جماعة الشعوب على مدى طويل إلى انهيار المجتمع وقدرته على التماسك من ناحية الاقتصادية ونظام الحكم كما حدث فى مجتمعات حكمها طغاة أنانيون وسيكوباتيون، مثل الحكم النازى والبلشفى والحكم فى كمبوديا وفى العراق.

قيــم إنســانيــة

القيم هى معايير لتقييم وتفضيل السلوكيات والشرائع. ومن هنا تأتى احتمالية وجود قيم إنسانية وقيم معادية للإنسانية.

القيم الإنسانية هى قيم توافق قيم "هليل" السامية والتى تقول "ما تبغضه لا تفعله لغيرك"، وقيم "كانط" القائلة "لاتنظر إلى الإنسان على أنه وسيلة بل هو غاية فى ذاتـه، ولا تنظروا إلى مبدأ على أنه أخلاقى إلا إذا كان صالحا لكل البشر". وهذه المبادئ الثلاثـة هـى قيم سامية (وبناء عليها تُقيم وتُفضل القيم الأخرى) متسقة.

وبناء على ذلك تضم القيم الإنسانية مبـادئ المـساواة بـين الأجنـاس والـشعوب، ومبادئ حرية التعبير واستقلالية الفرد، ومبـادئ واجـب الفـرد تجـاه المجتمـع، وحقـوق الفرد فى كل مجتمع، ومبادئ واجبات المجتمع تجاه الفرد، ومبادئ الديمقراطية كأسـلوب حكم مفضل على كل بدائلها.

إن معيار تقييم القيم وتفضيلها هو العملية الإنسانية نفسها؛ حيـث إن القـيم التـى تساعد على تحقيق الإنسانية هى فقط الجديرة بالتقييم والتفضيل وما يؤدى إلى اللاإنـسانية يجب رفضه.

والإنسانية هى إيمان بقيم إنسانية وبسلطة البشر فى تحديد قـيم ومبـادئ مـن أجـل ضمان حقوق كل البشر وخلق أوضاع اجتماعية وتربوية تؤدى إلى إنسانية الفرد.

قيــم يهوديــة

القيم اليهودية هى قيم إنسانية عامة ذات طابع يهودى، مثل القيمـة الـسامية لهليـل والتى وفقا لرأيه تقول "(يكون الإيمان) بالتوراة كلها" ويعد مدلول هذه القيم هو القاسـم المشترك لوصايا موسى وتفضيل الأنبياء للعدل الاجتماعى على واجبات العبادة والـصلاة ولاعتراض إبراهيم على ظلم العقاب الجماعى، ولاعتراض أيوب على من ينسبون الخطيئة لكل من يتعرض لكارثة، وينـسبون العـدل للإلـه أيـضا حتـى عنـدما يفعـل مكيـدة مـع الشيطان، ويؤدى إلى كارثة للأبرياء مثل الكارثه التى أدت إلى موافقة الإله والشيطان عـلى أذى أيوب وأولاده وأحفاده.

إن القيم الإنسانية العامة والتى تساعد على الإنسانية وماهيـة الحيـاة مـشتركة بـين أبناء شعوب كثيرة، مثل اليهـود المتـدينين والعلمانيـين. والقـيم المعاديـة للإنـسانية، التـى تساعد على اللاإنسانية، من شأنها أيضا أن تكون قيما يهودية دينية وعلمانية.

ولقد وضع تراث اليهود التاريخى والأدبى أساسا لقيم الحرية والمساواة والعدل عندما جعل ملحمة التحرر من العبودية فى مصر قصة لتكوين جماعة اليهود ومبررا جوهريا لشرائع العدل والحكم. (مثل: إذا نزل عندك غريب فى أرضكم فلا تظلموه، كالمواطن منكم يكون لكم .. وتحبه كنفسك ، لأنكم كنتم غرباء فى أرض مصر.) (لاوين ١٩)

إن "إريك فروم"، الذى يرى فى الإنسانية تطلعا لوحدة الجنس البشرى ولحرية الإنسان، يرى فى أسطورة الخروج من مصر ومركزيتها فى ثقافة اليهود أساسا لنظام القيم الإنسانية فى اليهودية .

تتصارع القيم اليهودية الإنسانية مع القيم اليهودية اللاإنسانيه العنصرية التى تسمح لليهود بالتعالى على أبناء الشعوب الاخرى، وتسمح باستعلاء الرجال على النساء، أو القيم التى تمنح اليهود حقا لطرد الشعب المنهزم من أرضه أو قتله كما يرد فى سفر يشوع، ويظهر فى تصريحات أهداف الأحزاب السياسية اليهودية العلمانية والدينية المعاصرة.

أدت القيم اللاإنسانية إلى قتل جماعى لمجموعة من المصلين عند قبر آباء الأمة اليهودية على يد طبيب قاتل من مستوطنة كريت أربع. وقد تحول القاتل إلى قديس مبجل من قبل الحاخامات وغيرهم. ووجهت تلك القيم حاخامات لإصدار حكم بإهدار دم رئيس جكومة إسرائيل "إسحاق رابين"، و بذلك شجعت قتل رئيس حكومة الدولة اليهودية على يد قاتل يهودى متدين لأنه عمل على دفع مسيرة السلام للأمام.

القيم فى مقابل الفرائض

يجب على التعليم الإنسانى اليهودى استيعاب "قيم يهودية" إنسانية تتطابق مع القيم الإنسانية العامة وحمايتها من القيم اللاإنسانية المتعصبة قوميا وعنصريا.

يختلف "القانون" أو "الفريضة" فى الطبيعة عن "القيمة"، لأن القانون أمر يسمح أو يمنع أو يلزم بسلوك معين، أما "القيمة" فهى معيار لتقيم وتفضيل القوانين والفرائض والشرائع والسلوكيات؛ أى أنها تتبلور فى الإيمان بالإنسانية أو باللاإنسانية. أما القوانين

والفرائض فهى أوامر لمشرع حاكم أو رأى للأغلبية، وقد شرعها الناس فى ظروف معينة، والتى يجب أن يعاد النظر فيها مع كل تحول فى الظروف والمعتقدات.

شُرعت فرائض تقديم القرابين، على سبيل المثال، طبقا لرأى موسى بن ميمون[١] فى الوقت الذى كان اليهود يعبدون آلهة كثيرة خاصة بشعوب أخرى قد أمنت بوجوب تغذية الآلهة ومنحها رائحة لحم محروق وظلت هذه الفرائض موجودة حتى بعد الثورة الدينية التى قام بها موسى؛ لأنه من الصعب التوقف دفعة واحدة عن هذه العاده حتى وإن كانت قائمة على معتقد قد ثبت بطلانه وعدم صحته. وكان يمكن بالتدريج فقط وقف هذه العادة عديمة المغزى فى نظر مؤمنين بإله ليس له جسد أو شكل أو أعضاء وليس فى حاجة أو رغبة لأن يذبحوا ويحرقوا من أجله مخلوقات حية. ويأتى موسى بن ميمون فى نقاشه لهذه القضية بمثال يوضح رؤيته: لو جاؤوا لبنى إسرائيل، عقب منح التوراة لموسى، وقالوا لهم توقفوا عن تقديم القرابين كانوا سيندهشون مثل يهود عصرنا، لو اقترح عليهم فجأه التوقف عن الصلاة والحفاظ على فرائض الشريعة.

وتؤكد رؤية موسى بن ميمون الفرق بين القيم والفرائض. فالقيم نابعة من اعتقاد الإنسان ذى الادراك والبديهة. ويجب الانصياع للفرائض التى يشرعها الناس (والذين يتظاهرون أحيانا بالحديث باسم الإله) طالما أن العادة أو القانون الديمقراطى يوجب ذلك.

إن فرائض الشريعة الخاصة بسلطات الدين، مثل قوانين الدولة لايمكن أن تعد قيما أو قيما يهودية. ويعد تفضيل الفرائض على القيم تنازلا عن الجوهر الإنسانى للتوراة

---

(١) موسى بن ميمون : هو أبو عمران عبد الله موسى من ميمون ،يمثل الفكر اليهودى فى القرن الثانى عشر الميلادى وكان أثره فى الاجيال اللاحقة عظيما. ويسميه اليهود "رامبام" أى الربى موشيه بن ميمون. وقد نشأ فى بيئة عربية وأتصل بكثير من عظماء العرب فى الاندلس والمغرب . وقد ولد فى ٣٠ مارس ١١٣٥ بقرطبة وتعلم فى الفسطاط عن العرب الفيزياء والطب ومارسها . وقد كتبت مؤلفاته بالعربيه بحروف عبرية . ومن أشهر مؤلفاته "دلالة الحائرين" وكتب هذا الكتاب بين عام ١١٨٦و١١٩٠ وهو كتاب فلسفى مهم وقد سعى فيه إلى التوفيق بين الفلسفة والدين وإلى توضيح أن الفلسفة تساعد على إثبات مدى صحة وصدق الوحى الإلهى ، وحظى هذا العمل باهتمام كبير.

للمزيد انظر :إسرائيل ولفنسون :موسى بن ميمون ،حياته ومصنفاته مطبعه التأليف والترجمه والنشر، ط١٩٣٦،١.

اليهودية كلها كما رأها هليل. و بما أن الفرائض مناقضة للقيم يستمر الفرد، عليسبيل المثال، يحقر فى صلواته النساء اللاتى هن نصف الجنس البشرى ونصف اليهود بصفة عامة، وذلك عندما يشكر فى صلواته اليومية إلهه على أنه لم يخلقه امرأة.

إن الذى يظلم النساء وفقا لتقاليد مقدسة فى نظره وفقا للشريعة، فى قوانين الطلاق والزواج وانتخابات قضاة وحاخامات وزعماء للطوائف، فإنه يتصرف بشكل مناقض للقيم اليهودية التى تطابق قيما إنسانية عامة خاصة بمساواة كل البشر - ذكر وأنثى على حد سواء. والذى يبعد المقصورة النسائية بالمعبد والبعيدة عن الرجال وعن كتاب التوراة (لقد كانت المقصورة فى الهيكل[1] فى القدس عبارة عن فناء داخلى يقف فيه رجال ونساء معا) يتصرف وفق مبادئه المتعصبة للرجال والمناقضة للقيم وبدون مبرر شرعى. وإذا كان حقا الهدف فقط هو فصل الرجال عن النساء خوفا من "نجاستهن" فى فترة الحيض فلماذا يجلس الرجال فى ما يسمى اليوم مقصورة النساء ويتركون النساء يقفن بجوار كتاب التوراة ومنصة المرتل ؟

إن الاعتقاد السائد بين المتحررين من الديانة بأن القيم أسمى من فرائض الشريعة يناقض تماما الاعتقاد السائد بين تيارات ديانة الشريعةوالتى ترى أن فرائض الشريعة أسمى من القيم الإنسانية، بما فيها القيم التى تبنتها اليهودية .

يعد هذا التناقض بين الاعتقاد بسمو القيم وبين الاعتقاد بسمو الفرائض أساس الفجوة الشاسعة بين اليهودية العلمانية واليهودية الدينية. فجوة بين الديمقراطية التى تُقيم

---

(١) الهيكل: هو أهم مبنى للعبادة اليهودية فى فلسطين شيده سليمان عليه السلام وهدمه البابليون عام ٥٨٦ ق.م ، ثم أعيد بناؤه عام ٢٥١ ق .م . وأدخل المكابيون بعض التعديلات والتجديدات عليه. ثم قام هيرود بتوسيعه وبنى حوله سورا عاليا، ولكن الرومان حطمو الهيكل فى عام ٧٠ م . على إثر ثورة قام بها اليهود.
وكان هيكل سليمان لايزيد فى حجمه عن كنيسة صغيرة الحجم، فقد كان طوله٧٥ ١١٣ قدم وعرضه ٣٢٥ قدم. وبعد تشيد الهيكل أصبح هو المكان الوحيد الذى تقدم فيه القرابين، ولم يكن دخول الهيكل مباحا للجميع؛ وإنما كان مقصورا على الكهنة. أما قدس الأقداس الذى يحفظ فيه تابوت العهد فكان لايفتح الامرة واحدة فى رسوم الغفران ولايدخله إلا كبيرالكهنة.
انظر: غازى السعدى : الأعياد والمناسبات والطقوس لدى اليهود . ص٧٨.

قوانينها ونظام حكمها فى محكمة العدل العليا والتى تحكم وفق القيم الإنسانية وبين اليهودية الدينية التى تتبع الشريعة والتى تتصرف وفق فرائض مقدسة وفتاوى لحاخامات غير منتخبين من قبل النظام الديمقراطى. وحقا كما قال يشعياهو ليفوفيتش على ذلك: "إنه لا يعتبر نفسه إنسانا طالما أنه يقدس كل فريضة حتى إن كانت عنصرية وتدعو للقتل؛ كالفرائض التى تدعو لقتل شعب العماليق نساء وأطفالا حتى وان لم ينصع لها.

مستوى الثقافة ومستوى الإنسانية وتأثيرهما فى نوعية الحياة

يرتقى مستوى إنسانية الفرد وثقافته كلما ارتقى مستوى تحقيق القوى الإنسانية الكامنة داخله فى النشاط الروحانى والتجريبى، وفى مستوى استيعاب القيم الإنسانية وفى مستوى اندماج الفرد فى الثقافة القومية والعالمية التى يعيش فيها. وفى عصرنا يتعرض معظم الناس لوسائل إعلام وفيض من المعلومات، ورموز وإبداعات مشتركة لثقافات مختلفة بجانب الإبداعات والأحداث والظواهر التى تمثل الثقافة القومية التى يعيشون بها.

عندما يكرس الناس كل وقتهم ونشاطهم لمجال تخصصهم الضيق ، فى العلوم أو فى التكنولوجيا أو فى الأعمال، تبقى القوى الروحية الكامنة الخاصة بهم معطلة نتيجة عدم النشاط. أما إذا اشترك الناس فى نشاط روحانى وفنى يدمجهم فى ثقافة ويطلعهم على إبداع ثقافة شعبهم وبيئتهم، تنشط القوى الروحية والنفسية الكامنة لديهم وتتحقق. ويثرى العالم الروحانى بالتجارب والتحديات وبالاطلاع وبموضوعات النقاش التى تربطهم بالمجتمع، والذى يحول تخصصهم بينهم وبينه.

إن رفع مستوى الثقافة يحسن نوعية حياة الأفراد داخل الأسرة وفى محيط الأصدقاء والطائفة التى يعيشون فيها. وكلما ازداد وعيهم بالإبداعات التى تمثل ثقافتهم كلما زاد اندماجهم فى النشاطات الروحانية والاجتماعية والتربوية، وبذلك تثرى وتتنوع حياتهم. ويكون نتيجة ازدياد عناصر المتع وأنواعها الحسية والروحية هو ثراء الحديث بين الأصدقاء وأفراد الأسرة، وتنوع الموضوعات وعناصر الانطباعات والمشاعر فتشمل موضوعات لاتتعلق بعوامل اقتصادية أو صحية ، كما أوضح أرسطو فى كتاب "علم الأخلاق".

كان أرسطو أول من أشار إلى الارتباط بين علم الأخلاق وماهيه الحياة؛ حيث إن الأفراد الذين يتصرفون مع أنفسهم وغيرهم وفق المبادئ التى تمليها عليهم قيمهم الإنسانية هم أناس يحرصون على تحقيق الحد الأقصى من قدراتهم الروحية والأسرية والاجتماعية، ويثرون حياتهم بنشاط ممتع ومتحد حتى وإن كانوا يفتقرون إلى الممتلكات المادية.

إن نوعية الحياة مشروطة بنشاط روحانى واجتماعى، ويتاح هذا فقط عندما يحيد الخبراء عن مجال تخصصهم الضيق ويشاركون باقى أفراد المجتمع فى نشاط ثقافى مشترك بينهم.

لقد عاشت المشاركة الفعالة فى حياة اليهودية بوصفها ثقافة وتطورت كجزء من ثقافات الشعوب، تدعم ثراء كهذا الذى يرفع مستوى الثقافة وماهية الحياة. وتتيح الثقافة التى تحول أناسا مدركين لثقافتهم ومصادرها اندماجا فعالا فى الحياة الروحيه لطائفتهم.

قومية وهوية وتضامن

تعنى القومية عضوية فى شعب بهدف تحقيق هوية الفرد القومية واندماجه فى ثقافة شعبه. وفي حين أن الهوية القومية هى حقيقة لايتسبب فيها الفرد، بصفة عامة، فإننا نجد أن التضامن القومى هو نظام لنشاطات اجتماعية روحانية وتعليمية مرتبطة بمعرفة ثقافة الأمة ومشاكلها والمواقف التى تتخذ حلها. ويلزم التضامن القومى الإلمام بمطالب وواجبات ذلك التضامن مع أبناء المجتمع القومى ومعرفة الحقوق الناتجة عن العضوية فى الشعب.

يشكل مستوى ثقافة الفرد مقدار انتمائه القومى، وإدراكه واندماجه فى الثقافة القومية والعالمية، وإدراكه للإبداعات التى تمثلها، وقدرته على المساعدة فى تعليم أبنائه وأبناء الطائفة التى يعيش فيها وفى الثقافة القومية وقدرته على تعليم القيم الأخلاقية التى تتيح وجود المجتمع القومى والدولى ومعرفة تعبيراتهم فى التراث الثقافى للشعب.

وتتحدد قومية الإنسان عن طريق عوامل غير متعلقة برغبته، وهى تشكل قوى كامنة وتحد لنشاط ثقافى واجتماعى وسياسى يمكنه تحقيقه.

لقد آمن كثيرون أن القومية قد اختفت كعامل فى حياة الفرد والمجتمع؛ بسبب اتجاهات عولمة الاقتصاد والتكنولوجيا والحاجة إلى الجماعة الدولية التى تتعاظم فى مقابل ضعف الدول ذات الانتماء القومى. ورغم كل هذا شاهدنا فى نهاية القرن العشرين تعاظم القومية سواء بتطلع شعوب صغيرة للاستقلال السياسى لأقصى حد عن طريق تشجيع الوعى بمصادر الثقافة القومية وخصوصيتها فى مقابل ثقافات أخرى، أو بترسيخ التضامن القومى فى الحياة الثقافية والروحية.

يتنامى فى عصرنا بجانب التعرض المتزايد لوسائل الإعلام الدولية وللإبداعات الترفيهيه المألوفة لدى أبناء الأمم المختلفة نشاط ثقافى فى أطر قومية من خلال البحث عن الجذور والمصادر فى ثقافة الشعب.

إن أبرز التعبيرات فى مجال إبداعات الصحوة القومية فى القرن العشرين يتمثل فى إحياء اللغة العبرية وثقافتها فى إسرائيل، والتى تجمع بها اليهود من عشرات الدول والثقافات، والذين يعلمون أبناءهم التضامن مع ثقافة جماعات اليهود. ويعد الانشغال بقضية دلالة "الهوية اليهودية" للإسرائيلين أو ليهود العالم هو شكل من أشكال نشاطات تضامن اليهود مع شعبهم، فى عصر فقد فيه الانتماء إلى اليهودية شكله الدينى من وجهة نظر معظم اليهود ذوى الهوية القومية اليهودية. والانتقال من هوية إلى تضامن قومى مشروط بالانتقال من السلبية إلى الفاعلية الثقافية والتعرض لفيض متنوع من إبداعات ثقافية يهودية فى كل مجالات الإبداع فى اليهودية الإسرائيلية والذى يؤثر على بؤر الإبداع والتعليم فى التيارات اليهودية فى بلدان العالم.

تعليم إنسانى يهودى

يسير التعليم الإنسانى والتعليم الإنسانى اليهودى بصفة عامة فى اتجاهين متناقضين ظاهريا على النحو التالى:

١ - السعى لتحقيق إنسانية الإنسان أثناء تكيفه مع مجتمعه وثقافته، من أجل استيعاب القيم الإنسانية السائدة به، ومعرفه الإبداعات التى تمثله وإدراك واجبات الفرد وحقوقه طبقا لقوانين هذا المجتمع.

٢ - السعى إلى استقلال الفرد الروحانى وتطوير الشخصية المتميزة له، والاهتمام بقدرته الإبداعية والنقدية تجاه المسلمات فى المجتمع، والإبداعات الكلاسيكية التى تمثل ثقافته، وتجاه التقاليد والتراث الدينى والثقافى والقوانين والفرائض التى تسير الحياة على نهجها.

فى الواقع لا يتناقض الاتجاهان مع بعضهما البعض. فكما يقول أرسطو يؤمن دارسون كثر بالتعلم الإنسانى أن عليهم المساعدة فى تحقيق القوى الكامنة المستترة فى كل إنسانوالتى تشمل: قوى إنسانية لعضوية فى مجتمع إنسانى، وقوى كامنة فردية تتيح له المساهمة فى مجتمع إسهاما متميزا.

تساعد تنمية الاتجاهات النقدية والإبداعية المجتمع على تطوره وإثراء حياته الثقافية، وانفتاحها على آراء وإبداعات جديدة، كما تساعد على التمحيص المتجدد والمتكرر للقوانين وللمسلمات في ضوء الظروف المتغيرة. ويرى "ارسموس" أن الثقافة شرط لحرية إنسانية الإنسان، وبما أن الإنسان أكثر ثقافة فهو أكثر إدراكا للواقع الذى يعيش فيه وللقوى الكامنة والخيارات المعروضه بها وللتغيرات التى تطرأ عليه وأساليب التعامل معها.

وتُعد الثقافة شرطا ضروريا للتعليم الإنسانى إلا أنه ليس كافيا؛ فبدون استيعاب القيم الأخلاقية التى تؤلف معيار التقييم والتفضيل، يمكن للثقافة أن تضر بإنسانية الفرد، وذلك عندما تزوده بالأدوات التى تدعم قدرته على التصرف كعنصرى أو كمتعصب لقوميته.

إن التعليم الإنسانى اليهودى، مثل التعليم الإنسانى لدى كل شعب غربى آخر، يسعى إلى أهدافه عن طريق تنوع النشاطات الثقافية، وتفعيل دارسيه فى الإبداع والبحث والنقاش، مع الإلمام بثقافة الحاضر والتراث الثقافى للشعب والشعوب.

تلعب الإبداعات الفنية والأدبية والفكرية دورا مركزيا فى التعليم الإنسانى؛ لأنها تجعل الفرد يلتقى مع التراث الثقافى لمجتمعه، ومع نماذج إبداعية جديدة لا مثيل لها ومع نقد اجتماعى وأخلاقى.

إن أبطال الإبداعات المثالية ليسوا مثاليين فى سلوكهم؛ فحياتهم مكتظه بالآثام والخطايا طبقا لمعيار القيم الإنسانية، فأبطال الأدب مثل: إبراهيم، والإله، ويعقوب وداود، ومدأه، وأوديب، وماكبث، ولير، وفاوست كلهم يرتكبون خطايا جسيمة حسب معيار هذه القيم.

وتتمثل القيمة التربوية للإبداعات التى تشكل أبطالا كهولاء، فى الشكل الذى يعرضه العمل لهم، عندما يلتقى به متلقيه ليس فقط مع أشكال التعابير المتميزة والمثيرة للمتعة الحسية والجمالية، بل أيضا مع معضلات إنسانية وأخلاقية دائمة فى مجال التصارع بين الفرد والمجتمع، وبين الفرد ونفسه وقيمه، وبين الإدراك والانفعال.

يؤدى الإبداع الكلاسيكى الذى يمثل الثقافة وظيفة مزدوجة وحيوية فى التعليم الإنسانى؛ فهو يساعد على إلمام الدارس بالقواسم المشتركة لثقافة المجتمع الذى يعيش فيه ويثير لديه النقد والتفكير فى المشاكل التى يواجهها.

لا تشمل الإبداعات التى تمثل الشعب والشعوب التى يعيش فيها الدارسون إبداعات كلاسيكية (سامية فى نظر منتقديها عبر أجيال كثيرة) على الداوام فحسب؛ بل تشمل أيضا إبداعات كثيرة معاصرة.

إن التعليم الإنسانى هو مسيرة دائمة من المعرفة من خلال الاحتكاك بالإبداعات الفكرية والفنية الماضية والمعاصرة فى كل المجالات. ويتعرف الإنسان عن طريق مثل هذا التعليم فى اليهودية على ثقافة اليهود الثرية التى تعتبر جزءا من ثقافات الشعوب التى يعيش بينها اليهود.

تعددية فى اليهودية

تتجلى التعددية فى اليهودية فى كثرة التيارات والمعتقدات والآراء فى كل عصور تاريخها، بداية من أدب التلمود وحتى تطور المباديء التعددية التى أرست الفكر والحوار فى اليهودية. وتعترف بشرعية الخلاف وفائدته طالما يقرب من الحقيقة ويخضع المواقف المتعارضة لاختبار المبدأ الذى يقول "هذه وتلك أقوال الإله الحى".

تتجلى التعددية فى ثقافة اليهود فى فترة الهيكل الأول ليهوه فى القدس، وفي هياكل يهوه فى بيت إيل وفى بدان فى أسفار العهد القديم التى تعرض وتصف تعدد الديانات والمعتقدات والعبادات لآلهة كثيرة قد انتشرت بين اليهود آنذاك. وتصطدم النظرة إلى يهوه على أنه إله مجرد بالنظرة إلى إله إسرائيل على أنه عجلا ذهبيا. كما تصطدم آراء حول العدل الإلهى فى أقوال الأنبياء بآراء مناقضة لها، كما فى قصص إبراهيم وأيوب والجامعة.

ظهرت فى يهودية العصر الهيلينستى حركات وفرق مستقلة تختلف عن بعضها البعض-مثل يهود متأغرقون ومعارضون للأغرقة، وصدوقيون، وفريسيون، وحسيديون، وأسينويون، ومسيحيون يهود، وقناؤون ومعارضون لهم. ومع ازدياد انتشار اليهود فى بلدان أفريقيا وآسيا وأوربا ازداد أيضا توزيع الصلاحيات فى اليهودية. كما نشأت فى فلسطين معارضة على مؤسسة الحكم الدينى الكهنوتى للصدوقين. واندلعت فى فترة المكابيين مرة أخرى حروب أهليه بين اليهود الذين يتبنون ثقافة الغرب والمعارضين لهم.

تقترب المؤسسة الدينية الصدوقية من أنماط حياة االغرب وتؤمن بالشريعة المكتوبة والمقدسة وتعارض أى إصلاح أوإضافة. وترفض المعارضة الإصلاحية الفريسية اتجاهات الهلينية والمحافظة الجامدة، وتطالب بمواصلة تطور الديانة اليهودية والشريعة والعقيدة عن طريق التوراة الشفهية.

تطورت أثناء الحرب مع روما كذلك معارضة ضد أحزاب الحرب فتنتقل شخصيات يهودية مثل يوحنان بن زكاى وتلاميذه والقائد العسكرى اليهودى، المؤرخ يوسف بن متتياهو، إلى الجانب الرومانى ويباركون قائد الجيوش الرومانية، ويحظون بحمايته والاستمرار فى إبداعهم اليهودى تحت الحكم الرومانى. أما الأحزاب المؤيدة للحرب فتنقسم وتحارب بعضها البعض وتؤدى بمملكة اليهود إلى الدمار.

إن مبدأ "هذه وتلك أقوال الإله الحى" هو مبدأ تلمودى يرمز إلى تحويل التعددية من سمة لليهودية إلى مبدأ موجه فى فكرها. ويعبر هذ المبدأ عن الإيمان بأنه لا يمكن لإنسان الحديث باسم الإله، وعلى ذلك يجب الإصغاء لكل أطراف الخلاف، والحفاظ

أيضا على رأى الأقلية فربما يتحول فى المستقبل ليكون رأيا للأغلبية ويحسم القرار النهائى. والاعتراف بوجود خلافات لا يمكن أن تُحسم، والإعلان عن ذلك يُعد أحد المفاهيم الثورية فى تاريخ الديانات وعلم اللاهوت.

تتميز الشريعة بأنها ليست كالدستور؛ وإنما كالتطور، فهى مسيرة لا تتوقف بهدف استنباط الحقائق والعدل. و تتنوع منذ العصر الوسيط وعصر النهضه الأوربية وتتعاظم التعددية المتمثلة فى كثرة الطوائف التى تعيش فى قارات وثقافات مختلفة، بالاضافة إلى كثرة التيارات الفكرية والدينية مثل : العقلانيون، والمتصوفون، والمسيحانيون، والحسيديون والمعارضون لهم، والمتنورون والاندماجيون، والمرتدون عن الديانة طوعا أو كرها. ويتزايد فى العصر الحديث معدل تطور التعددية فى اليهودية بالانقسام إلى يهودية علمانية ودينية، وبالتيارات التى تنشط فى بلدان العالم، وفى طوائف بعيدة عن بعضها البعض. ويلتقى فى إسرائيل أبناء الطوائف والأجناس والتيارات اليهودية. وتقوى العلاقة بين فئات اليهودية التعددية بسبب النظام الديمقراطى فى إسرائيل والذى يزيد من تعلق التيارات والفئات باليهودية. ومن المحتمل أن تؤثر كل فئة وتيار فى اليهودية على السياسات وعلى تشكيل الحكومة، وعلى الاقتصاد وأمن كل المواطنين فى دولة إسرائيل.

إن وحدة اليهود مشروطة بانعدام وحدته وتجانسه، وبكثرة السبل التى من خلالها يستطيع الفرد أن يحقق انتماءه لليهودية دون أن يفصل نفسه عن اليهودية.

تعددية ليست نسبية

التعددية هى الاعتراف بتعدد المعتقدات وكثرتها وتعدد الآراء والتيارات وأنماط الحياة والديانة فى ثقافة اليهود. والتعددية سمة لليهودية منذ تأسيسها فى عصر العهد القديم، كما تعد أيضا مبدأ موجهًا فى اليهودية منذ عصر التلمود ومبدأ "هذه وتلك أقوال الإله الحى".

والتعددية ليست مثل النظرية النسبية التى تنسب قيمة مساوية لكل معتقد ورأى، ولكل موقف إنسانى ومعادى للإنسانية. وتشجع التعددية اليهودية الخلاف والنقاش بين

أصحاب الآراء المختلفة الذين يؤمنون بتفضيل رأيهم على رأى معارضيهم ويسعون لإثبات صدق موقفهم بحزم وقوة وبشكل مغال وغير متردد كما حدث بين مدرسة هليل ومدرسة شماى[1]، وكما يتصرف منذ ذلك الحين وحتى اليوم كل المختلفين فيما بينهم فى اليهودية.

تتجلى النسبية فى عصرنا فى التخلى عن الإيمان بتفضيل موقف واحد على الآخر، والتخلى عن الإيمان بقيم مطلقة يقوم عليها المجتمع، وتلزم النسبية تسامحا أيضا تجاه العنصرية والتعصب القومى.

إن التعصب القومى والعنصرى هو نوع من أنواع الاستعلاء الذاتى الذى يعتبر قومًا أو جنسًا أو جماعة عرقية أو دينية والتى ينتمى إليها العنصرى، هى الجماعة التى

---

(١) مدرستا هليل وشماى (أواخر القرن الأول قبل الميلاد وبدايات الأول الميلادي): ولقد اتسمت آراء المدرستين بالتناقض. فلم يرد رأى لمدرسة منهما إلا وخالفته المدرسة الأخرى. ومؤسسا هاتين المدرستين «شماى وهليل» هما آخر زوج في فترة الأزواج والتى سميت بهذا الاسم لتعاقب علماء الشريعة اليهودية خلالها اثنين اثنين وكانت فترتها الزمنية أيام الملك هيردوس (أى قبل ميلاد المسيح أو نفس الوقت تقريباً). وتؤرخ الموسوعة العبرية لشماى بالفترة التى تمتد من ٥٠ ق.م. - ٣٠ م ولم يكن شماى فى البداية هو الطرف الثانى لهليل بل كان مناحم هآس هو الذى كوّن مع هليل الزوج الأخير فى تلك الفترة ثم بعد وفاته تولى مع هليل وانتهج شماى أسلوب التشدد والصرامة فى آرائه وفتاواه وسار على دربه كثير من مريديه كوّنوا مدرستهم الدينية الخاصة بهم وأطلقوا عليها اسم معلمهم. ومعظم آراء شماى المتشددة تتركز على أحكام النجاسة والطهارة.
أما هليل فُيلقب بالشيخ تقديراً واحتراماً له. ويذكر أنه من مواليد بابل ويُدعى لذلك بهليل البابلى. وترجع المصادر نسبه إلى بيت داود وكان عاشقاً للعلم والمعرفة ودراسة الشريعة على وجه الخصوص.
ولم تنتصر آراء هليل على الأمور الفقهية والتشريعية وإنما تطرق كذلك للقضاء والاقتصاد والزراعة وغيرها من الشئون الخاصة بحياة اليهود ومعاملاتهم اليومية..
ومثل شماى وأتباعه كوّن كذلك مريدو هليل مدرسة اطلقوا عليها اسم معلمهم. وقد ازدهرت مدرستا شماى وهليل فى عصرهما ثم بدأت فى الضعف والزوال حتى تلاشتا تماماً فى فترة التنائيم ومما سجله التاريخ التشريعى لمدرستيهما أن القواعد الشرعية قبلهما كانت مقررة بإجماع الآراء لا يختلف عليها إثنان ولما وضع التناظر بينهما ابتدأ عصر الجدال فى تطبيق الأحكام الموروثة على الأحوال والأوضاع التى استجدت طبقاً لقانون الارتقاء المدنى الإنسانى، ومن ثم تكررت هذه الطريقة حتى صارت قاعدة للمباحث الشرعية عند الخلف ، فكثرت الأسئلة والأجوبة وتفرعت المباحث فاتسع نظام التلمود إلى أن صار بحجمه الكبير.
للمزيد انظر: مصطفى عبد المعبود سيد : التطهر فى التشريع اليهودى من خلال المشنا. ص ٦.

اختيرت لتكون الأسمى وصاحبة الحقوق التي تفوق حقوق أبناء الجماعات الأخرى فى المجتمع الإنسانى، مثل النازيين "الأريين" أو المتعصبين قوميا. ويتجلى التعصب القومى والعنصرى كعناصر معادية للإنسانية وهدامة للمجتمع وموضوعه، من خلال الإيمان بقيم تتجاهل حقوقًا لأفراد من مجتمعهم؛ لكن ليسوا من بنى جنسهم أو من قوميتهم أو من عرقهم أو يتبعون رأيهم.

تُعد قيمًا عنصرية، مثل معاداة السامية، بالتأكيد قيما سيئة وبصورة ليست نسبية. فلا توجد نظرية نسبية تستطيع أن تبررها حتى وإن استوعبها المؤمنون بها عن طريق آبائهم ومعلميهم وتراث ثقافتهم.

وتهدد العنصرية و التعصب القومى ماهية حياة كل خلية أسرية وطائفية، مثل حركة طالبان فى أفغانستان، الخاميل الحمر فى كمبوديا أو النازية فى ألمانيا. ويبعد كل عنصرى نفسه عن ثقافة المرفوضين- فى نظره- ومجتمعهم، وتتدنى حياته الروحانية والانطباعية، ويهدد خطر السيكوباتية إنسانيته.

لقد حظيت النسبية الثقافية التى بدأ "هردر" تطويرها فى القرن التاسع عشر، باعتقاده بأنه لا توجد "ثقافة وضيعة" أو "سامية" عن الأخرى، بالانتشار فى نهاية القرن العشرين عقب نظريات الحداثة وما بعد الحداثة.

ويتنازلون هؤلاء الذين يرفعون شعارا ويعادلون ثقافة القسوة بثقافة المجتمع المفتوح فى الغرب عن إيمانهم بقيم إنسانية كمعيار لتقيم المرغوب والمرفوض، والشر والخير.

ومن أجل وجود التعليم الإنسانى لابد من الصراع ضد العنصرية وكل الذين يبررونها من النظريين، وعلى ذلك فهو لا يسعى للتوفيق بين آراء ومعتقدات؛ وإنما للحوار بين الذين يتمسكون بها.

وحدة الشعب - تراث تاريخى واحد ومعتقدات كثيرة

يسود فى اليهودية بوصفها ثقافة، دائما وفى كل التيارات، الاعتقاد بتاريخ قومى مشترك. وتطور هذا الاعتقاد بجانب معتقدات مختلفة ومتصادمة داخل الديانة اليهودية

وخارجها. ويسود فى الثقافات التى تطورت تحت تأثير الديانتين المسيحية والاسلام اعتقاد دينى واحد بجانب معتقدات تاريخية قومية مختلفة عن بعضها البعض.

لقد سادت فى كل عصر من عصور اليهودية معتقدات متناقضة مع بعضها البعض فيما يتعلق بالإله وكونه إلها مطلقا وماهيته ووجوده، وباليهودية بوصفها ديانة ملزمه أو بوصفها ثقافة متطورة، وبالانتماء إلى اليهودية وتعريفها وشروط الانضمام إليها، وبفرائض الشريعة وسمو القيم الإنسانية على الشريعة، وبانفتاح اليهودية على تأثيرات الثقافات والديانات الأخرى، وبالتعليم اليهودى وأهدافه وسماته. ولا يقوض تعدد المعتقدات والتيارات الاعتقاد المشترك لليهود فى التيارات اليهودية المختلفة بوجود تاريخ قومى مشترك، وأن العهد القديم هو أساس اليهودية وأنه إبداع يشكل وثيقة تاريخة قديمة.

تتجلى وحدة اليهود فى موضوعات خلافية مشتركة؛ حيث تشارك كل التيارات اليهودية فى تلك الخلافات السائدة بها. وتتحول العلاقات الوطيدة بين المتجادلين والمتعارضين فى الموضوعات الخلافية المشتركة لتصبح أيضًا من عناصر وحدة اليهود.

ومن تلك النماذج: الخلافات فى إسرائيل حول أساليب الحفاظ على يوم السبت، وأشكال الأعياد وسماتها، وحول العهد القديم أم التلمود أيهما أساس التعليم اليهودى، وحول "من هو اليهودى"، وقانون العودة[1] هل هو تصحيح للتفرقة أم هو تعبير عن حق مقدس فى أرض فلسطين، وحول العلاقة بين الدين والدولة، وحول حق الإصلاح فى الشريعة (مثل: حاخامات التوراة الشفهية، والإصلاحيون فى عصرنا) أو حول التحرر من كل فرائضها.

---

(١) قانون العودة: صدر هذا القانون عام ١٩٥٠ م، بعد أن تقدم به بن جوريون، رئيس الوزراء آنذاك - للكنيست وعدل عام ١٩٥٤ وعام ١٩٧٠. ونص القانون على حق كل يهودى فى الهجرة إلى إسرائيل، شريطة ألا يكون قد مارس نشاط معاديا لليهود، وألا يحمل مرضا معديا يهدد الصحة العامة، وألايكون له ماضى إجرامى، وبمقتضى هذا القانون يمنح الأشخاص الذين يدخلون إسرائيل الجنسية وحقوق المواطنة.
انظر: العنصرية الصهيونية فى الفكر والتطبيق. الأمانة العامة لجامعة الدول العربية، الإدارة العامة لشئون فلسطين القاهرة ١٩٧٣ ص٧٤.

تأخذ الخلافات بين المعتقدات لدى اليهود فى إسرائيل شكلا سيآسيا وتلزم بانتماء واندماج كل المشاركين فى الديمقراطية الإسرائيلية، علمانيين ومتدينين على السواء. وتعضد هذه الخلافات، مثل كل الخلافات الأخرى فى اليهودية، فى إسرائيل الاحتكاك والاتصال بين تيارات اليهودية المختلفة والتى تعمق الإدراك بكونهم جزءا من جماعة واحدة.

انفتاح اليهودية على تأثيرات ثقافات الشعوب

لقد تأثرت اليهودية بثقافات الشعوب الأخرى طيلة تاريخها، وظلت فى إبداعات دينها وسماته، وفي ثقافتها- منذ العهد القديم وحتى عصرنا- آثار واضحة لتأثيرات ثقافات بلاد النهرين، وكنعان وفينيقيا، ومصر، واليونان، والإسلام، والمسيحية، وثقافات الهند، وفارس، وثقافات سلافية، وثقافات علمانية فى أوربا، وأمريكا.

شجعت هذه التأثيرات- فى كل عصر من عصور اليهودية- إبداعا يهوديا أصيلا. وعقب "نقد المقرا"[(١)] أميط اللثام عن أصالة إبداعات العهد القديم، من خلال مقارنتها بإبداعات الثقافات القائمة على أساس أساطير شعوب الشرق؛ حيث تأثرت بها كذلك إبداعات توراتية أصيلة. ومثل كل الإبداعات فى ثقافة العالم تأثرت بالطبع إبداعات العهد القديم بالثقافات الأقدم، وبثقافات جيرانها. و تبرز بالمقارنة أصالة شكل إبداعات العهد القديم ومضمونها، ورسالتها الدينية والمثالية، مثل أصالة قصة الخلق التى تُعد بمثابة صيغتين متناقضتين مع بعضهما البعض. والبناء القصصي لأسطورة بلاد النهرين

---

(١) اللفظ الوارد هو المقرا: كلمة مقرا هى إحدى المسميات المنشرة لدى اليهود لكتابهم المقدس ولفظ مقرا يعنى المقروء وذلك اعتمادا على ماورد فى يشوع (١:٨) من الدعوة بعدم مبارحة الشريعة فم الإنسان لايبرح سفر هذه الشريعة من فمك بل تلهج فيه نهارا وليلا لكى تتحفظ للعمل حسب كل ما هو مكتوب فيه وفسروا ذلك بأن عدد الذين يقرؤون هذا الكتاب فى أيام السبت والأعياد فى المعابد يفوق عددمن يقرؤون أى كتاب آخر . وورد ما يؤكد هذا المعنى فى سفر نحميا (٨:٨) وقرأوا فى السفر فى شريعة الله ببيان وفسروا المعنى وأفهموهم القراءة.

للمزيد انظر: د. عمر صابر، د.أحمد هويدى: المدخل إلى عبرية العهد القديم. دار الثقافة العربية. القاهرة، ٢٠٠٠ ص ١١.

المؤمنة بتعدد الآلهة قد نسجه مؤلفو الإبداع ومحرروه، والذى يشكل أساس التوحيد أيضا وكذلك المعتقد الإنسانى الذى يساوى بين أبناء "أدم" وبناته، والذي خُلق أصلا كذكر وأنثى وعلى صورة إلهه.

و يتجلى هذا الانفتاح المتواصل على تأثيرات الثقافات فى عصرنا فى تطور اليهودية والثقافة الإسرائيلية العلمانية التي تأثرت بكل الثقافات التى دخلت معها فى علاقه يومية وابتكرت فى نفس الوقت إبداعات أصيلة خاصة بها. خلق هذا التركيب من الانفتاح على التأثيرات والأصالة فى الإبداع فى الماضي البعيد، جسورًا ثقافية بين اليهودية وثقافات الشعوب الأخرى. وتنسب الذاكرة القومية المختزنة فى العهد القديم إلى الملك سليمان رؤية تعددية لثقافة عاصمة المملكة اليهودية. فهو يبنى ويفتتح فى القدس فروعا لكل ديانات الشعوب المجاورة وثقافاتها، يتزوج منهم، ويحول القدس ليس فقط إلى عاصمة التوحيد الأولى فى العالم، بل أيضا إلى المدينة الأولى لتعدد الأديان (بالطبع لا توجد حقائق تاريخية فعلية حول ما رُوى عن سليمان، لكن توجد دلالة لوصف يخص المملكه والذاكرة القومية؛ حيث تنسب إليه كل هذا وتراه ملكًا مثاليًا للعصر الذهبى فى تاريخ اليهودية).

بفضل انفتاح اليهودية على التأثرات وأصالة إبداعاتها فقد حافظت على تواصلها وتميزها عن ثقافات الشعوب ودياناتها، وفى الوقت نفسه حافظت على العلاقات معهم. ويتمثل تأثير اليهودية فى ديانات كل الشعوب وثقافاتها في تأثير المسيحية والإسلام فى الإمبراطورية الرومانية فى بداية القرن الأول الميلادى.

إسهامات اليهودية فى ثقافة الشعوب

فى الجزء الذى توحد من العالم وأصبح كيانا سياسيا واحدًا فى الإمبراطورية الرومانية اتيح الانتشار لصيغ المعتقدات اليهودية بين "أتقياء يهوه" الذين قبلوا مبادىء معتقد التوحيد الأخلاقى اليهودى، ولكن لم يأخذوا على عاتقهم فرائض الشريعة.

كان لدى جماعات أتقياء يهوه التى كانت متواجدة بجانب جماعات يهودية فى أنحاء الإمبراطورية الرومانية الاستعداد لقبول صيغ مسيحية لليهودية. وتشير صيغة "بولس" إلى أن واجب الإيمان جاء عوضا عن واجب الحفاظ على فرائض تم تبنيها بسهولة من قِبل الذين يميلون للإيمان بتوحيد أخلاقى بدون واجب الحفاظ على فرائض الشريعة.

إن توحيد كهذا، يهدف إلى تحقيق العدل والبر وضمان الخلاص. وكان ذلك أحد إسهامات اليهودية للشعوب التى تبنته عن طريق اليهودية المسيحية. والأسطورة الجديدة، التى تحول فيها يسوع، معلم الحسيدين اليهود من الناصرة إلى ابن للإله وقربان بشرى يكفر عن كل الآثام، ويخلص روح المؤمنين، قد خففت من انتشار الديانة الجديدة التى ابتدعها "بولس" والتى امترجت فى أسطورتها عناصر وثنية كثيرة.

إن الإيمان بالديانة المسيحية الجديدة التى كانت مبنية على كتابات يهودية مقدسة أدى إلى نشرها فى أقاليم مختلفة من الإمبراطورية الرومانية. وعندما تحولت المسيحية إلى ديانة رسمية للإمبراطورية وانتشرت فى ثلاث قارات تحيط بالبحر المتوسط انتشرت أيضا المؤسسات التى نشأت فى اليهودية: المعبد كنقيض للهيكل، والسبت والصلاة كبديل للقربان، ودراسة الكتابات المقدسة وتفاسيرها.

لم تقم المسيحية بالحفاظ على مجموعة أسفار الكتاب المقدس المعترف بها ونشرها فحسب؛ وإنما قامت أيضا على الإبداعات اليهودية الأخرى التي أخرجتها اليهودية الربانية من تراث اليهودية، وظلت خارجها أكثر من ألف وخمسمائة عام، وعادت إليها فقط فى عصرنا مثل: أسفار العهد الجديد، والأسفار الخارجية[1] "بما فيها أسفار المكابيين، وكتب الفلسفة الخاصة بفيلون السكندرى، وكتب عن تأريخ اليهودية، وكتب المحاربين ضد المعادة للسامية الخاصة بيوسف بن متتياهو.

تحول يوم السبت من قاعدة يهودية متميزة إلى قاعدة عالمية عامة عبرت عن رؤية جديدة للزمن: الزمن الإنسانى الذى ينقسم إلى أسابيع من العمل تنتهى بيوم راحة إجبارية تنطوى مبادؤه على مساواة لم يسبق لها مثيل؛ حيث وجب حق الراحة على كل البشر، أزواج وعبيد وإماء، وآباء وأبناء، ورجال ونساء، ويضم إضافة إنسانية تخص راحة للبهائم العاملة.

---

(١) الأسفار الخارجية: هو مصطلح يشير إلى الكتب التى لا يعترف اليهود بها ضمت أسفار العهد القديم "المقدسة" وتسمى أحيانا بالأبوكريفا، وهى كلمة يونانية تعنى "الخفية" أو "غير الموثوق بها" وتسمى أحيانا بالكتابات الخارجة أو الخارجية. وأشهرها أسفار المكابين الأول والثانى.

خُصص يوم السبت لتحرير الإنسان من كل الأشغال على أن يتوجـه للراحـة مـن كل أعماله وأشغاله وتكدست على مدار السنين نواهى العمل والنـشاط بـصورة كبـيرة فى شرائع السبت الدينية، حتى إنه فى عصرنا لم يعـد يلتـزم بهـا معظـم اليهـود، وتحـول يـوم السبت من جديد إلى عيد للراحة والفراغ والتسلية والمتعة.

الإلـه بوصفـه بطـلا أدبيا

ابتكر الناس الإله وصوروه فى إبداعاتهم ومعتقداتهم التى تغـير هيئتـه، وجـوهره، ومضمونه. وفى وعى المؤمنين وإحساسهم بوجود الإله بوصفة كيانا فـاعلا فى الطبيعـة أو فيما وراء الطبيعة لا يُعد بالنسبة للأغلبية خالقًا فحسب؛ وإنما حاكمًا كذلك، يأمر ويراقـب البشر ويعاقبهم بقسوة وبشكل غير متوقع. وعلى ذلك فهو يثـير لـدى المـؤمنين بـه خوفـا ورغبة فى إرضائه بالتضحيات أو بالحفاظ على الفرائض.

فى الحياة الروحية عند من لا يؤمن بالإله ككيان موجود، خالق وحاكم أو مراقب، يكون الإله بطلا أدبيا ابتكره الناس مبـدعو القـصص الأسـطورية أو الإبـداعات الأدبيـة والفنية التى شكلت آلهة فى صور متعددة، ومنحوها أدورا متنوعـة فى الثقافـات المختلفـة. وتعيش الآلهة أبطال الأدب فى إبـداعات إلى جانـب أبطـال الأدب الأخـرين، وأحيانـا فى هيئة إنسان أو حيوان.

يرى الأدب اليهودى فى العهد القديم، وعلى إثره الديانـة اليهوديـة بكـل تياراتهـا، الإله دون ماض، ولا توجد قصة حـول حيـاة الإلـه أقـدم مـن التـى تـتجلى فى القـصص المختلفة حول البشر الذين انتـسبوا للإلـه فى العهـد القـديم. و لا يوجـد للإلـه فى العهـد القديم تاريخ أسرى وسيرة ذاتية شخصية على عكس آلهة الديانات الأخرى.

كما يُعرض الإله أيضا فى اليهودية فى مجموعـة مفـاهيم ومعتقـدات لـدى المتـدينين والعلمانيين. ولاتلزم الديانة اليهودية الإيمان بإله محدد ومعين، ولذلك تمت فيها محـاولات كثيرة رفضتهاغالبية التيارات لتقليد المذهب الكاثوليكى من خلال إيجاد المبدأ المُلـزم "أنـا مؤمن".

وذات مرة رأى موسى وجه الإله وظهر له، فى اللقاء المصيرى، أمام النار التى لا تحرق، رآه موسى مجردًا من كل صورة وشكل، مثل: "أكون الذى أكون" كموجود يكون كما يكون، وكيان لايمكن تحديده بمصطلحات الحاضر، ولكن بمصطلحات المستقبل فحسب، وقوى كامنة لما يحدث فى العالم. (ما هو قريب من مقولة أرسطو "مُحرك غير محرك" والتى قبلها فلاسفة مسلمين ومسيحيين فى العصر الوسيط بصيغ مختلفة، والذين انقسموا "بين حقيقتين" حقيقة الإدراك لأنهم كانوا مقتنعين مثل "أفلر" أنه يجب أن نؤمن فقط بما نفهم بشكل عقلانى).

وفى مقابل تصور موسى للإله نجد تصور أديب سفر التكوين؛ حيث نجد إلهًا على صورة إنسان يسير فى جنته طوال اليوم، ويحل ضيفا على إبراهيم على وجبة، أو يتصارع كإنسان مع يعقوب، أما هارون ومعظم الجماعة التى معه فقد تصوروه فى شكل عجل. ورآه إلياهو على هيئة صوت سكون. أما فى الأسطورة الجديدة التى بدأت فى التطور من أدب التصوف فى عصر التلمود وبخاصة فى العصر الوسيط فالإله هو قيصر جالس على عرش ملكه محاط بوزراء وملائكة مثل الروح القدس.

والإله فى الآداب الفكرية، مثل أعمال موسى بن ميمون، هو إله مجرد ليس فقط من كل محسوس، بل أيضا من كل تصور يستطيع الإنسان إدراكه. أما الإله لدى سبينوزا فهو مطابق للطبيعة. وفى نظر الملحدين الذين تأثروا بفكره لا يوجد إله إلا فى الأدب والفكر الذى يهتم به. كما رأى المفكرون المتدينون مثل موسى بن ميمون أن الإله الموصوف فى قصص العهد القديم على هيئة الإنسان وشكله، والمجازات المروية فيها، لا تعدو كونها نتاجا خياليًا للبشر، بمعنى: أن الإله فى قصص العهد القديم حسب هذه الرؤية ما هو إلا بطلا أدبيا ابتكره الأدباء الذين شكلوه كمثال، ولا يستطيع فهم نسيج وحدته إلا الفلاسفة فقط.

ولأن الإبداعات الأدبية تمنح حياة مستقلة "لأبطال الأدب" التى تشكلهم، فإن الاله يواصل العيش كبطل أدبى أيضا بين الذين لايؤمنون بوجوده خارج إطار تلك الإبداعات.

إن التعامل مع الإله على أنه بطل للأدب اليهودى القديم يميز مدرسة "العهد القديم بوصفه أدبا قصصيا" والتى تتجدد فى عصرنا (أورباخ ، ودينشيس، وكرمود،

وألتر، وبلوم، وميلس، وتلمون، وزيكوفيتش، وهوفمان، وبرى، وغيرهم كثير). وتعتبر مدرسة "العهد القديم بوصفه أدبا قصصيا" أيضا الإله أحد أبطالها الأدبيين.

إن ابتكار الإله على يد البشر وعلى هيئتهم وشكلهم يُعد تعبيرًا للسعى الإنسانى لفهم المتعذر فهمه، كما إنه تعبير عن جنون العظمة الإنسانية وتطلعها فى أن تصور نفسها وتتشبه بقوة قادرة على خلق الطبيعة والمخلوقات، والسيطرة عليها أو تدميرها.

لم يمت الإله فهو يواصل العيش أيضا فى وعى المؤمنين وفكرهم بأنه موجود فقط فى الأدب والفن. وكتبت بالجرافيت فى ستينيات القرن العشرين على جدار فى باريس عبارة "مات الإله موقع عليها نيتشه، وفى أسفلها أضافوا عبارة "مات نيتشه تحت توقيع الإله".

إلحادية إنسانية فى اليهودية

إن الاعتقاد الإلحادى الإنسانى يرى أن الإنسان هو مصدر السلطة والقيم، ويمكن قيام المجتمع عن طريق الإخلاص لها، وتحقيق السعادة، وتحسين حياة الفرد والكيان الاجتماعى. ويرى المعتقد الإلحادى أن الإنسان مبتكر الإله، وعلى ذلك فهو لا يشمل الإيمان بالحفاظ على الفرائض التى ابتكرها البشر كذلك.

إن معتقدات الملحد الإنسانى تلزمه بتعليم يحثه على النقد وليس الانصياع، كما تلزمه بوضع الغير فى الاعتبار وليست الشرائع المقدسة التى تضر به، وتلزمه أيضا بمعرفة الإبداع الثقافى والفكرى والكلاسيكى المتجدد فى كل جيل والذى يكشف القوى الكامنة فى الإنسانية وتحقيقها على مرأى منا.

إن جوهر الإلحادية الإنسانية هو الإيمان بمسئولية الإنسان عن أفعاله واختياره للأسلوب الذى يوافق القيم الأخلاقية، وتشكيل حياته، وخلق واقع روحانى فى إبداعاته الثقافية، واقع يشمل ابتكار الإله بوصفة بطلا أدبيا. ويرى إلحاديون مثل "برتراند راسل" أن الإيمان بالإله ليس فقط إيمانا بمفهوم لا فائدة منه لتفسير الكون، بل إنه أيضا اعتقاد ضار يفضل المصلحة الإلهية على المصلحة الإنسانية. وتوجد بجانب المعتقدات الإلحادية

الإنسانية معتقدات إلحادية معادية للإنسانية، على غرار وجود معتقدات دينيـة إنـسانية أو دينيه معادية للإنسانية.

يواصل كثير من اليهود المؤمنين بالإلحادية أو باللأدرية إقامـة بعـض مـن فـرائض الشريعة، بدون تبرير منطقى أو أخلاقى، بل من منطلق احترام التقاليد والإيمان بقـدرتها على توحيد اليهود. فيقوم معظم الملحدين اليهود بختان أولادهم الـذكور، ويقـيم بعـض منهم الطقوس التقليدية للبلوغ إلى سن التكليف بالوصايا[1] فى المعبـد (حتـى وإن كانـت هذه الزيارة هى الأولى والأخيرة لهم فى المعبد)، ويعقدون قرانهم لدى حاخـام ويوقعـون على تعهد بتعويضات طلاق سـخيفة فى "عقـد النكـاح" المكتـوب بالآراميـة ولايفهمـون المكتوب فيه. ولاتتناقض كل هذه الأفعال مع المعتقـدات الإلحاديـة الإنـسانية طالمـا أنهـا تحقق لهم إرضاء ولا تضر بالغير.

يرى المؤمنون بالإله وبأنه يأمر ويجب الانصياع له، أن الملحدين "كفـار". وحـسب رأى الكثير منهم فهم يستحقون الموت (مثل رأى أفلاطون وموسى بـن ميمـون). ويـدل هذا العداء للإلحاد على انتشاره فى العـصر القـديم سـواء فى مجتمـع اليهـود أو فى ثقافـات الشعوب فى الزمن الغابر. وتدل وثائق أخرى على وجود معتقدات إلحاديه فى بداية الألف الثانى قبل الميلاد.

يوجب الاعتقاد الإلحادى الإنسانى انصياعا للقوانين الديمقراطية وملائمتهـا مـع القيم الأخلاقية. ويـسعى الملحـدون الإنـسانيون والمتـدينون لإبطـال صـلاحية فـرائض الشريعة التى تتعارض مع أسس إنسانية مثـل: القـوانين التـى تمثـل ظلـما لحقـوق النـساء

---

(١) سن التكليف بالوصايا (بر متسفا):عبارة آرامية تعنى الابن المسئول عن تنفيذ الأوامر والنواهى وهى تطلـق على اليهودى عند بلوغه سن النصح : الثالثة عشر ويوم بالنسبة للذكور، والثانية عشرة ويوم بالنسبة للإناث ـ بت متسفا) ويقام فى هذه المناسبة احتفال دينى فى المعبد وأول شئ يفعله اليهودى البـالغ هـو قـراءة التـوراة وتنفيذ الوصايا، وتنص الشريعة اليهودية على أن سن الثالثة عشر هى الـسنة المثلى لقيـام الـشخص الـصغير بتحمل مسئولياته الدينية والقانونية كاملة استنادا إلى أن إبراهيم عليـه الـسلام كـان فى الثالثـة عـشر عنـدما تصرف كشخص ناضج وأنكر على أبيه عبادة الأصنام

أنظر: غازى السعدى: الأعياد والمناسبات والطقوس لدى اليهود . ص ٣٦.

اللاتى يمثلن نصف الإنسانية والشعب،أو فرائض وشرائع تضر بحقوق أبناء الأقليات وكرامتهم، والمثلين أو "الذين ليسوا أهلا للزواج " طبقا للشريعة.

تعصب دينى وأيديولوجى

التعصب هو اعتقاد دينى أو علمانى يلغى الإيمان بكل القيم الأخلاقية، وقيمة ميزة الحياة على الموت (كتعصب الانتحاريين "من أجل الحرية" كما فى قلعة مسادا) أو حق الناس فى التمسك بآرائهم ونشرها حتى وإن كانت لا تتفق مع آراء المتعصب. نماذج لذلك: معتقد مؤيدى الطغاة المتدينين فى إيران وفى أفغانستان أو الطغاة العلمانيين فى ألمانيا النازية أو فى روسيا البلشفية، والذى بسببهم اعتقل ونفى وقتل أناس لأنهم كانوا "كفارا" فى نظر المتعصبين.

"اقتلوا كل واحد أخاه وكل واحد صاحبه وكل واحد قريبه. ووقع من الشعب فى ذلك اليوم نحو ثلاثة آلاف رجل. وقال موسى املأوا أيديكم اليوم للرب حتى كل واحد بابنه وبأخيه فيعطيكم اليوم بركة". تلك الأقوال قد وضعها أديب العهد القديم على لسان موسى (الخروج ٣٢ : ٢٧ - ٢٩) عندما قاد الحرب الأهلية ضد الذين آمنوا مثل هارون أنه يمكن تجسيد يهوه الرب فى شكل تمثال لعجل. وقُتل ثلاثة آلاف من المؤمنين بتفسير هارون لتوراة إسرائيل على يد جنود موسى؛ ذلك الرجل الذى فى قصص أخرى فى أنتولوجيا العهد القديم ينسب له التوحيد الأخلاقى والفرائض التى تعبر عن مبادئ أخلاقية إنسانية عامة بما فيها وصية "لا تقتل".

من هنا يمكن تفسير التعصب الذى يؤدى إلى القتل، فمن المحتمل أن يُوجد فى نفس البشر إلى جانب المثل العليا لدى المتدينين والعلمانيين سويا.

يعادى المتعصب إنسانيته لاعتقاده بمعاداة إنسانية الغير التى تحل فى وعيه، مثل اللاإنسانية التى حلت فى نفس الطبيب القاتل فى الحرم الإبراهيمى فى الخليل والذى قتل المصلين أثناء صلاتهم، وكأنهم ليسوا بشرا. وتحل اللاإنسانية فى المتعصب عندما يرى الغير، الذى لا يوافق أو لايتصرف أو لا يعيش وفق معتقده، لا إنسانيا فى نظره.

لم تقلل مسارات العلمنة من مخاطر التعصب فمنذ الثورة الفرنسية وحتى الثورة

النازية والبلشفية ظهرت قسوة التعصب الأيديولوجى العلمانى وهذه القسوة ليست أقل من التعصب الدينى. ويعد الجمع بين التعصب السياسى والتعصب الدينى أخطر أشكال التعصب فى التاريخ، كما أظهر المتعصبون فى القدس عندما تسببوا فى دمارها فى بدايه الألف الأول، وكما أظهر المتعصبون فى إسرائيل عندما أرادوا قتلا جماعيا للعرب فى الحرم القدسى، وقتلوا رئيس حكومة إسرائيل اليهودى كدلالة على نواياهم المستقبلية.

إن تحويل الإيمان بزعيم أو بفكرة دينية أو علمانية إلى قيمة عليا ينزع من المؤمنين قدرة التمييز بين الخير والشر، وكأنما أعادهم التعصب إلى جنة عدن السيكوباتيين عديمى الضمير والحياء أو مشاعر ذنب وكأنهم لم يطعموا بعد من شجرة معرفة الخير والشر.

تعد لاإنسانية المتعصب وضحاياه هى القاسم المشترك لكل أنواع التعصب الدينى والأيديولوجى والقومى والعنصرى والطبقى والثقافى. ويشبه قتلة أطباء النساء الذين وافقوا على إجراء إجهاض شرعى قتلة الذين يؤمنون بأن يهوه مجسد فى تمثال عجل، ويشبه القتلة والمحرضين على قتل رئيس حكومة إسرائيل الذى قدم مسيرة السلام وفضلها على سلامته قتلة اليهود المعادين للسامية فى أوربا .

غالبا ما يتجلى التعصب أيضا فى الإخلاص الأعمى للزعيم الذى يتظاهر بالحديث باسم الإله أو فكره، وأحيانا يدعمه فكر "علمى" (عنصرى أو طبقى) منفصل عن قيم أخلاقية إنسانية عامة، وينكر صلاحية مبدأ "كانط" الذى يقول 'إن مبادئ الأخلاق العالمية هى فقط التى يمكن اعتبارها أخلاقية.

تيارات يهودية

يعد التيار فى اليهودية حركة اجتماعية دينية أو ثقافية لدى اليهود تختلف عن الحركات الأخرى فى كل أو بعض السمات. ومن السمات التى تختلف فيها السمات التالية: المعتقدات التى تنتشر بين هذه الحركة، والمؤسسات التعليمية والمناهج الدراسية التى يتم اختيارها حسب تلك المعتقدات، وأطر اجتماعية وطائفية خاصة، ووسائل إعلام توضح الواقع فى ضوء المعتقدات الشائعة فى هذا التيار، وزعمات وأحزاب سياسية تمثله، وأنماط حياة تميز الناس الذين يعيشون فى هذا التيار وتتجلى فى الملبس والمأكل والحياة الجنسية

والأسرية، كما تتجلى فى الإبداعات الأدبية والفنية والفكرية التى تنشأ وتنتشر داخل هذا التيار بين اليهود. وتتجلى أيضا فى الإبداعات التى تعتبر فى نظر معظم أفراده من مصادر اليهودية.

تشكل التيارات بين اليهود "التوجهات اليهودية" المختلفة التى تعيش جانبا إلى جنب فى اليهودية وفى ثقافة اليهود، مثل: تيار الأغلبية هو "اليهودية المتحررة من الديانة التشريعية" والمسمى بـ "اليهودية العلمانية"، وتيارات الأقلية المتدينة: "اليهودية الحريدية" و"اليهودية الدينية الصهيونية " و"اليهودية الأرثوذكسية الأميركية الجديدة" و"اليهودية الإصلاحية" و"اليهودية المحافظة" و"اليهودية القرائية" و"اليهودية السامرية"[(١)] وغيرها.

بدأت تتبلور فى القرن الثامن عشر الأرثوذكسية فى تيارات اليهودية الحريدية. وكان هذا الاتجاه يسعى لفرض الشريعة بجمودها وتفاسير حاخاماتها ولكتاب "شولحان عاروخ" (المائدة المرتبة)، بالتوافق مع معتقدات التيارات الحسيدية والمعارضة لها والتى ظهرت فى اليهودية الحريدية. ولقد أحيت اليهودية الحريدية الأرثوذكسية المبدأ الصدوقى

---

(١) فرقة السامريين :إحدى الفرق اليهودية وترجع أهمية هذه الفرقة إلى أنها صاحبة أول خلاف عقائدي بين أتباع الديانة اليهودية. وكان هذا الخلاف حول قدسية العهد القديم إذ أن أتباع هذه الفرقة لا يؤمنون بالعهد القديم كاملاً وإنما يعتبرون كتابهم المقدس يتكون من أسفار موسى عليه السلام الخمسة (التوراة) ويضيفون إليها سفر يشوع تلميذ موسى عليه السلام وخليفته وهم بذلك ينكرون قدسية الأنبياء والمكتوبات ويعتبرونها من صنع البشر ونتاج ضلالهم. وعلى ذلك فهم يرفضون المشنا وشروحها شكلاً وموضوعاً، ويقولون بأنها من الأعمال التي تبعث على الضلال والكفر وأصل هذه الفرقة وتاريخها يُعد مبهماً ومعقداً حيث ينكر معظم اليهود نسبهم إلى بني إسرائيل ويقولون إنهم لا يمتون بصلة إلى موسى عليه السلام أو ديانته فهم في نظرهم مجموعة من أخلاط الناس «الجوييم - الأغيار» حيث نقلهم الملك الأشوري من بلاد مختلفة حسب ما ورد في الملوك الثاني ٢٤:١٧ ، وأتى ملك أشور بقوم من بابل وكوث وعوا وحماة وسفروايم واسكنهم في مدن السامرة.. » بينما هناك نظرية أخرى تقول أنهم يرجعون إلى بقايا أسباط إسرائيل الشماليين الذين مكثوا في السامرة بعد السبى الأشورى - ٧٢١ ق.م. - ونجوا بذلك من المنفى وكانوا يمثلون آنذاك عدداً لا بأس به من الإسرائيلين.
انظر : أبو الحسن اسحاق الصورى : التوراة السامرية ، نشرها وعرف بها د. أحمد حجازي السقا، دار الأنصار، الطبعة الأولى ، ١٩٧٨، ص ١٧.
وانظر : د. سلفيا باولز . السامريون وإرثهم . مجلة الدراسات الشرقية. -العدد الثامن (١٩٨٨) . ص١-٢.

القرائى[1] "الجديد محظور من التوراة". ولقد تطورت اليهودية الحريدية ردا على حركات التجديد والتنوير والإصلاح التى ظهرت فى اليهودية الدينية، وفى اليهودية المتحررة من الديانة التشريعية، فى ثقافات الطوائف اليهودية فى أوربا وأمريكا وأفريقيا وآسيا.

ظهرت أيضا فى اليهودية العلمانية تيارات مختلفة، مثل : تيار اليهودية اليديشية المضاد للصهيونية فى شرق أوربا قبل الحدث النازى، وذلك فى مقابل تيار اليهودية الصهيونية الإسرائيلية الذى يحيا فى الثقافة العبرية فى فلسطين قبل إقامة إسرائيل.

يعد تنوع التيارات لدى اليهود تعبيرا عن التعددية التى سادت فى ثقافتة فى كل عصر. وتشكل جميعها منظومة متكاملة للتيارات اليهودية.

شعب اختيار

إن اليهود هم "شعب اختيار" بمعنى أنهم جماعة يختار أفرادها أسلوب انتمائهم لليهودية وليهوديتهم، ويختارون التيار الذى ينتمون إليه ومجموعة الإبداعات التى تمثل حسب وجهة نظرهم ثقافة اليهود. واختار غالبية اليهود، التى تركزت فى أوربا وأمريكا الانتقال من تيار اليهودية الحريدية إلى تيار اليهودية المتحررة من ديانة الشريعة، وعلى

---

(١) فرقة القرائين :وهى الفرقة التى اكتسبت تسميتها من إيمان أتباعها الشديد بنص العهد القديم والمعروف كذلك بالمقرا. فكلمة قرائى نسبة إلى مقرا ، وقد ازدهرت هذه الفرقة تحت رعاية الحكم الإسلامي في العراق في القرن الثامن للميلاد. وتأثرت بالنشاط الدينى الذى كان شائعاً في ذلك القرن بين المتكلمين المسلمين. وقد تزعم هذه الفرقة «عنان بن داود» (٧١٥-٨١١م). وكان محور الخلاف بينهم وبين الطوائف اليهودية الأخرى وبخاصة طائفة الفريسيين يدور حول رأيهم في المشنا وما يتعلق بها من شروح وتفسيرات أدت إلى تكوين التلمود.

فأتباع هذه الفرقة لم يرفضوا فقط الإعتراف بالتلمود والإبتعاد عنه وعن أحكامه - شأن الفرق الأخرى التى أنكرته - وإنما أخذوا يحاربون التلمود وينقدون آراءه وأحكامه مما آثار عليهم سخط الفريسيين وحقدهم وزادت الصراعات والعداءات بين الطائفتين لدرجة أن أعلن رؤساء كل طائفة تكفير الطائفة الأخرى ونجاستها وحرمانها من رحمة الله ، كما منعوا الصلاة كل منهم في معابد الآخر ، وحرّموا كل مشاركة دينية أو شعبية من قبل أية طائفة من الطائفتين مع الأخرى ، ومن الأكل على مائدة السبت أو الأعياد إلى الزواج الذي حُرّم نصاً بين الطائفتين.

انظر: مصطفى عبد المعبود سيد: التطهر فى التشريع اليهودى من خلال المشنا. ص ٣٤ .

الفور واجهت خيارات جديدة بين تيارات تلك اليهودية. كما اختار غالبية اليهـود الـذين تركزوا فى إسرائيل أيضا اليهودية المتحررة من ديانة الشريعة والثقافة العبرية الجديدة التـى أفرزتها. واختارت أقليات صـغيرة مـن اليهـود ولازالـت تختـار العـيش حـسب الثقافـة اليهودية الحريدية الشرق أوربية حيـث الحـديث باليديـشية[1]، وارتـداء ملابـس العـصر الوسيط الخاصة بالنبلاء البولندين، التى صارت فى نظرهم ملابس يهودية مقدسة، وتعلم الدراسات التلمودية فقط وتجاهل ثقافة القرن العشرين بقدر الإمكان.

الاعتقاد الدينى بأن اليهود هم جماعة اختيار بمعنـى "شـعب مختـار" مـن قبـل إلـه الكون، ولذلك فاليهود أسمى من كل الشعوب الأخرى، هو اعتقاد يشكل خطـورة عـلى عقلية المؤمنين به وإنسانيتهـم. إنه مثل كل اعتقاد يتسبب فى الحط من إنسانية الغير والـذى يشكل الإنسانية كلها. ويرتبط التعصب الدينى والسياسى بفكرة "شعب مختار" مـن قبـل إله الكون كله والذى اختير ليكون سبب الخلاص للعالم .

إن كثرة تيارات اليهودية يجعل كل يهودى يواجه خيـار العـيش فى واحـد منهـا، أو تركه والانضمام إلى آخر، أو أن يخلق لنفسه أسلوبا خاصا يحقق من خلاله انتمائه لليهودية. وبما أن معظم اليهود فى العالم وإسرائيل اختاروا الانـتماء إلى اليهوديـة المتحـررة مـن ديانـة الشريعة فقد تحرر معظمهم من المفهوم الخاطئ والخطير "شـعب مختـار" وبـدأوا يؤمنـون بحرية اختيارهـم لحياتهم كيهود وللتيار اليهودى الذى يعلمون أبناءهم فيه.

اختار معظم الآباء اليهود فى إسرائيل (الثلثين) إرسال أبنائهم لمـدارس غـير دينيـة فاختاروا بذلك التيار الذى يريدونه لأبنائهم.

واختار معظم الآباء اليهود فى الخـارج (المتـدينون المرتبطـون بالمعبـد والعلمانيـون الذين لا يرتبطون بالمعبد) تعليم أبنائهم فى مـدارس غـير يهوديـة لا يدرسـون فيهـا ثقافـة اليهود، وأدبهم الكلاسـيكى المتمثـل فى العهـد القـديم. واختـار بعـض الآبـاء اليهـود فى

---

(١) اليديش : لهجة ألمانية جنوبية استخدمها يهود شرق أوروبا وقد ظهرت بـين عـامى ١٠٠٠ ـ ١٢٥٠ م وهـى خليط من المفردات الألمانية والسلافية والعبرية وما زالت لغة الدراسة فى المدارس التلمودية باسرائيل وتصدر صحف بها فى إسرائيل، كما أن هناك أدب مكتوب بها.

الخارج (حوالى الثلث) بالفعل إرسال أبنائهم (حتى سن الثالثه عشر) عدة ساعات فى الأسبوع لتعليم يهودى فى المعبد، لكن فى معظم الحالات لا تشمل هذه الدراسات الاطلاع على ثقافة اليهود المعاصرة والمتطورة واكتفت بدراسة عدة نصوص توراتية أو نصوص مرتبطة بالصلاة وبعض كلمات باللغة العبرية. وأدى هذا الاختيار إلى أن غالبية اليهود الذين نشأوا فى الخارج عرفوا ثقافة شعب الدولة التى ينشأون فيها (مثل الثقافة الإنجليزية، الفرنسية، الأمريكية) دون أن يعرفوا ثقافة اليهود - الدينية أو العلمانية.

يحقق اليهود الذين يرغبون فى الاندماج والتنكر ليهوديتهم هم أيضا اختيارا. فبما أنهم يعلمون أنهم يهود ومدركون بأن المحيطين بهم يرون أنهم يهود فهم مضطرون لاختيار الشكل الذى يعيشون به حياة يهودية أو يتجاهلون يهوديتهم وينكرونها أو يخفونها عن المحيطين بهم وعن أولادهم، كما فعل آباء كثيرون فى أوربا بعد الحدث النازى.

يوجد من بين اليهود المندمجين وحتى من بين الذين يستبدلون ديانتهم بديانة مسيحية من يختار التمسك بعادات وتقاليد معينة تربطهم بماضيهم اليهودى، كما فعل كثير من اليهود، أفراد غيروا دينهم اليهودى إلى المسيحية فى إسبانيا، والذى يطلق عليهم أيضا "المرغمون على تغيير دينهم"، وكانت لديهم فى معظم الحالات إمكانية الخيار بين الهجرة والارتداد عن دينهم. وعندما اختاروا قبول المسيحية أتيحت لهم مناصب فى مختلف المهن والتى جعلت كثيرا منهم يصلون إلى قيادة الحكم ومحاكم التفتيش الكاثوليكية حتى ثار ضدهم حقد وتعصب "المسيحيين الحقيقيين" والذين اشمئزوا من "المسيحيين الجدد" (اليهود) فأسسوا بذلك العنصرية فى أوربا. وارتد يهود كثيرون فى غرب أوربا فى القرن التاسع عشر مثل "هيانا" و"ماهلر" عن ديانتهم إلى المسيحية لأن تغيير الديانة كان شرطا للحصول على الدكتوراه، أو للحصول على وظيفة عالية فى المؤسسة الثقافية فى غرب أوربا حتى بعد حركه التحرر الذاتى.

يعى اليهود فى إسرائيل يهوديتهم بأنها هويتهم القومية، واللغوية، والثقافية، والاجتماعية والسياسية. فهم لايواجهون الاختيار بين الانتماء لليهودية وبين الاندماج. فالأفراد الذين يستطيعون الاندماج فى داخلهم هم يهود آخرون.

يجب على اليهود فى إسرائيل أيضا الاختيار: اختبار أحد تيارات اليهوية الإسرائيلية فيحققون به يهوديتهم عن طريق اختيار مدرسة لأولادهم ، واختيار نمط حياة دينى أو متحرر، واختيار إجابة على السؤال "من هو اليهودى؟" والتى تحدد النظرة إلى قانون العودة والمشاركة فى تشكيل الطابع اليهودي للدولة.

التيار العلمانى فى اليهودية

يبرز التيار العلمانى فى اليهودية فى معظم أشكال تيارات اليهودية . وزادت فى القرن التاسع عشرمراكز اليهودية العلمانية وبخاصه فى المدن الكبرى فى أوربا والتى تدفق إليها يهود من البلدات التى تجمع فيها غالبية اليهود حتى ذلك الحين. وفى القرن العشرين ازداد التيار العلمانى تطورا ونموا بين تجمعات اليهود فى أوربا والأمريكتين، والتى عاش فيها غالبية اليهود. وظهرت فروعه بين كل الطوائف فى آسيا وشمال أفريقيا عقب انتشار حركه التنوير وشبكة تعليم جمعية "إليانس يزرائيليت".

أسست حركات الهجرة من أوربا إلى أمريكا وجنوب أفريقيا وفلسطين مراكز جديدة لليهودية العلمانية فى النصف الأول من القرن العشرين. وتطور فى فلسطين المركز المزدهر لليهودية العلمانية مع إحياء الثقافة العبرية فى النصف الأول من القرن العشرين، وتحول منذ قيام إسرائيل إلى المركز الروحى والثقافى الذى تنتمى إليه كل تجمعات اليهودية فى العالم.

لقد نشأت فى التيار العلمانى معظم الإبداعات اليهودية المعاصرة وظهرت به الحركات الاجتماعية والسياسية الجديدة والتى أعادت تشكيل حياة اليهود فى الخارج وفى فلسطين. وحدث فى اليهودية العلمانية المتحررة من ديانة الشريعة تطور غير مسبوق فى تاريخ اليهود لأنظمة التعليم اليهودى اللادينى فى الخارج وفى إسرائيل،ابتداء من رياض الأطفال وحتى مؤسسات التعليم العالى. و امتزحت فى تلك الأنظمة الدراسات العلمية، والعلوم الإنسانية ودراسة الإبداعات الثقافية العامة واليهودية. وكانت اللغات الأساسية للدراسة فى اليهودية العلمانية العبرية واليديشية والفرنسية والإنجليزية.

ظهرت فى اليهودية العلمانية تيارات وأيديولوجيات تتعارض مع بعضها البعض

وضمت مئات آلاف من الأفراد . ومن هؤلاء: البوندى[1] والشيوعى والمؤيد لجعل اليديشية لغة قومية والمعادى للصهيونية، والحركة الصهيونية والحركة العلمانية الإسرائيلية التى رسخت مجددا العبرية كلغة حديث وإبداع لليهود.

ونشأت منظمات عالمية لليهود لم تقم على أساس دينى مثل المنظمة الصهيونية، والمؤتمر اليهودى العالمى، وأحزاب يهودية علمانية عالمية.

لقد كان أكبر وأهم مشروع للتيار العلمانى هو إقامة كيان يهودى فى فلسطين وإحياء الثقافة العبرية. وشكل هذا التيار قبل الحرب العالمية الثانية حوالى ٥٪ فقط من اليهود لكنه تحول سريعا إلى عنصر مؤثر للغاية فى يهود العالم وفى ثقافتهم وفى الحركات السياسية والتعليمية التى نشطت بها.

كان معظم اليهود فى فلسطين عشية قيام إسرائيل ينتمون إلى اليهودية العلمانية. و تطور فى ظل قيادتها الحكم الذاتى لليهود فى ظل السلطة البريطانية قبل إنشاء إسرائيل. فنشأ نظام تعليم بالعبرية، وجامعات وكليات ومدارس، و رياض الأطفال، ومؤسسات ومنظمات ثقافية مستقلة، ومجمع للغة العبرية، ومسارح أكاديمية للفنون، ومتاحف، ودور نشر، ونقابات لدفع الثقافة الإسرائيلية العلمانية للأمام (مثل نقابة المعلمين ونقابة المصورين، ونقابة الأدباء). كما نشأت صحف يومية، ومجلات بالعبرية، ومحطة راديو بالعبرية وستوديو لانتاج أفلام سينما إسرائيلية. وقامت جماعات ثقافية علمانية لأول مرة فى التاريخ بحركة كيبوتسية، وابتكروا أنماطا للعيد واستقبال يوم السبت وطقوس الاحتفال ببلوغ سن التكاليف والزواج ومراسم الحداد، وتتميز بأنها أنماط متحررة من ديانة الشريعة.

وعملت مؤسسات ديمقراطية منتخبة فى الحكم المحلى والقطرى بفلسطين قبل قيام إسرائيل من خلال نظام جمع تبرعات وضرائب مستقل. و تكون كذلك جيش لحركة سرية مؤلف من عشرة آلاف جندى وجندية تخضع لسيادته المؤسسات المنتخبة. وقوة من

---

(١) البوند : أى الرابطة وهى اسم حزب يهودى اشتراكى ديمقراطى كان يعمل فى روسيا وبولندا وغيرها ناهضت الحركة الصهيونية ودعت إلى منح اليهود حكما ذاتيا فى الشؤون الثقافية.

الشرطة تحت إمرة قيادة بريطانية فى معظم التجمعات اليهودية تتشكل من جنود وضباط يهود، بعضهم من قبل المؤسسات المنتخبة للحكم الذاتى اليهودى العلمانى. ولقد أيدت الأحزاب الدينية الصهيونية التى شكلت أقلية من السكان اليهود أيضا مؤسسات الحكم الذاتى اليهودى العلمانى، مع أن الحريديين قاطعوا معظمها.

ولقد دُمرت فى أحداث النازية[1] غالبية مراكز التيارات اليهودية فى أوربا بما فيها مراكز التيار العلمانى الذى انتمى إليه معظم اليهود فى أوربا. و تفككت فى السنوات التى أعقبت ذلك أيضا فى الولايات المتحدة حركات التيار العلمانى فى اليهودية ومؤسساتها التعليمية فتوقف معظمها عن النشاط، كما توقفت صحفها اليومية عن الظهور.

خلق التيار المتحرر من ديانة الشريعة فى فلسطين كيانا يهوديا مستقلا وثابتا حيث شكل قاعدة لدولة يهودية علمانية وديمقراطية لأول مرة فى التاريخ. ويعيش اليوم بها أكثر من ثلث يهود العالم ومعظمهم شباب يهودى أقل من سن الثامنة عشر. وسيتجمع فى بداية الألف الثانى من الميلاد معظم يهود العالم فى إسرائيل، بينما ظل أعضاء كل التيارات الدينية يشكلون حوالى خمس السكان اليهود فقط.

ضعف فى بنية التيار العلمانى فى اليهودية

على عكس تيارات أخرى فى اليهودية ليست للتيار العلمانى زعامة تمثل مصالحه كتيار فى الثقافة والتعليم اليهوديين. فليست له نظريات تعليم خاصة وصيغ شائعة لدى

---

(١) أحداث النازية: يطلق اليهود عليها بالعبرية "هشوئا" والترجمة الحرفية لها النكبة النازية والمقصود بها الوقائع التى حدثت لليهود إبان الحكم النازى فى ألمانيا والدول التى وقعت تحت السيطرة النازية خلال الحرب العالمية الثانية، حيث يدعى اليهود أنهم قد تعرضوا للاضطهاد والتعذيب والمطاردات، وتم نقل أعداد كبيرة منهم إلى معسكرات الاعتقال حيث تمت إبادة أعداد كبيرة. وحسب الزعم الصهيونى يصل عدد القتلى اليهود فى هذه الأحداث إلى ستة ملايين، وعمل اليهود على ترويج هذا الادعاء لاستغلال الدول النازية وكسب عطف الدول الكبرى الأخرى. وقد ظهرت الكثير من الحقائق التاريخية والأبحاث العلمية التى تثبت كذب وزيف ادعاءات اليهود بشأن أحداث النازية .

للمزيد انظر: روجيه جارودى:الأساطير المؤسسة السياسية الإسرائيلية. ترجمه محمد هشام . دار الشروق القاهرة ١٩٩٨.

معظم المعلمين الذين يدرسون به. ويصيغ قليل منهم لأنفسهم معتقدات يعيشون بها ويتعلمون طبقا لها. وتهتم فى التيار العلمانى جماعات ثقافية قليلة ومنظمة بالمتطلبات الروحانية التعليمية الاجتماعية والخاصة بأعضائها.

لا تشكل الجماعات العلمانية المنظمة القليلة (فى كيبوتسات، وفى جماعات المعابد العلمانية فى الولايات المتحدة، وفى بعض الجماعات المستقلة التى تعمل فى العالم) نماذج للتقليد. فمعظم اليهود الذين يعيشون فى أنماط حياة التيار اليهودى العلمانى ليسوا منظمين فى أية أطر اجتماعية وثقافية. وتعد مراكزهم الجماعية التى تسمى مراكز للثقافة والشباب والرياضة بمثابة مراكز خدمة الهوايات والثقافة البدنية ، وليست مراكز نشاط روحانى تعليمى للجماعات العلمانية.

لايوجد فى التيار العلمانى مؤسسات لتثقيف وتأهيل "معلمى لليهود" (التى حاول بوبر تطويرها) تستطيع أن تلعب دورا حيويا من أجل تكوين جماعات ثقافية فى اليهود وتفعيلها. ونتيجة لذلك ينقص التيار العلمانى زعامة محترفة تعمل على تفعيل جماعات ثقافية وتعليمية، مثل الحاخامات الكثيرين الذين ينشطون فى التيارات الدينية، وحفنة المرشدين والحاخامات العلمانيين الفاعلين فى التيار العلمانى.

أدى الضعف التنظيمى والسياسى لتيار اليهودية العلمانية إلى أن تيار التعليم ونظام المدارس غير الدينية فى إسرائيل والذى يشكل غالبية مطلقة فى اليهودية الإسرائيلية، قد أصبح الوحيد الذى يفتقد إلى شبكة تعليمية مستقلة تحت قيادته. وفى حين أن لكل تيار من التيارات الدينية فى إسرائيل استقلالا ذاتيا تعليميا، يدعمه دافع الضرائب، ويديره المعينون من قبل التيار الدينى والسياسى الذى ينتمون إليه (شاس، أجودات إسرائيل، ديجل تواره، همفدال) فليس للتيار غير الدينى زعامة تحت إشرافه. و يسيطر على مدار جيل وزراء تعينهم حكومة إسرائيل، غير أنهم يتم اختيارهم من خلال ممثلى التيار الدينى أو بتأثيره.

حرب ثقافية

تعنى الحرب الثقافية فى اليهودية صراعا بين تيارات فى جماعة اليهود لها معتقدات مختلفة أو متعارضة. فبصفة عامة يتطلع زعماء هذه التيارات إكساب مبادئهم وأنماط الحياة

اليهودية الخاصة بهم لأفراد التيارات الأخرى. وهناك عوامل أيديولوجية واقتصادية وسياسية تحرك هذه التصادمات بين التيارات المتعارضة مع بعضها البعض فى الثقافة والمجتمع ودولة اليهود، وتشكل تلك التصادمات حربا ثقافية. ويتجلى الاختلاف بين تيارات اليهودية فى الاختلاف بين أنماط حياة المنتمين إلى التيارات المتصارعة فيما بينها؛ فهو اختلاف فى أساليب العبادة وطقوس الأعياد وفى المواقف الأيديولوجية تجاه تاريخ اليهود وفى النظرة إلى الإله ودوره فى الحياه الإنسانية وهو اختلاف فى الاعتراف بواقعية أو عدم واقعية الآخرة والبعث ، وفى وظائف الدولة اليهودية وفى انفتاحها على تأثيرات الشعوب. إنه اختلاف أيضا فى النظرة إلى المستقبل ودور المسيح المخلص وفى النظرة إلى الشريعة وتبرير إقرارها أو التسليم بالتحولات التى يجب إحداثها بها. علاوة على هذا إنه اختلاف أيضا فى النظرة إلى فرائض الشريعة، وإلى أى مدى هى أسمى من قوانين الدولة الديمقراطية، كما أنه اختلاف أحيانا فى الملبس وفى لغة الحديث (مثل الاختلاف بين تيارات الحريدية وباقى التيارات فى اليهودية).

ارتبطت الحروب الثقافية بتاريخ اليهود منذ نشأته. ذلك لأن اليهودية بطبيعتها ثقافة ينتشر بها الإيمان بتاريخ قومى مشترك بجانب مجموعة معتقدات مختلفة أو متصادمة، ولاتهدد الحروب الثقافية وحدة اليهود. فهى تهدد وحدته فقط فى حالات نادرة، عندما تتحول إلى عنف وتتدهور إلى حروب أهلية.

استمرت فى معظم سنوات تاريخ اليهود حروب ثقافية بدون عنف. وعاشت الطوائف اليهودية التى انضمت إلى التيارات المختلفة منفصلة عن بعضها البعض وأحيانا فى نفس التجمع السكانى. و لقد أتاح الانتقال من سلطة مركزية للمؤسسة الدينية الكهنوتية والسنهدرين إلى لامركزية مفرطة فى الشتات اليهودى وإلى إستقلال الطوائف، وحاخاماتها وزعمائها، فى الماضى ولا يزال يتيح أيضا فى عصرنا تعايشا سلميا للتيارات المختلفة والتى تخوض حربا ثقافية فيما بينها.

إن ذووى المعتقدات المتناقضة مثل طوائف الحريديين، والعلمانيين الإصلاحيين والمحافظين فى الولايات المتحدة، يعيشون منفصلين بشكل مغال فيه جنبا إلى جنب ولا يحتكون أو يصطدمون مع بعضهم البعض عندما لا توجد لهم مصالح توجب اللقاء فيما بينهم.

تكثر فى دولة إسرائيل المصالح المشتركة والمتعارضة لأبناء التيارات المختلفة ويزداد الاحتكاك فيما بينهم. وتؤثر تناقضات المعتقدات والمواقف بين زعماء التيارات المختلفة وأعضائها على اللقاء الدائم بينهم فى المؤسسات التشريعية والمؤسسات التنفيذية للدولة، وفى الحكم المحلى والجهاز القضائى.

وعلى ذلك تتفاقم فى إسرائيل الحرب الثقافية بين الأقلية الدينية والأغلبية العلمانية. وتأخذ شكل صراع بين أحزاب؛ حيث إن بعض من التيارات الدينية ممثلة فى أحزاب سياسية وهؤلاء ينصاعون لرأى حاخامات غير مُنتخبين لكنهم يستطيعون التأثير على قرارات الكنيست والحكومة عن طريق المعينين من قبلهم. وتظهر اندلاعات عنف نادرة فى مظاهرات، وإتلاف ممتلكات، ومهاجمة عنيفة على أفراد، ويظهر فى إسرائيل حجم التناقضات والفجوة الشاسعة بين المعتقدات السائدة فى التيارات المتصارعة فى يهوديتها.

ما جوهر الحرب الثقافية فى إسرائيل؟ إنه الخلاف بين الأغلبية السكانية اليهودية والأخرى حول سمو قوانين الديمقراطية على أى شريعة دينية، أو سمو الشريعة على سلطات القانون والقضاء للديمقراطية الإسرائيلية. وانبثقت من هذا الخلاف باقى الخلافات بين المتدينين والعلمانيين فى إسرائيل، مثل الاختلاف بشأن تفضيل القيم الإنسانية على فرائض الشريعة، وكذلك الاختلاف حول المساواة التامة بين النساء والرجال، وأيضا الاختلاف حول التعليم الإنسانى اليهودى ، والخلاف كذلك حول قانون العودة، وقوانين التهود، وتعريف الانتماء إلى اليهودية، ومكانة المحاكم الربانية وحقوقها وتشكيلها (ضم النساء وممثلى كل تيارات اليهودية الدينية والعلمانية). والاختلاف أيضا حول واجب التجنيد للجيش للدفاع عن مواطنى الدولة، وواجب الانصياع لحاخام أو قائد الجيش، وفرض أحكام يوم السبت وشرائع دينية أخرى على علمانيين ... إلخ .

فى الذاكرة القومية الجمعية ترافق حروب ثقافية تاريخ اليهودية منذ تأسيسها فى جبل سيناء. و بدأت فى اليهودية منذ استيطان أسباط اليهود فلسطين حرب ثقافية بين يهود يؤمنون بالتوحيد وبين يهود يؤمنون بتعدد الآلهة، عبدوا أيضا الآلهة بعل وعشتروت ومولوخ .

استمرت الحروب الثقافية فى العصر الهلينتسى، بين اليهودية التى انفتحت على تأثيرات الغرب وبين تلك التى قد انغلقت، بين المؤمنين باقتصار الحياة على هذا العالم وبين المؤمنين بالبعث والآخرة، بين الفرق الكثيرة والمختلفة والتى نمت بين السكان اليهود الذين ازدادوا فى فلسطين وخارجها. وأخذت الحروب الثقافية أشكالا جديدة ومتنوعة فى العصر الوسيط حيث قل التعبير عنها بعنف لأن اليهود كانوا متواجدين فى طوائف صغيرة وتنقصها وسائل الحرب. ودارت حروب ثقافية غير عنيفة بين العقلانيين والمتصوفين، بين اليهود المسيحانيين ومعارضيهم، غير أن تلك الحروب الثقافية شهدت أحيانا بعض العنف، مثل حادثة إحراق كتب موسى بن ميمون فى شوارع "فريسى" (وكما فى شهادة الحسيد مورونا فى القرن الثالث عشر).

زادت فى فترة النهضة الأوربية والتنوير اليهودى الفجوات بين تيارات اليهودية. وتعاظمت فى الغرب اتجاهات الانفتاح على ثقافة الشعوب، والمذهب العقلانى الذى يوجهها. وظهرت فى شرق أوربا الحسيدية التى تنشر القبالاه والصوفية فى اليهودية الدينية وازدادت الحروب الثقافية بين الحسيدين والمعارضين لهم، بين الحريديين والمتنورين ووصلت إلى ذروتها مع تطور مسارات العلمنة والحركات القومية الصهيونية والمعادية للصهيونية فى القرن العشرين.

لاتلغى الحروب الثقافية وحدة جماعة اليهود التى تتجلى فى الشعور بتضامن اليهود مع يهود آخرين فى بلدان العالم والشعور بالهوية القومية القائمة على ارتباط بماض مشترك. و تتدهور الحروب الثقافية فى أحيان متباعدة فقط إلى أعمال عنف، وأفظعها قتل رئيس الحكومة إسحاق رابين.

وقعت فى القرن العشرين صدامات عنيفة وإن كانت قليلة قد نتجت عن الحروب الثقافية. من أمثلة تلك : اضطرابات متعصبي رابطة "أيها العبرى تحدث بالعبرية" فى سينما "موغرابى" بتل أبيب عندما عرضت بها أفلام باللغة اليديشية، وتشهير وتحريض من قبل الحريديين الذين تسببوا فى سجن "اليعاذر بن يهودا" فى سجن تركى بسبب دوره فى إحياء اللغة العبرية كلغة حديث وإبداع. والضرر الجسدى لفتيات بالقدس من قبل حريديين بسبب ملابسهن غير اللائقة فى نظرهم، و كذلك الضرر البدنى والضرر بالممتلكات الذى

قام به الحريديون فى مظاهرات يوم السبت بالقدس، وأيضا الضرر بالممتلكات الذى قام به العلمانيون فى مدارس دينية أقيمت مخالفة للقانون فى وسط أحياء علمانية.

دارت أيضا صراعات فكرية بين التيارات المختلفة فى كثير من الأماكن وفى معظم سنوات الحروب الثقافية فى اليهودية، وذلك منذ فترة التنوير اليهودية والحسيدية وحتى عصرنا، بغية الاستيلاء على مراكز القوى فى الطائفة، وفى المجتمع أو فى الدولة. ولقد كانت التصادمات العنيفة بين التيارات نادرة وقصيرة مقارنة بالحروب الأهلية الجماعية المدمرة والطويلة التى نجمت أيضا عن حروب ثقافية ودينية فى دول أوربا.

ولقد ازدادت بالتدريج حدة الحرب الثقافية بين التيارات الدينية والعلمانية مع إنشاء إسرائيل وانتقال إمكانيات الدولة ومواردها إلى سلطة الحكومات اليهودية. و تدور الحرب الثقافية الآن حول مراكز قوى وموارد اقتصادية ومالية؛ حيث إن أساس الحرب الثقافية فى إسرائيل يتمثل فى التناقض بين النظرة إلى الشريعة على أنها أسمى من الديمقراطية، وبين النظرة إلى الديمقراطية والقيم الإنسانية وترجيحها على أى رأى تشريعى مناقض لها، فلا احتمال لحل وسط بين المواقف المبدئية للأطراف المتشددة.

إن الاحتمال الذى بقى هو حوار من أجل تعايش سلمى متعدد لكل الذين يأخذون على عاتقهم عبء رأى الأغلبية للحكم الديمقراطى الإسرائيلى، مع الاهتمام بتنمية أقصى حد من الاستقلال الذاتى فى المجالين التعليمى والثقافى داخل كل تيار من التيارات. هذا بشرط أن يقوم الجميع بواجباتهم تجاه المجتمع، وأن يزودوا تلاميذهم بمعرفة قيم الديمقراطية والمهارات المطلوبة لتحقيق نشاط فعال فى الاقتصاد والمجتمع المعاصر.

* * * *

الفصل الثالث

التعددية سمة اليهودية فى كل عصورها

يوضح التغيير فى النظرة إلى اليهودية فى عصرنا التعددية التى هيمنت على اليهودية فى كل فترات تاريخها. ويتجلى التغيير فى تعدد الآراء والديانات والمعتقدات والتيارات الموجودة بها.

ويبرز التحول الذى صاحب النظرة إلى تاريخ اليهودية بوصفها ثقافة اليهود فى تشكيلة الموضوعات والإبداعات والشهادات والوثائق التى تعتبر "مصادر اليهودية".

تاريخ يبدأ من الحاضر

قال "فروست": يتعرف كل قارئ فى الأدب القصصى على أبطال الروايات من خلال تذكر أناس معروفين له، وكذلك الأمر بالنسبة للمؤرخ وقرائه فهم يحكون عن الماضى من خلال التعامل مع الحاضر والأحداث المؤثرة عليهم.

تختلف فى الحاضر صورة ماضى اليهودية؛ بتأثير الأبحاث والاكتشافات الأثرية وآراء المفكرين والمعتقدات والتفسيرات الجديدة للنصوص القديمة. ولا تماثل صورة ماضى اليهودية فى نهاية القرن العشرين صورتها فى وعى اليهود قبل مائتى أو ثلاثمائة عام. ولا تماثل صورة الخلفية والعوامل الخاصة بنشأة عيد الحانوكا فى وعى من لم يعرف أسفار المكابيين، لأنها أُستبعدت عن اليهودية، صورة مصادر العيد فى وعى قرائها.

نحن الذين نعيش داخل تاريخ اليهودية ونشارك فى إبداعاتها نتعامل مع صراعات جذورها متأصلة فى ذاكرة الماضى وبنمط نعيد من خلاله بلورتها. ويؤثر هذا الإدراك الجديد فى عصرنا على المواقف السياسية ليهود إسرائيل وعلى نظرتهم إلى مسيرة السلام، و تحديد حدود الدولة؛ حيث يوجد من بين هؤلاء من يقدس أى مكان يُنسب إليه حدث تاريخى، بينما يرى آخرون فى الحدود الدائمة التغيير للاستيطان والممالك اليهودية فى الماضى مبررا لتسوية إقليمية مقابل السلام. فالطرفان يعتمد فى نظرته على الماضى بعيون الحاضر.

يتعلم الأطفال والكبار في كل تيار من تيارات اليهودية التراث الثقافي الخاص باليهودية التي يعيشونها حاليا. هذا ما يحدث في اليهودية الحريدية واليهودية الدينية الصهيونية واليهودية الإصلاحية على اختلاف أنواعها، أو اليهودية العلمانية المتحررة من ديانة الشريعة وتفاسيرها لنصوص من الماضي.

تتحول مشاكل وخلافات وثيقة الصلة بحياتنا المعاصرة إلى منطلقات لدراسة اليهودية وتاريخها. وتؤثر وجهات نظر حول الماضي في طبيعة خلافات ومضمونها مثل : الخلاف حول أحكام يوم السبت، هل هي أبدية أم متغيرة؟، والخلاف حول وضع المرأة في الطائفة وفي الدولة وغير ذلك.

تعد التعددية سمة مميزة لثقافة جماعة اليهود منذ بدايتها؛ حيث ترافق جماعة اليهودي منذ نشأتها التعددية والتصارع بين تيارات الديانة والعقيدة، منذ الحرب الثقافية الأولى في جماعة اليهود. واستمر هذا التصادم بين تيارات العقيدة والديانة المختلفة في اليهودية في العصر الوسيط وعصر النهضة الأوربية وفترة التنوير اليهودي.

إن التعددية تمثل اعترافا بنظام التعدد في اليهودية بوصفه سمة لثقافة جماعة اليهودي في كل العصور. والتعددية التي تحولت إلى مبدأ موجه في الفكر اليهودي -"هذه وتلك أقوال الإله الحي"- في عصر التلمود تحولت في عصرنا إلى مبدأ مشروع لكل التيارات والآراء والمعتقدات في اليهودية. و لايمثل أي تيار منها "اليهودية المعيارية" كما أنه لايشكل أي واحد منها انحرافا عن النموذج المعياري. كما أن اليهودية لاتطابق أي تيار من تياراتها، فإنها تشملها جميعا.

وبناء على هذه الرؤية يمكن التعرف على كل تيار من تيارات اليهودية؛ سماته والمعتقدات والعادات السائدة فيه، وجذوره في تاريخ اليهودية بوصفه ثقافة، وكذلك التعرف على التشابه والاختلاف بينه وبين التيارات التي كانت مهيمنة في ماضيها.

وبما أن التعددية ليست نسبية فهي تشمل رؤية تعددية تجاه اليهودية وأيضا نقاشات حول القيم - تقييمات وأولويات- على أساس قيم إنسانية معاصرة، لفرائض وشرائع وعادات وتقاليد تسود في التيارات المختلفة أو تلك التي سادت بها في الماضي.

وعلى ذلك فتشمل دراسة اليهودية بوصفها ثقافة التعرف على الاختلاف بين تيارات اليهودية والمشترك بينها، كما تشمل أيضا تشجيع الرؤية النقدية لدى الدارس لآراء ووصايا أفعل ولا تفعل - منها وصايا تقدست فى التقاليد ولاتضر برجل أو امرأة، ومنها وصايا يرى الدارس أنها تجور على حقوق الأفراد وكرامتهم، وحريتهم وعلى الحد الأقصى من فرص تنمية القدرة الإنسانية المتميزة والكامنة داخل كل واحد منا.

يدرس اليهودية أفراد ذوو معتقدات وآراء تؤثر فى رؤيتهم، وتؤثر كذلك فى نخبة الإبداعات التى تمثل التيارات المتنوعة فى عصر معين فى اليهودية. ومن المحتمل أن يكون السعى إلى "حقيقة تاريخية" أمر مشترك بين ذوى الآراء والمعتقدات المختلفة وذلك عندما يتجاهلون كل حظر ونهى مفروض حول البحث فى المصادر والوثائق وبالنسبة التى يعترفون فيها بكل تيار فاعل فى اليهودية وبأنه جزء لايتجزأ منها، حتى وإن كانوا يرفضون الفرائض والعادات المألوفة التى تميزه.

موجز تاريخ التعددية فى اليهودية

تظهر التعددية فى ثقافة اليهود فى كل فترة من فترات تطورها منذ نشأة اليهودية وحتى انتشار الحركات المتحررة من ديانة الشريعة، وتتجلى فى التنوع المتعدد للإبداعات الأدبية والتأريخية والفنون التشكيلية والصلوات والإبداعات الفكرية والبحثية. ويحدث تعدد للتيارات والحركات المتصادمة فى اليهودية فى كل عصر داخل اليهودية الواحدة. وتتطور ثقافة جماعة اليهود وتثرى من التعدد والتناقضات التى بها عبر ثلاثة آلاف عام على الأقل.

وفى فترة تكوين الشعب والانقسام إلى مملكتين وتأسيس اليهودية يتصارع فى اليهودية الإيمان بإلة مجرد والإيمان بإله مجسد، أو ممثل فى تمثال عجل من الذهب. ويتواصل الخلاف والتناقضات فى فترة المملكتين[1] بسبب إقامة تمثال عجل ذهبى فى مراكز عبادة يهوه فى مملكة الأسباط العشرة.

---

(١) المملكتين: بعد موت سليمان عليه السلام انقسمت مملكته إلى مملكتين: المملكة الجنوبية بيهودا وكانت تضم سبطى يهودا وبنيامين، وهما السبطان اللذان بايعا رحبعام، بينما بايعت الأسباط العشرة الباقية يربعام ملكا على الجزء الشمالى الذى سمى بمملكة إسرائيل.

وتتنشر فى اليهودية منذ فترة احتلال أسـباط بنـى إسرائيـل لأرض كنعـان ديانـات الكنعانيين وبخاصة ديانة عـشتروت[١] وديانـة أشـيرا[٢]، وديانـة البعـل[٣] والمولـوخ[٤]. وعاشت تلك الديانات المؤمنة بتعدد الآلهة فى اليهودية وفى ثقافة شعب اليهود فى مملكتيـه، بجانب ديانة التوحيد، وأحيانا بدلا منها، مثلما فى الفـترة التـى تحولـت فيهـا ديانـة البعـل وعشتروت إلى الديانة الرسمية فى مملكة الأسباط العشرة.

كان سلميان أول ملك اعترف بإمكانية تعدد إقامـة شـعائر لآلهـة كثـيرة فى الثقافـة اليهودية بسلام. وببنائه هيكل لآلهـة كثـيرة فى عاصـمة المملكـة اليهوديـة الأولى تحولـت القدس إلى العاصمة الأولى للتوحيد وعاصمة التعددية الأولى أيضا والتى يوجد بها أيـضا هيكل لديانة التوحيد. وكان هذا جزءا من عملية ضـمان الـسلام مـع الـشعوب والقـوى الكبرى التى وراء حدود الدولة الجديدة. وصارت المعارضات المتنوعة على حكمه داخـل مملكته – بسبب عبء الضريبة التى فرضها – أساس لمعارضة أنبياء يهوه على تعدد الهياكل

---

(١) عشتروت : هى إلهة شعبية انتشرت عبادتها فى العالم القديم كله. وهى إلهه الحب والحرب معا. وقـد ذكرتهـا أسفار العهد القديم بالصفتين معا: الأولى حيث توقع أسلحة شاؤول وأبنائه التى غنموها فى الحرب فى معبد الإلهة ووضعوا سلاحه فى بيت عشتاروت وسمروا جسده" صموئيل الأول ٣١ : ١٠ ، وكان سـليمان عليـه السـلام يقدسها ـ حسب ماورد فى العهد القديم ـ بالصفة الثانية وبنى لها معبدا شرق القدس فقد "أحب الملك سليمان نساء غريبة كثيرة فأمالت نساؤه قلبه وراءه آلهة أخرى، ولم يكن قلبه كاملا مع الرب فـذهب سـليمان وراء عشتاروت فغضب الرب على سليمان لأن قلبه مال عن الرب إله إسرائيل .. لأنهم تركـونى وسـجدوا لعشتاروت " سفر" الملوك الأول ١١ : ١و٤و٥و٣٣.

للمزيد انظر:جفرى بارندر:المعتقدات الدينية لدى الشعوب القديمة.ترجمة د. إمـام عبـدالفتاح إمـام. عـالم المعرفة، المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب. الكويت.عدد ١٧٣. ص ١٧.

(٢) أشيرا: وهو اسم الإلهة "أثرت" زوجة الإله "أل" رأس آلهة الكنعانين وقد ذكر اسمها فى التوراة باسم أشيرا. وكما زوجها "أل" خالق الخلق، فكذلك هى خالقة الآلهة. وكانت ذات كلمة مسموعة عند زوجها. وكـذلك كان أصحاب الحاجات يلتمسون وساطها لديه وكانت وساطتها دائما ناجحة.

انظر: سبتينو موسكاتى :الحضارات السامية القديمة . ص ٢٤٣.

(٣) بعل : كان بعل أبرز الآلهة الكنعانية ، وكلمة بعل اسم عام الأصل معناه "سيد" ، ولهذا أمكن اطلاقه على آلهة مختلفة، ولكن بعل الأكبر كان إله العاصفه والبرق والمطر والإعصار.

انظر: سبتينوموسكاتى :الحضارات السامية القديمة. ص ١٠٠.

(٤) مولوخ : إله كنعانى كان يعبد عن طريق تضحية الأطفال على مذبحه بتمريرهم فى النار.

التى أقامها سليمان وانفتاحه على تأثيرات ثقافات الجيران وفنهم. وقد عين نبى يهوه "يربعام بن نبط" ليكون على رأس التمرد ضد سليمان وأكد له أن هذه هى رغبة الإله.

تأتى معارضة اتجاهات التعددية تلك من دوائر المعارضة الصغيرة نسبيا لأنبياء يهوه، والذين ظلوا يؤمنون بخصوصية إله إسرائيل وحاربوا كل ظاهرة شرك. وتطورت التعددية الدينية فى اليهودية بتشجيع مؤسسة الحكم الملكية وبمشاركة كهنة وأنبياء يهود قام بتشغيلهم بلاط مملكة إسرائيل.

كما يعارض محررو العهد القديم أيضا هذه التعددية الدينية والثقافية فى ملاحظاتهم على النصوص (كما فى سفر القضاة، والملوك وفى أسفار أخرى) ولكن لم تمنعهم معارضتهم الصارمة للتعددية الدينية التى هيمنت على اليهودية من إدراج وصف تفصيلى لتعدد الآلهة والشعائر الدينية فى يهودية عصرهم - والذى يصف ثقافة الشعب فى كتاب العهد القديم.

ويتحول التناقض بين الإيمان بتراث تاريخى واحد وبين تعدد معتقدات دينية وأخلاقية فى اليهودية إلى حقيقة فى فترة ثلاثة هياكل يهوه الأولى - فى القدس وفى بيت إيل وفى بدان. والتى تسمى فترة الهيكل الأولى.

الانقسام فى يهودية العصر الهلينستى وفترة الهيكل الثانى

تنقسم اليهودية فى فترة الهيكل الثانى[1] إلى يهودية هلينية ويهودية ربانية، إلى يهودية فلسطين ويهودية بلدان العالم الشرقى والغربى. وتظهر فى جموع اليهودية تيارات وفرق تتصارع فيما بينها وتنكر كل واحدة الأخرى داخل اليهودية الواحدة ؛ حيث صدوقيون وفريسيون وأسانيون ومسيحيون يهود، ويهود منفتحون على ثقافة الغرب ويسميهم معارضوهم "متأغرقيين" ويهود منزوين عن الثقافة الهلينستية لكنهم متأثرين بها (انظر

---

(١) الهيكل الأول والهيكل الثاني : ومرحلة الهيكل الأول، تبدأ مع بناء الهيكل في عهد سليمان عام ٩٦٠ ق.م أو قبل ذلك بقليل (مع بداية مؤسسة المملكة العبرانية عام ١٠٢٠ ق.م أو باعتلاء داود سدة الحكم عام ١٠٠٤ ق.م)، ثم تنتهي بسقوط المملكة الجنوبية عام ٥٨٦ ق.م. أما مرحلة الهيكل الثاني، فتبدأ عام ٥١٦ ق.م مع عودة اليهود من بابل إعادة تشييد الهيكل، وتنتهي بتحطيم تيتوس له عام ٧٠ ميلادية.

ليبرمان حول تأثير ثقافة اليونان على حاخامات التلمود، وانظر الموزيكو والصور الجبسية فى المعابد، وانظر طراز المدينة على جبل الهيكل وساحة التدريب وميدان سباق الخيل).

عقب تدمير الهيكل الثانى فى القدس وتقويض المملكة اليهودية انهارت مؤسسة الحكم الملكية والكهنوتية، وبدلا منها تطورت المعابد والطوائف والمؤسسات الربانية والقيادات المحلية فى فلسطين والبلدان والتى تتحدث وتبدع باليونانية والأرامية واللاتينية.

واصل خلال الألف الأول من الميلاد فى العصر الهلينستى البيزنطى فى تاريخ اليهودية، حاخامات التوراة الشفهية إصلاح الديانة والعقيدة اليهودية والشريعة والعادات فى المؤسسات وفى الأعياد. ونجد مناقشاتهم وفتاواهم مكتنزة فى المشنا والجمارا[1] والأدب المصاحب لها. إنهم يطورون الشريعة بنقاشاتهم وبآراء الأغلبية منهم، ويبدعون أدبا ثريا من القصص والأساطير الصوفية، ويطورون واقعا أسطوريا حول الآخرة، الحياة بعد الموت، حيث بلاط مُلك ملك الملوك الذى فى السماء، وكائنات ملائكية وإلهية، وجنة عدن المنتقلة من بداية التاريخ إلى نهايته، وجهنم لتعذيب الذين يتسمون بالقسوة المطلقة وعدم الرحمة (لايوجد ذكر لكل هذا فى العهد القديم والمعتقدات السائدة به).

تتطور فى العصر الهلينستى آداب يهودية تمثل تيارات يهودية مختلفة، مثل: أدب اليهودية الهلينية[2] (يشمل فيلون، فلافيوس، يحزقيال همحزاى، أسفار المكابين، إبداعات

---

(١) الجمارا: لفظة آرامية تعنى التكملة أو الخاتمة، والجمارا هى نتاج "الأمورائيم" أى الشراح (٢١٩- ٥٠٠) الذين شرحوا أبواب وفصول المشنا التى كتبها جيل "التنائيم" أن أن الجمارا هى عبارة عن شرح وتفصيل لما جاء فى المشنا، كما يلاحظ أن الجمارا كتبت بالأرامية الخالصة.

(٢) اليهودية الهلينية أو التيار الهلينستى: هو تيار ظهر بين اليهود أثناء حكم الإغريق لفلسطين، حيث قام الملك انتيوخوس الرابع العمل على تأكيد سلطانه على كافه الولايات التابعة له. ورأى أن ذلك يتم بتوحيدها جميعا تحت راية الثقافة الهلينية؛ وذلك بإرغام الأهالى على عبادة الألهة اليونانية، واتباع كافة العادات والتقاليد الخاصه بها. وقد لقيت دعوة انتيوخوس الرابع بإتباع الثقافة الهلينية استجابة عدد كبير من اليهود الذين رحبوا بها، وبدأوا فى عبادة الألهة اليونانية، وبناء الملاعب والمدن على نفس الطراز اليونانى، فانتشرت المدن الرياضية على الطراز اليونانى فى يهودا والقدس وكان المواطنين يقضون فيها أوقاتا طويلة وأهمل الكهان الصغار دروسهم الدينية كنتيجة طبيعيه للانصراف عنها. وأصبح الشائع هو اتباع الأسلوب اليونانى فى =

شعراء وأدباء) وأدب اليهودية الربانية (مشنا، تلمود، مدراشيم) وأدب اليهودية المسيحية (أقسام من العهد الجديد قبل أن تنفصل المسيحية عن اليهودية) وأدب فرق الصحراء (لفائف البحر الميت).

أنواع التعددية في يهودية العصر الوسيط

زاد في العصر الوسيط الانقسام بين التيارات اليهودية الطائفية التي تنمو في مراكز جغرافية وثقافية مختلفة في القارات الثلاث - أفريقيا، وآسيا وأوربا. ونمت في مناطق منفصلة عن بعضها البعض داخل كل قارة تيارات يهودية لها خصوصيتها ومختلفة عن بعضها البعض، مثل يهودية بني إسرائيل في جنوب الهند، ويهودية اليمن، ويهودية الصين، ويهودية أثيوبيا، ويهودية القوقاز وعلاقاتها مع مملكة الخزر، ويهودية شرق أوربا التي نشأت عن لقاء مهاجرين يهود من ألمانيا ومن مناطق سلافية وخزرية، واليهودية الأسبانية والبرتغالية وغيرها.

وأضيف إلى الانقسام الطائفي في العصر الوسيط الانقسام الفكري الديني: ففي مقابل عقلانيين مغالين يؤمنون بإله خاص ومجرد (مثل موسى بن ميمون في كتابه "موريه نفوخيم" "دليل الحائرين") تنتشر تأثيرات القبالاه والتصوف في حركات كبيرة في اليهودية - مثل حركات الحسيدية والمعارضين لها. وتشجع الحركات المسيحانية بأنواعها -هرؤبين، شبتاي تسفي، فرنك - التمييز بين الشعب و ديانة الشريعة، وتضع أساسا للفكر الصهيوني المعادي للمسيحانية. ويواصل بجانب اتجاه إقرارالشريعة في نظام تشريعات وأحكام (من كتاب مشنه توراه[1] "تثنية التوراة لموسى بن ميمون وحتى كتاب

=

الملابس، وانتشر شراب الخمر، وأكل لحم الخنزير، وأصبح اليهود يسمون بأسماء يونانية .وأطلق على أصحاب هذا التيار اليهود المتأغرقون.

للمزيد انظر: منى ناظم الدبوس : أضواء على تاريخ اليهود من القرن الخامس قبل الميلاد إلى القرن الثاني الميلادي. ص ٣٦ : ٣٨.

(١) مشنه توراه: ألف موسى بن ميمون كتاب "مشنه توراه" ويعني بالعربية إعادة الشريعة وهو من أهم الكتب الخاصة بالفقه الإسرائيلي . وقسمه إلى أربعة عشر جزءا ، صاغ فيها كل أحكام التلمود والمشنا والتوراة =

شولحان عاروخ "المائدة المرتبة" ليوسف كـارو[١] وتفاسـير يـسرائيليس) كثـيرون الإيـمان بالمبدأ التلمودى "هذه وتلك أقوال الإلـه الحـى" ومواصـلة تطـور الـشريعة. وفى مقابـل معتقدات قبالية (لوريا) حول واجبات الحفاظ عـلى الفـرائض، وإصـلاح العـالم وتقـديم الخلاص، نجد إيمان قوى بالعرافه والتنجيم وبتجسيم الإله وبكتاب "شعور قوما" (قامـة مديدة).

الاندماج فى ثقافات الشعوب فى عصر النهضة الأوربية والتنوير اليهودى

تتطور مسارات التحرر من عبء الفرائض ومن سلطة حاخامات الطوائـف عـلى فترات وفى المناطق التى عاش بها اليهود وبها ثقافـة النهـضة الأوربيـة والتنـوير. وانـدمج يهود إيطاليا أثناء فترة النهـضة الأوربيـة فى ثقافـة جـيرانهم مـع الحفـاظ عـلى يهـوديتهم. وعادت أثناء فترة التنوير اليهوديـة فى هولنـدا جماعـات "المـسيحيين الجـدد" إلى اليهوديـة (المتنصرون قهرا فى أسبانيا والبرتغال) وأخذوا يتصارعون مع المفكرين المطـورين لرؤيـة جديدة فى اليهودية والمنفصلين عن التقاليد المحافظة التـى تـؤمن بـأن الإلـه كتـب العهـد القديم وأنه يجب النظر إليه على أنه شخـصية منفـصلة عـن الطبيعـة (سـبينوزا والمـذهب الحلولى[٢]).

=

بأسلوب عبرى سهل واضح ودقيق. وقد اشتهر باسم "يد" لأن الياء تساوى عشرة والدال أربعة ، مما يرمز إلى الأربعة عشر جزءا التى يتألف الكتاب منها. ثم ذاع صيته بعد هذا باسم "يد حزاقه" أى "اليد القوية".
انظر : د. حسن ظاظا: الفكر الدينى الإسرائيلى "أطواره ومذاهبه". ص١٠٤ – ١٠٥.

(١) يوسف كارو: هو إيطالى عاش فى القرن السادس عشر. وفى اتجاه معاكس للتصوف، أخذ يوسف كارو سنة ١٥٥٥ يصنف دليلا للحياة مبنيا على قوانين التلمود وشروحه. ونشره سنه ١٥٦٧ وأسماه "شولحان عاروخ" (أى المائدة المرتبة) وكان هذا الكتاب بمثابة قائمة يرجع إليها فى كل كبيرة وصغيرة ،من قبل الرجال والنساء والأطفال فى كل ما يخص أمور الحياة، فهو تلمود مصغر لايقبل الجدل ولاالمخالفة ولا التفسير. وقبله اليهـود كأنه مفتاح الخلاص وعذروا أنفسهم من عناء البحث والدرس، بل من عناء الفهم لدينهم وقانونـه وراحـوا يقيسون كل كبيرة وصغيرة بهذا المختصر المسهل. فأصبح تفكيرهم ميكانيكيا لا حياة فيه. وأصبحت حيـاتهم جافه لاقيمة فيها سوى المادة والبيولوجيا.
انظر: د. إسماعيل راجى الفاروقى الملل المعاصر فى الدين اليهودى. ص ٢٢.

(٢) المذهب الحلولى مذهب يعتقد أصحابه بأن الله يحل فى كل مكان فى الطبيعة.

تتجلى مسارات العلمنة لدى اليهود فى تيارات فكرية وعقدية جديدة بداية من القرنين الثامن عشر والتاسع عشر فى يهودية الشرق والغرب وذلك فى فترة التنوير والهجرة الجماعية إلى المدن الكبرى بأوربا وأمريكا. وتشكل اليهودية المتحررة من ديانة الشريعة والمعتقدات الإلحادية فى القرن التاسع عشر جزءا من مصادر الإلهام الأساسية للإبداع اليهودى فى كل المجالات. وتنشط فى مقابلها تيارات أرثوذكسية دينية محافظة، مماثلة للصدوقيين والقرائيين المؤمنين بمبدأ "الجديد محظورمن التوراة".

وظهرت بجانبها حركات إصلاح فى الديانة اليهودية - بداية "الإصلاحيون" وبعد ذلك "المحافظون" فى أوربا وأمريكا.

تتحول اليهودية فى القرن العشرين - الدينية والعلمانية على حد سواء- أكثر فأكثر إلى يهودية مؤمنة بنظام التعددية إلى أن عُرفت بأنها ثقافة للشعب وليست ديانة له. وبدأت اليهودية الأمريكية تتسم بالتفرد بوصفها طائفة جديدة فى اليهود، وأصبحت أكبر طوائفه. وتطورت اليهودية الإسرائيلية سريعا بوصفها ملتقى لكل الطوائف بإسرائيل، من كل القارات والتيارات الدينية والعلمانية، وبوصفها مركزا روحانيا ثقافيا وتعليميا لليهود (فى نهاية القرن العشرين يتعلم فى إسرائيل معظم الشباب اليهودى فى العالم وعمرهم أقل من سن الثامنة عشر).

تطورت اليهودية الإسرائيلية من خلال الصهيونية العلمانية وإحياء العبرية كلغة حديث وإبداع إعلامى فى كل وسائل الإعلام، علاوة على هذا فهى تمثل اليهودية والتى تزداد تلاشيا فى الخارج من الناحية العددية ومن ناحيه كونها دافعا لتعلم اليهودية. ومعظم اليهودية فى عصرنا اليوم ليست دينية بالمعنى الذى يعرف به المتدينون الديانة اليهودية. فمعظم اليهود لا يحافظون على الفرائض ولا يترددون بانتظام على المعبد، ولا يدعون الإله ولايصلون له، ولايعلمون أبناءهم وفقا للديانة اليهودية. غير أن تنوع الحركات الدينية فى اليهودية مستمر ويزداد ، ويستمر ويتأكد طابع التعددية سويا مع التيارات اليهودية العلمانية.

تنوع الإبداعات يمثل كل عصر فى الثقافة

تعرض مجموعة الإبداعات التى جمعت فى العهد القديم آراء ومعتقدات متنوعة، وتصف أنماط حياة وشعائر وآراء دينية متنوعة قد سادت بين عامة اليهود والزعماء والملوك والكهنة وأنبيائهم.

وتمثل مجموعة النصوص الواردة فى العهد القديم كل الأنواع الأدبية المعروفة فى الأدب الغربى المعاصر: نثر وشعر ملحمى وغنائى، ودراما، ومقال فلسفى شعرى، وتأريخ، ووصف للشعائر الدينية والعادات، وأنماط الحياة اليومية ، والأعياد وإبداعات الفن التصويرى فى المعابد وفى الميادين العامة وفى القصوروالهياكل والتشريعات، ووصف الطقوس والإبداعات البلاغية النبوية.

تعبر التناقضات بين الآراء والمعتقدات التى تتجلى فى مجموعة نصوص العهد القديم عن إيمان وكفر بعدالة الإله، إيمان وكفر بخصوصية يهوه وآراء متناقضة حول العلاقة بين الإثم والعقاب، وآراء مختلفة حول تفضيل العدالة الاجتماعية على التمسك بفرائض الديانة، وتكشف عن الظلم الواقع على المرأة فى المجتمع اليهودى وآراء متناقضة حول حقوق الحاكم على رعاياه، وماهية العهد بين الشعب وإلهه.

تُعرض فى مجمل إبداعات العهد القديم الفترة التاريخية الثقافية الأولى فى تاريخ شعب اليهود - منذ نشأته من ذرية أسرة واحدة ينتسب إليها الكثير من شعوب مختلفة، حتى تدمير هياكل يهوه الثلاثة فى المملكة، ودمار مملكتى اليهود،المتجاورتين، ونفيه وعودة قسم صغير من اليهود من بلاد مابين النهرين إلى يهودا تحت حماية الإمبراطورية الفارسية، وبداية تأسيس كيان يهودى مستقل فى القدس وحولها بجانب كيان يهودى سامرى فى نابلس وما حولها.

وعلى الرغم من عدد الأسفار القليل المدرج فى أنتولوجيا العهد القديم يستطيع القراء التعرف على مجمل ثقافة اليهود فى الفترة المذكورة والتيارات المختلفة التى تصارعت فيها، والفنون التى ابتكرت بها، وتأثيرات الثقافات الأخرى على الحياة والإبداع فيها، والتحولات الجذرية التى طرأت على أنماط حياة اليهود خلال مئات السنين التى تنتمى إليها الأعمال الواردة فى العهد القديم.

يتضح على ضوء البحث والاكتشافات الأثرية المعاصرة أنه لايجب بالضرورة النظر إلى المكتوب فى العهد القديم على أنه تقارير تاريخية موثوق بها لأحداث قد وقعت بالفعل فى المكان والزمان المشار إليهما. ومثل كل مجمل الإبداعات الأدبية تعرض أيضا إبداعات العهد القديم واقعا تاريخيا يستمد منه الأدباء عناصر نتاجهم الأدبى. ومثل مجمل الإبداعات فهى تعرض واقعا تاريخيا قد تشكل فى ذاكرة اليهود الجمعية، وأصبح عنصرا تاريخيا مؤثرا فى ثقافته، وأحيانا أيضا فى حياته الاجتماعية وسياسة زعمائه.

ومن كل تلك النواحى فمن المحتمل أن العهد القديم بحسب ادعاء "بيالك" يُستخدم نموذجا ساميا لمجموعات مشابهة لنخبة من الأعمال التى تمثل الفترات الأخرى فى تاريخ الثقافة اليهودية. وتُعرض كل فترة من خلال نخبة مؤلفات يهودية تضم كل الأشكال والتيارات والطوائف والفرق والحركات يهودية الموجودة فى تلك الفترة.

التحولات المستمرة فى اليهودية

تظهر فى اليهودية فى كل عصر من العصور معتقدات وشعائر وعادات وتقاليد وطقوس أعياد ومواقيت جديدة لدورة الحياة، كما تظهر رؤية جديدة إلى الإبداعات الكلاسيكية وقداستها أو إلى اللغات اليهودية ولغات الشعوب ودورها فى اليهودية وإلى صورة أبطال التاريخ والأدب الكلاسيكى بما فيهم الإله. وتضاف تلك الأشكال والمضامين الجديدة إلى ثقافة اليهود، لكنها لاتأتى دائما عوضا عن أشكال ومضامين قديمة راسخة فيها لأنها تقدست فى نظر بعض من الشعب.

عندما حرم الحاخام جرشوم التزوج بامرأتين على شعب إسرائيل قبل أكثر من ألف عام، استمر كثير من اليهود فى التزوج بامرأتين وكأنه لم يحدث تغيير جذرى فى مفهوم الأسرة. وعندما عينت النساء فى منصب حاخامات ومرتلات فى معابد حركة الأغلبية فى اليهودية الدينية (الإصلاحيين والمحافظين)، وبدأت اليهودية العلمانية فى تعين نساء فى وظائف قضاة شرعيين وقضاة فى كل الدرجات، استمرت طوائف اليهود الأرثوذكس فى حرمان النساء من تقلد مناصب حاخامات أو مرتلات أوقضاة شرعيين. وعندما أعلن فلاسفة يهود مثل موسى بن ميمون أنهم يؤمنون بإله مجرد من كل محسوس

ومن كل تصور إنسانى استمر يهود آخرون فى الإيمان بإله ذو شخصية إنسانية يجلس على عرش ملكه ذو "قامة مديدة"، ويمكن قياس أعضائه التى تشبه أعضاء جسم الإنسان.

كل شيء يتغير فى اليهودية، لكن التغيرات تتراكم بجانب القديم المخزون - معتقدات وعادات حديثة موجودة بجانب معتقدات وعادات قديمة. وهذا التركيب هو أساس التعددية فى ثقافة اليهود. واليهودية غير مستوفاة ولم تستنفد مطلقا بنظام ثابت من الشرائع والقوانين والعادات والمعتقدات. حيث مر كل قانون وعرف ومؤسسة ونمط حياة وشعائر دينية فى اليهودية، ولا يزال يمر بتغيرات بعيدة المدى فى الثقافة اليهودية وفى تيارات الديانة اليهودية التى بها.

لقد حلت التحولات فى اليهودية فى القطاعات المختلفة لليهود عبر أزمنة مختلفة وبمعدل مختلف. وتم تسريع التحولات فى اليهودية عندما تحولت الديانة اليهودية من ديانة قرابين وهياكل إلى ديانة معابد وصلوات. وجلب هذا التحول فى أعقابه لامركزية مغال فيها بعيدة المدى، وشجعت تغيرات قد حلت فى طوائف معينة وليست فى أخرى. ولقد أبدع اليهود فى ظل تأثيرات البيئات المختلفة التى عاشوا فيها.

وتتجلى فى الذاكرة الجمعية لليهود والمكنونة فى العهد القديم تلك التغيرات فى فترة الترحال فى الصحراء. حيث كانت خيمة اجتماع هارون وتماثيله مختلفة تماما عن خيمة اجتماع موسى والتى لم يكن بها مذبح أو قرابين أو كهنة. وكان هيكل يهوه الذى بناه سليمان، وبه تماثيل لها وجه إنسان وأجنحة ضخمة فى قدس الأقداس[1]، مختلفا عن هياكل يهوه التى وضع فى وسطها تمثال العجل فى بيت إيل وبدان. وكان الهيكل الثانى فى القدس مختلفا عن سابقيه فقد مر بتغيرات كثيرة مبالغ فيهاعندما بنى مجددا على يد هوردوس. حيث كثرت الصور والإبداعات الفنية المتنوعة والمتميزة مع تعدد المعابد التى

---

(١) قدس الأقداس: أقدس الأماكن فى الهيكل اليهودى، وهو عبارة عن حجرة بدون نوافذ تقام على مستوى أعلى من بقية الهيكل، وتحتوى على تابوت (تماما مثل قدس الأقداس فى خيمة الاجتماع) وكان الاعتقاد السائد أن روح الله تحل فى هذا التابوت. وكان لايدخل قدس الاقداس سوى كبير الكهنة فى عيد يوم الغفران ليتفوه باسم الخالق "يهوا" الذى لايمكن لأحد التفوه به فى أى مكان أوزمان.

انظر: غازى السعدى:الأعياد والمناسبات والطقوس لدى اليهود .ص ٦٩.

بنيت فى فلسطين وفى خارجها -كما بدا بوضوح فى الاختلاف بين رسومات الحائط والمرأة العارية التى تنتشل موسى من النهر فى معبد منطقة دورا إيروفوس وبين الصور المتنوعة مع علامات النجوم وعناصر من الأسطورة اليونانية فى المعابد التى فى فلسطين.

مرت المعابد نفسها بتحولات جذرية مما زاد الخلاف والتعددية فى ثقافة اليهودية. ففى البداية لم يكن فيها فصل بين رجال ونساء، ولم تضم مقصورة خاصة بالنساء (طبقا لتقاليد الهيكل) وبعد مرور قرون ظهر فى بعض منها مقصورات نسائية وبمرور قرون أخرى اختفت من معظم معابد اليهود فى العالم المقصورة النسائية. وحاليا يقف الرجال والنساء فى بعض المعابد متقابلين يغنون ويرقصون صحبة على رنين أدوات أو جوقة موسيقية مرافقة للصلاة والإنشاد فى السبت والأعياد (كما كان فى تقليد المعبد)، ويقابلها معابد بها نساء موجودات وراء حائط يفصلهن عن القاعة التى بها التوراة والجمهور المحافظ على طهارة الجنس الذكرى، وتجرى الصلوات بدون مصاحبة موسيقية وجدران المعابد خالية من الصور ومن الإبداعات الفنية.

تنوعت فى عصرنا مجددا الإبداعات الفنية التصويرية أو التجريدية فى المعابد ودور العبادة اليهودية فى إسرائيل والعالم بكثرة. ويتدفق أيام السبت الآلاف إلى مراكز التجمعات فى مئات المتاحف الموجودة فى إسرائيل للاستمتاع بإبداعات فنية يهودية وغير يهودية، وكأنه لم يحرم مطلقا رسم ونحت تماثيل لشخصيات إنسانية بين دوائر معينة فى اليهودية.

لقد طرأت تحولات فى طبيعة التيارات المتصارعة فى اليهودية وفى المعتقدات المتنوعة التى تطورت فى اليهودية تقريبا فى كل موضوع متعلق بالثقافة والديانة اليهودية؛ مثل: الاعتقاد السائد فى العهد القديم باقتصار الحياة على هذا العالم، والإيمان بالمسيح المخلص والعناية الإلهية وبكيان الإله، وبدولة الشريعة وبضرورة التمسك بالفرائض، وبنمطية الاحتفال بالأعياد، ومغزاها من ناحية الشكل والمضمون.

تطورت فى ثقافة اليهود تيارات دينية وعلمانية كثيرة، وكل واحد منها يمثلها بطريقته الخاصة به؛ كما مثلها المذهب العقلانى المغالى لموسى بن ميمون، والمذهب الصوفى لموسى بن نحمان والمذهب الحلولى لسبينوزا.

بدأت التغيرات السريعة والجارفـة فى تـشكيل يهوديـة متجـددة مـع انتـشار القـيم الإنسانية العلمانية والمعتقدات اللاأدرية[١] والإلحادية التـى تحولـت إلى عنـاصر سـائدة فى يهودية العصر الحديث وإلى جزء لايتجزأ من ثقافتها، بجانب تاريخ التيارات الدينية التـى بها.

أدت التغيرات المفرطة فى نظم التعليم فى اليهودية غالبيـة الـشباب اليهـود إلى تـرك المدارس الدينية والانتقال إلى نظم تعليم غير دينية فى إسرائيل و الخارج.

ولقد ساعدت طلائع التعليم المتحرر من ديانة الشريعة(مثل منظمة الإليانس[٢] فى بلدان البحر المتوسط، ومدارس "تربوت" العبرية ومدارس "تسـشا" اليديـشية فى أوربـا، وبخاصة نظام التعليم العلمانـى فى إسرائيـل، والـذى يـدرس فيـه اليـوم معظـم الـشباب اليهودى بالعالم) على التغير وعجلت به. وانضم مثقفـو الطوائـف التـى عاشـت فى دول عربية، من العراق حتى المغرب، إلى دوائر المبدعين اليهود باستثناء مجالات الثقافة الدينيـة، وانضم بعضهم إلى طبقة المثقفين العلمانية اليهودية فى العالم والتى تتحدث وتبـدع بلغـات أوربا وتدرك الكلاسيكية العالمية وتعلم أبناؤها روح الانفتاح على الغـرب. ونـشط أدبـاء يهود علمانيون من بلدان تتحدث العربية فى ثقافات أوربا بجانب أدباء وفنـانين يهـود مـن شرق وغرب أوربا وأمريكا.

وفى الوقت نفسه استمرت نظم التعليم اليهوديـة الدينيـة فى الحفـاظ عـلى أشـكال ومضامين تعليمية قدستها تقاليد عمرها قـرون وتجاهلـت التغيـيرات التـى طـرأت عـلى يهودية العصر الحديث. وتواصل اليهودية الحريدية إقامة مدارس دينية للأطفال والـصبية الذكور، والتى حظيت بازدهار غـير مـسبوق فى تـاريخ التعلـيم عنـد اليهـود بخاصـة فى

---

(١) اللاأدرية مذهب يقول بأن أصل الكون بما فى ذلك وجود الله وطبيعتـه لاسـبيل إلى معرفتـه خـارج مـدارك الإنسان وحواسه وعقله.

(٢) الأليانس: كلمة فرنسية تعنى التحالف. والأليانس الإسرائيلى الدولى تنظيم يهودى تأسـس فى بـاريس عـام ١٨٦٠ بهدف الدفاع عن التحريات المدنية والدينية لليهود وتنمية المجتمعات اليهوديـة المختلفـة عـن طريـق التعليم والتدريب المهنى وإغاثة اليهود فى الأزمات . وقد أسـس التحـالف شـبكة تعليميـة واسـعة فى أسـيا وشمال أفرقيا وفلسطين .

إسرائيل العلمانية، وبفضل قوة الأقلية الحريدية يحصل معلمو وتلاميذ المدارس الدينية الحريدية على رواتب وإعفاء من الخدمة العسكرية فى الجيش وذلك عن طريق الضغط على الأحزاب العلمانية. وذلك رغم من كون الحريديين أقلية صغيرة فى اليهود. وقربت نظم التعليم غير الدينية التى بالعبرية واليديشية والألمانية وبالإنجليزية آلاف الشباب إلى أفكار حركة التنوير اليهودية وقوت مسارات العلمنة فى ثقافة اليهود، وخلقت جسورا بينها وبين ثقافات الغرب وعجلت مسارات التغيير فى اليهودية فى إسرائيل وفى العالم على حد سواء.

لايجب أن يُقال "تقول اليهودية" كما لايجب أن يُقال "يقول العهد القديم"

يوجد فى اليهودية ،كما فى العهد القديم، تشكيلة آراء ومعتقدات مختلفة، متناقضة أو تنكر بعضها البعض وعلى ذلك لاينبغى القول :" تقول اليهودية" بل نقول "فى اليهودية"، كما لاينبغى القول "يقول العهد القديم" بل نقول "فى العهد القديم".

واليهودية هى ثقافة تؤمن بنظام التعددية وليست أيديولوجية مصنوعة من كتلة متجانسة، ولايمكن أن ننسب مواقف فى موضوع ما لمجمل اليهودية، أو لمواقف تمثل اليهود كلهم، كما أنه لايمكن أن ننسب مواقف كتلك لمجمل العهد القديم.

الذين ينظرون إلى اليهودية بوصفها ثقافة متطورة لليهود لا ينسبون إلى تاريخ اليهود مدلولا مثاليا أودينيا، وكأنه موجه لهدف مسيحانى أو إلهى. وطبقا لهذه الرؤية فتاريخ اليهود يمثل نفسه. ومثل تاريخ أى شعب فى العالم يوجد عوامل وأسباب أدت إلى تطورات فى هذا الشعب. كما أنه ليس له هدف محدد مسبقا. ويشكل التاريخ الخاص باليهود خصوصية للشعب، تماما مثلما تشكل السيرة الذاتية خصوصية لكل إنسان.

يسعى علم تأريخ اليهود المعاصر إلى رسم صورة لما قد حدث فى الواقع وليس لما مقدر له أن يحدث. وقال "برجسون" عن "بوذا" :كان رجلا رائعا فلم يسمح مطلقا لفكرة أن تقف بينه وبين الواقع. وتاريخ اليهود ليس تطبيقا أو تعبيرا لفكرة، بل صورة لتطور مجموعة أحداث وإبداعات تشكل معا تاريخ ثقافة متعددة التناقضات والتى عاش بها يهود طوال أكثر من ثلاثة آلاف عام.

يعتمد السعى لوصف ما حدث فى الواقع على وثائق متقاطعة وعلى إبداعات أدبية وفنية تتحول بعد وقوع الحادث إلى وثائق تاريخية يسهم بعضها فى خلق الصورة التاريخية. ويمكن من خلال تلك الصور ملاحظة التعددية التى تتجلى فى ثقافة اليهود دون أن ننسب لأى من تعابيرها استفادا إجماليا لما قد يظهر.

تعدد التيارات فى اليهودية

توجد فى اليهودية تيارات كثيرة : طائفية وإقليمية ودينية وأيديولوجية. وتنضم إبداعات كل تيارات اليهودية إلى مجمل ثقافة اليهود. وتعيش التيارات المختلفة فى اليهودية بجانب بعضها البعض، وأحيانا مناقضة لبعضها البعض.

تؤثر التيارات ذات الاتجاهات الدينية والأيديولوجية على نمط حياة أفرادها وتمسكهم بالفرائض، وتؤثر فى بعض الأحيان أيضا على الملبس واللغة والعلاقات الجنسية والأسرية والتعليم والانضمام إلى معسكرات سياسية. وتبرز تباينات كتلك فى الفجوات التى بين اليهودية الحريدية واليهودية العلمانية واليهودية الدينية الصهيونية، واليهودية الدينية الإصلاحية، واليهودية القرائية واليهودية السامرية واليهودية الإنشائية ...إلخ.

كما تعيش فى اليهودية أيضا تيارات قطرية مختلفة عن بعضها البعض فى ثقافتها ونمط حياتها، وأحيانا فى لغة الحديث وصيغ الصلاة والشعائر، ونظرتها إلى التيارات الأخرى وإلى ثقافات الشعوب التى تعيش بها، مثل :"اليهودية الأمريكية" و"اليهودية البولندية"و"اليهودية الإسرائيلية".

ويتطور مجمل ثقافة اليهود عقب لقاء كل التيارات الموجودة فى اليهودية فيشمل كل تشكيلة الإبداعات التى تمثل تلك التيارات المختلفة. وتمثل ثقافة اليهودية البولندية الشرق أوربية جزءا فقط من اليهودية، وهى مختلفة وبعيدة تماما عن ثقافة الطوائف اليهودية القابعة فى سواحل البحر المتوسط، وفى شبه الجزيرة العربية، أو شبه الجزيرة الهندية، وفى شرق أفريقيا أو فى شمال أمريكا. وتختلف كل تلك تماما عن ثقافة اليهودية التى تتطور فى إسرائيل بوصفها ناتجة عن ملتقى كل أبناء الطوائف والتقاليد فى دولة قومية واحدة.

وتحيا الأقلية الفلسطينية فى إسرائيل التى تشكل حوالى خمس سكان الدولة داخل الثقافة العربية للمنطقة ولا تشكل عنصرا مؤثرا فى الثقافة الإسرائيلية اليهودية، وعلى كل حال ليس بالشكل الذى به تؤثر الثقافة الأمريكية على ثقافة اليهود فى الولايات المتحدة أو الثقافة الفرنسية على يهود فرنسا.

تطورت الطائفة الأمريكية، أكبر طوائف اليهود، والتى اكتسبت طابعها الخاص فى القرن العشرين فقط، بيد أن سماتها تميزها عن كل طوائف اليهود الأخرى. ولاتظهر ثقافة هذه الطائفة وتميزها فى غالبية مناهج الدراسة رغم تأثيرها وأبعادها. فلا يعرف معظم الإسرائيليين إجمالى النتاج الدينى والعلمانى الذى ألفه يهود أمريكا رغم أن مئات الآلاف من الإسرائيليين يقيمون فى أمريكا بصورة دائمة.

تتمثل إبداعات هذه الطائفة باليديشية والإنجليزية فى فنون المسرح والفن التشكيلى والموسيقى والسينما والفكر الدينى والعلمانى الإنسانى فى مؤسسات الثقافة العليا اليهودية، وفى مشروعات الطائفة وإبداعات كبيرة قد نشأت نتيجة اندماج اليهود فى ثقافة الولايات المتحدة، مما يشكل أحد المظاهر الكبيرة للثقافة اليهودية الواجب معرفتها لفهم ثقافة اليهود فى عصرنا.

ومن يرغب التعرف على اليهودية عليه التعرف على أجزاء معينة فقط من يهودية شمال أفريقيا المعروفة فى إسرائيل (وهى غير معروفة لدى معظم يهود العالم)، ومن أجل معرفة العالم الروحانى وإبداع يهودية شمال أفريقيا - من مصر مرورا بليبيا وتونس والجزائر والمغرب- يجب عليه معرفة مختارات من تاريخ الإبداع الذى بها، من بداية الألف الثانى من الميلاد وحتى عصرنا. وقد نشط فى يهودية تلك البلدان مبدعون ومفكرون ومؤرخون وشعراء وعلماء دين وعلماء قبالاه. و اشتهر فى عصرنا أدباء ومثقفون فى ثقافة اليهودية وفى ثقافات شعوب أخرى. وتتمثل يهودية شمال أفريقيا فى مختارات من إبداعات ضمت إبداعات فيلون وموسى بن ميمون والترجمة السبعينية[1]،

---

(١) الترجمة السبعينية :تعد أهم الأحداث الدينية فى فترة الحكم اليونانى تتجسد فى ترجمة التوراة إلى اليونانية أو ما يعرف باسم "الترجمة السبعينية" ويروى ذلك المؤرخ اليهودى يوسفوس بأسلوب خيالى قائلا: "إن بطليموس =

وسفر المكابيين لياسون (وموجزه الذى وصل إلينا)، وإبداعات ألبير ميمى وإبداعات مبدعين كثيرين آخرين فى طبقة مثقفى يهود شمال أفريقيا الذين تعلموا فى ظل ثقافة يهودية فرنسية، وأبدعوا ويبدعون فى المجال الأكاديمى والأدبى والفلسفى والفنى والاجتماعى فى إسرائيل وفى فرنسا.

لا تمثل يهودية شمال أفريقيا فقط مواعظ الحاخامات الذين يترأسون حزبا سياسيا أو فى معرفة المأكل والعادات الشعبية لعيد الميموناه[1] أو قصص الجن والعفاريت وقبور الصديقين وأضرحة الأتقياء والقديسين، بل يتبع كل هذا بالطبع الثقافة الشعبية للطوائف اليهودية التى عاشت فى شمال أفريقيا، لكن لا يمثل إجمالى الثقافة التى تطورت فى

=

الثانى الذى حكم فيما بين (٢٨٢ - ٢٤٧ ق.م) قد طلب من أليعاذر رئيس الكهنة اليهود أن يرسل إليه إثنان وسبعين عالما من علماء التوراة - ستة عن كل سبط. لترجمة أسفار موسى الخمسة إلى اليونانية، وأن بطليموس قد جعل لكل عالم مسكنا خاصا، وحظر عليهم الاجتماع فيما بينهم، وزود كل واحد منهم بكاتب حاذق فى اليونانية. وأنذرهم بالعذاب والإعدام إذا وجد إختلافا فى ترجمتهم، وبعد إنتهاء جميع الكهنة من إعداد الترجمة قام الملك بمضاهاة النسخ المختلفة فوجدها جميعا متطابقة، فابتهج وأمر لأليعاذر بجائزة عظيمة ولسائر العلماء بأموال كثيرة وأطلق أسرى كثيرين ابتهاجا بهذه المناسبة.

ومن الواضح أن رواية يوسفوس للكيفية التى تمت بها ترجمة العهد القديم إلى اليونانية لاتخرج من كونها درب من الخيال. وعلى أيه حال فإن ما نستشفه من تلك الرواية هى أن الترجمة اليونانية لأسفار التوراة قد تمت خلال القرن الثالث قبل الميلاد.

انظر: منى ناظم الدبوس: أضواء على تاريخ اليهود من القرن الخامس قبل الميلاد إلى القرن الثانى الميلادى. ص ٣٠- ٣٢.

(١) عيد الميموناه أو احتفال الميموناه هو احتفال شعبى كان يقوم به يهود شمال أفرقيا فى وقت الربيع فى اليوم الثامن من عيد الفصح. والعيد هو احتفال بتجدد الطبيعة حيث يحتفل اليهود فى الحدائق، كما أنه كان مناسبة لإظهار العلاقات الودي بين اليهود والمسلمين، وكان يعبر عنه ببساطة وتلقائية طبقا لتقاليد الفلكلور المغربى القديم.

واللفظ ميمونة قد فسر عدة تفسيرات منها أنهم يرجعون الكلمة إلى موسى بن ميمون، الذى يقال أنه مات فى اليوم الأخير من عيد الفصح وهو توقيت الاحتفال بالميموناه. والميموناه هى العيد المغربى المحلى الوحيد الذى احتفظت به طائفة شمال أفرقيا وحملته معها إلى أماكن استقرارها الجديدة، وأصبح له فى إسرائيل الآن طابع العيد القومى.

للمزيد انظر: سوزان السعيد يوسف: موسى بن ميمون ومهرجان الميمونة. مجلة الدراسات الشرقية، العدد الخامس عشر يوليو ١٩٩٥.

اليهودية الخاصة بها، تماما كما لا تمثل عادات ومأكولات وقصص أتقياء شرق أوربا التى تلاشت فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر، وقصص الجن والعفاريت وقبور الصديقين ومعجزاتهم الثقافة الثرية للأدب والفكر والفن التى ابتكرت فى يهودية شرق أوربا.

معظم الإبداعات التى تمثل التيارات الإقليمية المختلفة فى القرن العشرين هى إبداعات متحررة من ديانة الشريعة، إبداعات تم تأليفها خارج إطار الديانة اليهودية. ومن هنا تأتى صعوبة اعتبار أنها تمثل تقاليد قديمة نموذجية للطائفة التى ألفت فيها. وتمتزج فى الثقافة عادات وإبداعات قديمة بعادات وتقاليد وإبداعات معاصرة ويشكلون معا المجموع الكلى الذى يمثل ثقافة حية، ثقافة يتعرض لها الناس الذين يعيشون بها.

وعن طريق مجموعة إبداعات مختارة تمثل تنوعا يميز كل واحد منها تيار من تيارات اليهودية ويمكن التعرف عليها وعلى ما يميزها والمشترك بينها وبين تيارات أخرى فى اليهودية.

كل التيارات اليهودية شريك فى عملية تاسيس اليهودية بوصفها ثقافة

إن كل ما أُلف فى أى تيار من التيارات اليهودية قد تم تأليفه فى اليهودية بوصفها ثقافة مشتركة لكل اليهود. وتبدو الإبداعات والعادات المبتكرة فى أى تيار من تيارات اليهودية من الوهلة الأولى وكأنها مميزة لها فقط. ويتحول المختار منها عبر الزمن إلى تراث لليهودية بوصفها ثقافة خاصة باليهود.

إن إبداعات التوراة الشفهية الخاصة بيهود العراق، وإبداعات موسى بن ميمون فى مصر، وإبداعات القبالاه فى بروفانس[1]،أسبانيا وفرنسا، وفلسفة سبينوزا من الطائفة اليهودية البرتغالية فى أمستردام، وأدب حركة التنوير فى ألمانيا وروسيا، وأدب اليديش فى الزاس فى إيطاليا، وفى بوهيميا فيبولندا وأوكرانيا وليتوانيا، وإبداعات بلغة اللادينو[2] فى

---

(١) بروفانس منطقه فى جنوب فرنسا تضم خمس محافظات وأهم مدنها مرسيليا ونيس.

(٢) اللادينو: لهجة أسبانية يتحدث بها اليهود السفارديم (الشرقيون) وتتكون مفرداتها من أسبانية العصر =

بلدان البحر المتوسط، وآداب يهودية فى ألمانيا وانجلترا فى غرب أوربا وفى أمريكا، والآداب والفن اليهودى فى القرن العشرين فى فلسطين، تضم تلك الإبداعات مجتمعة فى ثقافة يهودية واحدة مشتركة لكل التيارات اليهودية. وتحولت مختارات منها عبر الزمن إلى عناصر مؤثرة ومشكلة لثقافة اليهود كلهم.

وتشارك فى عملية خلق ثقافة اليهود كل التيارات الطائفية والدينية المتحررة من ديانة الشريعة والفاعلة بها. ولمعرفة اليهودية يجب معرفة هذا التطور.

لايوجد تعارض مطلقا بين الإسرئيلية واليهودية؛ حيث إن اليهودية تضم الثقافة الإسرائيلية بكل ظواهرها، كما أنها تضم ثقافة اليهودية الألمانية واليهودية اليمنية واليهودية البابلية التلمودية ويهودية الجماعات الهيلينية فى العصر الهلينستى. كما تضم إبداعات موسى بن ميمون وسبينوزا وعلماء الديانة بفينا ويهودا ليف جوردون وهينا وبيالك وألترمان وشالوم عليخم وفدى إيلن وسيجل وسوطين ودينستجر وماهلر وبرنشطين وشطينبرج وأ.ب. يهوشواع وعاموس عوز ودافيد جروسمان وعميحاى وبن حاييم وأشعار بوب حول العهد القديم وأعمال دانى سندرسون، وإبداعات سينمائية وتليفزيونية إسرائيلية كلها تشارك فى تشكيل اليهودية بوصفها ثقافة اليهود.

ما هى السمات المشتركة بين يهود إسرائيل ويهود الخارج ؟

ما المشترك بين اليهود المتدينين والعلمانيين؟ وما المشترك بين يهود اليمن ويهود كاليفورنيا؟ وما المشترك بين يهود كل البلدان و التيارات اليهودية وما يميزهم عن الشعوب الأخرى؟

إن الشىء المشترك بين اليهود - متدينين وعلمانيين - هو الإيمان والاعتراف بتاريخ مشترك والارتباط بالأدب الكلاسيكى المتضمن فى العهد القديم وبلغة قومية، وبتراث

=

الوسيط ومفردات عبرية وتركية وبرتغالية قليلة وكانت تكتب قديما بالحروف العبرية، ولكنها تكتب الآن بالحروف اللاتينية .

ثقافي قومي متطور، وبأن أرض إسرائيل "فلسطين" هى وطن اليهود ودولتهم القومية، وبالأعياد المشتركة، والاعتراف بضرورة الصراع ضد مخاطر معاداة السامية الموجودة نظريا وعمليا في كل مكان.

- يسود الإيمان بوجود تاريخ مشترك حتى بين الذين يؤمنون بأن الصورة التاريخية التى صورتها المصادر القديمة في اليهودية لا تلائم الواقع، ويجب تشكيلها مجددا على أساس وثائق وشهادات بما فيها المصادر القديمة المذكورة آنفا.
- الارتباط الثقافي بالعهد القديم بوصفه أساسا مشتركا وحيدا لكل تيارات اليهودية- الدينية، والعلمانية – وهو أيضا الرباط المشترك بين الذين يعتبرونه وثيقة دينية، أو تشكيلة من الأدب الكلاسيكي الذي يؤلف كذلك مجموعة وثائق تاريخية وبين هؤلاء الذين يعتبرونه " الوطن المتجول لليهود " كما قال هيانا.
- الارتباط باللغة العبرية بوصفها لغة قومية – ولغة قديمة يستخدمها اليهود تباعا منذ ثلاثة آلاف سنة على الأقل، وعادت لتكون لغة حديث وإبداع ، واللغة الرسمية للدولة اليهودية ولغة تعليم أغلبية شباب اليهود في العالم والذي تجمع الآن في إسرائيل.
- تندرج في التراث الثقافي لليهود إبداعات يهودية؛ إبداعات أثرت اليهودية على مؤلفيها وإبداعهم أو إبداعات كانت عاملا مؤثرا فى اليهودية. وأُلفت إبداعات يهودية بلغات يهودية كثيرة (لغات تحدثها يهود فقط مثل اليديشية واللادينو والموغرابية في المغرب، والطاطيت في القوقاز، ولهجات يهودية إيطالية، ولهجات يهودية في اليمن وغيرها). وقد أُلف جزء كبير من فكر اليهود بلغات الشعوب التي عاش بينها اليهود (مثل الآرامية واليونانية والعربية والألمانية والإنجليزية والفرنسية والروسية وغيرها). وقد ابتكرت إبداعات في الفن التشكيلي وفنون العرض لدى اليهود في كل عصر وحاليا تشمل إبداعات يهودية في المسرح والسينما والتليفزيون.
- أرض إسرائيل "فلسطين" في نظر يهود العالم هي مسقط الرأس المشترك والوطن

القومي الذي عاد ليكون مركزا سياسيا وروحانيا لليهود، وهي البلد الوحيد في العالم الذي يتزايد به السكان اليهود، وتكثر إبداعاتهم وتتنوع فتزيد عن إجمالي الإبداع اليهودي في كل بلدان العالم.

- أصبحت الأعياد القومية، التي تحولت من أعياد خاصة بالطبيعة والتاريخ إلى أعياد دينية في مختلف عصور اليهودية، أعيادا تاريخية وشخصية واجتماعية خالية من المضامين الدينية. وزاد عدد اليهود المحتفلين بها في اليهودية المتحررة من الديانة.

- الاعتراف بخطر معاداة السامية وتعابيرها، المعتدلة والعنيفة، وضرورة مواجهتها أمر مشترك بين غالبية اليهود في العالم. وينتج عن ذلك شعور بتضامن اليهود والذي يلزم الفرد والجماعة بالعمل في وقت تفاقم الخطر ووجوب التعامل معه، كما حدث في كل مرة على مدار العشرين قرنا في تاريخ اليهودية منذ تدمير الهيكل الثاني. وهذا الاعتراف مرتبط بسمة إضافية وهي :

- الاعتراف بالمصير المشترك لليهود لكونهم يهودا، وبوجوب التضامن اليهودي بالإضافة إلى وجوب التضامن مع كل فرد حيث إنه إنسان. وهذا الاعتراف مثل كل السمات المذكورة آنفا تم استيعابه وأصبح جزءا من الوعي القومي اليهودي للفرد من خلال التعلم في الأسرة والطائفة والدولة.

كل تلك السمات الروحانية والإدراكية مشتركة بين اليهود في كل التيارات الطائفية والدينية والعلمانية والإقليمية. و لاترتبط أي سمة منها بالتمسك بفرائض الشريعة أو بموقف ما يتخذه فرد في أي من الخلافات الكثيرة الموجودة في اليهودية. وتميز تلك السمات المشتركة اليهود عن سائر الشعوب، وهي خاصة بهم فقط، ويلتزم بها الذين ينضمون لليهود، ولا تختفي بصفة عامة مع عملية الانسحاب من جماعة اليهود من خلال تغيير الديانة أو الإندماج الاجتماعي والثقافي.

أسس الخلاف والفجوات بين التيارات اليهودية المعاصرة

يتفاقم في اليهودية المعاصرة التصادم بين التيارات الدينية والعلمانية، وبخاصة في

إسرائيل حيث قوّت الديمقراطية فيها الأقليات الدينية، وزادت من ارتباط الأحزاب الدينية والعلمانية ببعضها البعض.

وحركت الخلافات والتناقضات بين تيارات اليهودية مسارات تطورها في كل العصور. وتبدو التصدعات بين التيارات والفرق دائما لا يمكن رأبها، فشجعت أعضاء كل تيار على العمل والابتكار وتقوية ثقافته وتميزه. وقد انضمت بعد ذلك مجموعات من تلك الإبداعات إلى المجموع الكلي للثقافة اليهودية فظهرت فائدة الخلاف.

يوجد خلاف في جوهر الحرب الثقافية التي تجرى فى إسرائيل في عصرنا بين غالبية السكان اليهود الذين يؤمنون بسمو قوانين الديمقراطية على كل شريعة دينية وبين تيارات المعسكر الديني التي تؤمن بسمو الشريعة على قوانين الديمقراطية، وتفرعت من هذا الخلاف باقي الخلافات بين المتدينين والمتحررين من ديانة الشريعة حيث: الخلاف بين المؤمنين بسمو القيم الإنسانية على كل فرائض الشريعة وبين المؤمنين بسمو فرائض الشريعة على كل قيمة وقانون بما فيها قوانين الديمقراطية والقرارات الديمقراطية في الكنيست أو في المحكمة العليا.

- الخلاف بين المؤمنين بمساواة تامة بين النساء والرجال: حقهن في شغل وظيفة قاضية وليس فقط ماثلة أمام المحاكم التي تقضي في شئون الزواج والطلاق وحضانة الأطفال، وبين الذين ينظرون باحتقار إلى النساء، ويشكرون الله يوميا على أنه لم يخلقهم نساء، ويبعدونهن عن القاعة الرئيسية بالمعبد إلى ما وراء حاجز، ويعارضون تعيينهن في وظائف قيادية – حاخامات، زعماء سياسيين، مفتي شريعة – ويعارضون منح حقوق مساواة للنساء في الأسرة وتحكمهن في أجسادهن وملابسهن.... إلخ .
- الخلاف بين المعلمين الذين يؤمنون بالاندماج في ثقافة العالم ودراسة كلاسيكيات ثقافات الشعوب كأساس لأي تعليم إنساني ويهودي، وبين الذين يؤمنون بالانغلاق والامتناع عن معرفة ثقافة الشعوب وكنوزها الروحانية والفنية.
- الخلاف حول قانون العودة : هل يسرى على أبناء النساء اليهوديات فقط أم على

كل من ينضم إلى اليهود بأي طريقة، هل الانتماء القومي يتحدد عن طريق العرق وديانة الفرد، أم عن طريق معيشته ومشاركته الاجتماعية والثقافية في حياة الشعب الذي ينضم إليه ؟

- الخلاف بشأن قوانين التهود بين المؤمنين بأن عملية الانضمام إلى اليهود غير مرتبطة بالدخول فى الديانة اليهودية، حيث إن اليهودية هي ثقافة تضم ديانة لكنها لا تتطابق معها، وبين المؤمنين بأن طقوس التهود المتبعة في تيار الأقلية الأرثوذكسية في اليهودية الدينية هي فقط التي تعترف بها الدولة، أم أن طقوس التهود المتبعة في تيارات الأغلبية اليهودية الدينية في العالم، المحافظين والإصلاحيين، يُعترف بها أيضا.
- الخلاف بشأن واجب التجنيد في الجيش للدفاع عن مواطني الدولة بين المؤمنين بوجوب سريان هذا الواجب على كل طلبة الثانوية، وبين المؤمنين بسريانه على الطلبة العلمانيين حتى يستطيعوا الدفاع أيضاعن الطلبة الذين يختارون الدراسة في المدارس الدينية وعلى ذلك فالدولة تعفيهم من واجب التجنيد ومن المخاطر المرتبطة به.
- الخلاف حول واجب الانصياع للحاخام أو لقائد الوحدات العسكرية التي يترأسها حاخامات ولا يترأسها قادة فقط.
- الخلاف بشأن حرية الديانة والتحرر من الديانة، والتي تتجلى على سبيل المثال في الخلاف بخصوص فرض أحكام يوم السبت و الطعام الحلال والدفن والزواج والختان والحاميت[1] والصيام وأحكام دينية أخرى مفروضة على يهود علمانيين يلقبهم المتدينون أنفسهم بـ "المتح رريـن" لكن لا يوافقون على الاعتراف بحريتهم.

لا يمكن حل تلك الخلافات لأنها تعبر عن تناقض بين مبدأ سمو الشريعة على كل

---

(١) الحاميتس: كناية عن الطعام المختمر المحظور أكله لدى اليهود فى عيد الفصح أو للآنية التى علق بها الخمير.

قانون أو دستور وضعه أفراد في الديمقراطية وبين مبدأ القيم الإنسانية العالمية، وتعابيرها في الديمقراطية، وسموها على فرائض الشريعة لتيار ديني ما أو على آراء حاخامات حتى وإن كانوا يتظاهرون بالحديث باسم الإله.

عندما لا توجد إمكانية لحل وسط، تبقى إمكانية الحوار كوسيلة للتفاهم المتبادل ولإيجاد سبل فعلية لتعايش متعدد في الدولة أو في تجمع سكاني واحد، مع الحفاظ على أقصى حد من الاستقلالية التعليمية والثقافية لكل تيار من تيارات اليهودية طالما لا يضر بحقوق المواطنين وبالتشريعات الأساسية للديمقراطية.

التعددية في عصرنا هي استمرار لتقاليد يهودية عمرها آلاف السنين

عندما سُئل الحاخام " شاخ " ،أحد الحاخامات الأرثوذكس المغالين في العالم: "ما هي الصورة الأقرب للديانة اليهودية ؟ أجاب : " يهودية حبد"[1]. ويعترف الحاخام شاخ بالتعددية المهيمنة على ثقافة اليهود وديانتهم، إنه يعرف أن اليهودية قد تمخضت عن تيارات كثيرة وأن اليهودية الحريدية "الليتوانية" التي يتزعمها هي فقط إحدى التيارات الحريدية في اليهودية الدينية الأرثوذكسية. وحسب رأيه فإن يهودية أتباع مسيح بروكلين الذين يؤمنون بأنهم استمرار لتناي وبعل شيم طوف لا تتطابق مع يهودية الحاخام شاخ و يهودية نظرائه "المعارضين" الذين يؤمنون بأنهم استمرار لجاؤن فينا.

---

(١) حبد : هي جماعة دينية ولهذه الجماعة حوالى مائة وأربعة وأربعين مركزا لهذه الحركة باسرائيل خصوصا فى "كفارحبد" التى تقع بين القدس وتل أبيب ،وفى القدس وحولون واللد، وكريات ملاخى وصفد، كما تدير مئات الصفوف لتعليم الأطفال اضافه إلى عشرات المؤسسات والمكتبات ونحو عشرين مدرسه دينية. وترى الحركة أن جوهر رسالتها اليوم يكمن فى الحفاظ على الوجود اليهودى من جانب، وإعداد العالم لقدوم المسيح المخلص من جانب آخر .وتتمحور نشاطات حبد حول تقدم خدمات دينية للجمهور. وعلى الرغم من كونها حركة حريدية فإنها بعكس الحريديم لم تقاطع إسرائيل وتحاول التقرب من العلمانين والعمل بينهم طمعا فى توبتهم التى تعتبر فى نظر الحركة شرطا لقدوم المسيح المنتظر. وتدعو حبد إلى سياسة حازمة تجاه العرب وهى تؤيد فكرة "أرض إسرائيل الكاملة" على الرغم من عدم وجود دليل قاطع على أن هذه الحركه تعترف بدولة إسرائيل .

للمزيد انظر: رشاد عبد الله الشامى: القوى الدينية فى إسرائيل بين تكفير الدولة ولعبة السياسة. ص ٢٥٨ – ٢٩٠.

في المقابل وعلى مسافة كبيرة من اليهودية الحريدية نجد فى اليهودية الدينية تيار اليهودية الأرثوذكسية الجديدة في أمريكا وفروعها فى إسرائيل، واليهودية الدينية الصهيونية بتياراتها المعتدلة والمتطرفة، واليهودية الإصلاحية والمحافظة والتي تشكل أغلبية اليهودية الدينية في العالم. وتنتمي جميعها إلى معسكر التيارات الدينية في اليهودية والآخذ في التقلص سريعا منذ بداية القرن العشرين وذلك مع ازدياد اليهودية المتحررة من ديانة الشريعة بمعسكراتها " العلمانية" و " التقليدية ".

يوجد في الحركة المسيحانية الحبدية التي انتقلت إلى بروكلين في نهاية القرن العشرين من يؤمن بمسيحانية "شنيئور سون" معلمهم حتى بعد موته، تماما مثلما آمن كثيرون في الفرقة التي تكونت في معبد يعقوب "إخوة يسوع" في القدس في القرن الأول بأن معلمهم المولود فى الناصرة هو المسيح وأن موته لن يمنع مقدمه ثانية وسيأتي بالخلاص للشعب والعالم.

ترى اليهودية الحريدية بكل فرقها وكذلك كثير من التيارات اليهودية الأرثوذكسية الأخرى أن اليهودية الإصلاحية والمحافظة كحركة دينية ليست يهودية مطلقا. ولا تعترف الأقلية الحريدية بحاخامات الأغلبية اليهودية الدينية في العالم ولا بآرائهم ولا بالزواج أو التهود الذي يتم عن طريقهم .

وكان لهذا الانقسام سابقة في اليهودية في العصر الهلينستي. وقد نتجت في فترة الهيكل الثاني بالقدس وبعد خرابه خلافات عميقة لاحل لها بين مؤيدي الحشمونائيين الأوائل وبين يهود متأغرقين، وبعد ذلك بين صدوقيين وفريسيين وأسينيين ويهود مسيحيين، وفرق الصحراء وقنائيين وغيرهم .

أدانت اليهودية الربانية اليهود المتأغرقين بوصفهم يهودا مندمجين في الحضارة اليونانية يعبدون الأوثان، وانعزلت عن جماعات كثيرة من اليهود في فلسطين و الخارج عندما اندمجوا في ثقافة الغرب. وقام الفريسيون بتجنيد مأجورين للتمرد ومحاربة الملك اليهودي "ألكسندر يناي" لأنه نهج سلوك الملوك الهلينستيين في ممالك مجاورة ولم يتقبل سلطة اليهودية الربانية.

"يهودية معيارية" موجودة لدى المؤمنين بها فحسب

لا تتجلى التعددية في يهودية العصر الهلينستي البيزنطي فقط في تناقضات وتصادمات بين فريسيين وصدوقيين، بل في التشكيلة الثرية للتيارات اليهودية: الفرق والطوائف التي تنتمي إلى تيارات مختلفة في اليهودية والتى تعيش في قارات مختلفة متأثرة ومؤثرة في ثقافات مختلفة. ولا يمثل أي تيار من تيارات العصر الهلينستي "اليهودية" تماما مثلما أنه لا يمثل أي تيار من تيارات اليهودية المعاصرة اليهودية. وكانت توجد في ذلك العصر ،كما في عصرنا، " يهودية معيارية " واحدة فقط في نظر المؤمنين بأن اليهودية تقتصر على التيار الذي ينتمون إليه فحسب.

آمن يهود مسيحيون كثيرون أنهم "الأمة اليهودية" الحقيقية وكل التيارات الأخرى قد خانت روح اليهودية ومستقبلها. كما آمن يهود ربانيون أنهم هم فقط الذين يمثلون اليهودية الحقيقية وأن مؤسسة الحكم الدينية الكهنوتية الصدوقية و الملكية الحشمونائية خانت مبادئها، وآمن صدوقيون وقرائيون أن الإخلاص لشريعة العهد القديم فقط هو تعبير عن اليهودية الحقيقية وأن كل تفاسير التوراة الشفهية واختلاق الحياة التي بعد الموت يعد انحرافا جسيما يشوّه اليهودية.

آمن يهود سامريون أن كل الفرق والتيارات الأخرى ليست يهودية أصيلة ولا تنتمي إلى اليهودية الوحيدة التي استمرت بتتابع مسيرة تاريخ اليهود في منطقة مملكة الأسباط العشرة في فلسطين.

ولا يمكن أن يُسمى العصر الهلينستي في تاريخ اليهودية بـ" فترة التلمود "، تماما مثلما أن يهودية التلمود لا يمكن أن تعتبر في عصرنا اليهودية المعيارية.

لا تحدد المعايير الكمية لفرقة أو لتيار في اليهودية حجم الدور الذي يلعبه في الإبداع اليهودي وفي بلورة كنوزها الروحانية وفي تأثير معتقداتها والأفكار السائدة بها. وتُحدد المعايير الكمية الإبداعات والمؤسسات، والتي بسببها يُعرف تيار ما في اليهودية، ومن خلالها يؤثر فى تطورها.

أنبياء يهوه القليلون، الواردة أقوالهم في العهد القديم، ويعرضهم أدباء العهد

القديم على أنهم متحدثون باسم أقلية معارضة (أحيانا فرد واحد) يواجهون المؤسسة الملكية الحاكمة وغالبية الشعب. وتحولت الإبداعات البلاغية الشعرية لهؤلاء الأنبياء وأفكارهم الثورية حول وصايا العدل المفضلة على فرائض الشريعة عبر الزمان إلى قوة روحانية مؤثرة أكثر من الأفكار التي عبر عنها متحدثو الحكام وأغلبية اليهود في فترة العهد القديم.

أعتبر فكر سبينوزا والذين ساروا على إثره خلال سنين كثيرة رأيا لأقلية عديمة القيمة ومنبوذة في اليهودية حتى تحول إلى فكر أساسي لدي تيارات الأغلبية المتحررة من ديانة الشريعة ومن الإيمان بإله خاص لليهود.

كانت الصهيونية ومفكروها أقلية عديمة القيمة في اليهودية في القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين وقد عارضتها غالبية الحركات الكبرى في العالم العلماني والأرثوذكسي والإصلاحي أو تجاهلتها وبعد مرور جيلين أصبحت الصهيونية العلمانية ممثلة لليهود. وصارت أفكارها ومعتقداتها مصدر إلهام لثورة التحرر القومي وللثورة الثقافية التي جددت اليهودية بإحيائها العبرية كلغة حديث وإبداع.

اعتبر كثيرون أن اليهودية الربانية التلمودية التشريعية هي "اليهودية المعيارية" لدى جماعات كثيرة في العصر الوسيط وهي في عصرنا توجه أنماط حياة أعضاء الأقلية الأرثوذكسية وثقافتهم، إلا أنها لم تعد تؤثر بعد على الحياة الروحية والثقافية والاجتماعية لأغلبية اليهود في العالم ولم تعد تمثل اليهودية بوصفها ثقافة.

تبلورت في عصر العهد القديم أيضا ثقافة اليهود لأول مرة، وقد اعتبر أنبياء يهوه أن عقيدتهم هي اليهودية المعيارية. وحسب شهادتهم لم يأخذ معظم اليهود برأيهم.

خلافات في اليهودية الهلينستية وفي اليهودية المعاصرة

تذكرنا التناقضات بين التيارات التي تطورت في يهودية العصر الهلينستي، في نهاية الألف الأول قبل الميلاد وبداية الألف الأول الميلادى، بالتناقضات التي بين تيارات اليهودية المعاصرة.

وحقق حاخامات التوراة الشفهية أكبر إصلاح في اليهودية في فترة الهيكل الثاني وبعده، ولقد ضمنوا بتسريعهم مسار التغيير الدؤوب في الديانة وفي الثقافة اليهودية استمرار اليهودية بوصفها ثقافة حية ومتطورة ومتكيفة مع تحولات ظروف الزمن.

وفي المقابل أحدث اليهود الذين عاشوا واندمجوا في الثقافة الهلينستية ثورة ثقافية، عن طريق انفتاح اليهودية على ثقافة الغرب وعلى الكلاسيكية والفلسفة اليونانية وهو ما يظهر في التلمود (كما أوضح ليبرمان) وفي إبداعات مفكرين وأدباء في اليهودية الهلينية، مثل أريسطوبولوس وفيلون السكندري ويوسف بن متتياهو فلافيوس. ولقد أثرت أساليب تنظيم الحكم اليوناني اليهودي (في مصر والعالم وجبل الهيكل) في تطور الطائفة اليهودية المستقلة. وأثرت الفنون اليونانية - الرسم والنحت - في فصوص الفسيفساء والصور المرسومة بالألوان على الجبس في المعابد، وأقيمت مسارح في مدن عاشت بها جماعات يهودية، واندمج ممثلون يهود وكتاب مسرحيات يهود (مثل يحزقيال هدرمطورج) في الحياة الثقافية الغربية، ونصبت تماثيل كثيرة في أماكن عامة (في معبد نهردع، وفي حمام عمومي في عكا)، وتعلم يهود كثيرون في مدرسة الجمنيسيون (مثل تلك الموجودة في جبل الهيكل) وأرسل الكاهن الأكبر وفدا رياضيا يهوديا للمشاركة في مسابقات ومراسم هيلينستية دولية.

تصدى لتلك الاتجاهات التي ترأسها يهود المدن الكبيرة، معارضون كثيرون بين "الحسيديين" وباقي الرافضين لتأثيرات المتأغرقين في الحياة اليهودية. وعندما ازداد قصر الملكية الحشمونائية تشبها بالهلينستيين تحول الصراع بين الاتجاهين من صراع ثقافي إلى صراع سياسي تجلى في التمرد وحرب أهلية خطط لها الفريسيون ضد الملكية اليهودية.

عارض الثورة الثقافية والإصلاحية التي قادها حاخامات التوراة الشفهية أرثوذكس تلك الفترة - الصدوقيون والقرائيون الذين ساروا على إثرهم. وكان رجال المؤسسة الدينية وطبقة النبلاء المعينة في الهيكل ينتمون إلى التيار الصدوقي فعارضوا محاولة الفريسيين لتغيير شرائع التوراة. ومثل الأرثوذكس المعاصرين حاول أيضا الصدوقيون والقرائيون تجميد الشريعة اليهودية، ورغبوا في التمسك بالآراء التي سادت في العهد القديم حول اقتصار الحياة على هذا العالم، وعارضوا بشدة استحداث العالم

القادم والحياة بعد الموت والتي قبلها الفريسيون. وكانت ثقافة اليهود في العصر الهلينستي تشكيلة من تيارات متصارعة تثري بإبداعاتها اليهودية بوصفها ثقافة، كما في عصرنا.

ولقد عرضت مجموعة إبداعات ذلك العصر الثقافي الثري والمتنوع تطور اليهودية الهلينية وإبداعاتها، وحركة الحسيديين الحشمونائيين والحرب الأهلية والثقافية التي قادوها ضد اليهودية الهلينية وضد الإكراه الديني الذى فرضه حكام الإمبراطورية السورية، والمملكة اليهودية الثالثة التي أقامها الحشمونائيون والتي استمرت حتى القرن الأول الميلادى، وواصلت فيها يهودية التوراة الشفهية التطور، كما عرضت الخلافات بين مؤسسة الحكم الديني الصدوقي وبين معارضيهم الفريسيين، والخلافات بين الفرق والتيارات الأخرى في اليهودية، أسينين، ومسيحيين، وفرق الصحراء وقنائيين، وتطور المعابد وإبداعات فن التصوير اليهودي الخاص بها، ومراكز الإبداع الكبيرة الخاصة باليهودية الهلينية – في مصر وفي ليبيا، وعرضت كذلك مراكز التعليم الكبيرة الخاصة بالإبداع التلمودي في فلسطين وبابل، ومسيرة تكوين العهد القديم من الأسفار المقدسة التي عرفت في بداية العصر الهلينستي وحتى ابتكار مجموعة أسفار الكتاب المقدس العهد القديم قبل القرن الثاني الميلادي، وعملية تجميع وتحرير الإبداعات من التوراة الشفهية حتى اختتام المشنا في القرن الثاني بعد الدمار الذي وقع عقب فشل تمرد في الخارج وتمرد بركوخفا ضد الحكم الروماني.

يمكن التعرف على ذلك العصر غزير الإبداعات ،في تاريخ ثقافة اليهود، من خلال مجموعة مختارة من إبداعاته – من إبداعات متأخرة في العهد القديم، والمشنا والعهد الجديد، وتفاسير التنائيم ومناقشاتهم، وإبداعات فلسفة فيلون، وإبداعات علم التأريخ لفيلافيوس وإبداعات مؤلفي أسفار المكابيين، وأدب الأسفار الخارجية والتي لم تُضم إلى العهد القديم اليهودي وضُمت إلى الكتاب المقدس المسيحي، ومن لفائف البحر الميت، ومقطوعات شعرية وتفاسير ودراما وأشعار دينية، والأدب اليهودي اليوناني واليهودي الآرامي، و يضم ذلك العصر أيضا إبداعات الفن التشكيلي التى ظلت بقايا منها في آثار معابد، ووصف أنماط الحياة، والشرائع، والأحكام ومناقشات تعرض تيارات الفكر والعقيدة المختلفة والمتناقضة.

بدأت في يهودية العصر الهلينستي تتسع حدة الفجوات بين يهودية منفتحة على ثقافة الغرب وبين يهودية منغلقة على نفسها، بين يهودية جامدة تقدس الشريعة المكتوبة فقط وبين يهودية إصلاحية فريسية أرادت ملائمتها مع ظروف الزمن المتغيرة، بين يهودية تمسكت بعقيدة العهد القديم واقتصار الحياة على هذا العالم ووحدته وبين يهودية تؤمن بانقسام العالم ووجود الآخرة وحياة ما بعد الموت. وتوجد تلك الانقسامات في اليهودية المعاصرة أيضا ومن هنا فإن ما يميزها هو وجوب معرفة ثقافة الشعب في تلك الفترة برؤية معاصرة.

الخلاف بين المؤمنين باقتصار الحياة على هذا العالم وبين المؤمنين بالآخرة

آمن الصدوقيون، مثل معظم أدباء ومحرري العهد القديم، بأن الموت هو نهاية الحياة وأن هذا العالم وحيد ولا يوجد غيره. ومثلما في عصرنا تصارع أيضا في العصر الهلينستي في اليهودية هذان المعتقدان – الإيمان باقتصار الحياة على هذا العالم وأن الموت هو نهاية الحياة، في مقابل الإيمان بالآخرة وبعث الموتى.

كان الإيمان ببعث الموتى في الآخرة تراث ثقافات ديانات الشرق القديم (مصر، بلاد النهرين)، وعلى ذلك اعتبرها أدباء العهد القديم تعبيرا عن الوثنية. ومع تأسيس ديانة توحيدية لتوراة موسى والتنازل عن العالم الآخر وعن الاعتقاد بأن الموت هو بداية حياة جديدة انفصل المؤمنون بها عن ثقافة الجيران. وكان ذلك إحدى السمات المميزة للديانة التوحيدية اليهودية القديمة والتي تتجلى في إبداعات توراتية.

ظهر تميز توراة موسى في تحرير العهد القديم وفي تحديد موقع جنة عدن في بداية التاريخ وليس في نهايته. وكان الاعتقاد باقتصار الحياة على هذا العالم أيضا هو الأساس في مطالبة الأنبياء بالعدالة التي يجب أن تتحقق هنا و الآن، في العالم الوحيد الموجود. ويُقرب الإيمان باقتصار الحياة على هذا العالم أدب العهد القديم إلى عقلية اليهود المتحررين من الديانة في عصرنا.

وعقب تدمير الهيكل ازداد القرؤون وأصبحوا أحد التيارات الكبيرة التي تصارعت مع اليهودية الربانية، وحاول القرائيون مواصلة طريق الصدوقيين بشأن كل ما

يتعلق بالصلاحية الخاصة الممنوحة للشريعة الواردة في التوراة. وواصل اليهود الربـانيون طريق حاخامات التـوراة الـشفهية في التفـسير التجديـدي متعـدد الخيـال، وفي التفاسـير والشروح التي غيرت مغزى المكتوبات فصارت آراء وتشريعات جديـدة في التلمـود وفي الآداب التي استمرت عـلى دربـه. ويـشكل التنـاقض بـين هـذين الاتجـاهين – المحـافظ الساعي للجمود والإصلاحي الساعي للتطور – أساسا لحروب ثقافيـة في اليهوديـة منـذ ذلك الحين وحتى الآن.

ويعد نهج الصدوقيين والقرائين ،مثـل نهـج الحريـديين في عـصرنا، محكـوم عليـه بالفشل ذلك لأنه أدى ويؤدي إلى وقف تطور الثقافة اليهودية. ولقد حُكم عـلى كـل مـن حاول تجميد الشريعة وتعطيلها ،كل جماعة وتيار لم يـشارك في حركـات التطـور والتغيـير المستمرة في اليهودية بوصفها ثقافة، في التـاريخ بالانحـسار الكمـي والجـدب الروحـاني. فاليوم يتبقى من القرائيين بعض عشرات آلاف فقط (في ليتوانيا، وفي شبه جزيـرة كـريم، وفي إسرائيل) ويشكل الحريديون ٥٪ فقط من اليهـود بعـد أن كـانوا يـشكلون في القـرن التاسع عشر الأغلبية.

أخطأ "طوفيوني" عندما رأى أن اليهودية بوصفها ثقافة مشلولة بجمودهـا، ونـتج هذا عن قصور في حدود نظرته إلى اليهودية الدينية الحريدية الجامدة والتي تشكل عنـصرا هامشيا في تطور ثقافة اليهود في عصرنا.

الخلاف حول أساس اليهودية - العهد القديم أم التلمود

يعد الخلاف بين الذين يعتبرون العهد القديم أساسا لليهودية بوصفها ثقافـة وبـين الذين يعتبرون التلمود وأدبه أساسا لليهودية بوصفها ديانة هو جـوهر كـل الخلافـات في النظرة إلى اليهودية المعاصرة.

يرى الذين ينظرون إلى اليهودية بوصـفها ديانـة أن أدب التفاسـير والـشروح منـذ التوراة الشفهية مصدرا أسآسيا وموضوعا رئيسيا لدراسة اليهوديـة كلهـا. ويـرى الـذين ينظرون إلى اليهودية بوصفها ثقافة اليهـود أن إبـداعات الأدب الكلاسـيكي الموجـودة في العهد القديم أساس هذه الثقافة، التي انتسبت إليها كل الثقافات الأخرى، بـما فيهـا أدب حاخامات التلمود.

يعتبر اليهود المتحررون من ديانة الشريعة أن العهد القديم الأساس المشترك الوحيد لكل تيارات اليهودية ومنطلق تطور اليهودية بتياراتها المختلفة، بما فيها التيار التلمودي. وتحوى كل الآداب اليهودية الأخرى إبداعات كثيرة مصدرها العهد القديم: الأدب المعروض في الأسفار الخارجية، والأدب اليهودي الهيليني، والأدب المسيحي اليهودي وأدب التصوف والقبالاه والفلسفة اليهودية والشعر الديني والعلماني، والنثر والدراما، في فترة الهلينية وفي العصر الوسيط وفي عصر النهضة الأوربية وفي عصرنا.

لا يستطيع الذين ينظرون إلى اليهودية على أنها ثقافة تعددية ومتطورة الاتفاق مع الذين يؤمنون بأن التلمود هو مصدر اليهودية، وأسمى من كل الآداب اليهودية الأخرى لأنه يضم بين جنباته الحكمة كلها وكل المصادر المهمة لليهودية.

في العصر الحديث منذ التحرر وتسريع مسارات العلمنة لدى اليهود تتطور بسرعة يهودية "غربية" تكشف عن انفتاح وتعمل على الاندماج في ثقافات الغرب. وتطورت مراكزها الكبيرة بداية من القرن التاسع عشر في شرق وغرب أوربا وفي أرض إسرائيل "فلسطين" والأمريكتين، ولكنها تضم مثقفين كثيرين وأدباء يهود من الدول العربية والإسلامية. ونمت في كل تلك البلدان حركات محافظة – صدوقية وقرائية في رؤيتها للمكتوبات والتي أخذت في الانزواء عن ثقافات الشعوب وتنكرت ليهودية أغلبية الشعب التي واصلت التطور والاندماج في الثقافة الغربية في نهاية القرن العشرين.

ولقد نظرت تلك التيارات الجامدة إلى التلمود بصفة خاصة على أنه هو أساس تمسكهم بالقديم رغم كونه أدب نقاشات مفتوحة تعرض خلافات، معظمها ليس له حل، وكونه أسلوبا بحثيا ونقاشيا يطور الشرائع ولا يجعلها جامدة. إنه أحد التناقضات الثقافية الكبيرة في اليهودية. وتتخذ اليهودية المحافظة من التلمود أساسا لها رغم أنه يعرض التعددية كمبدأ أساسي، والخلاف على أنه طريق إلى الحقيقة، والتغيير الدائم على أنه ضمان لاستمرار الثقافة اليهودية، والشريعة على أنها دائمة التطور. بينما ترى اليهودية المتحررة من ديانة الشريعة الثابتة أن العهد القديم هو أساس اليهودية، مع أن أدباءه ومحرريه آمنوا أن الفرد يستطيع التحدث باسم الإله مدعيا بأنها أقوال إله حي لا ينبغي الاعتراض عليها أو إلغائها من خلال رأي الأغلبية.

كلما نقص المعسكر الحريدي وزاد حرصه على استمرار وجوده ، كلما زاد معدل اندماج اليهود في ثقافات الغرب، وتطور كذلك الإبداع والثقافة الإسرائيلية العلمانية القائمة على العبرية والعهد القديم ذلك الأدب الكلاسيكي لليهود، وهكذا زادت الفجوة وتفاقم التناقض بين اليهودية والتي تتمركز كل الدراسات بها حول التلمود وأدبه وبين اليهودية التي ترى أن كل الآداب اليهودية هي إبداعات تمثل اليهودية.

تعدد الديانات والتصورات حول الإله في يهودية عصر العهد القديم

ساد لدى اليهود في عصر العهد القديم المعتقد القائل "هذه وتلك أقوال الإله الحي" وهو يميز التعددية في ديانة عصر العهد القديم وثقافتها. كما أنه لم يكن في عصر العهد القديم تطابق بين اليهودية بوصفها ثقافة واليهودية بوصفها ديانة. وتصف إبداعات العهد القديم وتعرض الثقافة اليهودية التي تصارعت فيها اتجاهات مختلفة داخل ديانة يهوه، وتصارعت ديانة يهوه، داخل اليهودية، مع ديانات آلهة أخرى عاشت بها بجانب ديانة يهوه.

وظهرت تناقضات محورية بين التيارات التي آمنت بخصوصية إله إسرائيل وبين تلك التي آمنت أيضا بآلهة حية ومفيدة. ووجه أنبياء يهوه هجومهم ضد جموع الشعب وضد مئات الناطقين باسم البلاط الملكي الإسرائيلي الذين عبدوا "بعل وعشتروت". ويدل استنكار تعدد الآلهة في يهودية عصر العهد القديم في خطاب الأنبياء على المعدلات الكبيرة لظاهرة الإيمان بتعدد الآلهة في اليهودية وفي العهد القديم – من سليمان الملك الذي يبني هياكل في القدس ليهوه ولآلهة الجيران، وحتى جموع الشعب؛ حيث كان الآباء اليهود يقدمون أبناءهم وبناتهم على مذابح المولوخ في القدس. واضطر أنبياء يهوه في فترات معينة (كما في فترة إلياهو) للاختباء في مغارات لينقذوا أنفسهم أو النزوح خارج البلاد أو الهروب إلى الصحراء بسبب ملاحقات المملكة الإسرائيلية وتهديدها لحياتهم.

لقد لعبت ديانات بعل وعشتروت أدوارا رئيسية في حياة اليهود وإبداعاتهم وفي ثقافة الشعب– وأقاموا لهم التماثيل "على كل قمة عالية وتحت كل شجرة نضرة"– وفي شعائر دينية وفي هياكل الآلهة الكنعانية؛ حيث لعبت المضاجعات والفجور أيضا دورا في

الشعائر الدينية (حتى في هيكل يهوه في القدس وضعت رسوم رباعية الشكل بها قداسة وفجور، ربما في الفترات التي وضعت بها تمثال أشيرا - أم الآلهة الكنعانية). وظهرت تماثيل صغيرة لعشتروت في منازل خاصة، كما صارت ديانة عشتروت وبعل الديانة الرسمية في مملكة الأسباط العشرة، في فترة الازدهار الاقتصادي والسياسي أثناء حكم آحاب، ويدل كل هذا على الدور المركزى الذي لعبته ديانات آلهة كنعان في عصر العهد القديم في اليهودية: أي في الحياة الثقافية لليهود في فلسطين من بداية الاستيطان وحتى تدمير هياكل يهوه الثلاثة في بدان وبيت إيل والقدس.

ونجحت حروب أنبياء يهوه ضد التيارات الدينية المؤمنة بتعدد الآلهة في اليهودية أحيانا في التسبب في أعمال عنف ضد ممثلي تلك التيارات - مثل ذبح أنصار البعل، في الوقت الذي هزمهم إلياهو في منافسة سحر إشعال النار على المذابح التي بجوار المحرقة على جبل الكرمل. وانتصارات مؤقتة كتلك، مثل إخراج تماثيل وثنية من هيكل القدس، وتحطيم تمثال أشيرا الذي نصب به، وسحق حزقياهو تمثال الثعبان الذي يشفي المرض "والذي صنعه موسى"، لم تقلل من الديانات المتنوعة التي وجدت في اليهودية في عصر العهد القديم. واضطر إلياهو، الذي لم يجرؤ على مهاجمة أنصار عشتروت، بعد انتصاره المؤقت على أنصار البعل، للهروب إلى الصحراء خوفا من انتقام حاشية الملك الإسرائيلي. واتضح له في عزلته أن الإله ليس في الضوضاء ولا في الرياح بل في صوت السكون الدقيق. وعاد تمثال أشيرا، الذي أُبعد عن الهيكل في القدس، وتم وضعه به بعد عدة سنوات من محاولة إخراجه من هناك، ووفقا لآخر حسابات نجد أن أشيرا قد استقرت في هيكل يهوه بالقدس حوالي ثلثي فترة وجوده. وربما لهذا السبب اعتقد الرسام الشعبي الذي رسم يهوه وأشيرا على الفخار الذي اكتشف في النقب أن أم الآلهة الكنعانية أشيرا هى زوجة يهوه.

حتى في الأيام الأخيرة لوجود الهيكل بالقدس، يقول إرميا، استمر اليهود في تقديم أبنائهم وبناتهم إلى مولوخ على المذابح التي أقيمت في وادٍ أسفل جبل الهيكل، نتيجة إيمانهم على ما يبدو بأنه هو أيضا، مثل كل الآلهة الأخرى، يرغب في قرابين غالية ومحببة لدى الذين يقدمون القرابين لكي يظهر لهم نعمه.

يعزز مؤرخو العهد القديم- مبدعو ومحررو سفر القضاة وأسفار الملوك - رأي الأنبياء بأن غالبية اليهود عبدوا الآلهة الكنعانية بجانب أو بدلا من عبادة يهوه إله بني إسرائيل. إلا أن الأنبياء والمؤرخين أيضا ومحرري أسفار العهد القديم قد استنكروا ظاهرة الإيمان بتعدد الآلهة في اليهودية بوصفها أحد عوامل الكوارث المحيطة باليهود، ولقد أثبتوا أن الإيمان بتعدد الآلهة ظاهرة سائدة في الثقافة اليهودية، استحدث فيها التوحيد وتطور، وانتشر عبر الزمن أيضا بين شعوب أخرى.

انتصار العجل الذهبي - رمز التعددية في ديانة يهوه

عقب الحرب الأهلية القصيرة عند سفح جبل سيناء، والتي قتل فيها آلاف من عبدة تمثال العجل بقيادة هارون - الكاهن الأكبر والأول - حُطم تمثال العجل وتحول إلى فتات. وبعد مرور بضعة قرون تم تنصيبه مرة أخرى على يد يربعام الذي أصبح ملكا على غالبية بنى إسرائيل، في المملكة الشمالية والتي تركز بها عشرة من الأسباط الاثني عشر تكون منهم الشعب. وأعلن الملك اليهودي أن تمثال العجل الذهبي هو إله إسرائيل الذي أخرج الشعب من مصر، على غرار ما قاله هارون بتدشينه تمثال العجل الأول. ويتضح انتصار عبادة يهوه كعجل ذهبي للجميع وهى موثقة في كتب اليهود المقدسة.

يميز تاريخ تمثال العجل ثقافة اليهود بوصفها ثقافة متطورة ومؤمنة بالتعددية في كل عصورها. واتضح في الديانة اليهودية تعدد التصورات حول يهوه إله إسرائيل الذي أخرجهم من مصر. والإيمان بأسطورة التحرير الكبيرة، والخاصة بشعب من العبيد أصبح حرا، هو اعتقاد مشترك بين كل فئات اليهود - عبدة العجل ومعارضيهم، عبدة الإله المتمسكين بديانة الشريعةوالمتحررين من الديانة. ويتطابق الإيمان بتراث تاريخي مشترك مع معتقدات مختلفة ومتناقضة في اليهودية القديمة، كما في اليهودية المعاصرة. وصاحب الإيمان المشترك بتراث تاريخي في تاريخ اليهود مجموعة معتقدات تتعلق بسمات الإله المحرر والخالق والمراقب والمثيب والمعاقب، أو هذا الموجود فقط بوصفه بطلا أدبيا.

ولقد حفظت الاختلافات بين تيارات العقيدة والشعائر في العصر القديم وخزنت في الذاكرة الجمعية بوصفها سمات مميزة لليهودية من بداية تاريخ بنى إسرائيل. ويُعرف

إله موسى على يد الأدباء الذين يشكلون تأريخ حياته، على أنه كيان يشكل كل ما سيكون المستقبل- والذي يقول عن نفسه "أكون الذي أكون" بمعنى "أكون ما أكون". ويطابق كيان كهذا، ذي قوى مستقبلية كامنة، المُحرك الذي لا يُحرك كما يصفه الفلاسفة الذين ساروا على إثر قول أرسطو، ولا يمكن تجسيده في تمثال أو في قناع كالآلهة الأخرى. ويعد تجسيد يهوه في شكل تمثال أو في قناع يشوّه ماهية الإله، وقد أدرك موسى ذلك، وفقا لرأي الأدباء الذين صوروه في إبداعهم.

ويعلم هارون، كما في الحوار الذي في الفصل الثاني بالنص الأوبرالي "أوبراشتنبرج"، أن الشعب غير مستعد لعبادة إله مجرد من كل شكل ولذلك فهو يشجع المؤمنين بالتبرع بالذهب لصنع عجل إلها لهم، واعتبره كثيرون أنه الإله نفسه، وصدقوا كلام الكاهن بأن هذا،- الإله التمثال- هو الإله الذي حررهم من عبوديتهم وأخرجهم من مصر.

خرج موسى بعد انتصاره في صراع ضد العجل الأول من مضرب بني إسرائيل وأقام مركزا بديلا للقاء مع إلهه. وفي خيمة الاجتماع، التي هي خيمة التعرف على روح الإله لا تقدم قرابين، ولا يوجد كهنة ولا تماثيل، يوجد بها فقط مكان التعارف الوحيد مع إلهه الذي يشغل حيز المكان كله.

أقام بنو إسرائيل في مركز المعسكر هيكلا، وكذلك مذبحا جديدا يقدم عليه الكهنة قرابين ليهوه وبذلك يواصلون النهج الوثني الذي كان متبعا في كل هياكل عبادة الأوثان، (كما أوضح موسى بن ميمون). وينصب في قدس أقداس خيمة الاجتماع التي أقامها بنو إسرائيل لإلههم مرة أخرى تماثيل، ليس عجلا بل تماثيل كروفيم تشبه على ما يبدو كاريبو بلاد النهرين، لها وجه إنسان وجناح ضخم لطائر أسطوري، ولقد ظهرت تماثيل أيضا في قدس أقداس الهيكل الأول والثاني بالقدس وقد اعتبرها فيلون السكندري عرضا للماهية المضاعفة للإله- الماهية الذكرية والأنثوية له، الحكمة والعدل، العقاب والثواب. كما نُصب أيضا في هيكل القدس اثنا عشر تمثال عجل ذهبي في مدخل الهيكل تحمل على ظهورها إناءً نحاسيا. ولا توجد إشارة لذلك؛ حيث إنها قد مثلت إله إسرائيل إلا أنها على ما يبدو ذكرت الكثيرين بتمثال العجل الإلهي الذي نصب في بيت إيل.

لقد انتصر العجل في هياكل يهوه بمملكة أغلبية اليهود على معارضيه، وكان على ما يبدو في نظر مبجليه رمز القـوة والفخـر لإلـه إسرائيـل، والـذي أيـضا إذا مـا سـحقوه وحطموه، يعود ليكون هو موضوع العقيدة والشعائر الدينية للمؤمنين بإله هذا الشعب.

منذ ذلك الحـين وحتـى اليـوم تنقـسم الديانـة في اليهوديـة إلى تيـارات كثـيرة لهـا تصورات مختلفة عن بعضها البعض حول الإله. فيرى مؤلفو كتاب "شعور قومـا" (قامـة مديدة) (على ما يبدو في عصر التلمود) أن الإله عملاق أضخم من الكون ويمكن تحديـد مقاسات منخاريه وأصابعه، ويرى موسى بن ميمـون أن كـل مـن يجسد الإلـه في شـكل إنسان هو كافر بالله، وأن عقيدته مناقضة للعقيدة والديانة اليهوديـة. ويـرى مؤلفـو كتـب "هيخلوت فهمرخفا" (الهياكل والمركبة) الإله على أنه ملك يجلس على عرشه محاطا بآلاف الملائكة وله وزراء من الملائكة، وهو أمر جدير بملك ملوك العالم. ويرى الـسائرون عـلى إثر موسى بن ميمون أنه مجرد ليس فقط من كل محسوس بل أيضا من كل تـصور يـستطيع الإدراك البشري تصوره. ورأى المفكرون المتصوفون في العصر الوسيط الإله على أنه كيان يملأ كل الوجود، كيان انحـسر ليبقـى حيـز يُخلـق بـه العـالم، ورآه آخـرون أنـه يـضاجع الشخيناه وليليت، ورأى رجل متدين مثل سبينوزا أن الإله يتطابق مع الطبيعـة والوجـود فهما إلهان من نفس طبيعته.

تلك التناقـضات الأساسـية في التـصور حـول الإلـه في اليهوديـة هـي مـن رمـوز التعددية التي هيمنت عليها منذ فـترة تأسيـسها في موقـف جبـل سـيناء وفي كـل مراحـل تطورها حتى عصرنا.

منْ ينظر إلى اليهودية على أنها ثقافة يعرف أن كل التيارات التي في ديانتهـا مدرجـة في ديانة اليهودية وتلعب دورا في تطـور ثقافـة الـشعب وفي حيـاة اليهـود المـؤمنين بأحـد المعتقدات الكثيرة والمتصارعة والفاعلة بها، الدينية والعلمانية على حد سواء.

ثقافة القرابين تعبير عن خوف المؤمنين بإله شخصي

كان تقديم القرابين لإرضاء الإله أو لإطعامه أسـاس الحيـاة الدينيـة في ثقافـة بنـي إسرائيل بالعهد القديم كما في ثقافات جيرانهم. وتعبر ديانة القرابين عن إيمان بقـدرة الإلـه

على الإيذاء والإيمان بضرورة وإمكانية منع شره عن طريق تزويده بقرابين حية. وكانت طقوس القربان وذبح البشر أو الحيوانات مشتركة مع الشعائر الدينية لآلهة كثيرة في كل القارات.

لماذا استمر بنو إسرائيل في تقديم قرابين إلى يهوه حتى بعد أن انتشرت بينهم توراة موسى، والتى بناء عليها أصبح الإله مجردا ولا يتغذى ولا يحتاج إلى قرابين؟ وطبقا لرأي موسى بن ميمون يمكن تفسير هذه الظاهرة الغريبة بأن بني إسرائيل كانوا يعبدون الأوثان قبل أن يعرفوا توراة موسى وكانوا معتادين على تقديم قرابين حتى امتنعوا عن هذا بالتدريج على مدار قرون كثيرة؛ حيث إن البشر لا يستطيعون التوقف عما اعتادوا عليه مرة واحدة. وهذا التفسير العقلاني للتطور التاريخي للانقطاع عن عادة دينية عديمة المغزى من وجهة نظر المؤمنين بإله مجرد كما في توراة موسى يلقي على كل العادات الدينية والتقليدية ضوءًا جديدًا. فنجد أن كثيرا منها عديم القيمة والمغزى من ناحية عقيدة الذين يتصرفون وفقا لها، لكنهم يواصلون الاحتفاظ بها من منطلق التعود، لأن هذه هي طبيعة الإنسان. فإذا ما عُرض على الذين يقدمون القرابين ليهوه التوقف عن هذه العادة؛ حيث إنه ليس لهذا الأمر أي دلالة أو دور في العلاقة بين الإنسان وإله الكون، كانوا سيتعجبون من هذا الطلب. وبماذا يشبه ذلك الأمر؟ يسأل موسى بن ميمون ويجيب: "إنه يشبه بمن يأتي إلينا ويقترح علينا فجأة التوقف عن الصلاة أو التوقف عن الحفاظ على الفرائض".

ولقد أربك ذلك التفسير التاريخي النفسي الذي عرضه موسى بن ميمون حول عادة القرابين يهودا متدينين كثيرين؛ حيث فُهم منه أن عادات الشعائر الدينية كالفرائض والصلوات ليست إلا عادة تقليدية احتفظ بها الناس من منطلق تعود ومن المحتمل الإقلاع عنها عبر الزمن، لأنها ليست لها دلالة في نظر إله مجرد من كل محسوس أو تصور. كما رأى آخرون في هذا التفسير كفرا بينا مثل أفكار موسى بن ميمون الأخرى الخطيرة.

وتدل قصة الذبيح، وهي إحدى القصص العظيمة والمروعة في الأدب اليهودي، على الاستعداد النفسى (أو الذاكرة الجمعية أنه كان في الماضي استعداد كهذا) من الآباء اليهود المتدينين للتضحية ليس فقط بالحيوانات المنزلية بل أيضا بأبنائهم لإلهم، ليس فقط في ديانة مولوخ بل أيضا في ديانة يهوه، ويعبر هذا المعتقد الديني عن خوف من الآلهة ومن

أفعالهم وانتقامهم غير المتوقع. ولقد آمن البشر أن السلطة دائما في يد الآلهة فهي تفعل كل ما يحلو لها، ويستطيع الإنسان الدفاع عن نفسه وعن مصيره- مثل قربان التعسف الإلهي - عن طريق تقديم قربان يرضى به إلهه، فالقربان يعد أحد التعابير الانفعالية عن الإيمان بالعجز البشري الذي يوجه محاولات الإنسان للصراع مع المجهول.

تحررت اليهودية من ثقافات القرابين عقب الثورة الدينية والثقافية التي حدثت في الانتقال من الهيكل إلى المعابد، ومن مراكز الذبح التي في بيوت الآلهة إلى مراكز الطائفة الإنسانية المخصصة للاجتماع الجماعي وللاحتفال والتعلم والصلاة. وانتشرت هذه الثورة الثقافية في العالم عن طريق مؤسسات مشابهة للمعابد والتي انتشرت عن طريق الديانات التوحيدية التي تأثرت وانبثقت عن اليهودية.

المعبد تجديد ثوري في تاريخ اليهودية

لقد حدث في المعبد تحول جذري؛ حيث ألغيت القرابين في مركز الاجتماع والذي لم يعد بيتا للإله. وأقيمت المعابد على ما يبدو لأول مرة في بلدان العالم الشرقي (بابل) والغربي (مصر) عقب تدمير هياكل يهوه. وأدت المعابد كمراكز اجتماع جماعية إلى انقلاب ثقافي في تاريخ اليهودية وفي ثقافات شعوب كثيرة قد تأثرت بها.

والمعبد هو نقيض للهيكل في كثير من النواحي؛ فالهيكل هو بيت الإله أما المعبد فهو مركز اجتماع للبشر. والهيكل هو مكان طقوس القرابين، أما المعبد فهو مركز جماعي للدراسة والتعلم وقراءة الكتب المقدسة ٨التفاسير، والمحاكمة، ومكتبة عامة ومدرسة، ومركز لمؤسسات الطائفة، ومكان للقاء في الأعياد ومراسم مواقيت دورة الحياة، ومكان للصلاة الفردية والجماعية. وكان المعبد عاملا فعالا في تأسيس وتنظيم الطائفة وتماسكها والتي احتلت مكان السبط. وبعد تدمير المركز الرسمى والدينى عجلت المعابد من مسارات اللامركزية والتعددية في اليهودية. وعملت طوائف يهودية مستقلة على تطوير سمات خاصة بها وارتبطت بثقافة البلد الذي تعيش فيه، وطورت إبداعات أصيلة وتقاليد خاصة بالطائفة أو بمجموعة الطوائف التي ابتكرت تيارا جديدا في اليهودية (مثل الحسيدية).

وبفضل جموع المعابد استمرت اليهودية وديانتها فى التواجد والتطور. وفي غياب دولة يهودية ارتبط وجود اليهودية بوصفها ثقافة بوجود جموع من المعابد. وفي الأماكن التي انهارت فيها جموع كتلك، تلاشت بالتدريج اليهودية وديانتها، كما في الهجرات الأولى إلى أمريكا.

وعقب تدمير الهيكل الثاني بدأت مؤسسة المعبد في الظهور في كل البلدان التي عاش بها يهود أو نصارى. وعندما تحولت الديانة المسيحية إلى ديانة رسمية للإمبراطورية الرومانية احتلت المعابد أيضا مكانة الهياكل المركزية في العالم الوثني كما استمر الإسلام الذي تأثر باليهودية والمسيحية[١]، في نشر مؤسسة المعبد (المسجد) بين كل جماعات المؤمنين به شرقا وغربا.

تدل بقايا المعابد اليهودية التي ترجع إلى القرن الثالث قبل الميلاد في مصر على أنه في بداية العصر الهلينستي أقيمت مراكز جماعية كتلك التي في اليهودية والتي تتحدث اليونانية. وخلق المعبد وعادات التعلم وقراءة التوراة عند الجمهور الحاجة إلى ترجمة التوراة إلى اليونانية لكي يستطيع الجمهور فهم ما يقرأ. واستخدمت بشكل مماثل ترجمات التوراة إلى الآرامية للمترددين على معابد بلاد النهرين وفي فلسطين.

تطور في المعابد الفن التشكيلي (فصوص الفسيفساء، ورسم صور الألوان على الجبس)، ونظام التعليم اليهودي للكبار والأطفال وعادات قراءة الأدب الكلاسيكي اليهودي وفن الوعظ الذي صاحبه، وعادات التعلم، والتفسير الإبداعي والذي في إطاره ابتكرت آداب التأويل، واجتماعات إقليمية لنقاش الشريعة ودراستها ومدارس دينية

---

(١) سيطر على المؤلف نظرية تأثير اليهودية فى المسيحية والإسلام ، بل ويدعى أنهما قد قامتا عليها، والحقيقة أن لكل من المسيحية والإسلام دورهما فى نقد اليهودية ومحاولة ردها إلى الطريق الصحيح والمنهج القويم الذى أراده الله لأتباع هذه الديانة قبل أن يحرفوه ويفسدوه ، أما موافقة الإسلام والمسيحية في بعض ما جاء في اليهودية، فمنشأها أن جميع الكتب السماوية والرسل الذين أنزلت عليهم من عند الله فالمصدر واحد والدعوة واحدة وهي الإسلام.
وحول الرد على هذه الشبهات انظر: د. محمد نبيل غنايم: شبهات حول التشريع الإسلامي، مكتبة المنار، الزرقاء – الأردن ١٩٨٣.

لتعليم التلاميذ واجتماعات موسمية للمحترفين في شهر آذار وأيلول.(حيث يجتمع الحاخامات لدراسة التوراة وشرحها).

بالتدريج تطورت في المعابد ثقافة الصلاة وأدبها والتي جاءت عوضا عن عبادة الإله في طقوس القرابين القديمة. ولقد واصلت المعابد التطور كنهج خياري في ثقافة الديانة اليهودية أيضا في فترة الهيكل الثاني في مقابل مراسم تقديم القرابين في الهيكل الثاني بالقدس. ولقد أقيم على جبل الهيكل نفسه معبد مجاور للهيكل تم عمله بنشاط.

لقد قدم إبداع الفن التشكيلي والتصويري أيضا تفسيرا خاصا به للقصص والأساطير والأسفار المقدسة (انظر "جودناو" على رسوم معبد دورا أوروفوس). واحتلت الصلاة والأدعية مكان القرابين في الأعياد القومية الدينية وفي المناسبات الشخصية، ولم تعد عبادة الإله مرتبطة بذبح أو بإنهاء حياة إنسان أو حيوان.

عندما انفصلت المسيحية عن اليهودية استمرت فيها ثقافة الصلاة والمعابد لكنها ضمت في طقوسها بقايا شعائر ترمز إلى القربان البشري: أكل اللحم كرمز لابن الإله وشرب الدم رمزًا لتضحيته. أما في اليهودية فلا يوجد تقريبا بقايا لشعائر القربان باستثناء دراسة وبحث المبادئ والقوانين التي وجهت مقدمي القرابين في الهيكل (وعادة تقديم دجاج وديوك عشية يوم الغفران[1]).

كثرت معابد اليهود مع ازدياد التشتت اليهودي في القارات المختلفة وبين شعوب لها ثقافات مختلفة وغريبة عن بعضها البعض. ولعبت المعابد في كل بلدان العالم أدوارا

---

(١) عيد الغفران: يحل يوم الغفران فى التاسع من تشرى "أكتوبر" وهو يوم صيام عن الطعام والشراب وانشغال بالعبادة واستغفار. ويبدأ يوم الغفران قبيل مغرب التاسع من تشرى، ويستمر حتى ظهور أول ثلاث نجوم فى اليوم التالى: أى فى ليلة العاشر من نشرى. ويقضى اليهود طوال اليوم فى المعبد يتلون الصلوات، ويعترفون بخطاياهم، ويرددون هذه الخطايا، قاطعين على أنفسهم وعودا على ألا يعودوا لارتكابها. وكان كبير الكهنة فى الماضى يذهب إلى قدس الأقداس ويتفوه باسم الخالق "يهوا" الذى يحرم نطقه تماما إلا فى هذا اليوم.
وقد شاء القدر أن يحمل هذا اليوم المقدس لدى اليهود ذكرى أخرى لاتمحى؛ وهى ذكرى عبور القوات المصرية قناة السويس وانتصارها الباهر فى يوم الغفران والذى وافق يوم السادس من أكتوبر العظيم.
انظر: د. محمد بحر عبد الجيد: اليهودية. ص ١٣٥.

متشابهة- سواء بوصفها مراكز جماعية متعددة الأدوار أو بوصفها مراكز للديانة وللشعائر الدينية ولتعليم الشريعة ومناقشتها. وشجعت كثرة المعابد ووهن العلاقة بينها على تطور التيارات المختلفة في اليهودية وإيجاد صيغ مختلفة للصلاة وتفاسير مختلفة للكتب المقدسة والشريعة، واختلاق عادات مختلفة للأعياد، والزواج والحداد. وساعدت مؤسسة المعبد بهذه الطريقة في تنمية التعددية في اليهودية بوصفها ثقافة وبوصفها ديانة. وانتمت مجموعة المعابد في نفس البلد عبر الزمن إلى قطاعات وتيارات مختلفة في اليهودية - مثل معابد إشكنازية وسفاردية في غرب أوربا وإيطاليا، معابد الحسيديين والمعارضين لهم بشرق أوربا وفي فلسطين ومعابد أرثوذكس وإصلاحيين في كل البلدان في عصرنا.

أحيانا يوجد اختلاف كبير بين عادات معبد وآخر حتى وإن كانا موجودين في نفس الشارع؛ حيث نجد في معبد "يشورون" الخاص بالمحافظين، والذي يقع في شارع ٨٦ "بنات ويست أند" في نيويورك تجري صلاة ليلة السبت، مثلا، وسط غناء ورقص الرجال والنساء والأطفال وعلى أنغام البيانو وغناء الجمهور ويديرها حاخامات منشدون، وعلى مسافة دقائق معدودة تدار في نفس الوقت صلاة ليلة السبت في معبد توجد فيه النساء خلف حاجز عالٍ لكي لا يظهرن، وتجرى الصلاة عن طريق يهود الغرب الأرثوذكس بدون أدوات عزف وبلا غناء أو رقص ويتلو النصوص ذوو المناصب وليس كل الجمهور.

ومراسم استقبال السبت، مثل كل مراسم الأعياد في كل المعابد الدينية : الإصلاحية والمحافظة والأرثوذكسية لا تشبه مطلقا مراسم الأعياد واستقبال السبت في المعابد العلمانية في ديترويت أو في شيكاغو والتي تديرها لجنة طقوس الطائفة بمشاركة الحاخام العلماني أو تلاميذ مدرسة الربانيين العلمانيين التابعين لتيار اليهودية العلمانية الإنسانية في الولايات المتحدة. ولا يوجد في طقوسهم الثرية والمتنوعة ذكر لصلاة أو دعاء للإله، وعوضا عن ذلك نجد غناء وحوارا حول العيد ومغزاه للأفراد المتحررين من الديانة وحول الملزم من القيم الإنسانية التي يؤمنون بها، وحول التراث والعرف والأدوار التي أدوها ويؤدونها في ثقافة اليهود.

أدت المعابد الطائفية ونشاطاتها الدينية وغير الدينية، والهندسة المعمارية المميزة لها،

والإبداعات الفنية التي ابتكرت بها، والوثائق التي جمعت بها، والعادات والتقاليد الخاصة بها دورًا في تطور اليهودية بوصفها ثقافة تؤمن بالتعددية منذ تأسيسها وحتى اليوم.

تواصل المعابد الطائفية، في كل التجمعات اليهودية في العالم، العمل حتى في عصرنا - ومعظمها كالمعابد الدينية التى تعمل طبقا لصيغة أحد التيارات في الديانة اليهودية.

وتدل التجربة الكبيرة التي جمعتها اليهودية بتفعيل معابد كمراكز جماعية ثقافية على التواصل والتواجد، وعلى نشاطها وضمها أطرا ثابتة للنشاط الروحاني والتعليمي والتثقيفي؛ حيث طقوس أعياد في مواعيد ثابتة يديرها معلمون ذوو ثقافة يهودية وثقافة الشعوب ولديهم موهبة وقدرة على النشاط الطائفي. تجربة مارتن بوبر لإقامة مدرسة لمعلمي الشعب، مثل محاولات الحركة العلمانية الإنسانية في الولايات المتحدة لتأهيل مرشدين ومعلمين لعشرات الجماعات، يرغبون في التعامل مع الاحتياجات الروحانية والجماعية لغالبية البشر، احتياجات لا يمكن توفيرها بدون أطر النشاط الطائفي مثل المعابد التي طورتها اليهودية.

تأثير ثقافات الشعوب على اليهودية وإسهاماتها في ثقافتهم

تتضح تأثيرات ثقافات الشعوب على الإبداع والديانة والثقافة اليهودية في كل عصورها التاريخية. وتبرز في تطور الثقافة والإبداع اليهودي تأثيرات ثقافة بلاد النهرين ومصر وكنعان واليونان والمسلمين والمسيحيين، وبداية من القرن الثامن عشر تظهر تأثيرات الثقافات الأوربية والأمريكية المتحررة من الديانة.

تبرز أيضا تأثيرات إبداعات وثقافات أخرى أيضا في إبداعات أصيلة ومتميزة ألفت في اليهودية، كما في كل الإبداعات الأصيلة التي في كل الثقافات. وعلى نقيض اتجاهات كثيرة من مدرسة نقد العهد القديم والتي أكدت التشابه بين المواد السردية لأساطير الشرق القديم بتلك التي في العهد القديم، ويبرز في عصرنا الاختلاف بين الإبداعات اليهودية الأصيلة وبين تلك التي أثرت فيها. وعلى خلفية معرفتنا بأساطير بلاد النهرين القديمة الخاصة بالخلق وجنة عدن تبرز أصالة قصة الخطيئة الأولى للإله يهوه

الذي يحرم المعرفة والحكمة، وقصة التمرد وانتصار المرأة على خالق العالم، بمنحها البشرية المعرفة والحكمة رغم غضب الإله، وهي تشبه برومثاوس التي تمنح البشر النار رغم تحريم زيوس هذا.

لا توجد إبداعات في أي ثقافة قومية لم تتأثر بثقافات قومية أخرى، وعلى ذلك تتحول كل دراسة حول إجمالى إبداعات ثقافة شعب ما إلى دراسة صلاته وعلاقاته الثقافية مع ثقافات شعوب أخرى تأثرت بها أو أثرت فيها.

يكشف دمج كهذا بين دراسة اليهودية وبين دراسة ثقافات الشعوب الأخرى أيضا العلاقة بين تأثير اليهودية - عن طريق المسيحية والإسلام - على ثقافات الشعوب الأخرى في مجالات الديانة والفكر والآداب والفنون والمجتمع والطائفة، والمعابد وراحة السبت والأعياد والعلاقات بين الدين والدولة.

ولقد وُسمت أشكال الاحتفال التي تشبه حفلة سمر في أشكال احتفال أصيلة كما في احتفال ليلة عيد الفصح[1] الذي تبلور في العصر الهلينستي وضمّ تأثيرات واضحة لشكل الحفلة مثل جلوس المحتفلين حول مائدة، وأربع كؤوس والمزج بين الطعام والشراب والحديث والقراءة.

ميزت أشكال الحوار المفتوح، والقضايا والمشكلات التي تفتح كل تلخيص وفرضية، النتاج التلمودي وتأثرت أيضا بثقافة الحوار اليوناني والمعروف لنا من خلال كتابات أفلاطون. ولقد طورت إبداعات الحوار الأصيلة في التلمود الشريعة اليهودية، وخلقت أدب حوار وثقافة وضمت تفاسير وقصصًا وجنوحًا عن موضوع النقاش، وهي

---

(١) عيد الفصح: هو عيد خبز الفطير وموسم الحج والعيد. ويحتفل به بمناسبة عبور موسى عليه السلام البحر، بعد نجاة بنى اسرائيل - مما يعتبر اليهود العبودية فى مصر ورحيلهم عنها - ويأكل اليهود فى هذا العيد خبزا بخميرة وملح تذكيرا لهم بأنهم عند فرارهم من مصر مع موسى لم يكن لديهم وقت لوضع الخميرة والملح. ويبدأ الاحتفال بهذا العيد يوم الخامس عشر من شهر نيسان (إبريل) بالتقويم العبرى ،ويستمر سبعة أيام، ويحرم العمل فى اليومين الأخيرين لأنهما يعتبران يومين مقدسين ووقت هذا العيد هو وقت قيام اليهود بزيارة إلى القدس .

انظر: د . محمد بحر عبد المجيد: اليهودية. مكتبة سعيد رأفت القاهرة ١٩٧٨، ص ١٣٣ - ١٣٦ .

من عناصر الإبداع الكبيرة التي تمثل ثقافة اليهود في العصر الهلينستي. ولقد أثرتها تأثيرات ثقافة اليونان دون أن تقلل من أصالتها.

ويبرز تأثير الفن اليوناني على الفن الذي تطور فى المعابد - في فصوص الفسيفساء وفي رسم الصور الملونة على الجبس والتي سادت وأسست نهجًا للفن اليهودي شرحه بالتفصيل "سسل روث" و"بتسلال نركيس". وكانت تلك الإبداعات من المراحل الأولى، ومن مصادر الإلهام لفن الكنائس القديمة، ومنها تطور فن الرسم المسيحي في العصر الوسيط.

لقد أثرت مبادئ الديمقراطية وترجيح رأي الأغلبية، والتي كان اليونانيون أول من أسسها وأرساها، أيضا تأثيرا حاسما على اليهودية. وفي الوقت الذي آمن كثيرون في عصر العهد القديم أن هناك أناسًا يتحدثون باسم الإله وهم مصدر الحكم الفعال والوحيد آمن حاخامات التلمود أنه لم يعد إنسان يستطيع الحديث باسم الإله؛ وعلى ذلك فإن البشر في نقاشاتهم وآرائهم الديمقراطية هم الوحيدون الذين يستطيعون أن يقرروا التغيير في الشريعة والقوانين. وشجعت تلك المبادئ الديمقراطية التعددية في اليهودية بتياراتها واختير في طوائف كثيرة زعماء الطائفة، فالطائفة تختار قادتها وتستطيع عزلهم.

تحدد طوائف دينية في تيارات يهودية كثيرة صيغ صلاتها والتغيرات التي تطلب إدخالها على الشرائع والتي يتصرفون طبقا لها، وذلك من خلال لجان منتخبة.

تبرز تأثيرات أساطير شرقية قديمة، سومرية، كنعانية، هندية ، في تطور الميثولوجيا الصوفية اليهودية، وفي تشكيل الإلهات والقصص التي تشترك بها، كما أوضح "فتاي". فظهرت تأثيرات هندية على القبالاه، واكتشفها "شولم"، لكن كلما اتسع البحث في الميثولوجيا القبالية كلما ظهرت الجوانب المتشابهة بين سمات الإلهات اليهوديات - الشخيناه وليليت - وبين إلهات الهند وعلاقاتها مع البشر والآلهة الذكور. وتشكل التأثيرات الأجنبية مصدر إلهام لإبداع يهودي أصيل - مثل كتاب "الزوهر"[1]، الإبداع

(١) الزوهر: وأفكار القبالاه يتضمها كتاب اساس شهير هو كتاب الزوهر (الضياء) ويمثل هذا الكتاب الاتجاهين العملى والنظرى وقد ظهر هذا الكتاب حوالى سنه ١٣٠٠ م . وهذا الكتاب جزء منه بالعبريه وآخر =

الكبير(أكثر من مليون كلمة) الذي يحتوي بداخله فصول ميثولوجيا جديدة في اليهودية، فصول قد أثرت فى تطور اليهودية الدينية ووقفت معارضة بشدة للاتجاهات العقلانية التي تطورت في مقابل هذه الثقافة.

تزداد منذ عصر النهضة الأوربية والتنوير اليهودي وحتى وقتنا هذا تأثيرات ثقافات الشعوب الغربية على اليهودية، وتأثيرات مبدعين يهود على ثقافات شعوب الغرب. ويلعب اليهود في القرن التاسع عشر والقرن العشرين أدوارا رئيسية في الإبداع الثقافي الغربي فى بأوربا وأمريكا. وتكشف إبداعاتهم وإبداعات أدباء أوربا الكبيرة (مثل جويس وفروست) عن إندماج اليهود في تلك الشعوب وثقافاتها ومجتمعاتها، ومدى تميز اليهود وتفردهم.

لقد تطورت اليهودية تطورا سريعا ومتعدد الوجوه في كل الفترات التي كانت فيها اليهودية منفتحة على تأثيرات ثقافات الشعوب - منذ فترة العهد القديم وحتى القرن العشرين مع توقفات قصيرة في تاريخها، عندما تغلبت اتجاهات الانغلاق أمام تأثيرات كتلك على اتجاهات الانفتاح، وتوقف تطور الإبداع اليهودي وثقافته كما في مجالات اليهودية الحريدية.

العهد القديم والتوحيد والسبت والمعبد، إسهامات اليهودية في ثقافات الشعوب

انتشرت معتقدات وأفكار التوحيد اليهودي في العصر الهلينستي وفي الإمبراطورية الرومانية بين شعوب كثيرة ظهرت فيها جماعة "أتقياء يهوه" والتي لم تنضم إلى الديانة اليهودية ولم تتمسك بفرائضها الكثيرة، ولكنها آمنت بوحدانية إله إسرائيل. كانت تلك الجماعة جزءا من الجمهور الذي توجه إليه اليهود المسيحيين المتجولين مثل "بولس"، والتي اقترحت ديانة مشابهة لليهودية دون التزام بالحفاظ على فرائض الشريعة.

=

بالآراميه ،ويتكون كتاب الزوهر فى النسخة المطبوعة من ٢٠٠٠ صفحة .ويتخذ الزوهر فى تفاسيره أربعه مناهج هى .التفسير الحرفى لتفسيرات باطنية للتوراة ـ واالرمز، والتشريع، والسرى.وقد غالى القباليون فى التفسيرات الرمزية .

انظر : رشاد الشامى الرموز الدينية فى اليهودية. ص ١٦١.

ومع انفصال المسيحية اليهودية عن اليهودية، وتحولها إلى ديانة رسمية للدولة الرومانية ازداد تأثير المؤسسات اليهودية، عن طريق المسيحية، وبعد ذلك عن طريق الإسلام.

تبرز تأثيرات اليهودية تلك في إبداعات خاصة تطورت بها واحتضنتها شعوب كثيرة في كل القارات: عقائد توحيدية وإبداعات أدبية وفكرية يهودية من عصر العهد القديم والعصر الهلينستي، وعصر العهد الجديد، وبعض من أعياد بني إسرائيل والتي اتخذت شكلا ومضمونا جديدين، ومؤسسة السبت وتأثيرها على تنظيم الزمن الإنساني، والمعبد وتأثيره على تنظيم المجتمع في جماعات ثقافية بين شعوب الغرب. وانضمت إبداعات العهد القديم العبري إلى إبداعات كلاسيكية في تراث ثقافة شعوب كثيرة، وكانت مصدر إلهام لإبداعات أدبية وفنية ودينية وسلوكية في تلك الشعوب.

لقد انتشرت أسس التوحيد الأخلاقي كتصور نُسب إلى موسى وطبقا له فإن الإله هو واحد ومجرد ويطالب بالعدل، وأحد الأبطال الرئيسيين في أسطورة تحرير العبيد بقيادته. ويرى الأنبياء أن توراة موسى هي توراة الصدق والعدل، وطبقا لها يجب تفضيل العدل الاجتماعي على فرائض الشعائر الدينية. ويلخص هليل "التوراة كلها" في أنها قيمة سامية لمبادئ أخلاقية إنسانية؛ حيث مبدأ "ما تبغضه لا تفعله لغيرك".

كانت وحدة العالم الإلهي في كيان خالق يطالب بالعدل، فكرة سائدة في كل ثقافات الشعوب التي قبلت أفكار التوحيد اليهودي عن طريق المسيحية والإسلام. وتطور التوحيد اليهودي في كل واحدة من تلك الديانات في صورة مميزة لها وتيارات قد تطورت بها لكن مع هذا فقد حُفظ المبدأ المشترك لوحدة الإله ومبادئ العدل الاجتماعي المنشودة من خلاله.

كان يوم السبت تجديدا غير مسبوق في النظرة إلى الزمن وتقسيمه طبقا لاحتياج الإنسان وشرائع المساواة الخاصة به - شرائع الراحة التي تسري بمعيار متساو على الرجال والنساء، وعلى الآباء والأبناء، والسادة والعبيد والإماء (بما فيها المبادئ الإنسانية التي تلزم منح راحة حتى لحيوانات المنزل).

وغيّر السبت كيوم راحة وفراغ من الأعمال وواجبات الأشغال، النظرة الإنسانية للزمن، فلم يعد زمن الآلهة والطبيعة والتي تتجلى دورته فقط في فصول السنة وحركات الأجرام السماوية ودورة حياة الآلهة وموتها، بل في زمن الإنسان، وتبدأ وحدة الزمن من وقت الأسبوع الإنساني إلي أن ينتهي بيوم مخصص للراحة وللثقافة وللفراغ وتوقف كل أفراد المجتمع عن العمل.

شوّه في أقسام محددة من اليهودية مفهوم السبت بسبب تراكم محرمات لنشاطات مختلفة ومتغيرة والتي تحبس الممتثلين لها في مكان ضيق داخل بلد أو حي، وتمنعهم من معظم النشاطات التي تتيح الاستفادة من وقت الفراغ والنشاطات الثقافية. ولا تضر تلك التحريمات بسبت أغلبية اليهود في عصرنا وبمليارات الناس في العالم الذين تبنوا مبدأ السبت وحولوه إلى جزء من ثقافتهم. ويحتفل الناس في معظم الشعوب والبلدان في العالم بيوم السبت كيوم مخصص للفراغ، وفي الآونة الأخيرة مدوه في الغرب إلى يومين في الأسبوع.

يعد المعبد الذي جاء، كما أسلفنا، عوضا عن الهيكل ويمثل التوقف عن شعائر القرابين هو أيضا تجديدا غير مسبوق في ثقافة الشعوب. وتأتى مؤسسة المعبد اليهودي، التي انتشرت كمركز اجتماع لأهداف جماعية متنوعة لدى كل الشعوب الواقعة في دائرة تأثير ديانات التوحيد، عوضا عن الهياكل بأنواعها والتي شكلت بؤر الثقافة في كل المناطق التي عاشت بها تلك الشعوب. وساعدت الكنائس والمساجد على انتشار مراكز لتعليم وتثقيف البالغين والأطفال لدي الشعوب المؤمنة بالتوحيد، كما خلقت وشجعت منظمات جماعية تطوعية، وروابط اجتماعية غير قائمة على قرابة أسرية أو أصل قبلي.

انتشر من خلال المراكز الجماعية الدينية الأدب الكلاسيكي اليهودي في العالم كله بجانب الكتب المقدسة للديانة المسيحية والديانةالإسلامية، والتي حُسبت على الأدب اليهودي أو قامت عليه. وكانت المعابد بؤرًا وتعابير لإبداعات فنية في مجالات هندسة المعمار والموسيقى والتصوير والنحت والبلاغة والأدب. ولقد منحت دراسة الكتب المقدسة، والإنصات إلى التفاسير الأسبوعية ومشاركة أناس خارج إطار الكهانة الدينية، وأدب التفسير الذي تطور في كل تيارات الديانات التوحيدية، مضامين جديدة للحياة الثقافية لقسم كبير من الأفراد في الثقافات المؤمنة بالتوحيد.

وتحولت تحت تأثير اليهودية دراسة الكتب المقدسة التي ضمت أسس التراث الثقافي للشعوب إلى ميراث عام وليس خاصًا فى مجال عمل رجال الكهنوت فقط. وانتشرت أيضا مهارات القراءة المرتبطة بهذا النشاط تحت تأثير اليهودية وتحولت إلى أحد حركات تطور الثقافة الشخصية والجماعية في كل الشعوب.

لم يوجه نظام الثقافة الجديدة لتأهيل ذوي حرفة أو صفوة حاكمة فحسب؛ بل للثقافة نفسها ولكي يشارك الجميع بها لإثراء فكره وتجربته ويعرف تراثه الثقافي.

تلك الإسهامات اليهودية فى ثقافات الشعوب، التي عاشت في إطار تأثير ديانات التوحيد، وساعدت مبدعين في تلك الثقافات على ابتكار إبداعات أصيلة بعيدة عن الإبداعات اليهودية التي أثرت فيها، تماما مثلما ابتعدت الإبداعات اليهودية الأصيلة عن إبداعات ثقافات الشعوب التي برز تأثيرها الكبير فيها، ولكن تعاملت كثير من إبداعات ثقافات الشعوب المؤمنة بالتوحيد مع تاريخ اليهود وأبطاله على أنه جزء من تاريخ شعبهم، وتعاملوا مع إبداعاتهم على أنها جزء من تراث ثقافتهم القومية (مثل: قصص الخروج من مصر، تمرد المكابيين، أقوال الأنبياء وغيرها).

بدأت اليهودية التي أثرت فى الثقافتين المسيحية والإسلام تتأثر بهما، من خلال ثقافتيهما وإبداعاتهما إثر بلورتهما كثقافات منفصلة عن اليهودية. وتظهر تلك التأثيرات في أنماط الحياة والملبس ومراسم المعبد والعلاقة بين الجنسين، واللغة وأسلوب الحديث والأساطير الصوفية في اليهودية، والأفكار المسيحانية التي تتبلور بها. وفي عصرنا يظهر التأثير في مسارات العلمنة والثقافة التي تطورت في المجتمعات المسيحية وتبنتها حركات كثيرة فى المجتمع اليهودي.

تأثير الميثولوجيا الصوفية على التعددية في اليهودية

كما أسلفنا لم يكن هناك تطابق بين "اليهودية" بوصفها ثقافة اليهود وبين التوحيد الأخلاقي الذي يؤمن بخصوصية الإله وتجرده، وحثه على الصدق والعدل كما ظهر في فكر موسى سلفا. عاش التوحيد في اليهودية بجانب ديانات ومعتقدات تؤمن بالتعددية وتؤيدها. وللوهلة الأولى يبدو هذا اللقاء بين التوحيد والتعدد في ثقافة واحدة مستحيلا،

ولكنه يعود ويظهر في الديانة المسيحية عندما انفصلت عن اليهودية وعن ثقافات شعوب كثيرة، مثل الثقافة المسيحية المكسيكية، والتي تحتفظ بمعتقد وشعائر لآلهة قديمة حتى بعد أن اتخذت المسيحية ديانة.

ويصف تاريخ الديانة وديانات اليهود اللقاء داخل الديانة اليهودية القديمة، تلك التي تؤمن بإله مجرد وواحد (كما في التوراة التي تنسب إلى موسى) في مقابل إله مجسد في تمثال العجل، مثل آلهة الشعوب الأخرى (كما في توراة هارون). ويسود في يهودية العهد القديم ديانتان هذه بجانب تلك، بجانب ديانات كنعانية تشمل عبادة البعل وعشتروت وأشير والمولوخ وكموش وآخرين.

آمن يهود كثيرون، طبقا لوثائق كثيرة في العهد القديم، بأن هؤلاء هم آلهة حية. وعندما اختفت الآلهة الكنعانية من اليهودية (بعد العودة إلى صهيون) تسللت التعددية لليهودية وإلى ديانتها عن طريق الأدب والحركات الصوفية ومن خلال الميثولوجيا التي تحي كيانات إلهية علاوة على يهوه. وتتطور هذه الميثولوجيا المؤمنة بالتعددية وتؤثر على تيارات رئيسية في الديانة اليهودية في العصر الوسيط، بتأثير كتابات القبالاه ومعتقداتها، وبخاصة عن طريق حركات الحسيدية والتيارات الدينية الأخرى والتي تعتبر القبالاه جزءا من الديانة اليهودية حتى لو كانت ترفض باقي مبادئ الحسيدية.

يعد تعدد الكيانات الإلهية؛ ملائكة، شيطان، جن، عفاريت، وإلهات كالشخيناه وليليت، تغييرا جوهريا حول تصور الإله الخاص والمجرد من كل صورة ومفهوم إنساني ويحوله إلى ساكن أوليمبوس جديد نشأ بكلمات وبقصص مبتكريه من البشر، مثل الأوليموس الوثني في كل ثقافة أخرى.

تعدد الآلهة والإلهات يتسرب إلى الديانة اليهودية

تضيف الأسطورة في الديانة اليهودية، مثل الديانة المسيحية، إلى الإله آلهة أخرى – نسوية وذكرية. ويحظى الإله، الذي كان بلا سيرة ذاتية في اليهودية القديمة، بأم إلهة في المسيحية وزوجة إلهة في اليهودية. وتبلورت الإلهات اللاتي عبدهن يهود في ثقافتهم، لكن خارج ديانتهم، عن طريق الميثولوجيا الجديدة وتحولن إلى جزء من العالم الإلهي اليهودي.

ساد الإيمان بإلهات الخصوبة النسوية وعبـادتهن، والـلاتي كـن منتـشرات في كـل الشرق القديم، أيضا في ثقافة اليهود. ولكون يهوه إلها متميزا وذكريا، طبقا لتوراة موسى، فقد تاق يهود كثيرون إلى الإلهات النسوية واللاتي تشكلن في ديانات الجيران.

تبدو شعبية الإلهات، مثل عشتروت، بوضوح سواء في الاكتشافات الأثرية (تماثيل إلهات في بيوت خاصة) أو في إبداعات أدبية العهد القديم التي تعبر عن واقع روحـاني وثقافي كان معروفا للذين كتبوه. وفي تلك القصص حتى إلياهو لا يجرؤ على حرب أنصار عشتروت. وطبقا لدلائل متكررة في العهد القديم فقد احتلت الإلهات النسوية والأمهات مركز الحياة الثقافية الدينية لغالبية اليهود، وبناء على تلـك الـدلائل فقـد تـأثرت اليهوديـة بثقافات الشعوب الأخرى عندما تحول اليهود من جماعة متجولـة في الـصحراء إلى جماعـة تحتل أرض كنعان. وعادت أشيرا – أم الآلهة الكنعانيـة – وأُدخلـت إلى الهيكـل الأول في القدس، عقب كل مرة تم أخراجها منه، على يد الملوك الذين أرادوا تطهير هيكل يهوه مـن وجودها. ولقد وُجد تمثال أشيرا في هيكل يهوه حوالي ثلثـى فـترة وجـوده التـي تـصل إلى ٣٧٠ عام (طبقا لحسابات رفائيل فتاي في كتاب "تلك العبرية").

يتصارع الإيمان بإلهات الخصوبة والأمومة وعبادتها مع الخوف مـن المخـاطر التـي تهدد القدرة على الخصوبة والتكـاثر في الأسرة وفي الزراعـة. ويعـد وجـود التماثيـل التـي تمثلهم وتعبر عن تبجيلهم أمرا ضروريا لكل من أراد تأمين مستقبل أسرته وزراعته.

يرتبط الناس نفسيا وروحيا ارتباطا أوليا بالأب والأم، ويستمر هذا داخلهم حتـى بعد موتهم. وتستمر أيضا شخصية الأم بعد موتها في تأدية أدوار مركزية في حياتنا، كانـت قد أدتها في حياتنا قبل موتها – في الأحلام وفي التخيلات وفي الذكريات وفي اللاوعي. كما تشكل المرأة والأم بوصفها كيان يحب ويعاقب بؤرة الانفعال والغريزة والتي تؤدي أدوارا مركزية في الإدراك أو داخل اللاوعي، وداخل عمل فني وديني لكيانـات إلهيـة نـسوية – جميلات وطيبات أو متوعدات وقآسيات، إلهات حب وحرب، إلهات كريمات وشريرات. وتظهر إلهات كتلك في كل الديانات والثقافات، في إطار ثقافات تطورت فيها اليهوديـة – من الهند حتى اليونان.

عندما توقف اليهود عن عبادة إلهات في إطار شعائر الديانات الأخرى، بدأ مبدعو الميثولوجيا الصوفية اليهودية في إدخالهن إلى الديانة اليهودية نفسها. فظهرت الشخيناه وليليت كإلهات نشيطات في الميثولوجيا اليهودية الجديدة والتي تطورت في العصر الوسيط والتي تترسخ بجذورها في الأساطير وفي الأدب الصوفي لفترة التلمود.

وكان وضع المرأة المتدني في المجتمع نقيضا صارخا لقوة المرأة بوصفها أم وإلهة مسيطرة تحب وتعاقب وتشتهي. وعندما رفعوا المرأة إلى درجة إلهة أمكن التوفيق قدر الإمكان بين هذين النقيضين. ويبرز في كل الثقافات التي تضطهد النساء حاجة المؤمن لكيان إلهي – نسوي وأموي– إلهة حب وعقاب.

تعضد الكتابة المنقوشة "يهوه وأشيرا زوجته" على الخزف الذي اكتشف في النقب ويعود إلى عصر مملكة يهودا، التخمين بأنهم كانوا يؤمنون في ذلك الحين بأن يهوه ليس الإله الوحيد في العالم الذي حُكم عليه بالوحدة والتنسك، وأنه مثل بعل فهو أيضا يحظى بصحبة إلهة وهي زوجتة أشيرا. إلا أنه ليس لدينا سند على هذا في العهد القديم أو في مصادر قديمة تعود لتلك الفترة. وترسخ في فترة أكثر تأخرا – وبخاصة عقب شهرة كتاب الزوهر وانتشاره – فكرة وجود الإلهة في اليهودية الدينية عندما تتحول الشخيناه من تصور إلى شخصية محددة، وتتحول ليليت إلى بطلة قصص مهددة وموطدة لوجودها في وعي المؤمنين بها.

إيمان بإله على هيئة إنسان في ميثولوجيا اليهودية القبالية

يعد الكتاب القديم "شعور قوما" (قامة مديدة)، الذي يصف مقاييس الإله الكبيرة و هى مقاييس أكبر من العالم ويسهب الكتاب في تفاصيل مقاييس أعضائه، أحد التعابير المجددة لتجسيد الإلوهية في اليهودية، والتي كانت بدايتها في إصحاحات سفر التكوين.

وتصبح الكيانات الإلهية التي تسكن السماء حقيقة ملموسة في الحياة الثقافية والروحية لقسم كبير من المتدينين. ويرى آخرون مثل موسى بن ميمون أن كل محاولة لإضفاء الطابع الإنساني على الإله بمثابة كفر بيّن. وتمنح القصص التى تدور حول

علاقات الإله الجنسية مع الشخيناه وليليت والعلاقات الجنسية للإلهتين مع مخلوقات ذكرية أخرى حقيقة ملموسة جديدة للكائنات الإلهية التي تسكن العالم الإلهي، فيما وراء هذا العالم.

وفي عقيدة اليهود الذين يؤمنون بكل هذا تزور مخلوقات الآخرة أيضا هذا العالم، وعلى ذلك فإن عالمنا مكدس بعيون الجن والعفاريت، يحيطون بنا ولكن لا نراهم، وأحيانا يوجد من يلتقي بهم، وورد هذا في تحذيرات حاخامات كبار من مقابلتنا مع كبار العفاريت والشياطين أو مع مبعوثين آخرين للشيطان. كما أن ليليت أيضا تتجول في العالم والتقت، في حكايات مشابهة، مع صديقيين أقوياء وأناس عجزة، وورد هذا في حديث يوسف كارو، على سبيل المثال، مع "الملاك والشخيناه". وبقدرتهم تم إملاء ما هو موجود في كتاب "شولحان عاروخ" (المائدة المرتبة).

وفي مقابل يهوه الموجود فى العهد القديم، الذى يفتقد الحياة الأسرية، ابتكر في الميثولوجيا اليهودية الجديدة تأريخ للحياة المفصلة للمخلوقات الإلهية. فـ "مترون"، على سبيل المثال، نائب ملك الملوك كان ذات مرة إنسانا ويدعى "حنوخ" (المذكور في سفر التكوين كمن أخذه الإله)، ولكن طبقا للأسطورة الجديدة لم يأخذه الإله إلى السماء بل أخذه الملاك عنفيئيل.

ولقد ارتفع مترون في الدرجات الملائكية حتى أصبح أسمى من الجميع، وعندما وصل المارق الملحد "اليشع بن أفويا" (المذكور أيضا في قصص الرحلات الميثولوجية تلك) إلى السماوات العلا ورأى مترون جالسا على كرسيه، تعجب وسأل "هل توجد سلطتان في السماء؟ لأنه ونحن نعلم أن الملائكة لا تستطيع الجلوس، لأنها بلا ركبتين، وعلى هذا الخطأ الذي أخطأه مترون، عاقبه الملاك عنفيئيل بلهيب - كتل نار تؤلم الملائكة.

ويمكن أن تعد قصص كتلك مجرد نماذج وتصويرات تعبر عن آراء ولا تهدف إلى عرض واقع، ولكن في نظر مؤمنين كثيرين لا يوجد حد يفصل بين الواقع والأسطورة. ومن وجهة نظرهم فإن العالم يمتلئ بأبطال تلك القصص والتي تطورت وكثرت في أدب العصر الوسيط.

وتعتبر قصة "ليليت" نموذجا لاستخدام الأسطورة في التفسير الباطني والخيالي لنصوص توراتية بسيطة، والتي تشكل تعبيرا عن مواقف أيديولوجية لا تقبل التأويل حول المكانة المستحقة للمرأة في الأسرة والمجتمع الإنساني. فكانت ليليت حسب أحد التفاسير في الأصل هي المرأة الأولى التي خلقها الإله (كما في الإصحاح الأول من سفر التكوين، والذي يؤمن أديبه بالمساواة بين الرجل والمرأة ويقدمها، ومساواة نسب كل ذرية الذكر والأنثى الآدمية الأولى، والذي يطلق على كليهما "إنسان" وقد خلقه الإله على شكله وهيئته). ولأن هذه المرأة الأولى (ليليت) قد توقحت مع زوجها وطلبت أن تكون متساوية معه في كل شيء بما في ذلك أسلوب العلاقة الجنسية، فقد طردها الإنسان وبقي بمفرده. وخلق الإله له امرأة جديدة (كما في قصة السبات التام في الإصحاح الثاني من سفر التكوين، والذي يصف فيها الأديب المرأة كمخلوق ثانوي وأخر المخلوقات التي خلقت، مصنوعة من عضو أخذ من جسد الرجل لكي تكون خادمة له).

لقد خلقت هذه المرأة الجديدة وكل النسوة، طبقا لهذه القصة، لهدف واحد لتكون خادمة خاضعة كالأمة، تخدم الرجل المسيطر عليها، وألا تتوقح وتلبي احتياجه الجنسي طيلة أيام الشهر عدا أيام الحيض، بسبب النجاسة التي تتعلق بها، وحسب قصة أسطورية أخرى فهذا الحيض نتيجة علاقاتها الجنسية مع الثعبان والتي نتج عنها ولادة "قايين"؛ للدلالة على أن هذه المرأة الجديدة قد أخطأت أيضا وتنجست في جزء كبير من كل شهر.

وواصلت ليليت طريدة الإنسان الأول التجوال في العوالم والمشاركة في مضاجعات شيطانية كثيرة، لإله ولامرأة من نوعها، واستمرت في تهديد كل من يصادفها في طريقها.

وبسبب جلاء الشخيناه، مع تدمير الهيكل (الذي كان أيضا هيكل جماع الإله مع الشخيناه، طبقا للأسطورة التي تتطور) فقد أدت ليليت دورها واضجعت معه لكي تخلصه من وحدته.

يمكن القول إن كل هذا ما هو إلا تخيلات رمزية لأفكار مجردة والتي هي جزء من الرؤية القبالية للكون. ومن الصعوبة رؤية علاقة بين تلك الأساطير والنظرية القبالية

الخاصة بإسحاق لوريا التي تقول: إن الخلق بدأ باغتراب الإله داخل نفسه وبتقلصه لكي يبقى مكان للعالم وللنور المخزون، وللأدوات التي تحطمت بانفجاره، أدوات يكون بإصلاحها وإصلاح العالم الخلاص ونهاية التاريخ. ويوجد في العالم الروحاني للمؤمنين الأقل حكمة في اليهودية تجسيم للشخصيات الفاعلة في الميثولوجيا التي طورها أدباء ورواة القصص المدرجة أو المنبثقة أو المتأثرة بالميثولوجيا اليهودية الجديدة، وقد حولتها القبالاه المنتشرة في اليهودية في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، بفضل الحسيدية ومؤيديها، إلى أحد العناصر المهمة في اليهودية الدينية.

ولقد تطورت في ثقافات وديانات أخرى مثل تلك أساطير. وتصل الميثولوجيا في اليهودية وديانتها إلى ذروة تطورها بعد حوالي ألفي عام من تكوينها كديانة تؤمن بالتوحيد وقبل فترة نهاية هيمنتها على الثقافة اليهودية.

ولعبت الميثولوجيا اليهودية الجديدة أدوارا في الثقافة الدينية والعلمانية معا. فقد أثرت الأدب الشعبي والأدب العلماني اليهودي بقصص وبإبداعات كثيرة ومتنوعة. ونظرت القصص والأساطير التي سادت لدى الشعب إلى الكيانات اليهودية الجديدة - الإلهات والشيطان والعفاريت والملائكة والأرواح - على أنها كانت مواد قصصية في إبداع مؤلفين يهود أبدعوا مؤلفات خارج إطار الديانة وثقافتها، مثل: إبداعات ى. ل. بيرتس، ش. ي. عجنون، بشبيس زينجر، وملمود، وغيرهم.

في نهاية القرن العشرين، مع انتشار الإلحاد بأنواعه في الغرب وفي اليهودية تتوطد بجانبه معتقدات سحرية وصوفية تبدو للمؤمنين بها تعابير روحانية مفقودة في حياتهم. وهذه المعتقدات متأثرة بالأدب القبالي وبالميثولوجيا التي تطورت عن ذلك الأدب، ويتركز مجددا على الاهتمام بهذا التيار في اليهودية.

أدب العهد القديم بوصفه مصدر إلهام لإبداعات يهودية معاصرة

تمثل الإبداعات اليهودية وغير اليهودية - من الفكر والأدب والمسرح والسينما والفلسفة والفن - يهودية القرن العشرين. فالقرن العشرين هو أخصب وأثرى فترة في تاريخ إبداع اليهود؛ حيث ابتكرت فيه إبداعات يهودية بكل اللغات وفي كل البلدان وكل

أنواع الفن ووسائل الإعلام. ويُعرض تاريخ اليهودية بوصفها ثقافة اليهود في القرن العشرين في إبداعات يهودية لأدباء وفلاسفة وفنانين ومبدعي مسرح وسينما وتليفزيون يشاركون في تشكيل ثقافة الشعب ويعبرون عن التحولات التي طرأت عليه.

لقد أُلفت معظم تلك الإبداعات في ظل اليهودية المتحررة من الديانة؛ حيث عاش بها ويعيش معظم اليهود في القرن العشرين. كما أن الإبداعات التي تنسب إلى يهود متدينين أو إلى القضايا المتعلقة بعلوم اللاهوت اليهودية قد أُلفت أيضا معظمها بعيدا عن يهودية ديانة الشريعة، ولا تتطابق مع رؤية دينية أو تشريعة. ومن ى. ل. بيرتس وحتى كافكا وبشبيس رينجر، من هيانا وحتى عميحاي، من جولد فدان وحتى فدى إيلان، من بوبر وحتى يشعيا برلين، ومن مندلسون وحتى برنشطين، من أينشطين حتى دينتسنجر – يمتد إبداع اليهود الذين يعبرون عن اتجاهات تطور اليهودية المعاصرة واندماجها في ثقافة الغرب. وكون أن كثير من تلك الإبداعات هي جزء لا يتجزأ من ثقافات شعوب أخرى فهذا لا يغير من مكانتها في اليهودية، تماما مثلما أن إبداعات العهد القديم هي جزء من الثقافة اليهودية وأيضا كثير منها تتبناها شعوب أخرى.

والمبدعون اليهود في القرن العشرين أحرار في الحكم، وفي قول ما يفكرون فيه، بلا خوف من مخالفة قوانين التابو الديني أو تدنيس ما هو مقدس وبدون تصادم بين أفكارهم وإيمانهم. ومن هذه الناحية فهم يمثلون مسارات علمنة ومعتقدات إنسانية الإنسان بوصفه مصدر السلطة الوحيد في العالم المعروف لهم.

لقد عجل اندماج اليهود في ثقافات الغرب مسارات التحول في الديانة اليهودية وفى تياراتها الجديدة وشجع الإبداع الفكرى الدينى فى تلك التيارات، فى مقابل تطور ثقافة اليهود المتحررين.

تطور الفكر الديني في اليهودية، من هيرمان كوهين وروزنتسوج وحتى كوك، هيشل وسولفوميتشيك، إلا أن تأثيرات اليهودية على غالبية المبدعين اليهود في معظم المجالات غير ملموسة تقريبا .

تتطور في فلسطين، في مركز إحياء العبرية بوصفها لغة حديث وإبداع، اليهودية

الإسرائيلية المتحررة من الديانة في غضون لقاء كل التيارات الطائفية والدينية التي تعيش فيها. وسرعان ما تحول نهج تيارات يهودية الماضي القديم والتناقضات بين التيارات التي ميزتها أيضا إلى أحد موضوعات الإبداع الأدبي والفكري والبحثي في اليهودية الإسرائيلية. وازدادت سريعا خلال الخمسين سنة الأولى من نشأة إسرائيل إبداعات الثقافة العبرية التي بدأت التطور في فلسطين في بداية القرن. وتحولت الزيادة الكمية والمفاجئة إلى عنصر ثقافي جديد، حيث مئات الكتب العبرية التي تصدر كل عام، وعشرات العروض المسرحية والسينمائية والتلفيزيونية والتي يشاهدها مئات آلاف كل شهر، وكلها تمثل وجوها كثيرة وجديدة لليهودية المعاصرة. وتعرض عشرات المتاحف والمعارض فنا تشكيليا إسرائيليا، ومئات آلاف من المستمعين للحفلات والفرق الموسيقية الإسرائيلية والتي تضم عددا متزايدا من المواهب الموسيقية الأصيلة. وعشرات المؤسسات للتعليم العالي ومؤسسات بحثية وآلاف من المؤسسات التعليمية للدراسة الحرة؛ حيث يدرس حوالي مليون ونصف المليون تلميذ اليهودية بوصفها ثقافة لا بوصفها ديانة. و يتعرض من ثمانين إلى تسعين في المائة تقريبا من السكان اليهود البالغ تعدادهم خمسة مليون فرد (في نهاية القرن العشرين) يوميا لوسائل إعلام عبرية في الثقافة الإسرائيلية، وصحافة مطبوعة ومبثة ولإبداعات درامية وأدبية في قنوات التليفزيون، وفي محطات إذاعية حكومية وخاصة. وبالإضافة لهذا يدرس عدة عشرات آلاف من الشباب في مدارس دينية التلمود فقط، ولا يظهر تأثيرهم فى الحياة الثقافية والإبداعية في إسرائيل إلا نادرا بين العلمانيين.

هذا التطور الكمي في تاريخ الإبداع اليهودي غير مسبوق. ولم يتم تقدير تأثير هذه الظاهرة على ماهية الإبداعات سابقا، لكن تحظى اليوم كثيرا جدا من الإبداعات اليهودية في إسرائيل بالاعتراف من قبل الجماعات الثقافية اليهودية وغير اليهودية في العالم. وتترجم أعمال أدبية عبرية إلى لغات أوربية كما يتم دعوة مبدعين وباحثين إسرائيليين لتمثيل ثقافتها في العواصم الثقافية في العالم.

لقد أربكت الوفرة الهائلة للإبداعات التي تمثل اليهودية في القرن العشرين كل من يحاول الإلمام بمجملها. حيث يبدو أيضا بالنسبة ليهودية القرن العشرين، مثل يهوديات

العصور الأخرى في الماضي، علينا الإذعان للتحدي وعرض مختارات ضئيلة للإبداعات التي تمثل الحد الأقصى.

مع انهيار الديانة بوصفها عامل تأثير مركزي وموحد، انتشر السحر والتصوف بجانب الإلحاد. وتُعرف في كل الثقافات ظاهرة السحر والتصوف خاصة فى الفترات التي تضعف فيها وتنهار الديانة القومية، والتي هي عنصر موحد ومؤثر في غالبية الشعب. وهذا ما حدث في العصر الهلينستي مع انهيار نظم الديانة الوثنية، وهذا ما يحدث في عصرنا في اليهودية مع انهيار قوة تأثير مؤسسات الحكم الدينية على أغلبية اليهود.

يوجد ارتباط بين السحر والإلحاد الشعبي؛ حيث إن الأساس في كليهما إيمان المؤمنين بهما بقدرات وبتقنيات السحر على شفاء الأمراض، ومواجهة مخاطر وكوارث الطبيعة، وتجاهل الإله والاعتماد على صاحب التقنية السحرية - الساحر، المعالج السحري، المنجم، صيدلي الأعشاب، من يقوم بالرقي وصنع التمائم. كل هؤلاء يستطيعون التأثير بصورة مباشرة على ظواهر في طبيعة الإنسان والعالم. ومثل كل تقنية علاجية أو غيرها والتي من خلالها يتصرفون في العالم غير المتدين ويواجهون الأمراض وكوارث الطبيعة، تتجاهل التقنية السحرية أيضا دور الإله وإرادته. وعلى ذلك تتشابه الأساليب السحرية في الثقافات وفي الديانات المختلفة. فلا يعلن الساحر العراف عن إلحاده، لكنه يتصرف وكأنه هو وتقنيته يؤثرون أكثر من الإله ومن التوجه إليه. ويحتاج الأفراد ضعيفو أو منعدمو الإيمان بالإله إلى مساعدة من ذوي التقنيات الذين يضمنون حلا لمشاكلهم. ولأن العلم والتكنولوجيات التي طوروها لا تكفي لتحل كل المشاكل ومواجهة الأمراض الوبيلة فيبحث لها البشر عن حلول بديلة. ويعرض السحر حلا بديلا، وحتى من ليس مقتنعا بقدرته على التأثير، فمن المحتمل أن يعتقد بأنه إن لم يفد فإنه بالقطع لن يضر.

يرتبط الاحتياج إلى السحر بالإيمان بقوى غير مرئية، وبقوى فوق الطبيعة، وبعناصر خير وشر موجودة في بيئتنا لا نعرفها وبقوى خفية، وبمعتقدات صوفية مصاحبة لها، إيمان لا يمكن تفسيره، وبقدرة على التأثير وبعجز الإنسان عن معرفته من خلال الفطنة والحواس.

إن الإيمان بالحياة بعد الموت، و الإيمان بأن أرواح المـوتى تـساعدنا أو تـضرنا أثنـاء تجوالهم أو في وقت الاستلقاء على قبورهم، والإيمان بالآخرة وبإمكانية الاتصال بـالموتى، قد انتشر في اليهودية مع انهيار مؤسسة الحكم الديني المركزية - الهيكل والكهنـوت الـذي كان جزءا من المؤسسة الحاكمة الرسمية اليهودية والتي تمثل اليهودية كأنها كتلة متجانسة.

عادت في عصرنا تلك الظاهرة التي تبدو غريبة؛ حيـث تنتـشر بجانـب المعتقـدات الإلحادية بأنواعها المنتشرة في اليهودية المعاصرة، أيضا معتقدات روحانيـة - مثـل الإيـمان بقوى فوق الطبيعة لا يمكن أن يكون لها تفسير علمي أو عقلاني.

يظهر بجانب تلك المعتقدات الكثير من الذين يؤمنـون بـالقوى الخارقـة للـسحرة ولمن يقومون بعمل الرقي والتمائم المقدسة للقبور التي قيل عنها أنها قبور صديقيين والتي تستطيع روحهم مساعدة المستلقى على القبر أكثر مما يستطيع هو مساعدة نفسه.

والسحر كما أسلفنا هو أحد الأشكال القديمة للإلحاد المقنّع والـذي يـؤمن بـسمو الإنسان وبقدرته على أن يملي على الطبيعة أو على القوى الإلهية التغير الذي يرغبـه، أو أن يعدل العالم وكأنه خال من إله كل شئ يتم بأمره.

إن الصراع ضد الإيمان بالتنجيم والسحر والعرافة والاتصال بالموتى قديم قدم تلك المعتقدات والتقنيات نفسها. وتوجد دلائل على ذلك في العهد القديم؛ حيث إنه في عصره حاولت مؤسسات الحكـم الرسـمية والدينيـة الاسـتعانة بمحـضري الأرواح والـسحرة بأنواعهم. وقد احتاج ملوك مثل شاؤول إلى محضري أرواح لتحضر أرواح موتى من القبور وتتيح لهم التحدث مع الموتى، وذلك بعد أن قتل و طرد زميلاتها من مملكته.

لم يتردد مفكرون متدينون مثل موسى بن ميمون في إدانـة التنجـيم الـذي آمـن بـه بعض حاخامات التلمود، ورأى موسى بن ميمون أن كل أفعال السحر والـشعوذة كفـر، أو بلغتنا: اعتقاد إلحادي. وعندما أراد مبدعون في القبالاه إرسـاء دور الإنـسان اليهـودي في إصلاح الكون الذي تحطمت أدواته في عملية خلـق العـالم، أظهـروا إيمانهـم بالـسحر، والرأي الذي يربط بين الديانة والسحر على شـاكلة الرؤيـة المحافظـة التـي منحـت دورا حيويا للإنسان في إصلاحه للكون، في غضون مشاركة مع الآلهة.

رسخ الاعتقاد وتلك الاتجاهات في قبالاه إسحاق لوريا[1]، والذي نما في صفد عقب الطرد من أسبانيا، في اليهودية الإيمان بأن للإنسان اليهودي فقط دورا في جلب الخلاص للعالم كله. وتحول التمسك بفرائض الشريعة، طبقا لهذه النظرية، إلى أحد الوسائل الضرورية لإصلاح العالم المتحطم. وبقوة هذا المعتقد أُخرجت الشريعة من بساطتها وتحولت إلى جزء من التقنية السحرية التي من المحتمل أن تخلص العالم من الفوضى السائدة به منذ أن تحطمت الأدوات.

وتعد المعارضة في تيارات معينة في اليهودية الدينية والعلمانية على تسلل المذهب الصوفي والمسيحانية والسحر إلى ثقافتها، جزءا من الصدامات بين التيارات الفكرية والعقدية في اليهودية المعاصرة، كما في التيارات اليهودية فى الماضي.

إحدى سمات التعددية في اليهودية هي كثرة التيارات، بما فيها التيارات التي تنكر إمكانية وجود هذا التعدد داخل اليهودية. وفي ظل الواقع السياسي لإسرائيل تحولت معتقدات صوفية وسحرية بين أقلية من السكان إلى عامل دلالي وقوة تأثير على نهج الدولة ومستقبلها، وعلى مسارات السلام والحرب لحكوماتها، وعلى العلاقات الخارجية والسياسات الداخلية والتعليم بها. وكما أسلفنا فإن معظم اليهود بعيدون عن مجال تأثير التيارات الدينية والسحرية والصوفية. واليهود الذين يلقبون أنفسهم "تقليديون" أو "علمانيون" شركاء في الاعتقاد بأن اليهودية هي ثقافة تؤمن بالتعددية سواء من ناحية التيارات العلمانية والدينية الفاعلة بها أم من ناحية المعتقدات والآراء التي تؤثر على إبداعاتها وثقافتها.

الاعتقاد الإلحادي ينضم إلى تعدد المعتقدات في اليهودية

الإلحاد بوصفه معتقدا هو جزء من تشكيلة المعتقدات السائدة في اليهودية، ومثل كل المعتقدات الأخرى تحول هو أيضا إلى مصدر إلهام لإبداع ثقافي يهودي. ويثري

---

(١) إسحاق لوريا: (١٥٣٤ - ١٥٧٢) تلقى تعليمه فى مصر وعاد إلى فلسطين فى عام ١٥٦٩ وتزعم يهود صفد. وله تأثير على الفكر اليهودى عامة، وعلى الحسيدية خاصة، سجل تلاميذه نظرياته وآراءه بعد وفاته.

الصدام بين الإلحاد وبين المعتقدات الأخرى اليهودية بوصفها ثقافة تعددية، كما أثرتها كـل المعتقدات الأخرى الشائعة في اليهودية. فهـي ثقافـة تتنـامى في سـياق تـراكم المعتقـدات والعادات والتي لا تلغي وجود معتقدات وعادات سابقة. ولا تنحي المعتقدات الإلحاديـة في اليهودية المعتقدات التي تؤمن بتعددية الآلهة التي انتشرت بها، كـما أن المعتقـدات التـي تؤمن بإله قادر ومتميز لا تنحي معتقدات الإيمان بآلاف القوى الخارقة الأخرى التي تؤثر في البشر وتتأثر بهم. وتتجمـع المعتقـدات الإلحاديـة ولكنهـا لا تلغـي وجـود المعتقـدات التوحيدية بأنواعها.

في عصرنا كما في الماضي يواصل كثير من اليهود المتدينين - في إسرائيل و الخـارج - الإيمان بقوة الإله وقدرته على العقاب، وبقوة الجن والعفاريت والأرواح الشريرة، وبقـوة المعالجين والسحرة والتمائم بكل أنواعها والتي تحميهم من كـل هـذا. ولقـد ظلـت عـادة تقديم قرابين حتى يومنا هذا بين الذين يؤمنون بأن تقديم الديك أو الدجاجـة يكفـر عـن إثمهم ويعفيهم من العقاب الإلهي.

إن شيوع تلك المعتقدات القديمة بين جماعـات سـكانية كثـيرة، تحـولهم إلى عنـصر سياسي وذلك عندما يتم استغلالها في حملات انتخابية ديمقراطية. وتشمل ثقافة التعدديـة الخاصة باليهودية الإسرائيلية في نهاية القرن العشرين معتقدات إلحادية، ومعتقدات دينيـة ومعتقدات سحرية وصوفية من كل نوع.

وكما في الديانة يوجد أيضا في الإلحاد أنواع اعتقاد وعادات مختلفة. ويصف النـاس في كل ثقافة، قومية أو إقليمية، الإله بشكل مميز لثقافة شعبهم. ويمنح البشر في إطـار كـل ثقافة قومية أو إقليمية، صورا وأدوارا متميزة لآلهة مختلفـة أو لـنفس الإلـه والـذي يأخـذ أشكالا وعلاقات متميزة. وتتشكل عن طريق إبـداعات أدبيـة وفنيـة وفكريـة الـصفات الخاصة من خلال سير وصور تشكيلية غير موجودة في ثقافات أخرى. والإله الوحـداني، الواحد والخاص، هـو أيـضا إلـه مختلـف، فبطانتـه ومحيطـه وصـورته مختلفـة في ثقافـات الشعوب المختلفة في أوربا وفي قارات أخرى.

تتنامى المعتقدات الإلحادية في مقابل معتقدات التوحيد (الدينية)، منذ فجر الثقافـة

الإنسانية، وتدل على ذلك أبحاث عن ثقافات القبائل التي تعيش في ظروف "سابقة للتاريخ" بمعزل عن الثقافات الدينية المعروفة (اللقاء مع قبائل أبوريجين الاسترالية ومع قبائل في جزر منعزلة). وظهرت في الألف الثاني قبل الميلاد تعابير واضحة للمعتقد الإلحادي في الهند، حدث فيها إحياء للاعتقاد الإلحادي أثناء تأسيس البوذية[١] القديمة، في منتصف الألف الأول قبل الميلاد. وتحولت البوذية القديمة في أماكن كثيرة أخرى إلى ديانة واختفت في الهند تقريبا معاقل الإلحاد، ولكن عادت للظهور مرة أخرى في الهند بؤر وتنظيمات كثيرة تعمل على إرساء معتقدات إلحادية ونشرها.

إن معظم الدلالات حول واقع الإلحاد في اليهودية وفي ثقافة اليونان والثقافة الهلينستية، موجودة في إبداعات دينية تندد بالملحدين في عصورها. ولم تبق معظم إبداعات الملحدين القدامى، باستثناء قطع وشهادات حول الرؤية الإنسانية والمادية للفلاسفة اليونانيين السابقين على سقراط. وتدين فقرات في "المزامير[٢]" الشريرين الذين يقولون: لا يوجد إله، ويصور "اليسع بن أفويا" على أنه رجل عظيم لكنه ألحد وحسب رأيه لم تعد فرائض الشريعة تطبق عليه، ويقترح أفلاطون في كتاب "قوانين" حبس الملحدين في معسكرات مغلقة خمس سنوات وخلالها يتم محاولة تغيير معتقداتهم، وإن لم يفلح الحراس في ذلك ينبغي قتل الملحدين. ويرى مبتدع الاستبدادية الحديثة في العهد القديم أن الإلحاد عقيدة غير أخلاقية خطيرة على الدولة والمجتمع. وينتشر الإلحاد الذي يتجلى في النظريات الفلسفية الأحدية والمادية اليونانية من القرن السادس، منذ بداية القرن الرابع قبل الميلاد في اليونان والعالم الهلينستي، وكثير من تعابيره الأدبية الغنائية والفلسفية باقية أو يصفها مؤرخو تلك الفترة.

---

(١) البوذية : ظهرت الديانة البوذية فى الهند كمحاولة لإصلاح الوضع الدينى فى الهند. وهى ديانة ذات طابع فلسفى تهتم بقضايا الوجود والمصير الإنسانى داخل هذا الوجود. وقد بنت فكرها الدينى على أساس الفكرة الخاصة بالمعاناة. وقد احتفظت البوذية بأسلوب التفكير الفلسفى التأملى وخاصة فيما يتعلق بالبحث فى طبيعة الشقاء وأسبابه، وكذلك فيما يتعلق بالأساس النظرى لطريق تحقيق الخلاص. وحاولت ان تحقق نوعا من الاعتدال فى التصوف فانتهجت طريقا وسطا بين الزهد والتقشف. للمزيد انظر: د. محمد خليفه حسن: تاريخ الأديان، دراسة وصفية مقارنة .١٩٩٦ص ٧٦ - ٩٣.

(٢) المزامير: سفر المزامير يحتوى على مائة وخمسين مزمورا تنسب ثلاثة وسبعون منها لداود، وخمسون مجهولة المؤلف والبقية ترجع إلى مؤلفين مختلفين.

فرضيات حول نشوء الآلهة في المعتقدات الإلحادية منذ الملينية

بداية من العصر الهلينستي، حظي ملوك كثيرون بالتأليه على أيد البشر، ينتشر الاعتقاد أنه أيضا في فترة بداية تطور الديانة ابتكر البشر إلها عن طريق تأليه آباء وأمهات وزعماء قدامى.

لقد امتزجت الشخصية التي نسبت إلى أجسام وظواهر وقوى طبيعية بعقيدة أناس قدامى بآلهة آباء وأمهات وزعماء قد تشكلت أحداث حياتهم وشخصياتهم في أساطير وفي إبداعات أدبية وفنية وسير أدبية منحتها تميزا ونظام علاقات بين آلهة وسلالتهم. والتوجهات إلى إله مثل أبينا وملكنا الذي في السماء هي بقايا واضحة، حسب هذا الاعتقاد، لعملية نشوء الإله على أيد الإنسان.

يعد وجود الآباء والأمهات الذين ماتوا في حياة البشر في كل العصور ظاهرة مشتركة بين ذوي المعتقدات التوحيدية والإلحادية. ويستمر الآباء الموتى الذين كانوا محبوبين ومهددين أثناء حياتهم، في التواجد في الأحلام وفي تخيلات الذكريات وكأنهم يواصلون الحياة. فهم ينشطون في روحنا، في الوعي واللاوعي، وفي الذاكرة التي تجدد المحفوظ فيها وتضيف عليه من الخيال، وتميز القدرة على ضم الماضي والمستقبل إلى الحياة الروحية في حاضر الجنس البشرى عن كل حى، وتتيح الإيمان الدينى أو الاعتقاد بأن أرواح الموتى تواصل الحياة. فالشوق إلى محبتهم والخوف من عقابهم فى الحاضر، وكانوا قادرين فى طفولتناعلى ذلك، يؤثر ويخيف ويمتزج بالايمان بآلهة حية فى عالم لا يرى وغير متوقع مثل "عالم الآخرة"، الذى تأتى منه أرواح الموتى وإليه يذهب الأحياء بعد موتهم. وترافق الآخرة والحياة بعد الموت معظم المعتقدات الدينية.

ويماثل الاعتقاد الإلحادي باقتصار الحياة على هذا العالم الاعتقاد السائد في الأدب الديني الموجود في العهد القديم والذي يتجاهل هو أيضا الحياة بعد الموت. وتوجد في اليهودية معتقدات إلحادية كثيرة– لاأدرية، معتقدات ترى أن الإله بطلا أدبيا وعلى أنه معجزة الشرعية في الكون.

ومنذ التحرر الذاتى – تحرر اليهود من سلطة الطوائف الدينية، وفتح طرق

لاندماج اليهود في مجتمع غير يهودي وثقافته - تزايد مسار التحرر الروحاني في اليهودية، وتحرر اليهود من الالتزام بالمحافظة على فرائض الشريعة وتحرروا من الحظر المفروض على نقد التقاليد والأسس المقدسة في نظر المؤسسات الحاكمة والزعماء المتدينين، وتحرر كثير منهم من الإيمان بالإله وبأنه يستطيع مراقبتهم وأمرهم بما عليهم أن يفعلوا عندما بدأوا النظر إليه على أنه ابتكار إنساني وأحد الإبداعات الثقافية التي ألفها الإنسان.

بداية من القرن الثامن عشر وبصفة خاصة في القرن التاسع عشر انتشرت تلك الاتجاهات الثقافية ومعها آراء ومعتقدات لاأدرية وإلحادية وإنسانية.

امتزجت تلك المعتقدات فى وعي يهود كثيرين بالاعتقاد بأن اليهودية ثقافة تعددية لليهود وتشمل تيارات دينية مختلفة ومتصارعة فيما بينها لكنها تضم أيضا تيارات يهودية متحررة من الديانة ومن الإيمان بالإله كما شكلتها تقاليد ديانة الشريعة. والمشترك في المعتقدات الإلحادية هو الإيمان بأن الإنسان هو صاحب السلطة العليا في القرارات الأخلاقية وفي تحديد معتقداته، وتجاهل وجود إله خاص، والتحرر من الالتزامات تجاهه، وعدم الاعتراف بقدرة الإله في التأثير على حياة البشر.

إن الاعتقاد اللاأدرى،على سبيل المثال، هو اعتقاد إلحادي في نظرته إلى الإنسان على أنه صاحب السلطة الأخلاقية، ويشكك وينشد ما لايدركه العقل، دون تحديد ماهو مصدره الإيمان أم المحرمات الدينية. ولا يتطابق الاعتقاد اللاأدرى مع الإيمان أو عدم الإيمان بوجود الإله؛ فهو اعتقاد بعدم استطاعتنا معرفة إذا ما كان يوجد إله أم لا؛ حيث ترى اللاأدرية أن السؤال "هل يوجد إله؟" سؤال عديم المغزى ولا إجابة له - كما يرى ذلك بروتاجورس وأيضا سقراط ومن وافقوا على عدم معرفة شيء عن الآلهة أو عن وجودهم، وأن حياة البشر لا تكفي لمعرفة شيء عن هذا الأمر.

ويؤمن لاأدريون كثيرون بأن الإله هو تصور موجود عبر حدود وسائل المعرفة الإنسانية- الحواس والمنطق. ولذلك لا يجب تعريف الإله ولا يجب أن ننسب إليه خاصية ما، بما في ذلك خاصية الوجود أو عدم الوجود. ولقد توصل إلى هذه النتيجة أيضا قراء كثيرون لكتاب "دليل الحائرين" لموسى بن ميمون. وأدى هذا إلى حيرة يهود متدينين قد

بجلو موسى بن ميمون بوصفه كبير مفكرى اليهودية. ونتيجة لذلك فقد حُرمت في دوائر كثيرة في اليهودية قراءة هذا الكتاب لموسى بن ميمون حتى بلوغ الفرد سن الأربعين، وطالب آخرون إبادته وحرقه لئلا يشجع الاعتقاد اللاأدرى والإلحادي بين قرائه.

وينبثق عن المعتقد اللاأدرى- كما في حالة المعتقد الإلحادي – اعتقاد بأن الإنسان حر فى اختيار قيم بناء عليها يقيم ويفضل ويصيغ أنماط السلوك وفرائض الديانة والقوانين. ويلغي هذا الاعتقاد حق الذين يتظاهرون بالحديث باسم الإله وبالأمر وبإصدار الفتوى أو بفرض شرائع وأحكام على غيرهم، ويستطيع أن يحدد طريقه ونظرته إلى إجمالي الشرائع، بما فيها شرائع الديانة من خلال رؤيته ووسائل المعرفة والعلم الذي في حوذته وعلى أساس إيمانه بقيم أخلاقية تخدم صالح الإنسان فحسب.

يرى المؤمنون بالإله كبطل أدبي أنه قوة مؤثرة في الحياة الثقافية والاجتماعية، لكونه عاملا حاسما في التجربة الفنية والمعرفية للفرد الذي يتعرض للأدب الذي شكل الإله ولعب أدوارا مركزية في تطور الثقافة التي عاش بها هذا المؤمن. وتنضم هذه التجربة الفنية لهؤلاء المؤمنين أو تأتي عوضا عن تجربة الإيمان الديني.

الإيمان بالإله كبطل أدبي فحسب يناقض الاعتقاد الديني الذي يعترف بوجود الإله أيضا خارج إطار الإبداع الأدبي، ويرى أنه مؤلف أدب العهد القديم والذى يُعرض فيه الإله في مواجهة الناس، وكواحد من أبطال الأدب الآخرين الذين يعيشون ويعملون في تلك الإبداعات.

إن اعتقاد الذين يرتبطون بالإله كبطل أدبي فحسب هو اعتقاد إلحادي في نتائجه: إنه يرى أن الإنسان هو مبتكر الإله والقيم والفرائض، ولا يعترف به ككيان مستقل ينبغي الدعاء والصلاة له، وسؤاله والخوف منه. وحتى الذين يؤمنون بأن الإنسان يحتاج إلى إله قد أُلف في تلك الإبداعات الأدبية كأساس لسلطة أخلاقية لا ينسبون إليه كيانا خاصا ذا إرادة وقدرة آمرة مستقلة.

يعد الاعتقاد الحلولي إيمانا بالتطابق بين الطبيعة والإله – بألوهية الطبيعة. ومن هذه الناحية فهو اعتقاد بوجود إله وعلى أنه خاصية للطبيعة والوجود. وتطور في اليهودية

هذا الاعتقاد وتجلى في تأثير فلاسفة يونانيين وهلينستيين، وعن طريق فلاسفة مسلمين أثروا فى المفكرين اليهود الذين عاشوا في ظل الثقافة العربية في العصر الوسيط.

يظهر التعبير اليهودي للمذهب الحلولي بوضوح في إبداع سبينوزا في القرن السابع عشر، كاستمرار لفكر موسى بن ميمون في القرن الثانى عشر، وهو استمرار لفكر فيلون في القرن الأول، والقائم على الفكرة المنسوبة إلى موسى القائلة بأن "الإله هو الكيان الذي يشكل ما سيكون". ويصيغه الأديب الذي صاغ الكلام على لسان بطله الأدبي الإله: "أكون الذي أكون" (والفعل القديم طبقا لرأي أولبرايت دلالته "أكون الذي أكون" وبضمير الغائب المفرد: يكون أي "يهوه").

يلغي الاعتقاد الحلولي الفصل بين الإله والطبيعة، ويلغي إمكانية تعريف الإله على أنه كيان منفصل خالق أو مؤثر أو فاعل أو مراقب ويتعامل مع الإنسان. وانبثق عن هذا الاعتقاد أيضا، كما انبثق عن كل المعتقدات الأخرى التي ذكرت آنفا، نتائج إلحادية، مثل: أن يكتشف الإنسان قوانين الطبيعة من جراء نفسه، وأنه هو مبتكر القوانين والفرائض لينظم حياته الاجتماعية والشخصية في العالم الذي يفتقد إلى إله، وأن الإنسان حر فى اختيار كل ما يتعلق بالسلوك وعلم اللاهوت والسياسة. وطبقا لهذا الاعتقاد فالإنسان ليس حرا في التنازل عن إرادته والخضوع لإملاءات رجال الدين الذين يتحدثون باسم الإله، حيث إن الطبيعة لا تستطيع التحدث بلغة البشر. ويفرض اعتقاد كهذا على الإنسان المسئولية عن أفعاله في العالم، ذلك لأن أفعاله وقراراته تؤثر في العالم والطبيعة وتغيرهما – فتفسده أو تنقذه من تخريبه. وتُحدد حرية الإنسان عن طريق عناصر الطبيعة التي لا يسيطر عليها – المنطق والحياة التي يحدها الموت، البيئة المادية والاجتماعية التي ولد وعمل فيها.

إن علماء مثل أينشطين، الذين يعبرون عن تعجبهم من وجود معجزة شرعية شمولية تسود الطبيعة، والعالم الصغير، وفي كل الأزمنة المعروفة والمفترضة، يرون أن هذا التعجب مثل التمسك بالديانة ولكن هذا الإيمان بمعجزة الوجود وتعقيداته وتوافق التناقضات المتعددة السائدة به، يخلق أيضا إمكانية الإيمان بكيان فوق الطبيعة.

ويعد الاعتقاد بشرعية عالمية وثابتة تسود الطبيعة اعتقادا إلحاديا لأنه يناقض الإيمان بوجود خالق وبالعناية الإلهية، وبالحياة بعد الموت، أو بكل سمة أساسية أخرى للمعتقد الديني. (يقول أينشتين: أنا مؤمن بإله كما يراه سبينوزا: إله يظهر في الانسجام السائد في كل ما هو موجود، وليس إلها يشغل نفسه بمصير وأفعال المخلوقات).

أسس الاعتقاد الإلحادي

إن الإلحاد هو الإيمان بسيادة الإنسان وبحريته، وبمسئوليته عن أفعاله وقدرته على أداء دور حاسم في ظروف معينة وتشكيله لمصيره. وفي دور كهذا فالإنسان هو مصدر السلطة فهو مبتكر شكل الإله والقيم الإنسانية بوصفها معايير للتقييم والتفضيل، وطبقا لها يحكم البشر على كل قانون وفريضة وكل عادة ونهج: وذلك حسب مدى إسهامهم لإنسانية أو لا إنسانية الفرد.

تعرض تلك المعتقدات الإلحادية في معظم إبداعات ثقافة اليهود في القرن العشرين. ويتجاهل غالبية الأفراد الذين ينتمون لليهودية و لثقافات الغرب دور الإله في حياتهم، حتى وإن كان من بينهم من لا ينفي إمكانية وجود الإله في العالم. وقليلون منهم فقط يسمون اعتقادهم "إلحادية" بسبب الاسم السيىء الذي نتج عن الإلحاد بوصفه كفرا ليس معه إيمان، وبسبب محاولات تشويهه (منذ أفلاطون)، واعتباره كفرا بقيم أخلاقية وبالولاء للمجتمع.

ورغم مركبات الاسم إلحاد فهو اعتقاد مناقض لمعتقدات دينية ولا يعني كفرا. أما "الكفر" فهو اسم يلقب به أبناء عقيدة ما عقيدة معارضيهم.

في اليهودية المتحررة بإسرائيل، يعود العهد القديم ليكون أساس التعليم في اليهودية

يقوى تطور دولة إسرائيل وثقافتها اتجاهات التعددية في الثقافة اليهودية داخل إسرائيل وفي الخارج. وتلتقي في إسرائيل كل التيارات الطائفية والعلمانية والدينية الموجودة في اليهودية. وقد زاد الاحتكاك بينها وتبرز الفروق بينها بوضوح أكثر من الماضي، وتبرز الفروق الكبيرة والتناقضات بين اليهودية الإسرائيلية بوصفها تمثل كافة التيارات وبين كل تيار من التيارات اليهودية فى الخارج.

يعيش معظم اليهود في كل بلدان الخارج باللغة والثقافة القومية للبلد والشعب الذي يعيشون فيه. ويعيش اليهود في إسرائيل في محيط ثقافة يهودية تتصارع فيها كل التيارات مع بعضها البعض.

وتبرز تأثيرات ثقافات شعوب أخرى بالطبع أيضا في الثقافة الإسرائيلية (في أنماط الحياة، والملبس، والرقصات، ووسائل الإعلام ومضامينه) كما هي بارزة في كل الثقافات القومية المتطورة في بلدها وفي لغتها القومية. وتمتزج هذه التأثيرات بالإبداع وبالثقافة القومية المتميزة - في إبداعات الأدب، والمسرح، والسينما، والفكر العلماني والديني، والفن، والصحافة، والأعياد والمناسبات القومية والشخصية.

يبرز في الثقافة العبرية الجديدة الارتباط بالعهد القديم أكثر من أي نظام تعليم يهودي آخر في العالم؛ حيث تربط لغة الحديث والإبداع الإنسان الإسرائيلي بأدبه الكلاسيكي الموجود في العهد القديم. ويحتل العهد القديم في التعليم الإنساني في معظم المدارس بإسرائيل مكانا بارزا في كل سنوات الدراسة - من مرحلة رياض الأطفال وحتى الجامعة. ويعد التعرف على مضامين الإبداع التوراتى قاسما مشتركا لغالبية دوائر المثقفين في إسرائيل وأبنائهم. وتهيء رحلات في إسرائيل مثل: الرحلات المدرسية وحتى الرحلات الأسرية أو الفردية - الإسرائيليين للقاء مع آثار عهد قديمية في إسرائيل. ويعيش العهد القديم في وعي معظم الإسرائيليين بوصفه وثيقة تاريخية وأدبية وسياسية - مع تجاهل الشك العلمي المتعلق بصحة الشهادات الموجودة به.

يقرب الإيمان باقتصار الحياة على هذا العالم وغياب الميثولوجيا الملائكية والصوفية في أدب العهد القديم، هذا الأدب إلى عقلية الإسرائيليين المتحررين من الديانة، ويحولها إلى مصدر إلهام واقتباسات في إبداعات إسرائيلية كثيرة - كإبداعات الأدب والمسرح الإسرائيلي وحتى أشعار بوب والخطب السياسية.

لقد استخدم أدب الشريعة والأدب الذي يعبر عن الإيمان بالآخرة وبالبعث، والعفاريت والملائكة التي تطوف حولنا دون أن نراهم، مصدرا لإبداعات كثيرة ألفها اليهود خارج فلسطين - بما فيها مؤلفات أدباء علمانيين مثل "بشبيس زينجر"

و"ي.ل.بيرتس"، الذين يستخدمون الأساطير في أعمالهم الساخرة (مثل: "العفريت الأخير" أو "ليس أكثر من ذلك"). وقد تلقى هؤلاء الأدباء وأمثالهم تعليما حريديا تتصدره دراسة أدب الشريعة والتفاسير الدينية والمدراشيم.

تختفي تلك الآداب تماما من العالم الروحاني لمعظم المبدعين الإسرائيليين وجمهورهم، كما تختفي تماما من العالم الروحاني لمعظم اليهود الذين ينتمون إلى تيارات الأغلبية اليهودية الدينية أو العلمانية في العالم.

وعلى خلفية تلك التطورات عاد العهد القديم ليكون الأساس المشترك للثقافة اليهودية في إسرائيل – وبخاصة بين الأغلبية المتحررة من الديانة وبين الحركات الدينية الصهيونية. ولايزال بين الأقليات الحريدية فحسب أدب التلمود والمدراشيم والقبالاه والتفاسير الدينية مشكلا لمعظم مواد الدراسة ورموز اليهودية. ولم يعد العهد القديم يستخدم في اليهودية المتحررة كمادة أولية لتفسير ديني متحرر من ترجمة معتمدة للمعنى الظاهر. وعاد العهد القديم ليكون أنتولوجيا أدبية يفهم لغته متحدثو العبرية ويقرأون إبداعاته بلغتها. ولم يعد يستخدم العهد القديم في حياتهم ككتاب ديني، وفقراته أو بعض فقراته غير معروفة لهم كمستندات لشرائع ولدعاوي لا علاقة لها بالأصل الأدبي. ففي نظرهم يكون من الغريب والسخيف استنتاج شر "عيسو" وتعدد أخطائه من الفقرة التي تصف عودته متعبا من الحقل، كما فى أحد التفاسير والتي ترى أن هذه الفقرة وصف لأخطاء كثيرة قد ارتكبها "عيسو" عند مقدمه متعبا من الحقل – فتضم قتل (لأنه مكتوب في سفر إرميا نفس متعبه للقتلة) واغتصاب امرأة مخطوبة (لأنه يوجد حكم بأن الاغتصاب في الحقل أفدح من الاغتصاب في المدينة ففيها تستطيع المغتصبة الصراخ طلبا للنجدة).

وتنفصل في اليهودية المتحررة من الديانة إبداعات العهد القديم عن تفاسير مُلزمة وعن تفاسير دينية قد اقترنت بها. ونطلق عليها إبداعات أدبية ووثائق تاريخية ذات مغزى ديني للمتدينين ليس لها نفس المغزى لغير المتدينين. ومثل كل إبداع أدبي – نظرى أو خيالي – تشكل أيضا إبداعات أدبية من العهد القديم وثيقة تاريخية، تدل على الحياة في العصر الذي أُلفت فيه، وأحيانا أيضا على العصر الذي تروى عنه.

الانتماء القومي، والإنسانية والتقاليد في اليهودية المتحررة من الديانة

بدأ التمييز بين الشعب والديانة في اليهودية استجابة للعنصرية اللاسامية[1] في القرن الخامس عشر. وتحولت المعتقدات الإلحادية، من ناحية مغزاها واستنتاجات المؤمنين بها فيما يتعلق بأنماط حياتهم والحفاظ على فرائض الشريعة والانصياع للحاخامات وللسلطات الدينية، إلى عامل حسم في اليهودية المعاصرة، منذ التمييز بين اليهودية بوصفها ديانة واليهودية بوصفها شعبا وثقافة.

لا يعترف المؤمنون بأحد المعتقدات الإلحادية المذكورة آنفا بكيان إلهي كشخص موجود أو يعمل من جراء نفسه، وقد اختار اليهود شعبا له. هم لا يعترفون بإله موجود يراقب ويعاقب ويتجسد ويرتبط معه اليهود بعهد أو بأي علاقة خاصة. وتتجلى تلك المعتقدات الإلحادية والإنسانية في تشكيلة الإبداعات اليهودية التي تمثل التيارات اليهودية المعاصرة.

انتشرت معتقدات لاأدرية حلولية ومعتقدات إلحادية أخرى في اليهودية على ضوء الصدامات والتحولات في أوربا منذ القرن الخامس عشر وحتى القرن التاسع عشر. فقد انهارت طوائف يهودية بسبب اعتداءات وترحيلات، غيرت جموع يهودية ديانتها وظلت يهودية في الخفاء، وطرد يهود إسبانيا واضطهاد "النصارى الجدد" والذين استمروا في الانتماء إلى اليهود في إسبانيا والبرتغال، وأسفر كل هذا عن رؤية جديدة لمفهوم "يهود" ونمت لاسامية جديدة في أسبانيا، عقب الردة الجماعية لليهود عن ديانتهم؛ حيث اختاروا تغيير ديانتهم وعدم الهجرة من البلد الذي ولدوا به وعاشوا فيه منذ أجيال كثيرة. ونتيجة لذلك فقد زاد عداء النصارى القدامى تجاه النصارى الجدد اليهود، الذين تسللوا، بعد

---

(١) اللاسامية : هى ترجمة للعبارة الإنجليزية والتى نقلتها اللغة العبرية بنفس اللفظ، والمعنى الحرفى لهذه الكلمة هو ضد السامية ، وبذلك تعنى العبارة المعاداة ضد كل الأجناس السامية، ولكن اليهود استخدموا هذا المصطلح ليدل على المعاداة ضد اليهود فقط ، ولتشير إلى كراهية اليهود فحسب. ومن المعروف أن اليهود قد استغلوا هذا المصطلح لتحقيق أطماعهم واتخذوه ستارا لعداوة كل من يعارضهم ، وأثناء مراحل الصراع على أرض فلسطين اتهم اليهود العرب بمعاداة السامية ، وكلما ازدادت مظاهر الرفض العربى للتطرف والإرهاب الصهيونى والإسرائيلى زاد اتهام اليهود للعرب بالعداء للسامية.

تنصرهم، إلى الطبقة الحاكمة في المجتمع الإسباني وإلى دوائر الحكم والسلطات التي ترأست محاكم التفتيش.

هذا التحول في وضع من كانوا يهودا في نظر المحيطين بهم بعد تنصرهم قد غير طبيعة اللاسامية المضادة للديانة وحولتها إلى لاسامية قومية رأت أن اليهود شعب دون النظر إلى ديانتهم المعلنة. وفي رد فعل على ذلك فقد نشط بين يهود كثيرين وعي قومي غير متطابق مع الالتزام بالتمسك بفرائض الشريعة أو الإيمان بأسس التقاليد الدينية المقدسة.

عاد "نصارى جدد" كثيرون والذين هُجروا من شبه جزيرة أيبريا إلى غرب أوربا وجنوبها، إلى اليهودية عندما سُمح لهم بهذا. وأثارت حركات مسيحانية ،مثل : التي قام بها هرؤبينى وشبتاي تسفي – آمال تحرر قومي ذي طابع سياسي: إقامة دولة لليهود. وشجعت خيبة الأمل نتيجة فشل تلك الحركات على انتشار معتقدات صوفية وقبالية وشكية بين مثقفين من النصارى الجدد، والذين عادوا إلى اليهودية بعد أن عرفوا عن كثب ثقافات أوربا وكانوا مندمجين في حركات النهضة الثقافية في القرن السادس عشر والسابع عشر.

بدأت تترسخ لدى اليهود مفاهيم جديدة لليهودية بوصفها ثقافة لشعب، وظهرت به معتقدات لاأدرية وحلولية والقريبة في استنتاجاتها للإلحاد. والمشترك بين هذه المفاهيم الجديدة ما يلي: التمييز بين ديانة الشريعةواليهود، والاعتراف بأن الإنسان يستطيع الاستمرار في أن يكون يهوديا حتى وإن لم يكن شخصا متدينا حسب تعريف المتمسكين بالفرائض، وحتى إن لم يؤمن بالإله وبأن للإله قوة مستقلة ومراقبة، وحتى إن لم يؤمن بوجوب الحفاظ على الفرائض المنسوبة إلى الإله من قبل من يتظاهر بالتحدث باسمه.

وازدهرت بين جماعات "النصارى الجدد" العائدين إلى اليهودية (كما في طوائف أمستردام) المحافظة على التقاليد الدينية من قبل القيادة الطائفية والتي رغبت في التأكيد على أن يعترف بهم كيهود، رغم ماضيهم النصراني. وفي المقابل ظهر بين هذه الجماعات مفكرون مثقفون (مثل أورئيل داكوستا وسبينوزا) والذين يشكون في الأسس المقدسة للتقاليد الدينية وفرائضها. فاتخذت قيادة الطائفة إجراءات مقاطعة وتحقير ضد كل من

ينتقل من ديانة إلى أخرى ومن ثقافة إلى أخرى مما يحث الفرد على التفكير مجددا في مبادئ ديانته وقوميته اليهودية.

إن عدم التسامح الديني والفكري الذي ميز سلطات نصرانية - كاثوليكية وبروتستانتية - تتبناه أيضا طوائف يهودية. فنجد "أورئيل داكوستا" ينتحر بعد فترة قصيرة من تأسيس الطائفة اليهودية البرتغالية في أمستردام (١٦٤٠م) بعد أن تم مقاطعته وتحقيره واضطهاده بسبب آرائه ومعتقداته، كما فرضت الطائفة اليهودية مقاطعة ونددت بأحد كبار فلاسفة أوربا - باروخ سبينوزا- الذي كان حتى ذلك الحين عضوا في الطائفة اليهودية ويظهر اسمه في قائمة المساهمين في إنقاذ اليهود الذين طردتهم سلطات محاكم التفتيش من البرازيل ورست سفينتهم في ميناء نيو أمستردام - التى هى نيويورك . ولم يسمح لهم بالنزول إلى الساحل حتى تعهدت الطائفة اليهودية في أمستردام بكفالتهم اقتصاديا.

كان سبينوزا من أوائل من أرسوا رؤية نقدية للعهد قديم ونظر إلى التوراة على أنها شريعة شعب في زمن معين وليست شريعة دينية أبدية. ففتح الطريق للتعرف على أدب العهد القديم بوصفه الأدب الكلاسيكي لليهود وليس بوصفه كلام الاله. ونظر إلى قوانين الشريعة الواردة في العهد القديم على أنها دستور قديم جماعة قومية والتي ستحتاج إلى سن قوانين جديدة عندما تحظى مجددا باستقلال قومي سياسي. ويتطور التمييز بين الدين وبين القومية اليهودية عن طريق عوامل مختلفة تعمل على الوعي اليهودي في فترة الانتقال من العصر الوسيط إلى العصر الحديث. وقد أضيف إلى العامل اللاسامي العنصري الجديد والذي نما مع نجاح "النصارى الجدد" العامل المسيحاني الذي يشجع الأفراد على التفكير في الخلاص بمصطلحات قومية سياسية، مثلما في المسيرة السياسية لرؤبيني زعيم اليهود، وفي الحركة الشبتائية وفيها انفصل في نهاية الأمر مفهوم الأمة اليهودية عن ديانة الشريعةاليهودية. وأضيف إلى كل هذا العامل الفكري النقدي - على غرار سبينوزا - والذي يلقي الضوء حول تراث اليهود بوصفه تراثا تاريخيا قوميا يعيش به يهود متدينون وغير متدينين معا.

معتقدات وقيم إنسانية غير دينية في معظم إبداعات اليهودية المعاصرة

يزداد بداية من القرن الثامن عشر عدد الإبـداعات اليهوديـة المؤلفـة خـارج دائـرة تأثير الديانة اليهودية وأسس الإيمان السائدة في تياراتها. وتتجلى المعتقدات التي تؤمن بـأن الإنسان وليس الإله هو العامل الذي يحدد مبادئ السلوك والمسارات التاريخيـة في عـدد كبير من الإبداعات اليهودية. وبداية من القرن التاسع عشر وبخاصة في القـرن العـشرين تعرض معظم مؤلفات اليهود في إبداعات يهودية في الأدب والفكر والفنـون التـي تؤلـف في الخارج وفلسطين.

إن معظم الإبداعات التي تؤثر في اليهودية في القرنين التاسع عشر والعـشرين هـى إبداعات إنسانية وليست دينية؛ حيث تنصب حول موضوع الإنسان وصراعه مع مـصيره وليس حول الإله أو الفرائض المنسوبة إليه. وتعد إبداعات يهودية لمبـدعين يـؤثرون عـلى الثقافة المعاصرة مثل: هيانا، شالوم عليخم، فروست، كافكا، سول بلاو، بشبيس زينجر، هس، هرتسل بوبر ويشعياه برلين – هي إبـداعات إنـسانية وليـست دينيـة تتركـز حـول معايير القيم الإنسانية، وهى تهتم بصالح الإنسان وليس بالمواعظ واالأحكـام التـى قالهـا الحاخامات باسم الإله.

تعبر غالبية الإبداعات اليهودية المعـاصرة فى الأدب والـشعر، وفنـون العـرض في المسرح والسينما، والفكر والنقد – عن إيمان بالإنسان وبحريته في التصرف برغبته في إطار الظروف المادية والاجتماعية المتاحـة لـه. و يظهـر مـن هـذه الناحيـة ارتبـاط الإبـداعات اليهوديـة بالمعتقـدات الإلحاديـة، بـصورها وأشـكالها المختلفـة عـن بعـضها الـبعض، وبالأساس المشترك بها وهو الإيمان بأن صالح الإنسان مقدم ومفضل عـلى كـل مـصلحة إلهية أو مبدأ آخر. وتعتبر قيم الإنسانية هي معيـار للتقييم والتفـضيل وموجهـة لـصالح الإنسان وإنسانيته، وأن قيم الإنسانية معيار كل الأمور. وهذه القيم الإنـسانية مـشتركة في مبدأ المتدينين وغير المتدينين، ولكن الإنسانيين المتدينين في اليهوديـة يـدركون – كـما كـان يدرك ذلك يشعياهو ليفوفيتش – التناقض الذي بين عمومية المبادئ الإنسانية وبين سـمو فرائض الشريعة.

يحاول الإصلاحيون الحقيقيون من بين المتدينين، والذين يواصلون طريق الحاخامات الذين ألفوا التوراة الشفهية (الموجودين في كل تيارات اليهودية وليس بالذات من يلقبون بـ"إصلاحيين") التغلب على التناقض بين مبادئ وقيم إنسانية وبين فرائض وشرائع مناقضة لها. ويعيد هؤلاء الذين يعملون على تغيير فرائض معينة كتابة صيغ صلاة، ويشكلون مجددا عادات ويوفقونها مع المبادئ الإنسانية الخاصة بهم. مثل: منح حق المساواة بين الرجال والنساء في انتخابات الحاخامات والقضاة أو رفض نصوص صلاة مهينة كالتي تقول "الحمد لله على أنه لم يخلقني امرأة". ويقع الأرثوذكس، الذين يؤمنون بأنه لا يحق لهم تغيير أي شيء في الفرائض والصلوات المقدسة في نظرهم، في مشكلة ليس لها حل، مثل مشكلة ليفوفيتس.

كما يؤمن إلحاديون إنسانيون أن حقهم وواجبهم التقييم والحكم والتفضيل ورفض أي فريضة وقانون طبقا للقيم الموجهة لصالح كل البشر: نساء ورجال، في كل عمر، وجنس وعرق، حيث إن غاية الفرائض الأخلاقية هو صالح الإنسان.

يتصدر موضوع الفكر الإنساني منذ حوارات سقراط النقاش حول جوهر الإنسان وصالحه ، الظروف والعادات القيم والقوانين التي تضمن الأفضل لمعظم البشر. والإجابات المقترحة حول هذا السؤال هي موضوع النقاش الذي يتجلى في إبداعات أدبية وفنية في كل جيل. ولقد ظلت القيم السامية لهليل وكانط - القائلة: "لا يفعل الإنسان بغيره ما يكرهه لنفسه، ولا ينظر الإنسان إلى الآخر على أنه وسيلة بل هو غاية، وكل مبدأ أخلاقي هو مبدأ إنساني - مبادئ أساسية للحكم على كل قيمة إنسانية وكل سلوك. واتضح في عصرنا أنه بدون إخلاص لتلك القيم السامية فلا احتمال لوجود مجتمع إنساني يحسن إلى الأفراد الموجودين به، حتى وإن كانت مفاهيم "ما هو صالح للإنسان" من شأنها أن تتغير من جيل لجيل.

إن الحفاظ على الفرائض الدينية أمر له ما يبرره في نظر الملحدين طالما أنها لا تتعارض مع القيم الإنسانية. والفريضة التي تتساوى مع القيم الإنسانية مثل: الفرائض الموجودة في الوصايا (العشر) أو النابعة من مطالب الصدق والعدل يتقبلها إنسانيون إلحاديون ومتدينون على حد سواء. والفرائض التي تتعارض مع تلك القيم مثل: الفريضة

التي تستوجب ظلما للنساء في المحكمة فتمنح لهن الحق في أن يكن ماثلات أمام المحكمة وألا يكن قاضيات - فهذه الفرائض مرفوضة في نظرهم ويجب إلغائها.

تحيا الثقافة الدينية - شريعة، وصلوات، وأشعار دينية، وتفاسير، وقصص، وأعياد، وشعائر - في الثقافة العلمانية المتحررة من الديانة. فتعترف المعتقدات الإلحادية بأدب الشريعة الموجود في التلمود بوصفه إبداعا متميزا من النقاشات والخلافات والفتاوى والتي أصبحت فرائض في نظر المؤمنين المتدينين. ويوجد اهتمام كبير بهذا الأدب بوصفه وثائق تاريخية وإبداعات بلاغية وفكرية، إلا أن القوانين والفرائض الواردة به خاضعة للتغيير والإلغاء أو التجديد حسب الضرورة والظروف المتغيرة شريطة أن تخدم مصلحة الإنسان. وتتيح معتقدات الإلحاديين لهم اختيار الفرائض والشرائع التي تلائم قيمهم، وإلغاء أو تجاهل فرائض وشرائع ليس لها صلة بقيم عقيدتهم ومناقضة لها. ويمتنع الإلحاديون عن التوجه إلى الإله بالدعاء أو الطلب أو الصلاة والتي يبدو أنه لا طائل منها في نظرهم، أو مناقضة لعقيدتهم التي طبقا لها لا يطلب الإنسان أو يصلي أو يدعو شيئًا لا يؤمن بوجوده ككيان منفصل لا تفيده الصلاة ولا تفيد المصلي.

إن المؤمنين بأن الإله هو ابتكار إنساني متغير ومتطور ويعيد البشر تشكيله في الثقافات والعصور المختلفة لا يصلونِ له، ولا يدعونه، ولايعتبرونه خالقهم أو مراقبا ومؤثرا فى مصيرهم.

لا تمنع المعتقدات الإلحادية أصحابها البهجة، واستخدام كل إبداع شعري أو فني يوجد به اسم الإله أو شخصيته كما في أشعار دينية وعلمانية، وصور وتماثيل تصور الإله، وقصص وتفاسير وأشعار الميثولوجيا، طالما يوجد لتلك الإبداعات قيمة شعرية انطباعية مستقلة، أو دور مبهج في الشعائر وفي الاحتفال، ويستخدمها يهود ملحدون. وقد يستخدم اليهودي العلماني أشعارا دينية من سفر المزامير بجانب أشعار علمانية من سفر نشيد الأناشيد. وتُوظف أشعار ونصوص دينية من العهد القديم والقصة التقليدية في احتفال الفصح لدى العلمانيين بجانب أشعار علمانية لعميحاي أو لنعمي شيمر، لألترمان أو إيرا جرشفين. وتلعب إبداعات نموذجية حول موضوعات دينية، مثل أناشيد مزامير

معينة، دراما فلسفية مثل سفر أيوب، "طي سيستينا" لميكل انجلو"، دورا في الحياة الروحية لأبناء ثقافة دينية وعلمانية على حد سواء، يهود وغير يهود.

ويلعب الإبداع الشعري الموجود في الأدب والإبداعات الفنية الأخرى دورا حيويا في الحياة الروحية لكل البشر - متدينين وغير متدينين معا. وتحتاج كل ديانة إلى إبداعات فنية وأدبية لكي تشكل إلهها والشعائر التي من خلالها تحتفل بارتباطها بها، وأعيادها الجماعية والشخصية.

يحتاج الإلحاديون، مثل كل البشر، إلى شعائر في احتفالاتهم - سواء في الأعياد القومية التقليدية أو في الاحتفالات الشخصية لدورة الحياة. وكانت الشعائر والطقوس من هذا النوع دينية طالما كانت الثقافة دينية، ولكن في الجماعات العلمانية يبحث أفرادها عن سبل لتجديد الشعائر وتوفيقها مع معتقداتهم واحتياجاتهم الثقافية. وابتكرت في الثقافة اليهودية غير الدينية قصص جديدة للفصح وسيناريوهات شعائر جديدة لكل عيد واحتفال، ومدرجة بها نصوص من الأدب ومن الفن الديني والعلماني معا، مثلما في طقوس استقبال السبت وإنهائه لدى الأسر العلمانية، وفي احتفالات الحانوكا وإيقاد الشموع لدى علمانيين، وفي طقوس الاحتفال بسن التكليف بالوصايا عند أبناء العلمانيين. وفي طقوس كتلك يوظفون نصوص وإبداعات شعرية من كل عصور اليهودية وتياراتها - دينية وغير دينية على السواء . وقد تؤدي أشعار معينة لبيالك وتشيرنحوفسكي وأوري تسفي جرينبرج وهيانا ومانجعر وألترمان، دورا في احتفالات كتلك بجانب أشعار دينية بارزة مثل أناشيد المزامير، والشعر الديني من العصر الوسيط أو من أدب القبالاه.

إن أحد الإسهامات المهمة للجماعات العلمانية الأولى التي نشأت في فلسطين عن الحركة الكيبوتسية هو الجهد المنظم لخلق الشعائر اليهودية التقليدية مجددا في شكل يلائم نمط حياة وأفراد تلك الجماعات وثقافتهم. ويعد نشوء وتجربة تلك الإبداعات الشعبية بين عشرات الطوائف العلمانية في فلسطين وإسرائيل منشأ لتقاليد العيد ومراسمه التى ضمت إبداعات قديمة وجديدة.

وصار جزء من تلك التقاليد أساسا لاستهلال شعائر ومجموعات نصوص جديـدة في المعابد العلمانية بالولايات المتحدة، جمع بعضها وبدأ يُبحث - كما في أرشـيفات الأعيـاد الكبيرة للأدب والأعياد في منطقة "بيت هشيطا" وفي "رمـات يوحنـان" . وتوجـد اليـوم جماعات علمانية لا تضم اسم الإله في الاحتفالات وفي الطقوس (مثـل طائفـة بيرمنجهـام تمبل في ديترويت) إلى جانب جماعات وأسر علمانية كثيرة تختار نصوصا من الأدب الـديني والعلماني على حد سواء.

* * * *

الفصل الرابـع

أسس التعليم الإنسانى لليهودية بوصفها ثقافة

تعليم من أجل إضفاء الطابع الإنساني وتعليم معاد للإنسانية

إن الإنسان فقط هو القادر على أن يسلك سلوكا آدميا أو غير آدمى مثل القتلة النازيين أو سجانى الجولاج أو الشيوعيين الكمبوديين الذين قتلوا قسما كبيرا من أبناء شعبهم. وتحقق كل الحيوانات الأخرى، باستثناء الإنسان، القدرة الجينية لأبناء جنسها. ولقد تحدث فيكو دلا ميراندولا (١٤٨٦) عن هذا الأمر وأوضحه فى خطابه حول كرامة الإنسان: "وهب الإنسان تكوينا مضاعفا ناجما عن إمكانية الخيار التى منحت له. حيث إن كل مخلوق له نطفة تحدد خواصه، لكن الإنسان فقط هو الذى يستطيع أن يشبه الحيوان فى خلقه، والملاك فى رشاده ، والنبات فى فتوره، والإله فى فهمه للعالم وفهم نفسه وفى طهارة صفاته.

تحمل الإنسانية مجمل المعتقدات التى تنظر إلى إضفاء الطابع الإنساني على أنه قيمة عليا ومعيار سام لتقييم وتفضيل كل قيمة وسلوك أو نظام حكم يحدد وفق الشكل والمدى اللذين من خلالها تطور الأنظمة مسارات الإنسانية أو تتدها. ومن هنا يأتى تقييم وتفضيل أنظمة الديمقراطية على الأنظمة الدكتاتورية، وتفضيل المبادئ السلوكية التى تنظر إلى الغير على أنه غاية وليس وسيلة، وتفضيل القوانين التى تضمن حقوق الإنسان والمساواة والحرية على تلك التى تخضع جزءا من البشر للغير. حيث يؤدى القهر والجور إلى لاإنسانية المُضطهِدين والمضطَهَدين على حد سواء.

تزدهر مسارات إنسانية الفرد - تهيئته للمجتمع وتثقيفه وتطوير شخصيته النقدية والمستقلة- فى الديمقراطية وتضمحل فى عكسها. ولقد تم إرسائها عن طريق المعتقدات الإنسانية التى توجه القيم الإنسانية، والتى تؤمن بأن الإنسان آدميا وأنه يؤمن مثل

"هليل" و"كانط" بالمبادئ الأخلاقية التى تقول: "لا يفعل الفرد بغيره ما يكرهه لنفسه، وألا ينظر الإنسان إلى غيره على أنه وسيلة بل هو غاية، وألا يطبق قانون أخلاقى ما على جماعة واحدة من السكان فقط.

تعليم - تأهيل للمجتمع، تعليم للتثقيف والاستقلال الشخصى

يقول أرسموس "إن الفرد لا يولد إنسانا، فهو يصير إنسانا من خلال تطور النقاش ويخضوعه لسلطة المجتمع وهذا شرط لفرديته.

وهذان الاتجاهان متناقضان لأول وهلة، ولكنهما يعملان بالتنسيق مع مسارات العملية الإنسانية التى غايتها التعليم الإنسانى:

١ - اتجاه تهيئة الفرد للمجتمع وتثقيفه - تكيفه مع المجتمع وثقافته ، وجعله يلم بمسلماته وسماتها، وواجباته وحقوقه فى المجتمع.

٢ - اتجاه تطوير النقد واستقلال الشخصية وهذا يشجع الاستقلال الروحانى للفرد، والقدرة والتعود على نقد وتمحيص كل ما اكتسب فى مسار التهيئة للمجتمع والتثقيف، والقدرة على الإبداع والنشاط الذى يعبر عن تميزه وقدرة تحقيق القوى الكامنة والفردية لديه.

تحل تلك المسارات فى الأسرة والطائفة والمجتمع والذين يعيشون فى الثقافة القومية، خلال تعرض لوسائل الإعلام الدولية ولثقافات قومية أخرى.

نحن فى عصرنا شهود على مسار نشوء ثقافة إعلام وترفيه دولى مشترك بين ثقافات قومية كثيرة فى حضارة واحدة. وتتطور على خلفية تلك التطورات حركات تهتم بالخصوصية القومية، وتسعى لحفظ وتطوير اللغة القومية وثقافتها، وتحاول تأكيد استقلالها للكيان القومى، فى أطر فيدرالية أو فى دول متعددة القوميات.

إن معظم الحروب التى دارت رحاها منذ الحرب العالمية الثانية نتجت عن صراعات بين كيانات قومية عرقية أو قبلية فى أوربا وآسيا وأفريقيا. ويشجع الانتشار الكبير والمتزايد لشبكات الاتصالات الدولية الوعى بالانتماء القومى وخصوصيته، فى

مقابل اتجاه دولى لمنتجات استهلاكية ولمنتجات ترفيهية دولية إعلامية وثقافية، مثل: موسيقى البوب، صناعه المعلومات المحوسبة أو أفلام إثارة ورعب دولية مترجمة عن لغات قومية .

تنمية الجوانب الإنسانية فى الثقافة القومية

إن العملية الإنسانية هى عملية تثقيف الإنسان فى المجتمع وفى الثقافة القومية التى نشأ بها. ولا يوجد فى العالم بيئة ثقافية ليست قومية (عرقية أو قبلية). وتتميز كل ثقافة قومية عن الثقافات القومية الأخرى باللغة وبعالم المفاهيم وتداعى المعانى الخاصة بها، وبإدراك للتراث التاريخى والثقافى، وبالعادات والشعائر، وبالمعتقدات السائدة بها، وبالنظرة إلى الكيان القومى وتباينة عن المجتمعات التابعة لثقافات قومية أخرى. وتنمو فى الحضارة الواحدة ثقافات قومية متميزة ومختلفة عن بعضها البعض كما فى الحضارة الأوربية فى القرن العشرين.

وبكلمة "حضاره" نلقب إجمالى الوسائل والأدوات التكنولوجية والتنظيمية. التى تمد الاحتياجات الجسدية والاجتماعية للفرد.

أما "الثقافة" فهى اسم مجمل الظواهر والإبداعات التى تشكل البيئة الروحانية التى ينشأ بها الفرد. ووفقا لكلام بوبر (فى كتاب وجه إنسان) فإن :الحضارة - هى تشكيل عقلى لنظام علمى، عملى ونفعى. ويكون تحقيق وتطبيق هذا النظام عن طريق أنظمة وأدوات. لكن "الثقافة" هى رصد لحركة حياة الإنسان بهدف التعبير عنها وعن تطلعها ومحاولتها كسب شكل ماهيتها – على نقيض هذه الحركة فكل شىء موجود ليس إلا مادة لتشكيل صورة إبداعاتها -غير المتكررة، ورموز اعتبرت كحقيقة للنفس.

وعلى نقيض الحضارة فإن الثقافة لا تتراكم، بل يجب ابتكارها مجددا فى كل جيل، وإبداعات الثقافة ليست وسيلة لغاية بل هى غاية فى حد ذاتها، لها دلالتها الشخصية الواضحة بداخلها وتملئ الحياة .

تندرج فى الثقافة الأنماط التى بها يشكل الإنسان نفسه بمواد وتقاليد متاحة له من خلال المجتمع الذى يعيش فيه.

ونجد فى الإبداعات النموذجية التى تمثل ثقافة معينة تعبير عن تفرد وتميز مبدعيها والإنسان. ويعد الإبداع والتقليد هما وجها الثقافة- ولكليهما معا قيمة ثقافية.

اعتراف بهوية يهودية وعربية فى إسرائيل

يعيش اليهود فى الخارج وينشأون فى ظل الثقافة القومية لبلدهم، وبمدى يتضائل فى ثقافة طائفتهم اليهودية. وتختلف الهوية اليهودية لليهود الأمريكان عن الهوية اليهودية لليهود الفرنسيين، تماما مثلما أن الهوية الفرنسية أو الأمريكية لهؤلاء اليهود مختلفة عن الهوية الفرنسية والأمريكية لغير اليهود الذين يعيشون فى بلدانهم. وتستمر خصوصية الهوية اليهودية، فى كثير من الحالات، بالرغم من مسارات الاندماج الثقافى المتزايدة بين يهود العالم، حيث ينفصل كثيرون منهم عن طوائفهم اليهودية ويعيشون فى مجتمع غير يهودى مفتوح يشجع إندماج اليهود فى أسر وفى جماعات غير يهودية وفى الحياة الثقافية القومية لبلدهم.

يعيش اليهود بإسرائيل فى ظل الثقافة القومية الإسرائيلية اليهودية، فتتميز ثقافتهم وهويتهم اليهودية وتختلف عن الهوية اليهودية ليهود أمريكا أو فرنسا، وهى تتطور فى بيئة ثقافية يهودية فى جوهرها باللغة العبرية، وبنظم تعليم يهودية والتى تؤكد على التعرف على تراث تاريخى وثقافى يهودى وإبداعات العهد القديم ونخبة من إبداعات يهودية أخرى.

وتنمو الثقافة اليهودية فى إسرائيل بجانب الثقافة الفلسطينية العربية، حيث يشكل الفلسطينيون خمس سكان دولة اليهود. وهذه الثقافة مشتركة بين العرب الذين يعيشون فى إسرائيل وفى فلسطين و بلدان عربية أخرى. كما تبرز أيضا فى الثقافة العربية الإسرائيلية علامات مميزة من ثقافات عربية أخرى، مثل ثنائية اللغة، والتعرض لوسائل الإعلام الإسرائيلية، وتعابير الصراع من أجل مساواة حقوق الأقلية العربية فى إسرائيل وإبداعات متميزة فى البحث واللغة والتعليم .

أصبحت الثقافتان - الإسرائيلية اليهودية والإسرائيلية الفلسطينية متأثرتين، مثل كل ثقافات الشعوب، بعوامل ثقافية دولية عندما تحافظان وتؤكدان على تميزهما : فى اللغة، وفى النظرة إلى التراث التاريخى والثقافى، وفى الأعياد، والإبداعات السائدة بينهما،

والعادات، والتقاليد، والنظرة إلى الديانة وإلى العلمانية، والنظرة إلى الأرض وأبناء شعبها فى بلدان أخرى، وفى النظرة إلى أبناء الشعوب الأخرى.

وتتطور فى كل ثقافة من هاتين الثقافتين بإسرائيل حركات إنسانية تشجع إضفاء الطابع الإنساني، وتسعى لتحسين ماهية الحياة، وتتصارع مع معاداة الإنسانية والتى ترعاها أيديولوجيات وحركات متعصبة قوميا وعنصريا.

يسعى التعليم الإنسانى الإسرائيلى لتطوير وعى اليهود والعرب تجاه ثقافاتهم الخاصة، وتطوير الإبداع والتعليم فى كل ثقافة من هاتين الثقافتين، وتطوير ارتباطها بثقافات شعبهم فى كل البلدان، وفى المقابل - الاهتمام بالعلاقات الثقافية المتبادلة واللقاء الاجتماعى والتعاون فى كل مجالات النشاط الحضارى والسياسى.

ويوجد للتعليم الإنسانى فى كلتا الثقافتين أهداف مشتركة كثيرة فى مجال إضفاء الطابع الإنساني والصراع ضد العنصرية بأنواعها، تماما مثلما يوجد له أهداف مشتركة فى الاهتمام بخصوصية كل ثقافة من هاتين الثقافتين القوميتين فى نظم التعليم الخاص بهما، وفى أطر اجتماعية وطائفية، خلال لقاءات مشتركة بين الذين يعيشون فى الثقافتين وفى دولة واحدة .

ولقاء مثل هذا بين ثقافات قومية مختلفة مألوف فى دول كثيرة ، مثل: سويسرا، بلجيكا، كندا، نيجريا، الصين وأندونسيا. وتساعد السياسة التى تعترف بالاختلاف والخصوصية الثقافية القومية على حوار مثمر بين الذين يعيشون فى الثقافات المختلفة فى كيان سياسى واحد.

وفى إسرائيل يتم التركيز على دراسة أساليب اللقاء بين الثقافتين وعلى إلمام الدارسين والمعلمين فى كل ثقافة منها بمصادرها، وبالإبداعات النموذجية التى ألفت بها، وتراثها التاريخى، وتطور اللغة القومية وعالم المفاهيم الخاصة بها، والعلاقات الثقافية بين أبناء اليهود والشعب العربى فى إسرائيل وأبناء شعوبهم فى دول أخرى، والعلاقات بين الديانة والعلمانية فى كل ثقافة من هاتين الثقافتين، ومبادئ الإنسانية وحركات حقوق الإنسان وصدامها مع معارضيها وإمكانيات التعاون بين الحركات الإنسانية فى كلا الشعبين.

تعليم يهدف إلى ترسيخ قيم المساواة وضمان حقوق الفرد والمجتمع

يشمل التعليم الإنسانى - فى اليهودية وفى كل الثقافات القومية الأخرى- تعليم للديمقراطية بوصفها النظام الوحيد الذى يستطيع ضمان الدفاع عن حقوق الأفراد والأقليات فى المجتمع. ويضمن مثل هذا المجتمع الظروف الأمثل لمسار إنسانية الأفراد، وتحقيق الحد الاقصى من القدرات الخاصة الكامنة فى كل واحد منها ، ومساواة حقوق الأفراد فى المجتمع والمساواة فى تأدية واجبات الأفراد تجاهه.

ويسمح المجتمع الديمقراطى لكل أقلية تعليم الدارسين بها بأسلوبها الخاص طالما أنهم يؤدون واجباتهم تجاه المجتمع ويضمون فى تعليمهم الإلمام بالديمقراطية، والدستور والوجبات التى يفرضها والحقوق التى يكسبها لكل فرد - رجال ونساء. وآداء واجبات الأفراد تجاه المجتمع هو شرط حيوى لوجود المجتمع الديمقراطى وقدرته على المنح والدفاع عن حقوق كل فرد وأقلية به. ومن أجل ضمان حقوق الأفراد فعلى المناهج الدراسية لكل أقلية - دينية أو علمانية - أن تشمل إكساب مهارات لغوية تاريخية للشعب والعالم والإعداد لدراسات العلوم والتكنولوجيا.

ويشمل الاعتراف بمشروعية الخلاف الاعتراف بعدم المشروعية الشمولية التى تعيق كل خلاف. ويبرز التعليم الإنسانى تفضيل الديمقراطية على كل بدائلها بكونها النظام الوحيد الذى يتيح تحقيق الحد الأقصى من مبادىء المساواة فى مجتمع إنسانى ويمحص التعليم الإنسانى من أجل الديمقراطية ولمساواة الحقوق فى اليهودية علاقة المصادر فى اليهودية بهذه القضية.

ويتناول "حاييم كوهين" قضية المساواة والاختلاف فى المصادر اليهودية القديمة، وذلك فى كتابه الذى يضم محاضراته المذاعه حول حقوق الإنسان فى العهد القديم والتلمود :

"هذه لغة البند الأول للتصريح العالمى للأمم المتحدة بشأن حقوق الإنسان. ولد كل الناس أحرار متساوين فى الحقوق والكرامة. ولا تعد هذه المساواة بين الناس والتصريح بأنهم جميعا ولدوا متساوون وأحرار اختراع أصحاب هذا التصريح ومصدره؛ حيث إن معظم الحقوق الأساسية للإنسان كامنه فى المصادر اليهودية "

ويشير العهد القديم إلى أن الإله خلق الإنسان على هيئته وشبهه (على هيئة الإله خلقه ذكرا وأنثى خلقهم) كل إنسان خلق على هيئة الإله وكل الناس متساوون فى هذا. وذكر الفرق الواحد والوحيد بينهم فى الفقرة نفسها، وهو الفرق بين الذكر والأنثى. ولكن قد ذكرت أيضا الفروق بين الجنسين فى نفس السياق ليؤكد المساواة التى بينهما، فكما خلق الذكر على هيئة الإله فقد خلقت المرأة كذلك على هيئة الإله. حيث لا يوجد جنس للإله (على أية حال لا توجد ضرورة ليكون له جنس) ولكن الحقيقة أنه يوجد فرق جسدى فسيولوجى بين الذكر والأنثى، ولا يضر هذا بالمساواة الشخصية والأخلاقية والشرعية بينها. لأن كل إنسان خلق على هيئة الإله، كل إنسان مساو لغيره، ولا يحق لفرد القول لغيره أنا أعظم منك، ودمى أحمر من دمك.

كانا الحاخامان منقسمان فى رأيهما حول ماهو أعظم مبدأ فى التوراة، فيقول الحاخام عقيبا: "أعظم مبدأ فى التوراة هو "أحب لأخيك كما تحب لنفسك"، أما "بن عزاى" الذى كان ابن عمه وتلميذه، يختلف معه ويقول:"إن أعظم ما فى التوراة هو "أنها تعد كتاب تاريخ الإنسان يوم أن خلقه الإله على هيئته، وقد خلقه ذكر وأنثى.

ما الفرق بين رأى الحاخام عقيبا ورأى بن عزاى؟ يقول أحدهم لا يمكن أن نطلب من كل إنسان أن يحب كل الناس بمقدار متساوى. فلا تستطيع أن تحب إنسان غريب عنك لا تستطيع حتى معرفته وفهمه. ويكفيك أن تحب قريبك والمنتمى إلى أسرتك، ولشعبك.أما "بن عزاى" فيقول إن كل إنسان قد خلق على هيئة الإله، وكما أنك مُلزم بحب الإله، كذلك فأعظم مبدأ فى التوراة هو الالتزام بالتعامل مع كل إنسان معاملة متساوية. وما يهمنا هو المساواة الجوهرية بين البشر والملزمين بالتعامل مع كل واحد منهم بوصفه مخلوق على هيئة الإله، وهو أعظم مبدأ تقوم عليه توراة إسرائيل (حاييم كوهين "حقوق الإنسان فى العهد القديم والتلمود").

يتفانى التعليم الإنسانى اليهودى من أجل ترسيخ الاعتراف بحقوق وواجبات كل فرد وأقلية فى المجتمع، وبمساواة الحقوق والواجبات والتى يجب أن يعترف بها المجتمع، وبضرورة الدفاع عن المجتمع ضد الذين يبغون تقويضه من خلال إلغاء الديمقراطية التى تضمن هذه الحقوق. ويسعى التعليم الإنسانى اليهودى لتحقيق

المعتقدات المذكورة آنفا، ويبقى أن يتشرب دارسوه بمعارضة كل محاولة لإلغاء حقوق المساواة بين الشعوب، بين الرجال والنساء أو بين تيارات اليهودية (الأرثوذكس والإصلاحيين والمحافظين والعلمانيين) داخل المجتمع اليهودى الإسرائيلى.

التعليم ذو النزعة القومية خطر على الإنسانية

يرفض الإنسانيون - متدينون وعلمانيون - النظرية النسبية والتى تتعامل بتسامح وتفهم ومنح حقوق للتعصب القومى والعنصرى، لأنهم جزء من ثقافة المؤمنين بها. وتتيح هذه الرؤية موارد لتعليم يروج المعاداة للسامية أو رفض حقوق شعب عن طريق شعب آخر.

يؤدى التعليم وترويج التعصب القومى والعنصرى إلى اللاإنسانية. حيث إنها تتسبب فى أن ينظر الإنسان إلى نفسه على أنه شعب مختار أو عرق أو جنس سامى . وفى دور كهذا هم يسمحون لأنفسهم أن يفعلوا بغيرهم ما يكرهوه لأنفسهم، وأن يتعاملوا مع غيرهم على أنهم وسيلة وليس غاية، وتطبيق مبادئ أخلاقية على أبناء الجنس أو الجماعة التى ينتمون اليها فقط.

التعليم المتعصب قوميا وعنصريا هو من أسباب اللاإنسانية لأنه يعمل على نقيض الثلاث قيم السامية للإنسانية والتى تؤكد الإنسانية، كما صاغها هليل وكانط وهى:

- لايفعل الإنسان بغيره ما يبغضه لنفسه.
- لا ينظر الفرد إلى غيره على أنه وسيلة بل غاية فى حد ذاتها.
- المبدأ الأخلاقى غير العالمى لا يعد أخلاقيا.

يؤدى التعليم الإنسانى إلى إضفاء الطابع الإنساني عن طريق استيعاب تلك القيم، والتى تؤكد على الإيمان بمساواة فى الحقوق لكل إنسان وشعب وعرق وجنس. ويكسب التعليم النفعى بأنواعه - المتعصب قوميا وعنصريا- إيمان بعدم المساواة : فهو يبرر على سبيل المثال تحقير النساء فى الصلاة اليومية (بمقولة الحمد الله أنه لم يخلقنى امرأة)، وامتهانهن من خلال إبعادهن إلى المقصورة النسائية (فى الأتوبيس أو فى المعبد)، وهضم

حقوقهن فى القوانين وفى نظم المحاكم (مسموح لهن أن يكن مـاثلات أمـام المحكمـة وألا يكن قاضيات).

وعلى هذا النحو يرسخ التعليم العنصرى بأنواعه الاعتقاد المختلق بأفضلية الرجـل على المرأة، وبسمو الآرى على اليهودى وبأفضلية اليهودى على غير اليهودى.

وتشوه معتقدات كتلك فى وعى المؤمنين بها صورة الواقع وتقلل من آدمية الإنسان المؤمن بها لأنها تقوض وتلغى صلاحية القيم الإنسانية.

ويتواجد المجتمع الديمقراطى الذى يعلم الإنسانية بفضل آداء واجباتنا تجاهـه ومن خلال الدفاع عن حقوق الإنسان من أجل المساواة والحرية والاحترام المتبادل. ويعد الدفاع عن وجود مجتمع كهـذا أمـام أيـديولوجيات عنـصرية ونفعيـة ضروريـا للعمليـة الإنسانية ولاستمرار وجود المجتمع كمجتمع متطور ومستقر.

إن التعليم الهادف إلى التعددية يرفض النسبية التى تمنح مشروعية وحقوقا متساوية لكل تعليم ينادى بالتعصب القومي والعنصري، ويضطهد أنصار الديمقراطية وزعمائهـا. ولامبرر لتعليم يرسخ معتقدات كتلـك حتـى وإن كانـت "صـحيحة" أو تنمـو فى البيئـة الثقافية التقليدية.

قيم إنسانية - معايير لتقييم ونقد الفرائض والشرائع

تعد القيم هى،كما أسلفنا، معايير تقييم وتفضيل فرائض الشريعة أو قوانين الدولة. ويعلم التعليم الإنسانى نقد الفرائض والقوانين حسب معـايير القـيم الإنـسانية. ويمـنح الاعتقاد بأن الإنسان هو مبتكر القيم وماهية حياته هو غايتها، وللبشر حق تقييم القوانين والفرائض التى تفيد فى تطوير حياة الإنسان، ورفض القوانين والفرائض التى تضر بماهية حياته .

ويقوم التعليم الإنسانى اليهودى على تلـك المعتقـدات ولـيس عـلى الاعتقـاد بـأن فرائض الشريعة مصدرها الإله وأن هدف السلوك الإنسانى هو إرضاء الإلـه عـن طريـق طاعه أوامر الذين يتظاهرون بالتحدث باسمه ويلغى الإيـمان بالمـصدر الإلهـى للفـرائض

حق الإنسان فى نقدها وتقييم وتفضيل ورفض فرائض وقوانين معينة ، أو تمحيصها لمعرفة الافادة التى تجلبها للإنسان.

واعترف أيضا مفكرون عقلانيون فى اليهودية الدينية - مثل سعديا وموسى بن ميمون- بأنه توجد فرائض لايدرك مبررها، ليس لها مبرر، ولامنفعة منها للبشر. وعلى ذلك قال موسى بن ميمون أنه توجد فرائض وقتية - فرائض تبطل عبر الزمن- مثل فرائض تقديم القرابين التى ظلت خلال سنوات كثيرة فقط لأن اليهود كانوا معتادين على تقديم قرابين أثناء عبادتهم لآلهة كثيرة أخرى وصعب على البشر الانقطاع مرة واحدة عن تعودهم وعاداتهم .

ويشرح التعليم الإنسانى اليهوية بوصفها ثقافة متطورة ويؤكد على السمة الوقتية للفرائض حيث إن فرائض الشريعة لا تتطابق مع قيم اليهودية، تماما مثلما أن واجب تقديم قرابين لم يشكل قيمة كهذه. و فرائض تقديم قرابين ، مثل كل الفرائض الأخرى هى تعليمات الوقت التى كانت سارية المفعول فقط فى نظر المؤمنين بصلاحيتها لمبرر ما، وعندما توقفوا عن الإيمان بذلك توقفوا عن الحفاظ على تلك الفرائض، كما توقفوا عن تقديم قرابين.

ويعتنى التعليم الإنسانى بالنقد وبالتقييم واستنتاج النتائج العملية للتشريع الذى يرسخ أو يلغى قوانين و فرائض مناقصة للقيم الأخلاقية، حتى وإن قيلت صراحة فى العهد القديم أو قالها رجال دين لاحقون مثل: الوصية التى تطالب بقتل كل شعب "عماليق" أو الفرائض التى تقضى بقتل الخارجين على قوانين يوم السبت ، أو الفرائض التى تضطهد النساء. وعلى ضوء إعادة نقد وتقييم كل الفرائض والقوانين طبقا لمعايير فائدتها للبشر فسوف يتوقف كثيرون من دارسى التعليم الإنسانى عن التمسك بفرائض الشريعة التى لافائدة منها حسب رأيهم، أو بتلك التى عفا عليها الزمن، حتى وإن لم تكن مناقضة لمبادئ الأخلاق مثل : فرائض الطعام الحلال، وفرائض الامتناع عن ملامسة المرأة خلال أيام كثيرة كل شهر، فرائض الامتناع عن مشاهدة التليفزيون يوم السبت أو فى كل الأيام الأخرى وغيرها.

تقدست في اليهودية ،كما في كل الثقافات الدينية، تقاليد وشرائع قديمة مناقضة للقيم الإنسانية مثل: واجب الضرر البدني بالأطفال وبأعضائهم الجنسية، تحريم تحديد النسل (أحد الأسباب الأساسية في الانفجار السكاني وانتشار المجاعة والتخلف في مناطق الفقر في العالم) فرض شرائع دينية على غير متدينين وغيرها. ويشجع التعليم الإنساني إعادة تمحيص وتقييم كل القوانين والفرائض مجددا بهدف إلغاء كل قانون وفريضة تضر الناس أكثر مما تنفعهم.

قال "يشعياهو ليفوفيتس":لست إنسانا (في محاضرته التي نشرها في كتاب "اليهودية المتحررة والديانة في إسرائيل" ١٩٩٩) حيث عارض كل تغيير في فرائض الشريعة. ورأى أنها ذات فاعلية متساوية، لاتخضع للتقويض، بما في ذلك ، كما قال في محاضرة أخرى ، المساواة بين فرائض الحفاظ على السبت وفرائض الإبادة الجماعية لشعب عماليق. وستضم دراسة اليهودية بوصفها ثقافة تقييمات وتفضيلات وليس فقط وصف أنثربولوجي "موضوعي" يقارن بين العادات لكي يصنفها بشكل علمي. وتؤكد دراسة اليهودية بوصفها ثقافة متطورة، على سبيل المثال، الميزة الأخلاقية للإصلاح في الديانة اليهودية والتي ألغت الصلوات التي تهين النساء، وألغت المقصورة النسائية، وألغت الحق الخاص بالرجال في اختيار حاخامات أو مرتلين أو قضاة للشؤن الدينية، وألغت شرائع يوم السبت التي تعطل حرية التنقل (بما فيهاالانتقال إلى المعبد ومنه) والاستمتاع بيوم الراحة والفراغ.

وينظر إلى تلك التغيرات البارزة في الديانة اليهودية في عصرنا ليس فقط بوصفها ظاهرة تاريخية متعددة الدلالة بل أيضا من ناحية الفائدة التي جلبتها لليهود المتدينين الذين يرغبون الانتقال إلى المعبد في أيام السبت وفي الأعياد، ولليهود العلمانيين الذين يرغبون قضاء السبت (في تمضيه وقت فراغ آخر) بعيدا عن بيتهم.

ويشجع التعليم الإنساني إلغاء النظرة إلى الفرائض والشرائع على أنها مقدسة بسبب مصدرها الإلهي أو بسبب أنها جزء من تقليد قديم.

إن تقييم عادات وتقاليد ثقافية بما فيها شعائر الأعياد والمناسبات في حياة الفرد

والجماعة، ناجم عن تقييم اسهاماتهم لماهية حياة الفرد ولشعور الانتماء الذى يمنحونه له تجاه الجماعة الثقافية التى يعيش بها، ولتنوع الحياة وإثرائها من خلال عادات العيد وعنصر التسلية الذى به يشارك الحاضرون فى احتفال كل عام.

يعمق التعلم الإنسانى هذه المعرفة ويمزجها برؤية نقدية لتقييم وتفضيل كل عادة، و فرايضة وقانون، على ضوء الإفادة أو الضرر الذى قد يسببوه للبشر.

تعليم إنسانى مشروط بثقافة واسعة ونشاط اجتماعى

الثقافة

يكسب التعليم الإنسانى اليهودى دراسيه التعرف على اليهودية بوصفها ثقافة الشعب والشعوب من خلال نظم ثقافة واسعة، تساعد الدارس على معرفة انفتاح الثقافة اليهودية على تأثيرات ثقافات الشعوب وتأثيرها عليهم، والقواسم المشتركة لثقافات الغرب المعاصر ودور القيم الإنسانية فى تطورها.

وتضم ثقافة كتلك إلمام انطباعى وفكرى بالإبداعات التى تمثل الثقافات اليهودية المختلفة التى تعيش بجانب بعضها البعض فى اليهودية، وثقافات الطوائف والتيارات الدينية. وتساعد الثقافة المنهجية الموجهه للإلمام بالإبداعات الكلاسيكية على استيعاب قيم تضامن إنسانى، وترسيخ قيمة مساواة حقوق البشر فى العالم، وتفهم مشاكل الإنسانية عامة والتى تتجلى فى الإبداعات الكلاسكية لكل الشعوب.

والتعليم الإنسانى مشروط بثقافة تؤدى بالإنسان إلى معرفة إنجازات البشر ليس فقط فى مجالات الحضارة ، بل أيضا فى مجالات الثقافة كما حددها بوبر.

ويعد مستوى الثقافة والتعرض لتنويعه الإبداعات التى تمثل الثقافة القومية وثقافة الشعوب أحد أسباب إثراء أو ضعف الحياة الروحية ومستوى تنوع موضوعات الحوار فى الأسرة وفى دائرة الأصدقاء. وماهية الحياة المشروطة بنوع النشاط الروحانى الذى يتكيف معه الإنسان ويندمج به.

وثقافة كهذه هى جزء لا يتجزء من كل تعليم يهدف إلى تكيف اجتماعى ومشاركة

فى الثقافة القومية والدولية التى يعيش بها دارسوها. ويحقق تعليم كهذا أهدافه عندما تمتزج الثقافة التى يمنحها بالتعلم وبالاندماج فى النشاط الاجتماعى وبتشجيع النقد والإبداع المستقل.

نشاط اجتماعى

إن الأداء الاجتماعى فى التعلم الإنسانى للأطفال والكبار الذين يأخذون على عاتقهم مسئولية ومهام داخل إطار الأسرة والجماعة، يلقى المسئولية على الفرد. ويمنحه شعورا بأنه يؤدى دورا له مغزى فى حياته، ويعرض أمامه مشاكل تطبيق القيم والمبادئ الأخلاقية، والتى تؤثر على حياة الناس فى المجتمع الذى يعيش به. ويمكن جلب نماذج على ذلك من نشاط أطفال وشباب يعملون من أجل حقوق أطفال، ومن أجل مساواة سكان مضطهدين، ومن أجل الطائفة ونشاط تعليمى ومن أجل شباب منهم، ومن أجل اندماج فى حركات احتجاج على الحرب النوويه وعلى إتلاف البيئة وعلى التعصب القومى والعنصرى وغيره.

مثال : إن مشاركة قسم كبير من شباب اليهود على أرض فلسطين فى نشاط حركات شباب وأطر الحرب استعدادا لإقامة الدولة، والمشاركة السياسية والعمل فى نشاط تهجير اليهود سرا من أوربا عقب الحدث النازى، قد أثروا تأثيرا تربويا حاسما فى ترسيخ قيم تضامن قومى وإنسانى لدى أجيال إسرائيليين. ولقد أضر فقدان أطر ووهن التعليم بآداء النشاط التطوعى للأطفال والشباب الهادف إلى حقوق أطفال ومساواه حقوق النساء والأقليات القومية كما أضر بمسارات التعليم الذى يهدف إلى ترسيخ قيم إنسانية بين الشباب الإسرائيلى. وامتزجت مشاعر التضامن مع أناس فى الأسرة وفى الطائفة بين دوائر فى الجمهور الإسرائيلى بمشاعر تضامن مع أناس فى اليهود فى كل مكان يعانون فيه من ضائقة بسبب كونهم يهود ، كما فى روسيا السوفيتيه أو فى أثيوبيا.

ويوجب التعليم الإنسانى اليهودى، مثل كل تعليم إنسانى قومى غير متعصب، توسيع دائم لدائرة التضامن والمسئولية ويعمق هذا التوسع الاعتراف بضرورة آداء الوظائف التى من خلالها يستطيع الأفراد التأثير على مصير المجتمع القومى والإنسانى

وترسيخ قيم تضامن قومية تمتزج مع مشاعر تضامن عامة إنسانية. وتتعزز هذه عن طريق إندماج شباب فى نشاط اجتماعى وسياسى لضمان حقوق المساواة، مثل نضال ومخاطرة شباب أمريكى يهود و"بيض" آخرين من أجل ضمان حقوق مساواة "للأمريكان الأفارقة " فى الولايات المتحدة فى الستينات والسبعنيات.

يشمل التعليم الإنسانى تعلم يهدف لإندماج سياسى نشط من أجل حقوق الإنسان فى كل عمر وجنس وقوم. ومن أجل ذلك يجب أن تشمل خطة ثقافة التعليم الإنسانى الاعتراف بالمشاكل الاجتماعية والفكرية التى تواجهها، ومواثيق حقوق الإنسان والتى تطالب بالتأكيد على تلك الحقوق، بما فى مصادرها فى الأدب الكلاسيكى، واليونانى واليهودى، وفى الفكر والإبداع الإنسانى الأوربى، وتصريحات حقوق الإنسان فى الثورات الأمريكية والفرنسية، وحتى مواثيق حقوق الإنسان والطفل للأمم المتحدة.

ويختلط التمرس فى نشاط اجتماعى، وثقافة منهجية واسعة لمعرفة الثقافة والإبداعات التى تمثلها، وتشجيع النقد والإبداع لدى الأفراد، بنشاط تعليمى إنسانى يزيد الوعى بالقيم، وينتقد على ضوئها القوانين والفرائض والتقاليد الموجودة، ويسعى لتحول اجتماعى من أجل تحسين حياة البشر وإثرائها.

الدور التعليمى لإبداعات كلاسيكية يخطئ أبطالها أخلاقيا

يطلق على الإبداعات الكلاسيكية (والتى تسمى أيضا إبداعات نموذجية)هذا المسمى بسبب الدور الذى تلعبة فى الحياة الثقافية للجماعة والفرد، وتسمى كذلك طالما أنها تؤدى هذا الدور .

يقوم كل تعلم انسانى على معرفة منهجية من الدارس للإبداعات الكلاسيكية لثقافته، وللقواسم المشتركة لكل تياراتها ولتأثير تلك الإبداعات على الإبداع الثقافى فى العصور المختلفة.

و"الإبداعات الكلاسيكية" فى الأدب هى الإبداعات التى تمثل ثقافة شعب أو مجموعة شعوب، إنها إبداعات "مستدامة" تمنح انطباع وتثير اهتمام فى عصور مختلفة وبعيدة عن تلك التى ألفت بها، كما أنها إبداعات تدل على العصر الذى ألفت به وتؤثر فى

ثقافة قرائها فى كل عصر، وتبرز مشاكل ومعضلات إنسانية عامة فى شكل متميز، وكأنها مشكلة شخصية لأبطالها (مثل: يعقوب، يوسف، أيوب، مداه، لير، دون كيشوط، فاوست وغيرهم).

يقيم الإبداعات الكلاسيكية مفكرون ونقاد فى العصور المختلفة بوصفها إبداعات نموذجية بالشكل الذى ألفت به، ومؤثرة فى التعليم والإبداع فى ثقافتها. ويعد الإلمام بالإبداعات النموذجية هو مفتاح معرفة الثقافة التى تحصى بها، مثل إبداعات هوميروس فى الثقافة اليونانية القديمة وإبداعات العهد القديم فى الثقافة اليهودية، والتى تحولت كلتاهما إلى إبداعات كلاسيكية للثقافة الغربية كلها. ولقد أضيف على كل هذا فى عصور لاحقة إبداعات قد تحولت إلى كلاسيكية فى نظر قرائها فى فترات مختلفة فى تاريخ الثقافة، مثل: التراجيدات اليونانية التى قد تطور الاعتراف بها بوصفها إبداعات كلاسيكية للثقافة الغربية بالتدريج منذ عصر النهضة الأوربية، أو إبداعات فيلون وفيلافيوس والذى قد تطور الاعتراف بها بوصفها جزء من الإبداعات الكلاسيكية للثقافة اليهودية القديمة فى عصرنا فقط.

تؤدى "الإبداعات الكلاسيكية " - فى الفن والأدب والفكر - إلى انطباع وجدانى وفكرى لمستوعبيها. وذلك مثل إبداعات كثيرة فى العهد القديم والتى تستمر فى أداء دور بوصفها إبداعات كلاسيكية فى الثقافة اليهودية المعاصرة، وتؤثر فى الحياة الروحية والإبداع فى كل تيارات اليهودية - العلمانية والدينية.

تتحول الإبداعات لتكون إبداعات كلاسيكية أولا وفقا للتحول الذى طرا على الدور الذى تؤديه فى المجتمع والثقافة، مثل: توقف الإبداعات الكلاسيكية اليونانية عن أداء دور الإبداعات الكلاسيكية فى أوربا، بعد العصر الهلينى خلال قرون كثيرة، وبدأت تلعب هذا الدورمنذ أن عرفت مجددا لدى كثيرين وأدخلت إلى مناهج التدريس فى أطر التعليم الإنسانى الغربى.

لعبت معظم إبداعات التلمود والمدراش دور الإبداعات الكلاسيكية فى الثقافة اليهودية بالعصر الوسيط بجانب إبداعات العهد القديم، لكنها توقفت عن آداء هذا

الدور فى معظم التيارات اليهودية فى القرن العشرين، عقب التحول الذى طرأ فى ثقافة اليهود نتيجة لمسارات الثقافة والعلمنة، ولانقسام اليهودية الدينية إلى تيارات إصلاحية وأرثوذكسية، وللتحول المفرط الذى حل على التعليم اليهودى الذى يتلقاه معظم الشباب اليهودى - من التعليم الذى يقوم على دراسة التلمود إلى تعليم يهودى يقوم على دراسة العهد القديم ويدمج اليهودية بثقافة الشعوب.

وتواصل إبداعات التلمود والمدارش، مثل إبداعات فى القبالاه، والشريعة والتفاسير الدينية، أداء دور إبداعات كلاسيكية بين تيارات يهودية أرثوذكسية لكنها لم تعد تؤدى ذلك الدور بين معظم اليهودية الدينية والعلمانية فى العالم. وتواصل إبداعات من أدب التلمود، والقبالاه والشريعة أداء دور بوصفها جزء من "مصادر اليهودية"، وتمثل عصور تاريخية وتيارات دينية فى تاريخها، لكنها لاتؤثر تأثيرا بارزا على الإبداع وعلى الحياة الثقافية لغالبية اليهود العلمانيين.

وفى كل تيار من تيارات اليهودية يتعرف دارسوه على الإبداعات الكلاسيكية لثقافتها، وعلى مستويات مختلفة من المعرفة والتجربة. وتواصل فى اليهودية العلمانية إبداعات العهد القديم العمل بوصفها إبداعات كلاسيكية، بجانب إبداعات كلاسيكية من ثقافات الشعوب الغربية. وتستمر فى ثقافات شعوب الغرب إبداعات العهد القديم العمل بوصفها إبداعات كلاسيكية، كجزء من الإبداعات الكلاسيكية المشتركة لها وبجانب الإبداعات الكلاسيكية لكل ثقافة من تلك الثقافات القومية.

إسهام إبداعات الأدب الكلاسيكى الذى يخطئ أبطاله فى التعليم الإنسانى

منذ أفلاطون يتخبط معلمون ومفكرون فى مشكلة القيمة التربوية للإبداعات الكلاسيكية والتى يحق لأبطالها الخطأ وتخطى القوانين أو مبادئ الأخلاق - من إبراهيم حتى داود، ومن أجمنون حتى مداه، ومن مكبث حتى فاوست.

لايستخدم فى الإبداعات الكلاسكية أبطال الأدب نموذجا لسلوك جدير بالتقليد. فلن يرغب إنسان أن يتصرف ابنه أو تلميذه كما تصرف إبراهيم مع ابنه ، أو كما فعل يعقوب مع أبيه العجوز الأعمى أو كما فعل يهوه بتحريمه المعرفة والفضيلة. وتعد أفعال أبطال معظم تلك الإبداعات الكلاسيكية هى أثام من وجهة نظر القيم الأخلاقية.

من أى ناحية تسهم إبداعات كتلك فى التعليم الإنسانى الذى يهدف إلى ترسيخ قيم اخلاقية ونقدية؟

حقيقة إنسانية وحقيقة عاطفية

لا تكمن القيمة التربوية لإبداعات الأدب الكلاسيكى فى عرض نماذج السلوك الجديرة بالمحاكاة، بل فى كشف حقيقة إنسانية (كما يقول تولستوى)، وعن طريق الحقيقة الوجدانية المدركة من خلال الانطباع أثناء استيعابها (كما يقول أرسطو). وبالمواجهه مع ما يخص الجنس البشرى الذى ليس له تعريف إلا فى الإبداع الأدبى والفنى العظيم (كما فى إبداعات شكسبير).

تدل حقائق إنسانية ووجدانية مثل تلك على القوة الكامنة فى الإنسان وهى أقوى من الحقائق التاريخية، والتى تتغير مع تقدم البحث التاريخى والأثرى وفك شفرة دلالاته. وتميط الحقائق الوجدانية التى تكشف، كما يقول أرسطو، ما يمكن أن يحدث وليس ما قد حدث، اللثام عن قدرات المواجهة الإنسانية مع مشاكل عامة إنسانية، وتكشف إبداعات كلاسيكية فى الأدب، بكل أنواعه، عن واقع إنسانى عام والذى يعبرعن مواجهه بين كل إنسان وبين فشله. وتعد مواجهة معضلات ومشاكل بدون حل هى جزء من الشرط الإنسانى وشرط إنسانية الفرد. وكلما كان العمل حساس ومتصف بالكشف الذاتى كلما واجه أبطاله ومستوعبوه معضلات بدون حل، مثل معضلة هملت، ومعضلة أوديب، ومعضلة يعقوب ويوسف أو معضلة حواء التى خالفت قانون غير أخلاقى بوضوح، القانون الذى يحظر التمييز بين الخير والشر.

تعرض المشكلات الإنسانية فى الأدب العظيم من خلال مخالفة قوانين ومن خلال آثام أبطاله الأخلاقية. وتكشف من خلال تشكيلهم الأدبى فى الإبداعات النموذجية القدرة الإنسانية على الشر (مثل داود الذى يقتل أوريا)، ومواجهة الشر (مثل إرميا الذى يخاطر بحياته من أجل السلام) والبؤس والغضب على الإله والمصير(كما فى سفر أيوب) واليأس من فقدان الهدف (مثلما فى سفر الجامعه)، والحب (مثل شولاميت فى نشيد الاناشيد)

يعد كشف الحقائق الإنسانية من خلال حقائق وجدانية أمر موجود فى كل الإبداعات الكلاسيكية، فى كل الآداب المعروفة لنا. حيث لا يتصرف أبطالهم الأساسيين على أنهم ضحايا يثيرون الشفقه، بل على أنهم أبطال يواجهون مصيرهم وأنفسهم. ولايوجد فى واقع إبداعات الأدب الكلاسيكى صديقين خالصين أو نهايات سعيدة، ولايوجد عبرة أخلاقية لاتقبل التأويل، بل يوجد فقط كشف لخصوصية القدرة الإنسانية ولعظم تأثرها، وللتعمق فى الفكر وللتعبير السامى، وللغوص فى أعماق الفشل والعناء الإنسانى ومواجتهـا (كما فى إبداعات اوريفيدس، وشكسبير، وديستوفسكى وبريموليفى).

إن كشف حقائق وجدانية من خلال تجربة القراءة فى إبداعات كلاسيكية تؤدى إلى إحساس يقين نادر بأن ماقد انكشف هو حقيقة غير مرهونة بدليل واقعى. ويمتعنا نمط وشكل الإبداع متعة وجدانية وروحانية رغم الصدمة من جراء الإثم والشر اللذين يظهران فى الإبداع. والانطباع عن الإبداع الأدبى والفنى عظيم فى نظرنا، فيخلط الإثارة بالمتعة من الشكل والمضمون، ومن اللقاء مع شخصيات الأبطال الأدب ومع مبدعيها، ومع أشكال التعبير وخصوصيتها ومع مقدرة كل هؤلاء على التعبير عن حقائق وجدانية وإنسانية.

وأحد أهم إسهامات التعليم الإنسانى للإثراء الروحانى ولماهية الحياة هو الاهتمام بالقدرة على التعبير عن انطباعات وجدانية كتلك من الإبداعات الكلاسيكية فى الأدب والفن.

والتعلم الذى يهدف الى قيم هو أيضا تعليم يهدف إلى سرعة تأثره بالاشتراط الإنسانى. ولايشمل ترسيخ قيم إنسانية اعتراف بمبادئ العدل فقط بل أيضا سرعه تأثره بالصدق ، والحكم عليه طبقا لمبادئ نابعة عن مبادئ سامية أخلاقية. لمقولة أحد حاخامات التلمود: خربت القدس بسبب أنهم حكموا بها حكم التوراة - وليس أى حكم غيره.

يكشف الأدب الثرى الآثام ويشجبها ولا يحاكم أبطاله وفق معيار الحكم. ويقيم قراؤه مجددا القيم التى طبقا لها نحدد أفعال مثل إثم أو ذنب، ونتحير فى القدرة التى نكشف بهم سرعة التأثر والتعاطف مع الأبطال المخطئين.

إن مشاعرنا تجاه أبطال الأدب الثرى ليست مشاعر شفقه بل مشاعر ارتباط وتعاطف حيال القدرات المشتركة لنا ولهم. والارتباط بين القارئ والبطل الأدبى غير مرهون باستقامة البطل بل بالثراء الإنسانى الذى يظهره المبدع بوصفه له ؛ فالملك لير أقرب إلينا من ابنته، "ورسكو لديكوف" أقرب إلينا من "سوننا" الطيبة، ويوسف أقرب إلينا من يهودا الذى أراد التضحية بنفسه لكى لا يحزن أبيها، وداود أقرب إلينا من أبشالوم الذى انتقم من والده لعدم مبالاته لاغتصاب اخته "تامار".

حواء وبرومتاوس

تعد حواء فى الأسطورة اليهودية وبرومتاوس فى الأسطورة اليونانية بطلتان أدبيتان تتحولان إلى رموز للإنسانية فى ثقافة الغرب. وترمزان إلى تحرر البشر من الخضوع الملزم للطبيعة، وإلى التمرد على قوانين مستبدة والتى تهدف إلى قهر الإنسان وحرمانه من حرية الإبداع المرهون بتقدم الحضارة، مثل اختراع النار والتى وهبتها برومتاوس للإنسانية، وتطور المعرفة والتمييز وتفضيل الخير على الشر ، وظروف تطورالخليقة والإبداع.

وما كانت لتتحقق إنسانية كل البشر لو تركوا فى الغابات مثل الجنة التى بعدن، خاضعين للطبيعة أو للإله ، يعانون عدم المعرفة وعدم التمييز بين الخير والشر، بدون خجل، والتى هى ناجمة عن المعرفة والمحرك للضمير.

فى عصرنا تهدد حقيقة نسبية ما بعد الحداثه أسس التعلم الانسانى، وذلك عندما يتحول التعليم فى أماكن كثيرة إلى تأهيل مهنى يهتم باختصاص ضيف ويهمل تطور إنسانية دارسيه. وزادت خطورة العودة إلى جنة عدن التى تمثل الجهل الثقافى وعدم التمييز بين الخير والشر.

وعلى التعليم الإنسانى أن يثير مجددا القضية ومواجهة تلك المشاكل الأساسية لإنسانيتنا عن طريق إبداعات كلاسيكية مثل قصة حواء فى التكوين، ومسرحية برومتاوس المكبلة لأيسخيلوس.

تطوير قدرة الانطباع الوجدانى فى التعليم الإنسانى

يعد الأدب والفن الكلاسيكى أمران ضروريان فى التعليم الإنسانى للفرد بكونهما

عاملين حيويين فى تنمية قدرة تميز لما هو نافع وخير فى الإبداع الإنسانى. ومعظم منتجات الترفيه التى تتعرض لها ،التمثليات والأفلام وبرامج التليفزيون والراديو ، وهى أعمال ترفيهيه تؤدى إلى انفعال معاكس (مثل أفلام المطاردة والجنس والحرب والجريمة). وتواصل من نواح كثيرة إبداعات العرض الخاصة بالصراعات العنيفة والفتاكة تقليد عرض معارك المصارعين فى العالم القديم.

إن العروض والكتب التى تثيرالغرائز، والرعب والإثارة ، بدون إحساس وتفكير، تمنح فى أحيان نادرة انطباعا وجدانيا يشمل استجابة لشكل متميز ولمغزى الإبداع. ويتكون الانطباع الوجدانى من عوامل إنفعال (انعكاسيه)وشعور (عاطفة) مثاره إزاء أشكال ومضامين الابداع الفنى.

وتثار المشاعر والأفكار بمواجهة مشاكل إنسانية معروضة فى الإبداع، فى غضون الانبهار بشكله المتميز .

يحتاج الناس إلى عوامل إثارة - إثارة وضحك وشفقة ورعب - تحدث لهم فى التخيلات والأحلام، وعروض المسرح والسينما والألعاب وفى الأقنعة والتنكر فى المسابقات وغيرها. وتتظاهر مسببات الإثارة تلك بأنها واقعية، لكن المشاهد يدرك أنها نتاج خيال ولاتستطيع الإضرار بجسده.

وتنتشر مثل تلك الألعاب بين الصغار والكبار على حد سواء. فهى تؤدى دورا مختلفا عن ذلك الانطباع الوجدانى الناجم عن إبداع له شكل ودلالة متميزة. وتسبب انطباع متميز يُدعى "انطباع وجدانى" على اسم الإبداعات الوجدانية والتى يحددها الانطباع.

نعتاد على تسمية الانطباعات على اسم المسبب لها حتى بدون القدرة على تعريفها بالكلمات. مثل: انطباع جنسى، انطباع غذائى، انطباع جمالى وانطباع وجدانى ..إلخ .

علاقة تطوير قدرة الانطباع الفنى وتعلم اليهودية

يكشف التعرض للإبداعات الوجدانية التى تسبب انطباعات عاطفيه للدارس عالم مبهج يثرى نفسه وحياته الروحانية. وتواصل الإبداعات التى تسبب تلك

الانطباعات العيش فى ذاكرتنا، وتربطنا بالذاكرة الجمعية للثقافة التى نعيش بها. وبفضل تلك الانطباعات تتنوع وتتعمق الرابطة الوجدانية والإدراكية لدى الإنسان تجاه الثقافة المعروضة فى الإبداعات الوجدانية التى تسبب له تلك الانطباعات.

ويُعرض الانطباع الوجدانى الناجم عن إبداعات فنية مثل سفر الجامعة ونشيد الأناشيد، رواية الآباء والأمهات وقصيدة الخلق وأشعار من المزامير، وعن إبداعات نثرية وشعرية يهودية، دينية وعلمانية. وقد تطورت تلك الإبداعات خلال ألفى سنه منذ اتمام العهد القديم - دارسى التعليم الإنسانى اليهودى لإبداعات وجدانية متميزة فى ثقافتهم.

يمتزج تطويرقدرة الانطباع الوجدانى أثناء التعرض لإبداعات كلاسيكية يهودية وأخرى فى كل العصور بتطوير الوعى بالتراث التاريخى والثقافى لليهود وللشعوب التى يعيش بينها. ويقوى الاستمتاع بصور التعبير وبناء الإبداع، والإثارة، والاحساس والفكر ، يقوى ذلك الارتباط بالإبداعات التى تعرض عصور وتيارات فى ثقافة اليهود.

لايحظى معظم الناس فى عصرنا بتعليم إنسانى منهجى. ولذلك فهم معتادون على الاكتفاء بإبداعات ترفية، وإثارة وانفعال، والتى تنسى بمجرد استيعابها ولا تتجمع فى الوعى الثقافى للفرد. وفى معظم الحالات لا يحاول نظام التعليم مواجهة الفقر الروحانى لهؤلاء الذين كل غذائهم الروحانى هو إبداعات تؤدى إلى ردود فعل إنعكاسية بدون تحديات، وإحساس وتفكير، وبدون تقييم لشكل متميز أو لشخصية المبدع وأسلوبه.

تولد الحياة الثقافية المصنوعة فقط من إبداعات ترفيه وإثارة احساس فراغ خطير، وألم للأعضاء الروحانية والوجدانية المعطلة عن العمل. وتماثل الحياة النفسية لمستهلكى الترفيه المثير فقط الحياة النفسية للأفراد الذين يقبلون على الإشباع الجنسى لكنهم لا يحظون بإحساس الحب. ويمتزج التعليم الإنسانى الذى يهدف إلى ترسيخ قيم أخلاقية وتطوير ثقافة وجدانية بتعليم إنسانى يهدف على تطوير قدرة الانطباع الفنى. وتعليم كهذا يوسع المعرفة ويعضد تمييز وتقييم الإبداعات التى تسبب انطباعات كتلك، وبواسطتها يلتقى الفرد مع ثقافة الشعب الذى يعيش فيه ومع ثقافات الشعوب التى يعيش بينها شعبه. ويخلق التعرض المنهجى لإبداعات كلاسيكية فنية وأدبية قادرة على أن تسبب انطباعات

وجدانية، فى سن الشباب، احتياجات روحانية يواصل الإنسان اشباعها طوال حياته. ويتم إشباع تلك الاحتياجات عبر لقاءات متواصلة للإنسان مع إبداعات تمثل ثقافته.

لايولد إنسان متعطشا إلى إبداعات وجدانية متميزة أو سامية، ولكن يمكن أن ينمو لدى الإنسان الشوق والاستمتاع بإبداعات نموذجية فى الأدب والموسيقى وفن التصوير والنحت وفنون العرض.

يحدث الاهتمام بكفاءة النقد والاستقلال الروحانى أثناء التعرض لإبداعات نموذجية أدبية وفنية وخلال تطوير ملاحظة تميز الإبداع، والصفات المشتركة له مع الإبداعات الأخرى، عوامل الانطباع الوجدانى أو عوامل مشاعر الرفض التى يسببها الإبداع.

تخضع الإبداعات النموذجية فى نظر الطبقة المثقفة التى تقوم بتثقيف جماعة معينة خلال أجيال كثيرة للاختبار مجددا فى كل جيل. وتتحول الإبداعات التى تقبل بوصفها إبداعات نموذجية لدى جيل المثقفين الجدد إلى جزء من نظام القيم الجمالية التى تساعد على تطوير قدرة النقد، وترعى قدرة الاستمتاع بإبداعات أدبية وفنية.

التعامل مع الغير والارتباط بالمخاطب والمخاطبة فى التعليم الإنسانى

ميز بوبر بين التعامل مع الغير بوصفه "مخاطب" حيث نظر إلى "الغير" على أنه وسيلة تخدم احتياجاتنا. بسبب وظيفته فهو يقوم بالخدمات، مثل العلاقة بين المعلم والتلميذ، وبين الطبيب والمريض، وبين الحاكم والمحكوم.. إلخ. ويظهر "المخاطب" و"المخاطبة" تجاه الغير، عندما نعرفه كشخصية متميزة بعيدة عن الوظيفة الذى هو أو هى يؤديانها.

تتطور فى الحب وفى الفن وفى العقيدة العلاقات تجاه "المخاطب" و"المخاطبة" أى الغير. فنحن نطور العلاقة بشخصيات متميزة تظهر لنا الحب والصداقة، فى الإبداعات الفنية والأدبية الكبيرة، وفى الاخلاص الذى نشعر به تجاه الإنسان أو الإله. وبفضلهم يثرى العالم الذى نعيش به بكيانات كثيرة والتى تعيش فى روحنا عبر ما يدرك بالحواس والواقع، مثل أحبائنا الذين يعيشون معنا حتى بعد موتهم، ومثل الإله فى وعى المؤمنين به.

يهتم التعلم الإنسانى ،الساعى إلى تطوير رقه الاحساس تجاه الغير بوصفه شخصية مستقلة، بالتعرف على إبداعات فنية وأدبيه كبيرة يتصدرها الإنسان بوصفه مبدع وبوصفه شخصية قد ابتكرها. ويميز الإنسان بين تلك الإبداعات وبين الإبداعات التى تعرض الغير بوصفه "الآخر" - بوصفه وسيلة، بوصفه كيان يتلخص فى الوظيفة الذى يؤديها فى حبكة القصة، فى الشخصية المشكله فى الرسم، والتى ليست فقط بقعة لون لها شكل يؤدى دور فى تكوين الصورة.

وتتطور عن طريق تطوير قدرة التمييز هذه رقة الاحساس تجاه الغير حتى خارج الإبداع الأدبى، كما تمتزج بمسار ترسيخ القيم الأخلاقية، فى غضون تنمية قدرة الاستمتاع والانطباع الوجدانى، والنقد والتمييز بين القصور والانجازات للإبداعات الأدبية والفنية.

يصطدم الاحساس بالتعاطف مع البطل الأدبى ويختلط بنظرتنا النقدية لصفاته وأفعاله. وتعد تلك المشاعر هى جزء من مكونات الانطباع الوجدانى وأحد عوامل التقارب الذى نشعر به تجاه المبدعين وأبطال الأدب. ويتحول اللقاء مع المبدع من خلال العمل والشخصيات المشكله به إلى حدث روحانى يلقى الضوء على مسلمات برؤية جديدة تجعلنا نلتقى مع أنفسنا.

يجد الإنسان فى أحيان نادرة شجاعة أو فرصة للوقوف أمام نفسه، ويعرب عن التناقضات التى بداخله بشكل مدرك.

وكثيرا ما يجسد أبطال الإبداعات الوجدانية تلك التناقضات حيث تعرض تشكيلتهم الأدبية الصراعات الداخلية التى فى أنفسنا - مثل هملت أو دون كشوط لفاوست أو أيوب وسفر الجامعة. بانعكاس شخصيتا فى شخصية البطل الأدبى مواجهه الأنا مع نفسه.

يساهم إدراكنا بتميز الأبطال والمبدعين فى الأدب والفن فى تطور إدراكنا بالفردية بوصفها أحد سمات الإنسانية. وينمى الإدراك بالانحراف عن المعيار وبتميز كل فرد قدرة التسامح من قبل الفرد تجاه الآخر وتجاه نفسه.

يسهم التعليم الإنساني الذى يضم تعرض منهجي ونقدى للإبداعات الكلاسيكية للثقافة التى نحيا بها، فى تنمية إدراك الفرد لنفسه واستقلاله بوصفه شخصية تفكر وتعبر عن آراء تثرى عالمنا الروحانى وعلاقتنا بالغير.

التعليم فى الثقافة القومية وثقافات الشعوب

يشمل التعليم الإنسانى الكلاسيكى تعرض للموسيقى والفنون وللأدب والفلسفة، لفنون الحديث والحوار، وللثقافة البدنية والعناية بحسب الجمال، وللعلوم والرياضة. وكلما نما الإدراك بثقافة إنسانية عامة (فى الهلينية وفى الإمبراطورية الرومانية) فإن التعليم فى الثقافة القومية يتحول إلى جزء من تعليم ثقافات الشعوب التى تعيش الأمة بينها. ودرس يهود كثيرون فى العصر الهلينسى تاريخ الشعوب والأدب الكلاسيكى، بجانب دراسة ثقافة اليونان وإبداعاتها الكلاسيكية والفلسفية والأدبية والفنية. ومنذ ذلك الحين وحتى اليوم ينشط فى اليهودية، كما فى ثقافات قومية أخرى، اتجاه الانفتاح على ثقافات الشعوب ودمجه فى تعليم ثقافى قومى - كما كان فى العصر الوسيط فى مناطق تأثير الإسلام والمسيحية، وكما كان فى عصر النهضة الأوربية والتنوير اليهودى فى مناطق وسط وغرب أوربا، وكما فى الحاضر - فى إسرائيل وكل البلدان التى يعيش بها اليهود خارج فلسطين.

إن فقراء الروح الذين يدرسون الفقر الروحانى عن طريق تعليم منغلق فى قطاع واحد لليهودية متجاهلا تراثها وتنوعها وإبداعها المعاصر يتجاهلون أيضا ثقافات الشعوب. وتكسب نظم التعليم التى تحولت إلى نظم تأهيل مهنى أو علمى فقط الجهل وتتجاهل التراث الثقافى الذى يعرض فى إبداعات كلاسيكية للثقافة القومية والإنسانية العامة. حيث يتعرض دارسوها فقط أو بوجه خاص لإبداعات الترفية التى فى الموضة، وطالما هى فى الموضة، فتلك إبداعات إثارة إنعكاسية، تفقد بالتدريج ميزتها كإبداعات ثقافة قومية معينة أو كإبداعات تعبر عن شخصية متميزة.

وبدون التعلم الإنسانى فإن نظم التعليم المهنى والتخصص ترعى محترفين أكفاء "مخلوقات ذات رأس مفكر وجسد حيوان" كما أطلق عليهم أحد علماء الجريمة فى نهاية القرن

العشرين. فالتعليم الإنسانى ضروريا لإقامة مجتمع إنسانى، ويقول أرسيموس "لايولد الإنسان إنسانا بل يصير إنسانا" (من خلال عملية النقاش: الفردية هى نتاج الخضوع لسلطة المجتمع)-ويقول "فيكو دالا ميراندولا" (١٤٨٦) فى خطابه حول كرامة الإنسان :"وُهب الإنسان تكوين وراثى مضاعف ناجم عن إمكانية الخيار التى منحت له. فلكل مخلوق نطقة تحدد خواصه، لكن الإنسان فقط هو القادر على أن يشبه الحيوان فى خلقه، والملاك فى رشاده، والنبات فى فتوره، والإله فى فهمه للعالم، وفهمه لنفسه وطهارة صفاته.

والبشر هم المخلوقات الوحيدة التى تحتاج إلى تعليم منهجى لكى تحقق الخاصية التى تميزهم - ليكونوا بشرا. وتعمل باقى الحيونات وفقا للنظم الوراثية والغريزية الممنوحة لها منذ ميلادها. تلك النظم لاتجبر الإنسان على أن يكون آدميا. فهى تتيح له التحول ليكون آدميا. وتتيح النظم الوراثية والغريزية التى تدفع تطور الإنسان بوصفه مخلوقا بيولوجيا له بنفس المعيار ليكون أيضا غير آدمي. وإنسانية الفرد متعلقه بعملية الإنسانية أو اللاإنسانية التى فى التعليم.

يتحول التعليم الذى يتجاهل الهدف الإنسانى والعناية الروحانية والشخصية للفرد إلى أحد عوامل تقويض المجتمع الإنسانى حيث تقوض أزمة الهوية التى يعانيها كثيرون من دارسى نظم التعليم فى عصرنا، التمييز بين الخير والشر، وواجبات الفرد تجاه المجتمع وتجاهه الغير، وإدراكه للحقوق الذى يجب على المجتمع منحه لها.

يتصرف أطفال مجرمون وقتلة، لا تمنعهم أزمه اقتصادية أو طبقية، مثل سيكوباتين لا يميزون بين الخير والشر، ومجردين من المشاعر تجاه الغير ولا يعتبرونه شخصية متميزة لها حقوق. وتعد هذه أحد الظواهر الخطيرة للغاية على المجتمع والتى تظهر فى غياب لتعلم الانسانى.

والتعلم الإنسانى الذى يرسخ التزامات الفرد تجاه الغير والمجتمع الذى يعيش به، يعضد الوعى بحقوق كل فرد فى المجتمع وهذا هو شرط لعيش أفراد معا فى مجتمع إنسانى قادر على حماية نفسه من تقويض من الداخل.

تعليم الديمقراطية ومصادرها فى اليهودية

يشمل التعليم الإنسانى تعلم الديمقراطية ليس فقط بوصفها النظام الأفضل من أى بديل من ناحية اقتصادية وأمنية، بل بوصفها النظام الإنسانى الوحيد الذى يدافع عن الأقلية وعن الفرد وعن حرية الابداع الثقافى والتعليمى.

يشمل التعليم الإنسانى التمرس فى إجراءات ديمقراطية فى كل سن، وفى الإلمام بمعتقدات وآراء قد طورت الديمقراطية فى الشعوب وفى العصور التى تطورت بها.

ويتيح بحث إبداعات كتلك ودراستها مواجهة فكرية مع مشاكل مثارة بسبب التناقضات الداخلية التى تظهر فى مسارات الديمقراطية المنبثقة عن أسسها. مثل لذلك مبدأ حكم الأغلبية الذى اتخذه حاخامات فى التلمود، تأثرا بأسس الديمقراطية اليونانية، والذى اعتمد على ما يقال فى العهد القديم: الميل نحو الأكثرية. وتكشف تكملة هذه الفقرة فى العهد القديم -"وليس نحو الأكثرية الشريرة" الصعوبات فى تقبل مبادئ الديمقراطية وحكم الأغلبية بوصفه مبدأ ليس له استثناء. ويرتبط الأمر بقبول رأى الأغلبية والانصياع له بتحذير من الانسياق وراء أغلبية عندما تكون غير محقة، وقرارتها سيئة وتسيء (مثل صعود النازيون إلى الحكم فى إجراء ديمقرطى فى ألمانيا)

واستنتاج حاخامات كثيرين فى التلمود: يجب الانصياع للأغلبية مع الحفاظ على رأى الأقلية لئلا يُنصف فى المستقبل (الحاخام عقيبا)، لكن لا يجب بأى حال منح حق اتخاذ القرار للفرد، حتى وإن كان هو الإله (كما يُفهم من قصة موقد عخناى)

على أساس هذه الرؤى فى اليهودية أمكن تطوير ديمقراطية بين طوائف يهودية كثيرة أُختير بها زعماء الطائفة واستؤجر حاخامات عن طريق الطائفة، التى يحق لها إبدالهم بحاخامات آخرين، كما هو متبع لدى غالبية الطوائف اليهودية الدينية فى العالم حتى هذا اليوم.

و أمكن على أساس تلك المبادئ قيام دولة إسرائيل كديقراطية بمشاركة زعماء وحركات علمانيه ودينية معا. وظهرت فى مرحلة لاحقة للغاية فقط التناقضات بين الرؤى ومطالب بعض الحركات الدينية وبين أسس الديمقراطية.

يقوم التعليم الديمقراطى على التجربة المتجمعة فى الديمقراطيات الكبيرة لشعوب الغرب منذ ظهورالديمقراطية اليونانية، وهو يشمل الانتماء إلى مظاهرها فى اليهودية وإلى الإبداعات الفكرية والنقدية التى تنتمى إليها فى ثقافتنا.

منذ عصر التلمود لم يؤمن معظم مفكري اليهودية أنه يوجد إنسان يتحدث باسم الإله، أو أن مكانة إنسان فى جماعة الحاخامات أو فى التقاليد الدينية تجعله لايخطىء (مثل البابا) ، أو أنه دائما على صواب فى كلامه وآرائه. ولم يتردد اليهود فى انتقاد والاعتراض على أقوال مفكرين وحاخامات كانت تبجلهم دوائر واسعة للغاية وترى أنهم عظماء الجيل. حتى أنه اعترض كثيرون أيضا على كتاب "مشنه توراه" (مراجعة التوراة) لموسى بن ميمون ولم يتقبلوه كدستور ملزم لمعظم دوائر اليهودية فى العالم. ولم يتردد موسى بن ميمون نفسه فى إدانه أقوال حاخامات تلموديين عندما اعتبرهم كذبه يحثون على الشعوذة؛ مثلما فى خطابه إلى طائفة "مونبليا"، والذى يدين فيه التنجيم بوصفه كذب، لكن يذكر فيه أن حاخامات تلمود آمنوا بأنه يمكن حساب مصير الإنسان من خلال مسار الكواكب يوم ولادته.

توجد بالطبع فى اليهودية أيضا رؤى واضحة معادية للديمقراطية والتى تكسب الأفراد خاصية -"كبارعلماء التوراة"، إصدار أحكام فى كل أمر شخصى أو سياسى، تشريعى أو قانونى، ولازال كثير من اليهود المتدينين يعيشون فى عصرنا فى أطر معادية للديمقراطية سواء من ناحية التنازل عن رأى الأغلبية أو من ناحية تجاهل حقوق الإنسان. وتحولت رؤى معاداة الديمقراطية تلك إلى إرث أقلية تتضائل فى اليهودية.

تقوم دولة يهودية على الأسس الديمقراطية والتى تجلت فى وثيقة إنشاء دولة إسرائيل والتى تلائم مبادئ اعلان استقلال الولايات المتحدة وميثاق حقوق الإنسان الخاص بالأمم المتحدة.

يساعد التعليم الإنسانى دارسيه على الإلمام بمبادئ الديمقراطية، والقيم الإنسانية العامة، والأفكار التى تنسب إليها فى اليهودية، والإبداعات اليهودية وإبداعات شعوب أخرى والتى تعبر عن أسس الديمقراطية والتى تصارع الذين يريدون تقويضها.

أحد أهداف التعليم الإنسانى هو تعميق الوعى بالقيم الاخلاقية التى تكمن فى أسس الديمقراطية. ويعتبر البحث والتفكير فى المشاكل والتناقضات الداخلية التى تظهر فى الديمقراطية من القيم الإنسانية بوصفها معيار لتقييم وتفضيل قوانين وأساليب مواجهة تلك التناقضات. ونماذج لذلك مشكلة حدود حرية الحديث والتعليم والتى تحث على التعصب القومى والعنصرى وتقويض الديمقراطية، ومشكلة إعفاء المعارضين لحرب ما بدافع الضمير من واجب التجنيد للدفاع عن الدولة عندما تُهاجم، مشكلة حرية الانضمام إلى جماعات صوفية وغيرها والتى يتزعمها بشكل غير ديمقراطى زعماء يجب أن ينصاع الجميع لهم، ومشكلة تحكم المرأة فى جسدها وحرية الإجهاض، ومشكلة حرية الإنسان فى الحياة أو الموت برغبته فى ديمقراطية تحرم القتل بدافع الرحمة.

تنمية القدرة اللغوية

يعتنى التعليم الإنسانى بتفوق الإنسان على كل حى فى الطبيعة - وبالقدرة اللغويه التى أُنعم عليه بها، وقدرته على الاتصال بواسطة رموز لفظية تتغير دلالتها طبقا للسياق وإتفاق المستخدمين لها.

تبدأ تنمية القدرة اللغوية من اكتساب لغة الأم والأب فى إطار الثقافة القومية التى يعيشون بها. وتتطور القدرة اللغوية لدى يهود الخارج منذ سن مبكرة للغاية بسبب تعرض الأطفال لعدة لغات، علاوة على لغة الأم والأب - منها لغات يهودية (كالعبرية، واليديشية، واللادينو، والموغرابية والطاطيت ولهجات للغات أخرى تحدثها اليهود فقط) ومنها لغات شعوب أخرى عاش بينها اليهود.

تتطور القدرة اللغوية كلما زاد التعرض لإبداعات أدبية، ومسرحية وإذاعية وسينمائية لغتها ثرية ومتعددة الأساليب، وبنسبة هذا التعرض لإبداعات لفظية مندمجة فى تطور قدرة الحديث: الحوار والسرد، وتنظيم الفكر اللفظى لتعبير مُركز وواضح. ومن أجل ذلك فعلى التعليم الإنسانى العودة إلى جذوره وعليه أن يشمل فى نظامه الدراسى بلاغة فعلية - وعقد محاضرات ومشاركة فى نقاشات ومجادلات منذ سن مبكرة، مع الاعتماد على إبداعات أدبية من كل الأنواع.

إن تنمية القدرات اللغوية ليست موجهة لتنمية الاتصال بين الناس، بل لأهداف عمل أو بدائل. والقدرة اللغوية المتطورة هى أحد الشروط الجوهرية لتحقيق حقوق وواجبات الفرد فى الديمقراطية، وقدرته على الإنصات والنقد والتعبير عن الرأى والتأثير على ناخبين ومنتخبين على حد سواء.

تساعد تنمية القدرة اللغوية والثروة اللغوية الفرد على إثراء عالمه الروحانى بتجارب استيعاب لإبداعات جديدة وقديمة وفهمها والحديث عنها مع أصدقائه وأقاربه. ويساعده ذلك على إبراز ماهية حياته، بإضافة مستوى نشاط علاوة على مستويات النشاط اليومى والتى تسعى لإشباع احتياجات أو ممارسة مهنية.

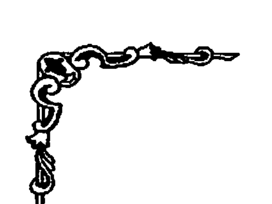
تشمل اللغة الإنسانية – على نقيض نظام رموز الاتصال بين حيوانات أخرى – نظاما لمفاهيم تشير إلى ما وراء المحسوس. وتتحول تلك المفاهيم وتمثل "كائنات" موجودة وراء حدود الحاضر الذى حدث – فى الماضى ويحدث فى المستقبل. وتضم المفاهيم التى تعبر عن رغبات، وأسس تقييم وتفضيل (قيم) ونماذج وعوامل خوف.

وتبتكر كل الابداعات اللغوية: المفاهيم، والفكر، والحوار، وعلم الأخلاق، والمعرفة والأدب بأنواعه– فى بيئة ثقافية قومية، أثناء اللقاء مع ثقافات شعوب أخرى.

كما تشكل تنمية القدرة اللغوية – باللغة القومية وباللغات الأخرى – أحد الأساليب الرئيسية فى التعليم الإنسانى لتحقيق القدرة الإنسانية ومعرفة الثقافة التى يعيش فيها الفرد ويتعلم.

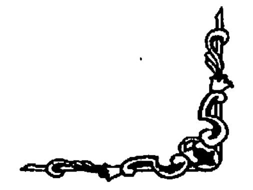
* * * *

الجزء الثاني



العهد القديم

رؤية نقدية معاصرة



الفصل الأول

أدب العهد القديم ودوره في ثقافة اليهود العلمانية

النظرة إلى العهد القديم من خلال الرؤية النقدية الثقافية

إن نقد الثقافة، والبحث والتأمل ونقد الإبداعات والظواهر الواردة فى ثقافة اليهود على مر العصور، ليس جزءا من دراسة العهد القديم والبحث فيها ونقدها؛ بل إنه يشمل البحث فى سمات أدب العهد القديم ودراسته والوظائف التى أداها فى الحياة اليهودية بوصفها ثقافة، والوظائف التى يؤديها فى الحياة الروحية والثقافية لليهود العلمانيين المعاصرين.

يكشف نقد ثقافة اليهود عن الدور المتميز للعهد القديم على مر العصور؛ لكونه الأساس والقاسم المشترك الوحيد بين كل التيارات اليهودية، فى حين أن مجمل الأدب اليهودى والفكر والفن قد لعبوا دورا تأسيسيا وحافزا فى كل تيارمن تيارات اليهودية فى عصرنا أو فى الماضى. ومثال ذلك: دور الأدب الهلينستى لليهود فى التيار اليهودى الذى يتحدث اليونانية خارج فلسطين، ودور الزوهار فى يهودية القبالا، والتلمود فى اليهودية الربانية، والتنائى[1] فى يهودية حبد، وآحاد هاعام[2] وبيالك وبوبر فى اليهودية العلمانية، والأدب العبرى الحديث فى اليهودية الإسرائيلية.

---

(١) كلمة «تنائيم»، و«تنائى» كلمة آرامية تعني «يكرر» ومنها «تنائيم». وتُستخدَم الكلمة للإشارة إلى علماء اليهود الذين جاءوا بعد الكتبة وعاشوا في القرنين الأول والثاني الميلاديين. يبدأ عصرهم بمدرستي هليل وشماي (القرن الأول) وينتهي عند الحاخام يهودا الناسي. وهم رواة المشنا ومعلموها.

(٢) آحاد هاعام: هو التوقيع الأدبى للكاتب اليهودى أشير تسفى جينزبرج ١٨٥٦ - ١٩٢٧ وتعنى هذه العبارة "واحد من الشعب" ويعد آحاد هاعام من أهم المكتاب والمفكرين فى الصهيونية الحديثة، وهو رائد التيار الروحى فيها، ولعب دورا مهما فى الحصول على وعد بلفور. وأهم مؤلفاته هو كتاب " فى مفترق الطرق"، ويقع فى أربعة مجلدات، وقد نشر عام ١٩٢٢ "رسائل آحاد هاعام" وهو يقع فى ستة أجزاء. وهاجر آحاد هاعام إلى فلسطين عام ١٩٢٢ حيث استقر فى تل أبيب حتى توفى عام ١٩٢٧.

يجهل كل تيار من تلك التيارات الكتب الأساسية الخاصة بالتيارات الأخرى أو بعض منها. أما العهد القديم فقط الذى تنتسب إليه كل الآداب اليهودية، هو الذى يشكل أساس ثقافة كل تيار من تلك التيارات. وتقر كل تيارات اليهودية بالعهد القديم أو بأجزاء منه، ويشكل إبداع العهد القديم لديها الوعى القومى والتراث التاريخى الذى يقوم عليه والآمال المسيحانية (الدينية والعلمانية) فى عودة الشعب إلى أرضه وتحقيق استقلاله السياسى والثقافى. ولقد ألفت فى كل تلك التيارات إبداعات بوحى من العهد القديم، فى المجالات الفنية المختلفة: فى الرسم والنحت والنصوص الكلامية والمسرح والسينما والموسيقى والشعر.

يبحث نقد الثقافة فى إبداعات العهد القديم ويعرضها من رؤية مختلفة عن دراسة العهد القديم فى مناهج دراسية، مثل: نقد العهد القديم والمصادر التى تتألف منها النصوص العهد القديم، وتفسيرها من الناحية اللغوية أو المقارنة بين أدبها وآداب أخرى فى الشرق القديم، ودراسة العهد القديم على أنها جزء من مبحث التفاسير التقليدية المقدسة فى اليهودية الأرثوذكسية، أو دراسة العهد القديم على أنها جزء من دراسة علم الآثار والتاريخ الخاصين باليهود أو التعرض لهما.

إن النظرة إلى العهد القديم باعتبار أنه الأساس الوحيد والقاسم المشترك لكل تيارات اليهودية (ثقافات اليهود) تهدى إلى أن عدم معرفة العهد القديم لا تكفى لمعرفة اليهودية والتى تتطور منذ ألفى عام عقب اكتماله.

من الواضح أن اليهود الذين يعتبرون أن أدب الحاخامات مصدرا حيويا ليهوديتهم، يدرسون إلى جانب العهد القديم أيضا التلمود والأدب المدراشى والتفسير والفكر المنسوب للحاخامات .

يتضح لنا بنفس الأهمية أن اليهود الذين لا يكتفون بأدب الحاخامات كممثل لليهودية فى العصر الهلينستى البيزنطى، بل ينظمون مجموعة مختارة تشكل مجمل اليهودية فى ذلك العصر. وتضم هذه المجموعة المختارة: إبداعات الحاخامات و فيلون وفلافيوس والعهد الجديد ورسومات معبد دورا ايرفورس ومسرحية الخروج من مصر للمسرحى

حزقيال وأشعارًا وأمثالا وقصصًا من الأسفار الخارجية، وكتاب الإبداع، قامة مديدة، وقصص رحلات هفرطوأليم فى أدب المركبات وأدب الهياكل، ومخطوطات البحر الميت، والقمران[1]..إلخ.

---

(١) مخطوطات البحر الميت (قمران) تضم مايزيد على ٨٥٠ قطعة مخطوطة، بعضها مما سمي لاحقا الكتاب المقدس وبعضها من كتب لم تكن تعرف أو كانت مفقودة. أول من عثر عليها هو راع فلسطيني اسمه محمد الذيب واكتشف المزيد بين عامي ١٩٤٧ و١٩٥٦ في ١١ كهفًا في وادي قمران قرب خربة قمران شمال البحر الميت. وقد أثارت المخطوطات اهتمام الباحثين والمختصين بدراسة نص العهد القديم لأنها تعود لما بين القرن الثاني قبل الميلاد والقرن الأول منه.

وقد اكتشفت في كهوف قرب البحر الميت في موقع خربة "قمران" لذلك فهي تسمى أيضًا "لفائف قمران".

وهي تتبع طائفة يهودية، ربما كانت طائفة "الأسينيون" التي انعزلت عن بقية المدن اليهودية، وربما بنت مدينة صغيرة في هذا المكان، لكنها تحطمت بفعل زلزال (عام ٣١ ق.م)، وأعيد بناء الموقع عام ٤ ق.م، ويظن أن الرومان أحرقوه عام ٦٨م. والمرجح أن أفراد هذه الملة لم يكونوا يعيشون في هذه الأبنية، بل في الكهوف المجاورة، وفي أكواخ أو خيام من الجلود أوالطين.

وقد تم العثور على جزء من هذه المخطوطات من قبل بعض البدو في كهف، فيما يقال أثناء بحثهم عن ماعز ضلت منهم، فباعوها لبائعين سريانيين حملاها لمطرانهم الذي هربها بدوره إلى الولايات المتحدة الأمريكية عام ١٩٤٨م.

ثم قامت إسرائيل باحتلال القدس والضفة الغربية عام ١٩٦٧م، وأصبح موقع خربة قمران والمدرسة التوراتية الفرنسية و"متحف روكفلر" أو "متحف الآثار الفلسطيني" في القدس المحتوي على بقية المخطوطات التي لم ترحل لأمريكا تحت السيطرة الإسرائيلية. وقامت إسرائيل بنقل مخطوطات البحر الميت من متحف الآثار الفلسطيني إلى متحف مسمى "معبد الكتاب" في القدس الغربية، كانت تحتفظ فيه بالمخطوطات التي اشترتها في الخمسينات في أميركا من مطران السريان.

كتبت بعض المخطوطات على ورق البردي، وبعضها على جلد وبعضها على صفائح نحاس، وحفظت بعض المخطوطات بشكل جيد لأنها خبئت في جرار فخارية في كهوف منطقة صحراوية.

ومن بين مخطوطات البحر الميت ما هو نصوص طويلة، وما هو جذاذة صغيرة، يبلغ عددها مجتمعة عشرات الآف من القطع الصغيرة، بحيث يبلغ مجموع نصوص مخطوطات البحر الميت نحو ٩٠٠ نص، ينسبها أكثر الدارسين للطائفة الإسينية اليهودية، وتقسم النصوص إلى:

٣٠٪ من النصوص من الكتاب المقدس العبري، قطع من كل الأسفار عدا سفر استير.

٢٥٪ من النصوص هي من نصوص يهودية ليست من الكتاب المقدس، مثل سفر اخنوخ وشهادة لاوي.

٣٠٪ من النصوص من التفاسير المتعلقة بالكتاب المقدس.

١٥٪ من النصوص لم تترجم أو لم تعرف هويتها بعد.

وأغلب النصوص مكتوب بالعبرية، والبعض منها بالآرامية والقليل باليونانية.

وتستند كل تلك الآداب إلى إبداعات العهد القديم، وتستطيع مجموعة مختارة فقط من مجملها أن تمثل التنوع الكبير للتيارات اليهودية التى عاشت جنبا إلى جنب، متداخلة وأحيانا متعارضة، فى عصر الهيكل الثانى، وفى حقب كثيرة فى الألف الأول الميلادى. ولا تعنى مقولة العهد القديم هو الأساس الوحيد المشترك لكل تيارات اليهودية بأنه هو الأساس المطلق فى ثقافة اليهود، حيث إن دراسة اليهودية بوصفها ثقافة تكشف لنا أنه فى كل تيار من التيارات اليهودية قد أُضيفت وأُلفت وحدات مميزة لذلك التيار، علاوة على إبداع العهد القديم.

النقاش حول وظائف العهد القديم فى الحياة اليهودية بوصفها ثقافة

- أية وظائف قد شغلها العهد القديم أو يشغلها فى اليهودية بوصفها ثقافة لليهود ؟
- كيف أثرت الإبداعات الأدبية فى العهد القديم على وعى التراث التاريخى والثقافى لدارسى اليهودية ؟
- من أى ناحية يؤلف العهد القديم وثيقة تاريخية لواقع ثقافى وروحانى واجتماعى قد ساد فى يهودية حقبة الألف الأول قبل الميلاد ؟
- ما السمات الخاصة بالأنتولوجيا الأدبية والتى تتيح لهذه الأنتولوجيا أداء وظائفها المختلفة فى ثقافة اليهود ؟
- ما وظائف العهد القديم – وإبداعاته الدينية والعلمانية – فى الحياة الثقافية والتعليمية لليهود العلمانيين ؟
- كيف تؤثر معتقدات اليهود العلمانيين على نظرتهم إلى العهد القديم وعلى اختيار مصادر اليهودية؟
- لماذا تسيطر على اليهودية العلمانية رؤية بوبر، والتى ترى ضرورة النظرة إلى الإبداعات فى العهد القديم بشكل مجرد ومنفصل عن إبداعات التفسير التقليدى والمدراش والبحث ؟

وتعالج الفصول القادمة تلك الموضوعات.

معتقدات اليهود العلمانيين تحدد النظرة إلى العهد القديم

نظرة اليهود العلمانيين تعني: يهودا متحررين من وجوب الحفاظ على فرائض الشريعة ومن وجوب الموافقة على التفسير الديني والتقليدى والمقدس للعهد القديم. وتترسخ هذه الرؤية من خلال معتقدات سائدة بين اليهود العلمانيين فى العالم. ولا تصاغ هذه المعتقدات دائما فى تصريحات، أو حتى فى وعى اليهود العلمانيين. وتتجلى المعتقدات فى نمط حياتهم، وفى تعليم أولادهم، وفى نخبة الإبداعات اليهودية التى يدون من خلالها مصادر اليهودية، وفى أسلوب قراءتهم لإبداعات العهد القديم.

بدأ العهد القديم منذ أن انتشرت اليهودية العلمانية بين اليهود فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، وحتى صارت ثقافة معظم اليهود فى القرن العشرين، يشغل مجددا دورا مركزيا فى تعليم اليهودية. و بدأوا يعتبرونه مجددا أساس القومية اليهودية المدركة للتراث التاريخي والثقافي المشترك لليهود فى جميع العصور. ومن هذه الناحية، احتل العهد القديم مكان دراسة التلمود والتى استمرت فى احتلال الصدارة فى الدراسة الدينية الأرثوذكسية. ويدرس العهد القديم فى اليهودية العلمانية والتيارات الدينية الإصلاحية بأساليب متنوعة، بوصفه الأدب الكلاسيكي فى ثقافة اليهود، وعلى أنه مصدر للديانة التوحيدية اليهودية والتى انتشرت فى صيغ إسلامية ومسيحية وفى ثقافات شعوب كثيرة، وعلى أنه مجموعة وثائق تاريخية التى تدل على الحياة الاجتماعية والثقافية لشعب اليهود فى فترة تشكيله.

ولكى نعرف الرؤى العلمانية لأدب العهد القديم، علينا أن نعرف المعتقدات السائدة فى اليهودية العلمانية وتأثيرها على رؤى أصحاب تلك المعتقدات تجاه إبداعات العهد القديم.

أما أهم معتقدات اليهود العلمانيين التى تشكل نظرتهم تجاه إبداع العهد القديم ومضمونه ورسالته :

- إن البشر هم مبدعو العهد القديم والإله والقيم الأخلاقية والفرائض والقوانين التى يتم تقيمها وتفضيلها طبقا لتلك القيم.

- إن القيمة هى المعيار الحقيقى لتقييم وتفضيل المبادئ السلوكية والقوانين المدنية والفرائض الدينية والعادات والتقاليد.
- يبتكر البشر إلها مختلفا فى كل ثقافة إنسانية، وفى كل أدب يخص المؤمنين بوجود إله خارج إطار الأدب والفن، وينسبون للإله الذي ابتكروه قوانين وفرائض يلتزمون بأدائها ، حتى وإن لم تتوافق مع قيم أخلاقية عالمية.

فى كل أدب للمؤمنين بوجود الإله أيضا خارج الأدب والفن ، ينسب للرب

- يتم تقييم أى قانون وعادة وتفضيلها من خلال الإيمان بقيم معينة وأهداف أخلاقية وإدراك المبررات والنتائج الممكنة للامتثال للقوانين والمبادئ السلوكية.
- تهدف الأخلاق والقيم إلى تطوير إنسانية البشر وتحسين حياتهم.
- إن تحقيق تلك الأهداف مرهون بسلوك أخلاقى، وهو سلوك يتمثل فى قيم تتفق مع المبادىء التى صاغها هليل وعمانوئيل كانط وهى:
  - لا نفعل بغيرنا ما نكرهه لأنفسنا.
  - لاننظر إلى الإنسان على أنه وسيلة بل غاية.
  - إن المبدأ الأخلاقى يعتبر أخلاقيا طالما أنه عام.
- يأتى الميل الطبيعى للإنسان إلى الإنسانية والأخلاقيات نتيجة من التعليم بوصفه عملية إنسانية تطرأ على المجتمع الذي يتصرف وفقا لمبادئ أخلاقية.
- إن التعليم والإنسانية يتحققان دائما فى الثقافة القومية، حيث إنه لا توجد ثقافة غير قومية.
- ومن هنا فإن تعليم اليهود والعلمانيين الإنسانيين يتحقق من خلال تنمية المعرفة والصلة وإدراك اليهودية بوصفها ثقافة لليهود ولثقافة الشعوب التى تعيش فى داخلها فى الماضى والحاضر.

- يشمل مسار التعليم ثقافة المجتمع القومي الذى نعيش بداخله وثقافة الشعوب التى تعيش الأمة بها، مع معرفة الإبداعات والظواهر فى التراث التاريخى والثقافى للشعب ومبادئها مثل معرفة أدب العهد القديم فى اليهودية.

فصل القراءة الظاهرية عن التفسير الباطنى

إن التفسير الظاهرى لإبداعات العهد القديم على أنها إبداعات أدبية خالصة، يختلف عن أى التفسير الباطنى أو التحليل العلمي الذى يقسم الإبداع إلى عناصر.

إن عرض الإبداعات الأدبية فى العهد القديم على النمط الموجود به يوجه إدراكنا نحو المكتوب فى هذا الإبداع وليس إلى المكتوب فى إبداع أدبى أو علمى آخر مثل أدب المدراش أو "نقد العهد القديم". وربط أى إبداع بالعهد القديم بالإبداعات الأدبية الإضافية يشوه الإبداع الأصيل سواء من ناحية أدبية أو من ناحية مكانته ـ إبداعه وتأثيره على الموروث التاريخى والثقافى الذى بسببه يؤدى العهد القديم دورا حيويا فى حياتنا الثقافية.

فعلى سبيل المثال نجد أن صورة إبراهيم مشوهة فى وعى الذين ينسبون له ما يروى فى المدراش عن الطفل إبراهيم الذى حطم أصنام الآلهة فى حانوت أبيه، فى الوقت الذى تعامل إبراهيم بتبجيل مع كبير الآلهة الكنعانية، والذى قدم قربانا على مذبحه عندما حل ضيفا على الكاهن اليبوسى ملكي صادق ملك القدس.

لم يستطع قراء سفر "نشيد الأناشيد" أن يعبروا عن عظمة هذا الإبداع النموذجى فى تاريخ شعر الحب المادى، إلا إذا فهموا أولا مصطلحات التفسيرات الباطنية التى تنظر إليه على أنه حب بين يهوه والكنيسة الكاثوليكية أو بين يهوه وبنى إسرائيل.

سفر "التكوين" وفصول رواية الآباء والأمهات المدرجة فيه ، والملحقه به لهدف الكمال والتميز فى تاريخ الأدب العالمى ، من المستحيل التعبير عن هذا الإبداع إن لم نفصل بين قراءته على أنه شئ مكتمل وبين النقاش حول فرضيات المصادر اليهوية والإلوهيمية والكهنوتية التى استقى منها المحررون النصوص التى ألحقوها إلى إبداعهم.

وثيقة تاريخية فى إبداعات أدب مختلق فى العهد القديم

تفسر الوثيقة التاريخية من خلال إبداعات أى أدب مختلق ، بما فى ذلك فى الأدب العهد القديم المختلق. ويخلق الأديب فى الأدب المختلق واقعا جديدا من مواد الواقع لتى يعرفها، عن طريق خياله. وتعرض مواد الواقع تلك، والتى هى بمثابة المادة الخام لإبداعه، واقعا اجتماعيا وثقافيا وروحانيا يعيش فيه أبطال الأدب، والواقع الذى شكله الأديب من خلال تجربة حياته، وتدل عليها.

وعلى إثر كارليل ، فإننا نرى أبطال الأدب يتحولون إلى أبطال تاريخيين بفضل الدور الذى يلعبونه فى تاريخ شعبهم أو العالم ، مثل الملك آرثر أو يسوع الناصرى، وذلك أن يكون هذا الأمر مشروطا بمصداقية الحديث حول حياتهم، كما هو معروض فى قصة أو فى قصص قد شكلت شخصياتهم.

بهذا الشكل عرض آحاد هاعام شخصية "موسى" الذى صور فى قصص العهد القديم وصار فيما بعد شخصية تاريخية، عندما بدأ يؤدى أدوارا فى تاريخ اليهود وفى ديانتهم وثقافتهم، وفى الفكر الاجتماعى والسياسى وفى تطبيقاته فى حياة اليهود. حتى وإن لم يكن لدينا دليلا على أن تقرير هذه الوقائع فى قصة حياة موسى هى "حقيقة أثرية ". وعلى حد قول آحاد هاعام ، يجب النظر إلى الإبداعات التى شكلت موسى على أنها إبداعات قد قدمت شخصية تاريخية.

ومن هنا فإن الأدب المختلق من الممكن أن يؤدى وظيفتان متميزتان عن بعضهم البعض :

١- أنه ينسج شخصيات أدبية - إلهية وإنسانية - جديدة بما يجعلها تتحول إلى شخصيات تاريخية .

٢- أنه يعرض واقعا اجتماعيا وثقافيا وروحانيا يعيش فيه الأديب أو يحكى عنه، والذى شكل حبكة قصصة من مواد تاريخية واقعية، موجوده بالفعل ولم يبتكرها.

إن لم تكن هناك إمكانية التأكيد من صحة التقرير حول الوقائع التى تتشكل منها الحبكة القصصية، فهى تؤلف وثيقة تاريخية وتمكننا من معرفة الواقع الاجتماعى والثقافى

الذى يـدل عليـه، وهـذة الوثيقـة مـن الممكـن أن يجـد لهـا سـندا فى الأبحـاث التاريخيـة والاكتشافات الأثرية.

تبنى المعرفة المكتسبة بهـذا الأسـلوب وعـى الـتراث التـاريخى والـذاكرة الجمعيـة للشعب والمتمثلة فى إبداعات أدبية يتقبلها الشعب على أنها إبداعاته الأساسية.

يؤدى العهد القديم وظيفة التراث التاريخى الـذى يؤسـس ذاكـرة جمعيـة لليهـود. وتكشف القراءة فى العهد القديم، بواسطة تلك الأدلة التاريخية، عن واقع اجتماعي وثقافي يعيشه اليهود فى زمن نشأته وتشكيله كشعب ذي خصوصية.

قد لعبت تلك الحقائق التاريخية دورا فى تطوير الآمال والرؤى المسيحانية - الدينية والعلمانية - وتطلع الشعب للعودة إلى أرض العهد القديم وإقامة دولته المستقلة عليها كما حدث فى الثلاث ممالك التى أقيمت فى الألف الأول قبل الميلاد.

إن تخمينات الباحثين بشأن عدم مصداقية تقريـر العهـد القـديم حـول الأحـداث المروية فى العهد القديم، لا تغير شيئا فى الدور الذى أدته تلـك الوثـائق التاريخيـة فى ثقافـة الشعب وتاريخه. والحقيقة أنه حتى الآن لم توجد بعد أى أدلة أثرية عن الخروج من مـصر، باستثناء كتابات ترجع إلى ألفين وخمسمائة عـام فى متنـاول أيـدينا، لا تغـير شـيئا بالنـسبة لأهمية الذين يعتبرون الخروج من مصر فى اليهودية حقيقة، وبالنسبة للـدور الـذى تؤديـه قصص الخروج من مصر فى ثقافة الشعوب . (انظر مايكل ولتسر "الخروج والثورة") .

يوسع العلم بالبحث التاريخى والأثرى المعرفة فيما يختص بالخلفية التاريخية الممكنة للأحداث المرويه فى أدب العهد القديم. وتستخدم تلـك الأبحـاث النظـرة النقديـة تجـاه إبداع العهد القديم ، التى من شأنها أن تكشف عن مفارقات تاريخية تثبت أن الإبداع يدل على أمور لا نفترض بأنها كانت موجودة فى تلك الفترة، مثـل: الجـمال المدرجـة فى الهديـة التى منحها فرعون لإبراهيم مقابل الأيام الثلاثة التـى مكثتهـا سـارة فى قـصره . (تـدعى أبحاث واكتشافات أثرية عدم وجود مفارقات تاريخيـة ، حيـث اكتـشفت فى إيـران بقايـا جمال أليفة ترجع إلى الألف الرابع قبل الميلاد ، وقـد اكتـشفت فى صـحراء النقـب عظـام لجمال مختلطة بعظام الكباش ترجع إلى الألف الثالث والثانى قبل المـيلاد، ممـا يـدل، عـلى مايبدو، على اكتشاف الجمال الأليفة فى الفترة المنسوبة للأحداث التى فى قصة إبراهيم).

تدعم النظرة النقدية ، المستخدمة فى اكتشافات البحث التاريخى والأثرى ، فى معظم الأحيان وثيقة العهد القديم التاريخية فى وصفها للواقع الاجتماعى والثقافى - مثل المقارنة بين قوانين حمورابى والقوانين المتعلقة بالروابط الأسرية والميراث فى أدب العهد القديم ، والصورة التى يرسمها البحث (على أساس وثائق من أرشيفات تل العمارنه ومارى[1]) فيما يتعلق بإبداعات أدبية سابقة لهؤلاء الإسرائيليين التى اكتشفت فى القرن العشرين. ووفقا لشهادة العهد القديم فقد عبد بنو اسرائيل آلهة كنعانية قريبة فى مكانتها ووظيفتها من الآلهة الموصوفة فى أساطير بلاد النهرين. وتتحدث وثائق ملوك بلاد النهرين عن الحروب الموصوفة فى العهد القديم بين الغزاة من بلاد مابين النهرين لمملكة إسرائيل. و يذكر صراحة فى مسلة الملك المصرى مرنبتاح التى ترجع إلى عام ١٢٠٧ ق.م إسم "إسرائيل" على أنه كيان إثنى والذى وفقا لرأى الملك المصرى فى القرن ال١٣ ق.م قد قام بإبادتهم عن بكرة أبيهم ، ولم يعد لهم وجود فى المستقبل.

يوجد فى الأدب الذى ألفه اليهود فى فترة الألف الأول ق.م وصف لترحال قبائل عبرية قديمة يشبه وصف ترحال قبائل "الخابيرو" أو "العابيرو"[2] فى الهلال الخصيب. ويماثل هذا الوصف وصف تجوال عائلات إبراهيم ويعقوب (حيث تتطابق الأسماء الشخصية مع الأسماء الموجودة فى الأرشيفات المذكورة آنفا).

توجد أدلة كثيرة فى العهد القديم عن العلاقات بين ثقافات الشعوب فى الهلال الخصيب وثقافة العبريين القدامى والملقبين فيما بعد ببنى إسرائيل أو اليهود. ويثبت العهد

---

(١) مارى مدينة قديمة فى سوريا تعود إلى القرن الخامس ق.م وقد دمرها حمورابى ، وكانت مركزا سياسيا واقتصاديا وثقافيا مهما فى العالم القديم.

تم اكتشافها عام ١٩٣٣ شرق سوريا قرب حدودها مع العراق وظهرت فيها اكتشافات مهمة حيث وجدت فى بداية الحفر ٢٥ ألف لوحة من الخزف مكتوبة بالأكادية ومكتوبات بالخط المسمارى، وتعد اللوحات وثائق مهمة شملت موضوعات من مجالات الحياة المختلفة وشملت أحداث مهمة عن الحكام وعامة الشعب.

(٢) الخابيرو: يشير فريق من العلماء إلى وجود علاقه بين اللفظ عبرى واللفظ خبير. ولفظ خبيرو فى المصادر المصرية القديمة، والمصادر الأشورية والبابلية التى اعتادت الإشارة إلى بعض القبائل البدوية العربية ومنها القبائل الآرامية العربية التى يقال أن إبراهيم عليه السلام ينتمى إليها. كما تشير هذه المصادر إلى أن اللفظ خبيرو كان يطلق حوالى الألف الثانية قبل الميلاد على عدد من القبائل فى شمال شبه الجزيرة العربية وفى الشام . انظر: د.محمد خليفة حسن : تاريخ الديانة اليهودية. ص٢٠.

القديم أن الإسرايليين القدامى قد تحدثوا باللغة العبرية (وفى القدس باليهودية)، وهى لغة قريبة الشبه من اللغة الفينيقية التى تحدث بها أيضا يهودا والذين يندددون بغالبية بنى اسرائيل ، والذين يعبدون كثيرا من آلهة كنعان بجانب عبادة يهوه أو بدلا منه.

نتعلم من وثائق أدبْ العهد القديم أن الاعتقاد بالبعث لم يكن منتشرا بين بنى إسرائيل، ولم يؤمن به أدباء العهد القديم (باستثناء أديب سفر دانيال). ولكن يوجد أيضا وثائق عهد قديم تدور حول الانحراف وعادات استحضار أرواح الموتى الذين يلتقون بالأحياء مجددا، كما فى قصة شاؤل مع صموئيل بعد موته.

تعرض أدلة كثيرة فى أدب العهد القديم تطور التوحيد الأخلاقى الوارد فى تعاليم الأنبياء وخصوصيته، حتى وإن كان أيضا إرث أقلية بين اليهود، وقد تحول التوحيد الأخلاقى إلى عنصر يؤثر تأثيرا حاسما فى تطور اليهودية والثقافة الغربية كلها. ويعتبر التجديد الأكثر إبداعا وانقلابا فى شريعة الأنبياء هو مطالبتهم بتنفيذ مبادىء العدل الاجتماعى وتفضيلها عن الفرائض الدينية وشعائر القرابين والصلوات.

بهذا وضع الأنبياء أسس مبادئ العدل الاجتماعى فى ثقافات الغرب، وشجعوا بمرور قرون كثيرة الذين اعتبروا قيم العدل معيارا لنقد كل قانون وفريضة دينية ومدنية على حد سواء.

تشكل نصوص العهد القديم وثائق أثرية ، وفيها نصوص تم كتابتها قبل أكثر من ألفى عام، وتوجد نسخ على الأقل فى بعضها دقيقة للغاية، كما اتضح من المقارنة بين سفر اشعيا الذى اكتشف فى لفائف القمران وبين سفر إشعيا الموجود فى آلاف النسخ المطبوعة للعهد قديم.

يدعم قدم إبداعات العهد القديم مكانتها كوثائق تاريخية تدل على واقع الفترات التى كتبت فيها. ويُنسى شيوع نماذج مطبوعة من مجلدات العهد القديم كثيرون القدم البالغ لإبداعات أدبية ترجم بعضها منها فى القرن الثالث قبل الميلاد.

على أية حال يجب النظرة إلى العهد القديم على أنه مجموعة من الوثائق التاريخية التى تدل على واقع لم يختلقه الأدباء بل وجدوه. ومثل كل أدباء الخيال فى العالم لا يكتبون

تقريرا دائما حول أحداث فى الواقع بشكل يتماثل مع التقرير الواقعى الذى تطلبه المحكمة، ولكن يعرضون الواقع من خلال أعمال خيالية، أبطالها قد شكلهم الإبداع والكلام الذى يشعر به الأديب والذى كان على البطل أن يقوله.

كما يجب أن نفترض أن الإلياذه والأوديسا تعرضان واقعا اجتماعيا وثقافيا لقبائل عاشت قبل القرن الثامن قبل الميلاد الذين لقبوا فى فترة متأخرة باليونانيين، يجب أيضا أن نفترض أن قصص العهد القديم تعرض واقعا اجتماعيا وثقافيا لحياة القبائل العبرية والإسرائليين، والتى لقبت فيما بعد باليهود والذين عاشوا فى الشرق الأدنى القديم وفى أرض الشعوب الكنعانية فى الألف الأول قبل الميلاد وربما أيضا فى النصف الثانى للألف الثانى السابق له .

إن المحاولات المتطرفة والصارخة للذين ينكرون وجود بنى إسرائيل والذين يعتمدون على فقدان أدلة أثرية قاطعة حول وجوده، يتجاهلون القاعدة الأساسية لأى بحث تاريخى وقانونى والتى تقول "فقدان الدليل لايعد دليلا على غيابه".

إن التخمينات الخيالية للذين ينكرون وجود بنى إسرائيل والتى تقول : إن عبيد الكنعانيين قد تمردوا على آسيادهم وهربوا من مدنهم. واستقر هؤلاء فى جبال الضفة والخليل واختلقوا لأنفسهم التاريخ الإسرائيلى الذى يبدأ من الخروج من مصر وتبنوه. هذه التحمينات اختلاق لواقع ولا تمثل إلا خيال مختلقيها.

عندما يصطدمون بأثر مرنبتاح الذى يعود إلى ١٢٠٧ قبل الميلاد ، وفيه ذكر مباشر لبنى إسرائيل يكتفى منكرو وجود بنى إسرائيل باعتراف مشكوك فيه، إلا أنهم مضطرون أيضا للاعتراف بأن الوثيقة الوحيدة التى بين أيديهم عن وجود بنى إسرائيل هى إعلان عن إبادته وعدم وجوده.

* * * *

الفصل الثانـي

دور العهد القديم فى التعليم العلمانى الهادف إلى إرساء الإنسانية فى اليهودية

إن هدف أى تعليم هو تحقيق إنسانية المخلوق البيولوجى المسمى بالإنسان والـذى يمتلك قدرات تمكنه من أن يكون إنسانا اجتماعيا وثقافيا ولديه ميول أخلاقية وقدرة عـلى النقد والتمييز بين الخير والشر. ويمكن تحقيق هذا الهـدف فى التعليـم والثقافـة القوميـة، حيث إنه فى الواقع لاتوجد ثقافة ليست قومية.

يوجد اتجاهان يتصارعان فى تعليم كهذا، هما:

١ - يتحقق تأقلم الفـرد مـع المجتمـع ومـسلماته مـن خـلال اكتـساب المعرفـة حـول الموروث التاريخى والثقافى، ومن خلال استيعاب قيم أخلاقية عالمية، ومن خـلال اكتساب مهارات حيوية عن قدرة الفرد فى الدراسة والتعلم فى هذا المجتمع.

٢ - تتحقق تنمية شخصية الفـرد المـستقلة مـن خـلال تنميـة إبـداعات الفـرد ونقـده لمسلمات المجتمع وإبداعاته ونقده لبنود فى الموروث التـاريخى والثقـافى. ويتحقـق أيضا من خلال السعى لتحقيق غالبية القوى الكامنة المميزة لكـل فـرد، ومعرفتـه بـالحقوق والواجبـات النابعـة مـن عـضويته فى المجتمـع القـومى، والطـائفى، والأسرى.

ويخدم هذان الاتجاهان الثقافة والتعرف على الإبداعات الكلاسيكية التى فى جوهر الثقافة القومية وثقافة الشعوب التى يعيش بينها الشعب.

إن معرفة وتنمية العلاقة الحسية تجاه تلك الإبداعات النقدية والإبداعية فى النظـرة إليها تطوران تأقلم الفرد تجاه المجتمع الذى يعيش فيه، وتنمى شخـصيته المـستقلة والتـى تجعله يواجه المجتمع وهذه الثقافة.

تطوير قدرة الأنطباع المادى والنقدى

تستوجب المعتقدات الشائعة فى اليهودية العلمانية تنمية المعرفة وتطوير القدرة على الانتفاع والثراء الروحانى من إبداعات العهد القديم، بجانب الرؤية النقدية تجاه كل ظاهرة وإبداع بدون أى قيد دينى أو غير دينى.

إن تطوير القدرة النقدية الجمالية والأخلاقية لإبداعات العهد القديم ،حيث أبطال الأدب من الآلهة والبشر فى العهد القديم والرسائل والفرائض المتضمنة فى تلك الإبداعات، بفسر الإبداعات الأدبية والحسية التى فى العهد القديم على أنها إبداعات تؤدى إلى انطباع حسى وشعورى، وتثرى العلاقة بين جوهر الثقافة اليهودية والروابط بين ثقافات الشعوب.

ولكى نسرع فى تحقيق تلك الأهداف يجب معرفة الوحدات الأدبية التى يحتويها العهد القديم، ويجب أيضا الانتباه لشكلها ومضمونها كأنها إبداعات أدبية مكتملة ، بعيدا عن البحث عن المصادر والمكونات المختلفة لمعظم الإبداعات فى العهد القديم.

إن القراءة والتمعن فى الإبداع الأدبى والفنى والشعرى تمثل جزءا من النشاط التثقيفى والجمالى والأخلاقى لكل فرد مثقف. ومن أجل ذلك علينا ان نتعلم مقولة قولريدج حول الاشتراط الجبرى للانطباع عن القراءة الخيالية والتى تقول "إقرار عدم الثقة".

علينا أن نأخذ انطباعًا عن الإبداع المادى من خلال تفعيل قدراتنا النقدية والأخلاقية، ومن خلال إقرار النقد العلمى الذى يتحرى ويطالب بإرجاع كتابات شكسبير إلى مصادرها أو التحرى من أى مصدر يأتى إبداع العهد القديم من المصدر "اليهوى" أو "الألوهيمى"أو "الكهنوتى"[(١)].

---

(١) لقد أثارت الاختلافات والتناقضات الواضحة فى صفحات التوراة الحالية انتباه كثير من الباحثين قديما وحديثا . فأشاروا إلى تعدد المصادر واتفق العلماء على أن التوراة تتكون من مجموعة كتابات جمعت وحررت فى عمل واحد وحدد العلماء أربعة مصادر للتوراة وهى المصدر الألوهيمى الذى يتميز بلفظ ألوهيم للدلالة على الألوهيم وله مجموعة من الخصائص التى تميزه عن بقية المصادر.

=

يؤكد إظهار إبداع العهد القديم على أنه مكتمل حتى لو كان البحث يوضح أيـوب على أنه "مكتمل وبه خلل"، كما يسميه يائير هوفمان فى كتابه الرائع عن أيوب، يؤكد ذلك اللقاء مع الدراما الفلسفية "أيوب" قبل أن يقسمها الباحثون إلى عناصر.

يجب أن يركز البحث فى إبداع العهد القديم أولا حول قدرته كإبداع مادى وحـول الرسائل الإنسانية والأخلاقية النابعة من أسلوب عـرض الحكايـة وأبطالها والمعـضلات الأخلاقية التى تظهر فى حياة أبطال العمل وفى حياتنا. يظهر ذلك فى القصة القصيرة التـى تدور حول صدام البطل الأدبى الإله مع البطله الأدبية حواء ، نتيجة خطيئة الإله القديمـة حيث حظر المعرفة والأخلاق بتحريمه ثمار "شجرة معرفة الخير والـشر". وتماثـل المعرفـة conscience الضمير بالفرنسية والإنجليزية، هى أيضا "ضمير" وأيضا معرفة التمييز بين الخير والشر.

يكشف أدب الخيال عن واقع إنسانى ويرمز إليه

يستطيع أى عمل أدبى كبير أن يجعلنا نلتقى مع شخصيات وواقع إنسانى فى نقـاط ما يكشفه البحث التاريخى والعلمى، وتستخدم المعرفة مثل اللغـة اليوميـة الاسـتقراءات والمفاهيم والأسماء التى تشير إلى المجموع.

يتكون الواقع الإنسانى من تفاصيل متميزة وتقوم اللغة والمفاهيم والعلوم بتـسمية هذه التفاصيل بالاستقراءات والتبسيطات والقوانين. ويشتاق البشر إلى اللقاء مع مـا هـو

=

والمصدر اليهودى ويتميز باستخدام لفظ يهوه للدلالة على الإلوهية وربطه القوى بين الدين والقومية.
والمصدر الكهنوتى ويطلق عليه اسم الكهنوتى لأنه من عمل الكهنـة الـذين عكفـوا عـلى تحريـر المـصدرين الألوهيمى واليهوى فزادوا عليهما إضافات مطولة زعموا أنها كانت موجودة، واهم مـا يميـز هـذا المـصدر التركيز على العبادة وتنظيم الطقوس والشعائر والأحكام التشريعية.
المصدر التثنوى وهو أساس سفر التثنية ويتميز بمحاولته التوفيقية بين المصدر اليهوى والمـصدر الإلـوهيمى فهو يحتفظ بالتراث العنصرى لليهوى ويضيف إليه المثالية الأخلاقية للإلوهيمى.
للمزيد حول المصادر الأربعة وتفاصيل كل مصدر انظر: محمد خليفة حسن : علاقة الإسلام باليهودية، رؤية إسلامية فى مصادر التوراة الحالية. دار الثقافة للنشر . القاهرة ١٩٨٨.

ذي خصوصية فى القصة وفى العمل الأدبى والإبدع الفنـى ، حيـث تكـشف عـن مـا هـو متميز ومصاغ فى العمل وما يرتبط به.

إن قدرة الأدب تتمثل فى التغلغل عبر حواجز الاستقراءات التى تفصل بيننا وبـين الواقع الإنسانى. ويتجلى الشوق فى الاقتراب من الإنسان الذى يمتلك شخـصية متميـزة لنا فى الحب والإبـداع الأدبـى والفنـى، وهـو أحـد الـضروريات النفـسية المـشتركة فـيها بينناجميعا. ويخلق الأدب والفن واقعا جديدا مستقلا نواجهه وتنعكس من خلاله حياتنـا. وتتضمن المفاجأة المتعلقة باللقاء مع الواقع الإنـسانى الموجـود فى أدب الإدراك الفجـائى رغم الغربة والاختلاف بيننا وبين الأبطال، إلا أنهم قادرون على أن يمثلونا.

يتم فى كل ثقافة إضافة الواقع الذى يتم ابتكاره فى إبداعات الأدب الكلاسيكى إلى الواقع الذى يعيش فيه أبناء تلك الثقافة ويتعرضـون لهـا. ويتعـرف معظـم الإسرائيليـين الصغار من مرحلة الروضة وحتى نهاية مرحلة الثانوية على الواقع وعلى الأبطال الذى تم ابتكارهم فى أدب العهد القديم. إن هذه المعرفة موجودة بمـستويات مختلفـة مـن التجربـة والمعرفة مثل إدراك الواقع الاجتماعى والثقافى الذى نعيشه فى الحاضر.

إن الواقع فى الإبداعات الأدبية العظيمة فى نظرنا هو جـزء مـن الواقـع الروحـانى المشترك لدارسى كل ثقافة قوميـة والمنفتحـة علـيهم . ونحـن نحتـاج بمـساعدة الإبـداع الأدبى الفنى ووجود الأشكال والمضامين والأبطال والحكايات التى تثرى حياتنا الأدبية، للتخلص من الشعور بالاضمحلال ومن تيار الظواهر والتغيرات وردود الأفعال الفورية التى نحتاجها فى حياتنا اليومية.

يكـشف الأدب لنـا الـسلوك الإنـسانى مـن خـلال مـا هـو متميـز ، كـما يكـشف المعضلات الأخلاقية والمشاكل التى هى إرث للجميع، ولكن هناك ما هو أكثر تميزا، وهو قدرة مبدعى الأدب والفن، من الأشخاص المتميزين فقط، على مواجهتنا بها وبمغزاها.

يجعلنا الأدب نلتقى مع حياة تتحول إلى رمز من خلال وصف حياة أفراد يمتلكون شخصيات متميزة، مثل تميز كل واحد منا، ومن الأمثلة عـلى ذلـك حيـاة يعقـوب الـذى تغلب على مصيره وإلهه وصار إسرائيل، ومثل دون كيشوط الذى سـئم الواقـع وأحيـا فى خياله نبله وحارب من أجل العدل.

إذا كانت الحياة اليومية تمثل ذاتها فإن الحياة فى الإبداع الأدبى ،فى ذروته، تمثل المعضلات والقوى الإنسانية الكامنة لدى كل البشر. وإبداعات كتلك هى مثل كثير من إبداعات العهد القديم تكشف ما يسميه أرسطو بـ"الحقيقة الحسية"، وليست تقريرا مطابقا لـ"ما يحدث فى الحقيقة"، بل هى قصة تكشف عن قوى كامنة لما يمكن أن يحدث سواء لأبطال العمل أو لقرائه.

تتمثل قوة قصة الذبيح فى أنها تجعلنا نركز بعقلنا ومشاعرنا فى معضلة الضحية، وبذلك فنحن نستطيع أن نضحى بأعز ما لدينا من أجل ما نؤمن به إيمانا مطلقا.

ومن هنا تأتى عالمية الإبداعات الكلاسيكية والتى تخرج عن حدود ثقافتها القومية، و تتحول أيضا إلى إبداعات كلاسيكية فى ثقافات قومية أخرى. مثل الإلياذة وهاملت والحرب والسلام والقضاء وأيوب ويونس أو صيغتى قصة الخلق التى تتصدر العهد القديم. وتمثل هذه الإبداعات رمزية الوضع الإنسانى وقدرته على تشكيل عالم وشخصية الإله ومعرفة الخير والشر كشرط حتمى لإنسانية الفرد أو لحظر معرفة الحرية.

وذلك على غرار مقولة فيكو ده ميرندولا:" معنى أن تكون ذا طبيعة إنسانية هو أن تكون قادرا على أن تكون ساميًا كالملاك وحقيرًا وشريرًا كالشيطان".

صيغتان لقصة الخلق، أنشودة خلق الوجود وقصة الخطيئة الأولى للإله

أنشودة الخلق التى تتصدر أنتولوجيا العهد القديم والتى يركز على أهميتها لونجينوس فى الفترة الهلينية (فى كتابه حول الارتقاء). تبدأ الأنشودة بتشكيل البطل الأدبى الإله على شكل وصورة الإنسان. وهنا يعرض الإله على أنه تجسيد ورمز للقوة ومطمح الإبداع الإنسانى.؟

يخلق البطل الأدبى الإله الذى هو فى هذه الأنشودة ذكر وأنثى على حد سواء، الإنسان على صورته. وتتأكد بشرية الإله من خلال صيحات السعادة والتفاخر التى يطلقها عقب انتهاء يوم عمل الخلق، وذلك عندما ينظر إلى صنعته ويجدها جيدة، وأحيانا يجدها رائعة فى نظره. لكن فى نهاية أسبوع من العمل الشاق يحتاج الرب أيضا إلى الراحة،

فيرتاح بعد كل الأعمال التى قام بها، فيصنع يوم السبت وقوانينه - القوانين الأولى للمساواة فى العالم.

يرى مؤلف أنشودة الخلق أن الكون والحياة على الكرة الأرضية بمثابة مسار تدريجي ؛ يبدأ التدرج فى انفجار طاقة النور داخل الفوضى عن طريق خلق السماء وحركاتها. ثم أوجدت الزمن وتقسيماته إلى أيام وليالى ، ثم تقسيم الفضاء إلى سماء وأرض، ثم تجمع المياه التى على سطحها. وخلق الحياة التى فى المياة وتدفقها إلى الهواء واليابسة ثم زواحف تتكاثر حتى ظهور الثدييات ، حيث قمة تطورها بخلق الإنسان ذكر وأنثى، كليهما أوليين ومتساويين فى خلقهما، ويسيطران على كل الأرض ويسيران عليها.

تختلف الصيغة الثانية للخلق عن الأولى وتتعارض معها فى معظم سماتها الحكائية والأيديولوجية، حيث يتواجد الإله فى داخل العالم وليس خارجه وهو يخلق الحياة بالأفعال وليس بالأقوال ، وينظم الإله شبكة الرى لجنته ويغرس الجنة فى عدن ، وهى إحدى المناطق الموجودة على الأرض، ثم ينحت تمثال الإنسان الأول وينفخ فيه روح الحياة. وعندما يتضح له أنه ليس من المستحسن أن يكون الإنسان بمفرده، ينحت تماثيل صغيرة وكبيرة على هيئة كل الحيوانات الموجودة عى الأرض وينفحخ فيها روح الحياة، ويشعر بخيبة أمل عندما يطلق على الحيوانات أسماء ترمز إلى أنها لم تخلصه من وحدته. ويصف المؤلف بطله الزراعى ، ويتحول المثال إلى جراح قدير حيث يقوم بتنويم الإنسان ويغشيه فى ثبات عميق ويخرج ضلعا من جسده وبطريقة بسيطة يخلق منه مساعدة لآدم ليست مخلوق أول كآدم، بل أخر المخلوقات التى خلقت فى العالم ، مخلوق ذو وظيفة محددة لتكون مساعدة لحارس جنة الإله والعامل بها.

لكن صنعة الرب الأخيرة تمردت على خالقها ، فكل الحيوانات بما فيها الذكر البشرى على استعداد للإذعان للقانون الوحيد الذى شرع فى العالم. هذا القانون هو قانون حظر المعرفة والأخلاق، أو حسبما يصيغه الأديب، قانون عدم التمييز بين الخير والشر. أما المرأة التى خلقت من الرجل لم تذعن للقانون التعسفى، ويدفعها الفضول لثمار شجرة المعرفة المشتهاة لتتثقف بالمعرفة، لكى تدرك الثقافة. وتصدق المرأة الحية التى تخمن بأن الإله كذب حيث لايموتون من المعرفة، فتأكل من ثمار التمييز بين الخير والشر المحرمة

المحظورة، وتجتاز المرأة بذلك حدود الحياة الحيوانيـة للإنـسان، وأطعمـت الرجـل الـذى معها وأنقذت البشرية من الاضطراب العقلى (عدم التمييز بين الخير والشر) ومـن الحيـاة الأبدية فى الطبيعة الممنوحة دون تغيرها.

على ضوء نجاح المرأة الأولى فى التمرد على الخطيئة الأولى للإله الذى حاول حظـر المعرفة والأخلاق عن البشر طور الأديـب موضـوع الـصدام بـين أبطـال البـشر والآلهـة والذى صار جوهريا فى بعض إبداعات أدبية فى العهد القديم.

نظرا لأن حواء ، تماما مثل بروماتوس فى الأساطير اليونانية، قد تمردت على قوانين الإله التعسفية والمسيطر على العالم ، يعاقبها يهوه الإله هـى وكـل بنـات الجـنس الأنثـوى باللعنة التى تتضمن الألم والحزن أثناء عمليات الولادة، كـما يعاقبهـا بخـضوعها للرجـل المتحرر من كل هذا. والأسوء مـن هـذا يعاقبهـا بالـشوق للـذكر وحبـه وهـو يـستعبدها ويسيطر عليها فى كل النظم الاجتماعية منذ ذلك الحين وحتى الآن.

هذه اللعنة والتى تصف المأساة الاجتماعية للمرأة يمكن أن تكتبها أديبة امرأة فقط كما يدعى الناقد الأدبى الكبير هارولـد بلـوم فى كتابـه "جيـى". وتجـد القـصة ودلالاتهـا المختلفة، بما يتفـق مـع التفـسيرات البـسيطة والمتعمقـة التـى صـاحبتها خـلال عـشرات الأجيال، صدى حتى اليوم فى الفكر والإبداع العالمى.

حاول الذين يبغضون المرأة مثل أوجوسطينوس تحويلهـا إلى قـصة الخطيئـة الأولى للمرأة . وقد تقبل الذين ساروا على نهجه هذا التفـسير وحولـوا الخطيئـة الأولى إلى أحـد مبادئ إيمانهم بالجرم العالمى للبشر والذين ولدوا من المرأة التى تخطأ بطبيعتها، حيث إنهم نسل المتمردة الأولى التى استطاعت أن تنتصر على الإله.

تكمن قدرة الإبداع الأدبى الكبير فى الخـروج عـن حـدود الثقافـة التـى ألـف بهـا والمتمثل فى تاريخ قصة جنة عدن الموجودة فى الفصل الثانى من سـفر التكـوين. ويـستمر مثل كل إبـداع فى الأدب الكلاسـيكى أيـضا هـذا الإبـداع فى أداء دور فى الثقافـة واللغـة العبرية وكل تراجماتها التى تقلل من شأنها ومن قوتها الأدبية. فمن الصعب عـلى المـترجم أن يقدم تعبيرا مساويا فى المغزى ، لوصف لحظة الحيرة واتخاذ القرار الحاسم التـى تتخـذه

حواء عندما ترى أن ثمرة شجرة المعرفة هي "جيدة للتثقيف". فتيقظ الحواس الممتع والاشتياق العقلى الذى لايمكن كبحه يؤدى إلى تعبير لغوى مضطرب لايمكن صياغته.

لتأكيد أهمية التمرد التى قامت به أم البشر ضد الإله وعظمته، يسمع الأديب أصوات الخوف. حيث يعبر الإله(بصيغة الجمع) عن خوفه من أن الإنسان على وشك أن يصير مشابها له ليس فقط من ناحية الشكل والهيئة، فبعد أن تمكن من المعرفة، فمن الذى سيمنعه من الأكل من شجرة الخلود أيضا، وعندئذ كيف سيسيطر الإله على الإنسان؟

بفضل الخوف الإلهى تحرر الإنسان من جنة عدن. ولكونه مسلحا بالمعرفة التى منحته له حواء، بدأت ذريتها فى الإبداع والابتكار والخلق، وتطوير حضارة واقتصاد وثقافة وفن، كما هو موصوف فى فصول القصة التى تدور حول حياة البشر الذين خرجوا من الجنة فى عدن، وبدأوا فى تعمير الأرض وكل أرجائها.

يبدأ الإبداع الإنسانى منافسة الإبداع الإلهى، حيث يتصارع البطل الأدبى الإله منذ ذلك الحين مع أبطال البشر الموجودين فى إبداعات أدب العهد القديم العظيمة – فى قصص إبراهيم ويعقوب وموسى وحتى قصص يونس وأيوب.

تأثير النظرة إلى الإله بوصفه بطلا أدبيا

يسود فى الثقافة اليهودية العلمانية الإيمان بأن البشر قد ابتكروا الإله كبطل أدبى فى أدب العهد القديم، وقد صوروا الرب فى إبداعات سفر التكوين على شكل الإنسان وصورته (ذكر وأنثى)، وفى إبداعات أخرى كشخصية مجردة من الشكل والصورة مثل الطبيعة والإنسانية بخواصها وأقوالها وسماتها.

يختلف يهوه إله إسرائيل الذى شكل فى الأدب الإسرائيلى فى العهد القديم عن آلهة الشعوب التى ابتكرها البشر فى الأساطير القديمة وفى منطقة الهلال الخصيب واليونان.

فى مقابل آلهة شعوب كثيرة التى ابتكرت فى الأساطير وفى أدب الشعوب الوثنية، فإن يهوه وحيدا بلا أسرة وليس له مكان محدد (مثل أوليمبوس). وقد شكل يهوه فى العهد القديم على أنه إله سبق الكون والطبيعة التى خلقها من الفوضى ويستمر فى الصراع معها.

فى عقيدة مبدعى العهد القديم فإن الإله قد خلق العالم والإنسان، وينسبون ليهوه كل القوانين التى تطبق على السلوك الإنسانى للفرد والمجتمع، هم يلغون بذلك التمييز بين فرائض الديانة وبين القوانين المدنية (واجبات الفرد تجاه غيره من البشر وتجاه المجتمع الذى يعيش فيه).

وتلزم عقيدة التوحيد الفرد بالانصياع لزعماء الدين وأوامرهم وشرائعهم؛ لأنهم فى هذه العقيدة يتحدثون باسم الإله خالق العالم ومجتمع البشر، حاكم العالم والمراقب لحياة كل إنسان والمكافئ والمعاقب كما يريد.

يحرر اعتقاد اليهود العلمانيين الذين يؤمنون بأن الإنسان هو مبتكر الإله والقيم الأخلاقية، يحررهم من سلطات زعماء المؤسسات الدينية والشريعة التى ابتدعوها ومن الفرائض التى فرضوها باسم الإله، ومن كافة القوانين التى تسمى فى العبرية "ديانة" والتى يفرضونها على المؤمنين بهم وبقدرة البشر على التحدث باسم الإله.

ويعد هذا الاعتقاد إلحاد فى جوهره، لأنه يعارض الإيمان بصلاحيات الديانة وزعمائها وفرضها على البشر كيف يتصرفون وبما يؤمنون. ويكتسب الاعتقاد الإلحادى أشكالا مختلفة مثل: اللا أدريون الذين يؤمنون بالتماثل بين الطبيعة، وبين مفهوم الإلوهية لكون الطبيعة إلها فى نظرهم (كما يرى سبينوزا) ، أو بتماثل الإله مع الطبيعة (فالإله ليس مكان حيث إنه هو المكان ذاته)، وفى اعتقاد اللاأدريين ليس للدين صلاحية حيث إنهم يؤمنون بعدم احتمال معرفة وجود إله أم لا خارج نطاق الأدب الذى شكل وجوده. وعلى ذلك لايمكن تصديق زعماء الدين بأنهم يتحدثون حقا باسم الإله والذى ليس من المحتمل معرفته أو اللقاء معه وسماع صوته. أما اعتقاد التوحيديين (مثل فولتير) فهم يفترضون وجود كيان سامى فوق كل كائن يمكن أن ندعوه إلها، ولكن لاصلة له بالبشر أو الفرد به. وعلى ذلك فلا نبغى تصديق الذين يزعمون الحديث باسمه أو الانصياع لهم.

أما اعتقاد الفلاسفة المتدينين (مثل مؤلف كتاب "دليل الحائرين") فهو قريب مما ذكر آنفا لأنهم يؤمنون بأن الإله لايمكن للبشر إدراكه ويمكن أن ننسب إليه خاصية ما، بما فى ذلك خاصية الكينونة، لكونه الحكمة السامية والبارزة فى هذا الكون. الحكمة التى

يستطيع فقط المميزون من الحكماء والعلماء الاقتراب منها أو كما قـال أينـشتين :" إن الإلـه هو الاسم الذى نمنحه للغز الذى لا يحل عن سبب الشرعية السائدة فى الكـون والأرض، الشرعية التى يمكن بحثها ولكن يمكن معرفة مصدرها.

ويشترك المؤمنون بالعقائد المذكورة آنفـا - التوحيـديون والملحـدون واللاأدريـون فيما يلى:

أ - النظرة إلى الإله فى العهد القديم على أنه بطـل أدبي قـد ابتدعـه مؤلفـو الإبـداعات الأدبية التى جمعت فيه. ويشكل عـلى هيئـة بطـل لـه شخـصية إنسانية وملامـح إنسانية (فـم وذراع ومـا شـابه ذلـك) أو لـه خـصائص البـشر (يتحـدث ويـأمر ويضرب). وقد صاغه بهذ الشكل المبـدعون؛ وذلـك لكـى يقـدموا للقـراء غـير الفطنين مثالا أدبيا (كما يقـول موسـى بـن ميمـون فى كتابـه "دليـل الحـائرين") يستطيعون فهمه ويؤمنون به. والبطل الأدبى الـذى شـكل فى العهـد القـديم لـه شخصية (جسدية أو نفسية) تماثـل شخـصية الإنـسان، وعـلى ذلـك فـيمكن أن ينسب إليه أقوال شفاهة وأفعال يفعلها بذراع مبسوطة، يغضب أو يصاب بخيبـة أمل عندما يشعر بأن بنى إسرائيل ينكـرون الجميـل ويـشكون مـن التحـرر مـن العبودية وما شابه ذلك.

ب - الرؤية الإلحادية للدين القائم عـلى المؤسـسات ،بمعنـى؛ الإيـمان بـأن الإنـسان المتحرر من الإلحاد والديانة ومن زعمائها ومن كل فرائضها يلتزم بقـيم أخلاقيـة قد صاغها البشر وتشكل ظروف للحياة فى مجتمع إنسانى، أى: فى المجتمع الذى فقط نستطيع أن نكون فيه بشر.

عندما تكون الفرائض والعادات الدينية غير مقبولـة مـن ناحيـة القـيم والأخـلاق والإنسانية (مثل ذبح طفل والتضحية به عـلى مـذبح، أو قـانون وعـادة اضـطهاد النـساء اللاتى هن نصف المجتمع) لايجب الانصياع لها ويجب إبعادها خارج القانون.

بدلا من تداخل قوانين الشريعة الدينية مع القـوانين المدنيـة يجـب الفـصل بيـنهما. فكلتاهما صنيعة البشر. ويجب أن يخضعا لاختبار قيم العدالة الإنسانية. وعنـدما يـصطدم

القانون المدنى الديمقراطى بالـشريعة والفـرائض الدينيـة يجـب تفـضيل القـانون المـدنى الديمقراطى إذا كان صامدا أمام اختبار قيم العدل والتى تمثلها محاكم عليا والتى اختارهـا المجتمع.

يلعب التمييز بين الإله بوصفه خالق الإنسان وبين الإله بوصفه بطلا أدبيـا ابتكـره الانسان دورا حاسما فى النظرة إلى الحياة وإلى المجتمع وإبداعاته بما فى ذلك العهد القديم .

الأفراد الذين يعيشون مؤمنين بأن الإنـسان هـو سـيد متحـرر مـن كـل القـوانين ،يرفضها ويغيرها وفقا لقيمه الأخلاقية ،يتعاملون بشكل نقـدى مـع القـوانين والـشرائع المعروضة فى العهد القديم ، مثل كل أفعال الأبطال وأقوالهم التى تقال فى إبداعاته. وهـذه الرؤية النقدية - القادرة على قبول أو رفـض أى فريـضة فى العهـد القـديم وأى عمـل أو حديث للإله أو إبراهيم أو موسى - هى جزء من التعليم الأخلاقى والذى يخدمـه معرفـة إبداعات العهد القديم.

أعرب أيضا مبدعو العهد القديم المتدينون، والذين يؤمنون بـأن الإلـه هـو خـالق العالم والإنـسان وأن لـه الـسلطة القـضائية العليـا، عـن آراء نقديـة متطرفـة فـيما يتعلـق بأخلاقيات يهوه. حيث يشك إبراهيم فى أن الإله قاضى الأرض يقيم قضاءً عادلاً وذلـك عندما يعاقب عقابا جماعيا، ويعلم قراء سفر أيوب إن الإله هـو المـذنب ولـيس أيـوب فى تلك المأساة، كما يعلم مبدعو أسفار الجامعة وإرميا بأنه لايوجـد عـدل فى عـالم يهـوه ففيـه الخير للآثمين والشر للصديقين.

ومثل كل أبطال الأدب الكلاسـيكين فى العـالم فـإن يهـوه يخطـئ مـن وجهـة نظـر القارىء الأخلاقية والقيمية. فمثله مثل أبطال الأدب فى الإلياذة والأوديسا، وإبـداعات درامية مثل إسخيليوس وسوفوكليس وأورفيدس وشكسبير وموليير وجوته.

أخطأ أفلاطون عندما نسب إلى الأدبـاء الـذين يقـدمون أبطـالا يخطئـون ، وذلـك عنـدما اقـترح تتـويج رأسـهم بأكاليـل الثنـاء وطـردهم مـن المدينـة . فأبطـال الأدب فى الإبداعات النموذجية - بما فيهم يهـوه - لا يمثلـون نموذجـا للـسلوك الأخلاقـى. فهـم يمثلون الواقع الإنسانى النفسى والاجتماعى والدينى والأخلاقى.

إن التعامل المتسامح مع أبطال الأدب المخطئين بسبب قداستهم فى التقاليد الدينيـة يضر بالتعليم الأخلاقى للفرد وبتطوير قدرة نقدية لديه.

فمن ناحية قيم القارئ الإنسان فلا مبرر أخلاقى لامتثال إبـراهيم الأعمـى الـذى يخدع ابنه ويسوقه إلى مكان التضحية يحمل عليه الخشب الذى ينوى حرقـه بـه، يعـد ابنـه للذبح ويقرب السكين من حنجرته ليذبحه حيث يبدو له أن إلهه قد أمره بهذا.

فالأمر الذى تلقاه إبراهيم من الرب بتقديم ابنه قربانا أمر غير أخلاقـي بـصورة لا تقبل الجدل ، مثل انصياع إبراهيم والمكيدة التى حاكها لينفذ الأمر.

إن الإيمان بأن الإله الموجود فى العهد القديم بطل أدبى يتيح قراءة الإبـداع الأدبـى الذى أدرج به مع تنمية الارتباط بالشخصيات الفاعلة فى تلك الإبداعات بـما فيهـا يهـوه. وهذا الارتباط هو جزء من الانطباع الحسى والعقلانى الذى يثار لدى القارئ من خـلال الإبداعات الأدبية.

* * * *

الفصل الثالث

أركان الفكر الإسرائيلى فى أدب العهد القديم

مغزى موقع جنة عدن فى بداية التاريخ

تتجلى فى أدب العهد القديم أقوال تعبر عن الفكر الذى ساد عصر العهد القديم وعقيدته من خلال قصص وأشعار وأقوال أبطاله الأدبيين، مثل: الأنبياء أو الشخصيات الفاعلة فى الحكاية. فالإيمان بالتمييز بين الخير والشر مشروط بالمعرفة معلن فى قصة جنة عدن ، ويتم التأكيد عليه فى كل إدانة للشر النابع من الجهل الذى لا يتوقع ما سيطرأ من أحداث ولا يخمن بنتائج أفعال الشر التى تؤدى إلى الدمار والخراب.

إن المعرفة ، ومعرفة الخير من الشر فى هذا الصدد، هى شرط لإنسانية الفرد. حيث يستطيع الانسان من خلالها فقط الاختيار بين خيارات مطروحة، أو يخلق اختيارات جديدة (حسبما يقول براجسون: إن الإنسان يتميز عن أى مخلوق آخر فى الطبيعة)

وبالنسبة لمؤلف قصة عدن ، فمن الواضح أن الحية على حق وأن الإله قد تصرف من منطلق مبررات أنانية، كأنه لم يطعم من شجرة معرفة الخير والشر. ولأنه لم يفكر فى المستقبل ، فلم يفهم يهوه الرب أنه على وشك أن يفقد الحارس فى جنته والعامل المخلص بها. وأنه من المستحيل أن يمنع المعرفة إلى الأبد. فكل عاقل يتمرد على من يحاول أن يمنعه من حرية الاختيار بين الخير والشر. فالمعرفة ، بالنسبة لكاتب سفر التكوين ، لا تقلل بشكل دلالى الفرق بين الإنسان والإله، فهى أيضا تحررنا من تبعية ما يعرضه لنا الإله فى الطبيعة. ومن الآن يستطيع البشر خلق بيئة طبيعية جديدة، بعيدة عن جنة عدن ، التى آمن كل أدباء العهد القديم بأنها موجودة فى بداية التاريخ وليس فى نهايته.

يمثل موقع جنة عدن فى بداية العهد القديم أحد الوسائل الكثيرة التى يتم التعبير

من خلالها فى أدب العهد القديم عن وجهة نظر حول اقتصار الحياة عـلى هـذا العـالم، وأن الموت هو تفتيت للجسد البشرى ليصير ضمن المواد الترابية التى خلق منها.

ولأن الطريق من جنة عدن ذو اتجاه واحد ، فإن هذا يعد أحد التجديدات المفرطـة فى الفكر الإسرائيلى فى عصر العهد القديم. ويسود فى معظم ثقافات جيران بنـى إسرائيـل الاعتقاد بالبعث فى عالم ما وراء الحدود بين الحياة والموت، ففى هـذا العـالم يعـيش الآلهـة بجانب الموتى ويواصلون الحياة الأبدية.

ينكر فكر اليهود فى عصر العهد القديم البعث ويتجاهل الحيـاة التـى بعـد المـوت. ويمثل هذا الموقف تحولا ثوريا فى تاريخ الفكر الغربى. وقد ساد فى عـصر مـا بعـد العهـد القديم ، وبخاصة فى العصر الهليسنستى وفى العصر الوسيط الاعتقاد فى البعث وفى الحيـاة الأبدية (المذكورة فى العهد القديم فى سفر دانيال فقط) . وهذا الاعتقاد عـلى نقـيض مـن فكر الفلاسفة ، مثل موسى بن ميمون فى كتابه "دليل الحـائرين" الـذين فهمـوا أن الحيـاة الأبدية للنفس بمفاهيم امتزاج العقل البشرى بالعقل السامى للإله.

تأثير الإيمان باقتصار الحياة على هذا العالم

شكل إنكار العهد القديم للبعث وحياة ما بعد المـوت ، تجديـدا وتحـولا ثوريـا فى فكر العالم القديم. و أصبح ذلك فى فترة التنـوير حـدا فاصـلا يميـز المـؤمنين بالـديانات التوحيدية فى الغرب عن المتشككين واللاأدريين والملحدين، الـذين تزايـدوا فى اليهوديـة وفى ثقافات شعوب الغرب.

كان الإيمان باقتصار الحياة على هذا العالم هـو أسـاس تفـضيل الأخـلاق والعـدل الاجتماعى على فرائض الشعائر الدينية. والإيمان بأن العقاب والثواب يتحقق للإنـسان فى هذا العالم وفى هذه الحياة فقط ، قد خلق المطلب الـذى كـرره بيالـك بعـد مـرور سـنوات كثيرة فى قصيدته "إذا كان هناك عدل فليتحقق فورا". فمن وجهة نظر بيالك فقد كان هذا شرط لإيمان بسيطرة وتبرير الإله على هذا الكون، وعلى هذا فهو يقول فى نفـس القـصيدة "إذا ما ظهر العدل بعد موتى فلينهار عرشه إلى الأبد". ويمتزج كـذلك فى أقـوال الأنبيـاء الإيمان باقتصار الحياة على هذا العالم مع المطالبة بتحقيق العدالة هنا والآن ، ليس فقط لأن

"الأموات لم يقدسوا الرب" ولكن على أساس أنه لا يوجد عالم يستطيع أن يعوض أولئك الذى وقع عليهم الظلم فى هذا العالم.

وقد أدرك الأنبياء أن أعمال الشر وتجاهل مطالب العدل هو جهل باعتباره نقيضا للحكمة التى هى رؤية المستقبل بمعنى؛ أنه فهم نتائج الأعمال وليس فقط ثوابها فى الحاضر.

اعتمد قادة ديانات التوحيد على العهد القديم فى مطالبتهم بالإذعان المطلق لفرائض الشعائر ولزعماء الديانة الذين أمروا بها ، عندما يهددون بعقوبات بدنية مروعة فى العالم القادم حيث تشتعل به نار جهنم إلى الأبد.

لقد تطور فى أدب العهد القديم بالذات فكرة إنكار البعث والذى كان فى الهسكالاه أساس التحرر من الديانة ومن سلطة زعمائها. ولقد عاد وتطور الإيمان فى فترة الهسكالاه باقتصار الحياة على هذا العالم وبحقوق الإنسان ،فهو مبتكر القيم الأخلاقية ، وبوجوب تطبيقها هنا والآن ، حيث إنه لا حياة أخرى يمكن فعل هذا بها.

على هذا استطاع أيضا اللاأدريون والملحدون أن يقدروا إسهام أدباء العهد القديم وأنبياء يهوه المدرجين به، فقد كانوا أول من أعلنوا أن العدل الاجتماعى مفضل عن الصلاة وتقديم القربان للإله.

استند الإيمان بصلاحية القيم الأخلاقية فى أقوال الأنبياء على المعرفة والنقد اللاذع والصارم الذى وجهه الأنبياء ضد المؤسسة الاجتماعية والاقتصادية والسلطة الدينية. ولقد وجههم التمييز بين الخير والشر إلى رفض سلوك الكهنة الشرير والأحمق وسلوك أصحاب الأملاك والوزراء والملوك الذين لم يتنبؤا بالمستقبل ولم يتفهموا بأنه بانتهاك العهد مع الإله، والذى أساسه فعل الخير، حسب رأى الأنبياء، فإنهم يسيروا بالمجتمع الإسرائيلى نحو الانهيار والدمار. فلا مغزى من الإيمان بقيم بدون معرفة شيء من الداخل - القدرة على التنبؤ بشئ يحدث نتيجة لأفعال أو إهمال.

يعد الإيمان بمطلق القيم الأخلاقية باعتبارها معيار للخير والشر، كما صاغها هليل وكانط، هو إيمان بالوظيفة التى تؤديها تلك القيم كشرط لوجود مجتمع يمكن أن تتحقق

فيه إنسانية الفرد، وتنهار إنسانية الفرد فى مجتمع ينهار، مثل النظم الاستبدادية كالنازية وطالبانى وتحل مسارات اللاإنسانية محل مسارات الإنسانية، فيتحول التعليم من أجل حياة أفضل لكل البشر بتعليم يحث على الاستعباد والاستبداد ، وفرض الديانة والثقافة على الآخر والتضحية بالإنسان والانتحار.

وكما أن الإيمان بقيم ما والقدرة على الاختيار وتفضيل الخير على الشر مشروط بالمعرفة التى تميز بينهما، فإن معرفة النتائج المتكهنة لأفعالنا تشكل شرطا لاختيار العمل الأفضل أو لرفض العمل الأسوء. وبدون الإيمان بقيم فلا معيار للتقدير وللتفضيل والاختيار بين الخير والشر. وبدون المعرفة فلا احتمال لتطبيق قيم أخلاقية لاختيار الخير من الشر.

الصراع بين الإنسان والإله فى أدب العهد القديم

إن أحد الموضوعات المشتركة فى إبداعات العهد القديم الكثيرة هو الصراع بين البطل الأدبى الإله وبين أبطال الأدب من البشر. ويتجلى التعبير عن ذلك فى قصص واقعية مثلما فى رواية الآباء والأمهات فى سفر التكوين، بداية من وصف الجدال حول مشكلة أخلاقية العقاب الجماعى، الذى يدور بين إبراهيم والإله، عندما يرسل الإله مبعوثيه لتدمير سدوم وعمورة. ثم يتهم إبراهيم الإله بأنه يصدر حكما على كل الأرض دون أن يقيم محاكمة، حيث نكبة الدمار والقتل لسكان مدن كاملة ، مثل النكبة التى دمرت سدوم وعمورة، فتلك النكبة لا تفرق بين الصديق والشرير، ولا يمكن اعتبارها حكمًا عادلاً.

يتمثل قمة الصراع بين البشر والإله فى قصة يعقوب الذى يصارع من أجل مصيره وينتصر فى النهاية على الإله نفسه فى صراع وجها لوجه فى "فنيئيل" ذلك المكان الذى أطلق عليه يعقوب هذا الاسم، لأنه رأى الإله فيه "وجها لوجه" عندما صارعه وانتصر عليه. ويتجلى الصراع بين الإله والإنسان ثانية فى إبداعات سريالية مثل يونا الذى يتهم إلهه بالتسامح المفرط والإحسان والرحمة تجاه مملكة الشر ، ومثل أيوب الذى لا يوافق على تبرير حكم الأتقياء الجاهلين الذين يعتقدون أن النكبة التى قتل فيها أبناء أيوب وبناته هى نتيجة

لخطيئته. وإلقاء التهمة فى أثناء النكبة على الضحية لكى نرفع التهمة عن الإله القادر على كل شئ أمر استنكره أديب العهد القديم فى سفر أيوب ورأى أنه انحراف وجرم من قبل المتدينين ، مثل أيوب والذين يسيرون على نهجهم اليوم والمتمثلين فى حسيدية حبد وسطمر.

يوضح لنا الأديب فى رواية الإطار - المؤلف الذى ألف سفر أيوب من مصادر - أن يهوه فعل مكيدة مع الشيطان بجلبه الكارثة والمصيبة على أيوب الصديق بسبب صدقه لكى يختبره.

يظهر فى كل قصة من قصص الصراع بين الإنسان والإله شخصية الإله المتميزة وشخصية المتصارعين معه. ومن خلالهم ينكشف المغزى الفكرى العالمى لصراع الإنسان مع مصيره بمعنى: صراع الإنسان ضد مسارات طبيعية لا يسيطر عليها، ولا تخضع لحكم الأخلاق ، وينسبها المؤمن المتدين للإله.

إن الاعتراف بقوة العوامل والقوى التى تشكل مصير كل فرد، يظهر فى معتقدات دينية وعلمانية، وتتمثل فى أدب العهد القديم من خلال صراع الإنسان مع إلهه.

فى عقيدة العلمانيين كلمة "مصير" تعنى القوة المؤثرة على حياتنا بشكل غير مرتبط بالإرادة ولكن من المحتمل أن يكون متأثرا بالإرادة وشخصية الفرد. وهذه القوة مثل "القوة المتعادلة" - الموجه فى الفيزيقا - التى تشكلها فيزياء القوى التى تعمل فى اتجاهات مختلفة، وعناصر تؤدى إلى خلق قوة فاعلة فى اتجاه آخر، ولكن تحت تأثير تلك القوى.

من بين القوى المؤثرة فى حياتنا، بشكل غير متعلق بإرادتنا، توجد عوامل بيئية ووراثية، الإرادة والقوة اللتين يفرضهما علينا الآباء والزعماء وأناس آخرون. إرادة الفرد من المحتمل أيضا أن تكون إحدى تلك القوى المؤثرة، وفى حالات كثيرة تغلب عليها.

أما فى عقيدة المتدينين فكلمة "مصير" تعنى حكم من السماء ؛أى تعبير عن إرادة الإلة، حيث إن كل شىء فى العالم يفعل بقوله وإرادته وأنه قادر على كل شىء.

يتغلب المصير على رغبة الإنسان وأهدافه فى التراجيديا اليونانية، كما فى أديبوس الملك، ولا يستطيع أن يغير أو يلغى حكم الآلهة ، ورغم كل جهوده وأفعاله فإن حياته تحدد فى نهاية الأمر من خلال هذا الحكم.

يتصارع فى أدب العهد القديم - كما فى قصص إبراهيم ويعقوب ويوسف وداود - أبطال الأدب مع العوامل الوراثية والبيئية ويتغلبون على مـصيرهم ، مثـل يعقـوب الـذى صارع أشخاصًا والإله وانتصر عليهم.

تنشط فى قصص العهد القديم المذكورة آنفا رغبة الفرد وشخصية الإنـسان كجـزء من القوى الكثيرة التى تحدد مصيره. ولا تماثل مسارات حياة الفرد رغبتـه ولكـن سمات الفرد وقوة شخصيته تؤثر على تلك المسارات. ويمكن أن تغير الاتجاه والنتائج التى كانت ستحدث لولا ظهور تلك القوى.

لقد نجح يعقوب فى التغلب على مصيره كشاب ليس له حقـوق فى المجتمـع الـذى ولد فيه ، ولكن بعد أن تغلب يعقوب حتـى عـلى إلهـه ، لم يكـن يـستطيع منـع مـسارات الأحداث التى أدت إلى هروبه من نابلس عقب المذبحة الجماعيـة التـى نفـذها أبنائـه ضـد السكان انتقاما على اغتصاب أختهم . ورغـم تفضيله ابن محبوبته راحيل فإن هذا لم يمنعـه من العزلة والحزن لسنوات كثيرة، عندما اعتقد أنه فقد ابنه يوسف الذى صـار ذا شـأن فى البلد المجاور، وتنكر لإخوته الذين قد باعوه عبدا، ولأبيه الذى أحبه أكثر من كل أبنائه.

يتأثر مصير الإنسان فى تلـك القـصص بقـوة مبادرتـه وقدرتـه عـلى انقـاذ مواهبـه والخضوع للتحديات والفرص المتاحة له فى بيئته.

تظهر حرية الفرد فى قدرته على الصراع مع القوى غير المتعلقة برغبته ، ومع رغباته وغرائزه، ومع المجتمع ومسلماته، ومع قدرته على شق طريق خاص بـه ، رغـم القيـود أو من خلال استغلال الفرص التى تظهر أمامه.

ينفذ معظم أبطال أدب العهد القـديم رغبـاتهم ويبـادرون بمحاولـة مـنهم لتغيـير مصيرهم.

يجد إبراهيم طريقة غير تقليدية ليتخلص بهـا مـن الجـوع والفقـر المهـددين لحياتـه وحياة أسرته وخطته فى أن يصير سيدا لجمهور من الغرباء. فعندما كان مـستقبله فى خطـر بسبب الفقر والجوع فى أرض كنعان فقد بادر بتنكير زوجته الجميلة سارة حيث أقنعها بأن

تتظاهر وكأنها أخته عندما أخذها رسل ملك مصر لقصره لمدة ثلاثة أيام. وفى المقابل يمنح الفرعون ثروة لإبراهيم وعبيدا وإماء وحميرا وجمالا.

لقد كان إبراهيم أحد الرحل المعدمين مثل عائلات "العابيرو" أو العبريين الذين عبروا النهر الكبير، والمتجولين فى كل منطقة الهلال الخصيب - من أور طريق حران حتى مصر. لكن فى هذه القصة بفضل مبادرة إبراهيم ومكره وتعاون سارة معه فى خطة الخداع والحيلة العظيمة، أصبح إبراهيم رئيسا لعشيرة كبيرة وامتلك جيشا يضم مئات العبيد، وقادرا على هزيمة جيوش أربعة ملوك سوريين قاموا بمهاجمة جاره فى كنعان.

ونتيجة لنجاحه فى بلاط ملك مصر وفى ميدان المعركة عند مداخل دمشق حاز إبراهيم على الاحترام والتقدير فى بلاط ملك الشعوب الكنعانية. ملك القدس اليبوسى ملكى صادق كاهن الإله الأعظم، كبير الآلهة الكنعانية، دعا إبراهيم ليضحى على مذبحه، واستطاع إبراهيم أن يحصل على حق المواطنة عن طريق شراء قبر عائلى من الحيثيين فى الخليل.

يعد هذا التحول فى مصير إبراهيم وأسرته نتيجة مباشرة لمبادرة ذلك البطل الأدبى ورغبته وقوته والذى تجاهل مسلمات قدسية الأسرة والزواج واختار أن يغير اتجاه حياته وحياة أسرته من النقيض إلى النقيض.

يعقوب يصارع مصيره وإلهه ويصير إسرائيل

يمثل يعقوب أكثر من أى بطل أدبى آخر فى العهد القديم القدرة على المواجهة مع مصيره ومع إلهه والصراع معهم. وتعد قصة يعقوب هى أعظم قصص الصراع. فهى كما يقول روبرت ألتر تروى من قبل الميلاد وحتى الوفاة بأسلوب نثرى متميز يسرد رواية الآباء والأمهات فى سفر التكوين.

تبدأ قصة حياة يعقوب منذ أن كان جنينا يصارع لكى يولد أولا ويفشل. ويحاول يعقوب أثناء الولادة عرقلة خروج توأمه فيمسك بعقبه، ولذلك أطلق عليه الوالدان المبتهجان "يعقوب".

إن فشل يعقوب فى صراعه وقت ولادته يحدد مصيره فى الأسرة والمجتمع الذى ولد فيه. فلن يكون الابن البكر مطلقا وإنما الابن الثانى غير مكتمل الحقوق مقارنة بأخيه البكر. ويظهر يعقوب فى سياق القصة أمهر وأكفأ وأمكر من أخيه الذى يدعى عيسو، وذلك لأنه كثيف الشعر. وكان عيسو صيادا أحبه والدهما إسحاق العجوز الضرير المغرم بأكل اللحم وخاصة الذى يصطاده له ابنه ، ويطعم اللحم الذى تعده له زوجته. ويقدم الكاتب عيسو على أنه رجل غير حكيم لا يتنبأ بالمستقبل، مندفع وكئيب، من نوع البشر الذين لايجوعون بل يموتون جوعا. وبخاصة عند عودته من رحلة صيد فاشلة متعب وجائع. ويرى أخوه الذى يسكن الخيام والذى يغريه بطبخة العدس التى يعدها لنفسه. ويؤكد الأديب على الشخصية البدائية لعيسو فلا يسأل عن طبيعة الطعام ولكنه فقط يشتاق ويتلهف للأكل "من ذلك الأحمر" مشتاق ومتلهف حتى أنه يستجيب لعرض يعقوب المخزى بأن يبيع له حق البكورة فى مقابل طبخة العدس.

يعلم أدباء نثر العهد القديم كل شئ ويقدمون بيانا ليس فقط عن الأفعال والأقوال العلانية بل أيضا عن الأقوال التى يقولها الإنسان فى داخله. ففى تلك الواقعة يقول الأديب قال عيسو لنفسه :" على أى حال إنه سوف يموت جوعا بما ستفيده البكورة؟ وأقنع نفسه وهكذا يبيع بكورته مقابل طبخة عدس.

ويعد هذا اللقاء بين الأخوين هو أحد الدرر الأدبية المتطورة فى رواية مكونة من أربعة أجزاء تتصدر كل جزء منها شخصيات أب وأم (أو أمهات) من جيل مختلف:

١ - إبراهيم، سارة وهاجر.

٢ - إسحاق ورفقا.

٣ - يعقوب، راحيل وليئه.

٤ - يوسف وإسنات.

أب وأم لآباء أسباط مملكة إسرائيل الشمالية ، يهودا وتامار أجداد ملوك يهودا. لقد حدد محررو رواية الآباء والأمهات ضمن مجموعة العهد القديم لبنى إسرائيل فى بداية تاريخه فى الوقت الذى كان اليهود أسرة واحدة، حتى انقسم فى الجيل الرابع إلى مجموعة

أسباط ، متحدين ومنفصلين عن بعضهم البعض، الأمر الذى تحول إلى سـمة مـن سـمات التعددية الثقافية لليهود.

فى الجزء الثالث من الرواية يركز الأديب على شخـصية يعقـوب المعـروف ، لكـل القراء، بفشله فى الـصراع الأول فى أن يحظـى بـالبكورة، وينتظـر الفرصـة ليحظـى أيـضا بالبركة.

إن بيع البكورة مقابل حساء العدس كـان رمـزا فى ثقافـة قـارئى الأدب ، لكنـه فى إطار القصة ليس إلا محطة أولى فى الطريق الذى ينجح من خلاله يعقـوب فى الـصراع مـع البشر والإله، والتغلب على القوى التى لا ترتبط برغبته،وتـشكل معظـم عنـاصر المـصير الذى يتصارع معه.

لكى يمنح شرعية لشراء البكورة يجب أن يحظى يعقوب أيضا بالبركة التى يمنحهـا الأب لابنه البكر.فى وصية رسمية تقال شفاها فى ذلك العصر الذى لم يكن به كتاب حتـى ذلك الوقت.

يعرض الأديب قصة الخداع والتنكر وسرقة بركـة الأب الـضرير المسن بإيجـاز فى تقرير حول حقائق وأحداث، مميز فى كل كتابتـه، لكـن فى هـذه الحالـة تـسمع، فـيما وراء السطور، نغمة سخرية وحزن، من خلال مهزلة خداع العجـوز الـضرير ليتظـاهر بأنـه لا يميز بين أبنائه ، ومأساة الرجل المستقيم البسيط الذى يظل محروما مـن كـل شـئ بـسبب خيانة أخيه وأبيه.

منذ الصدمة المروعة من جراء تكبيل إسحاق لتقديمه للـذبح عـلى مـذبح فى جبـل الموريا،عندما قرب أبوه السكين إلى عنق الأبن المقيد فوق كوم من الحطب عـلى وشـك أن يشعل بها النار ، عاش إسحاق مصدوما مغلوبا على أمره ، تائها، رجلا لم يتـزوج حيـث لم تواسيه أمه التى ماتت فور علمها بسر التضحية بابنها. وفقط عند بلوغـة الأربعـين عامـا عندما أحضر عبد أبيه العجوز من بلد بعيد ابنة الخالة التى وافقت على الـزواج منـه، فقـد سقطت من فوق الجمل الذى ركبته عند رؤيته، أدخلته إلى خيمة وواسته على أمه وتحولت بذلك إلى الزوجة الشرعية الأولى والوحيدة له.

يبرز الأديب سلبيات إسحاق وكبح جماحه مقارنة بأخيه البكر إسماعيل الذى يدخل فى مشاكل مع المجتمع، أو بابنه يعقوب المفعم بالنشاط والدهاء أو بوالده إبراهيم الذى هاجر من أرضه ووطنه ومن بيت والده بحثا عن الثراء والمستقبل فى بلد بعيد.

لأن إسحاق قليل الحيلة عديم الابتكار فإنه يقلد أباه، بما فى ذلك محاولته فى أن يعير زوجته لملك جرر لصبح ثريا، ولكنه فشل فى ذلك أيضا، حيث إنه لم يكبح جماحه وداعب زوجته التى من المفترض أنها أخته، فاكتشف الملك خدعته.

إن طبيعة شخصية إسحاق كرجل واهن يجعل تقديم المشهد يعد فى شكل مسرحية ساخرة حيث يمنح الأب بركة البكورة لابنه الصغير الذى تنكر مرتديا فرو ماعز، ولا يميز الراعى العجوز بينهما ولا يميز جلد ابنه المشعر عيسو. لكن هذا المشهد أيضا يسقط فى شباك يعقوب، كما سقط عيسو من قبله، حيث إنه يقع تحت تأثير إغراء رائحة الأطعمة التى تعدها له زوجته، ومن الواضح أنه يستطيع أن يستمتع بها بعد أن يوافق على أن يتم خداعه ويمنح البركة كما هو مطلوب منه.

فى المشهد الأخير يعرض إسحاق على أنه مسن وضرير بالإضافة إلى كل الصفات الأخرى التى أنعم عليه بها. وعندما تنكر ابنه يعقوب مرتديا فرو ماعز خشن وافق إسحاق فى نهاية الأمر. إن هذا دليل على أن تلك الأيدى أيد عيسو. ولكن ماذا يمكن أن يفعل والعجوز لا يرى ابنه لكن يسمعه ويعلم أن الصوت هو صوت يعقوب؟

على ما يبدو أن العجوز يخمن بأنه سيسقط مرة أخرى ضحية للخداع (مثلما حدث فى الرحلة إلى جبل الموريا عندما خدعه والده). ولكن إسحاق يتعاون هذه المرة ويعلم أنه حانت اللحظة التى سيأكل فيها من طعام رفقا، بارك يعقوب بالبركة التى تضمن له كحفيد لإبراهيم، كل الأرض الموعودة، وكل الحقوق التى يمكن أن تربطه بهذه الأرض وتضمنها له.

هكذا كانت بركة إسحاق ليعقوب شاملة ومكتملة حتى أنه لم يبق لديه شئ يستطيع أن يبارك به ابنه البكر عيسو الذى يصل متأخرا إلى ساحة المعركة الأخيرة حول البكورة، ويسمع من أبيه أنه عاجز مثله، وتتغير حالة الصورة من ابتسامة ساخرة إلى حزن ومأساة.

عيسو هو ضحية مصيره ؛ وطبيعته ، وشخـصيته وعـدم الحكمـه وعـدم الـدهاء، والأب الذى لم يكن عونا له. أراد عيسو قتل أخيه ـ الخيار الوحيد الـذى تبقـى لـه هـو أن يعيد لنفسه حقوقه الشرعية – ولكنه فشل فى هذا أيضا. فقـد سـبقه أخـوه بـالهروب مـن أمامه لأنه سمع وتكهن بالخطة التى دبرها أخوه لقتله والانتقام منه. لا يحاكم أديب سـفر التكوين أبطاله بل يكتفى فقط بوصف الحقائق، ويقوم أبطال الأدب الآخرون بنقد أفعال نظرائهم.

فالنبى هوشع مثل عيسو يتحدث هو أيضا عن إدانة يعقوب، لكن يعقوب الهـارب من أخيه يفتقد كل شيء لكنه صاحب البركة والبكورة الشرعى ويفكر فى مستقبله فقـط. عندما هرب كانت عصاه فقط التى بيده ، لكنه حلـم أحلامـا عظيمـة منـذ الليلـة الأولى؛ فالمكان الذى نام فيه بدا له وكأنه بيت للإله، ومنذ ذلك الحين وهو يسمى بيت إيل "بيـت الإله".وبدا ليعقوب النائم المرقد الحجرى الخاوى الذى يتوسط المكان وكأنه قاعدة لسلم يؤدى إلى السماء وإلى الإله الذى يؤمن به حتى فى يقظته. وحينئـذ يـضع شروطـا للعلاقـة بينهما: إذا ما وفقه الإله فى طريقه ونفذ كـل الـشروط التـى اشـترطها عليـه يعقـوب. وفى مقدمة تلك الشروط ضمان عودته إلى الأرض الموعـودة، ويوافـق يعقـوب أيـضا عـلى أن يعمل من أجل إلهه، ويقيم له مذبحا مثـل الـذى أقامـه بعـد ذلـك يربعـام فى بيـت إيـل ، والمعروف لجميع قراء القصة و من سمعوها والتى حدثت فى عصر العهد القديم.

يلازم تعاطف الأديب لبطله الذى وعد كـل شـيء ويفتقـد كـل شـيء مـن بدايـة الإصحاح الثانى وبالتحديد من هذا الجزء فى الرواية التى تنسب ليعقوب. فالكاتب يخلق توترا وتوقعا عن طريق التناقض بين حالة فقدان الأمل كما فى الواقع وبين الأمل والوعـد الذى منح ليعقوب فى المستقبل.

يعقوب الذى يعرض فى البداية على أنه مرتكب لآثام خطيرة، مثل كل أبطال إبـداعات الآداب العظيمة فى العالم القديم، يتغير الآن بشكل مفاجيء أثناء قصة صراعاتـه مـع مـصيره، والتى تؤدى به إلى الصراع النهائى مـع إلهـه. ويظهـر التغـير المفـاجيء فى شخـصية يعقـوب، الأنانى الذى يركز حتى الآن فقط فى تطلعة ليكون البكر، فى حبه العظيم لابنـة خالـه راحيـل. وبما أن حبه كان عظيما نذر نذرا بأن يعمل سبع سنوات مجانا ليحظى بـالزواج منهـا. ويفاجئنـا

الكاتب مرة أخرى فى ليلة العرس يسقط يعقوب فى المصيدة التى أعدها الأب والأخوات؛ ففى ظلمة الليل يصير يعقوب زوجا لليئة دون أن يلحظ مطلقا أنه لم يضجع مع محبوبته راحيل، حيث تم تبديل النساء فى فراشه، ولم يلحظ أثناء غريزته الجنسية ذلك.

يزعم الكاتب بأن هذا الحدث لم يؤثر مطلقا على حب يعقوب لراحيل. فيستمر فى حبه العظيم لها وينذر بأن يعمل سبع سنوات أخرى مجانا لكى تكون هى أيضا زوجة له.

يتم التعبير عن التحول عند يعقوب فى الأسلوب الذى يحقق به أهدافه. فهو يُخدع ولا يخدع، ويعمل بإخلاص على مدار أكثر من عشرين عاما ولا يسرق شيئا من أحد، وهو يثرى من يقوم بتشغيله ويثرى نفسه باستقامة وبفضل حرفته النادرة حيث يكتشف أساليب تكاثر لأنواع الغنم. صار يعقوب من لاجىء معدم لرب أسرة وقبيلة ثرية الممتلكات؛ لديه الكثير من النساء والأولاد وامتلك الكثير من العبيد والإماء، ويستطيع أخيرا الخروج إلى الأرض الموعودة بعد أن حقق كل الوعود الأخرى بقدرته الذاتية.

هناك من العلماء من فكر ووجد (انظر "عالم العهد القديم" قصة يعقوب فى آرام) تفسيرا دقيقا لصحة قصة محاولات يعقوب تنظيم ولادة الضأن ونجاحه، كما أراد الكاتب تعظيم تفسير الحبكة فى هذا القصة والتى معظمها واقعية؛ بمعني وصف ما كان يمكن أن يحدث فى الواقع وليس بالضبط ما قد حدث.

يصل صراع يعقوب من أجل مصيره فى هذه المرحلة إلى الذروة. حيث يرغب الرجل ، الذى كان قائدا وزعيما ثريا، الآن فى تحقيق الوعد الإلهى الذى منح لجده وأبيه وورثه هو عندما اشترى البكورة وسرقها.

يقف يعقوب بمفرده على مشارف الأرض الموعوده بعد أن نقل كل أفراد عائلته إلى الضفة الغربية عبر معبر اليبوك، وبعد أن ودع لبان خاله وحماه بعد أن عقد معه اتفاقية سلام وفصل نهائى بين المملكتين والشعبين، وذلك بعد أن اقتنع لبان بأن يعقوب لم يسرق منه آلهة المنزل. (فلم يفكرا فى أن راحيل سرقتهم وجلست فوقهم أثناء التفتيش الذى قام به لبان فى خيام أسرة يعقوب بحثا عن الأصنام آلهته، وامتنعت راحيل عن القيام من فوق رحل الجمل والتى أخفت فيها آلهتها بزعم أنها فى فترة الحيض).

لقد اتضح ليعقوب بعد كل تلك المغامرات أن طريقه إلى الأرض الموعـودة مغلـق. حيث اعترضه شخص مجهول الاسم، هيئته تشبه الإله، مثل كل البشر. (ربما لأنـه يـشبه كل البشر فمن الصعب حتى على المؤمنين به أن يعرفوا أنه الإله. حيـث إن مـا يميـز الإلـه عن باقى الملوك، كما تقول الأسطورة، أن كل الملوك يصكون صورتهم على عملاتهم فتشبه العملات بعضها البعض، ولكن ملك الملوك يطبع صورته عـلى كـل الأشـخاص دون أن يشبه شخص آخر).

يوطد الكاتب الإحساس بالواقعية فى قصته بإشارته إلى المكان المعـروف للجميـع، والذى حدث فيه اللقاء المصيرى بين يعقوب وإلهه. فى البداية لم يعـرف يعقـوب مـع مـن يتصارع فى معـبر اليبـوك، حيـث اعترضـه هنـاك ذلـك المجهـول أثنـاء دخولـه الأرض الموعودة، وكان يطلق على هذا المكان حتى وقت تأليف هذه القصة "فنيئيل".

يقول الكاتب لقد دار فى فنيئيل، بجوار معبر اليبوك، طيلة تلك الليلة صراعا قويـا بين يعقوب المعروف لنا والشخص الغامض.

ولقد أصيب يعقوب فى الصراع البدنى الذى تطور فى فخذه، عـرق النـسا، ولكـن عناده وقوته جعلاه يتغلب على خصمه الذى ظـل بـين قبـضته حتـى عنـدما أراد الرجـل الانسحاب من المكان، بسبب بزوغ الفجر. فرفض يعقوب وقال له بأنه لـن يتركـه يفلـت من قبضته حتى يكشف ذلك الغامض عن هويته.

فكشف الإله عن هويته رغما عنه أمام يعقوب مقرا بأنه من الآن عليه تغيير اسـمه. فلن يدعى بطلنا يعقوب، أى العقب لمحاولته تعقب أخاه، بل مـن الآن سـيدعى يعقـوب "إسرائيل" لأنه نجح فى التصارع مع البشر والإله أيضا والتغلب عليهم.

أطلق يعقوب ، المكنى مـن الآن إسرائيـل، سراح الإلـه، وحـسب كلامـه فقـد رآه وجها لوجه. ولذلك أطلق يعقوب على هذا المكان " فنيئيل "؛ وجه الإله كما رآه إسرائيل. واستمر كل المصدقون لهذه القصة فى إطلاق كلمة " فنيئيل " على هذا المكان، وهـو مدينـة معروفة للقراء وتقع فى شرق الأردن. واستطاع يعقوب أن يعبر، ولكن أثـر الـصراع ظهـر عليه فحسب كلام الكاتب : إنه صار أعرج.

تتجسد فى هذه القصة المتميزة التى يتغلب فيهـا الإنـسان عـلى الإلـه عقيـدة أدبـاء ومحررى العهد القديم فى قدرة البشر على التصارع مع إلهه ومع مصيره والتغلـب علـيهما. واعتبر قراء كثيرون أن هذه القصة مصدر لمغزى اسـم شـعب إسرائيـل، والـذى يواصـل الصراع، مثل أبيه الأسطورى، صراع بلا أمل فجأة تحول إلى أسلوب للحياة. بيـنما ارتعـد قراء آخرون من حدة المضمون والتصريحات المؤولة فى النص الأصلى للقصة والتى بدأت تكدس عليه مجموعة تفاسير شـوهته حتـى صـار مطموسـا. أمـا الرسـامون الكاثوليـك والمفسرون المتدينون فقد هاجموا هذه القصة فى تفاسيرهم. وأبعدوا منها الإله، وذلك عـلى النقيض من شهادة يعقوب، الشاهد الوحيد الموجود ،فى نظرهم، فى المكان وقت الحـدث. وعوضا عن الرب الذى تصارع معه يعقوب حسب كلامه، فقد اخـترع المفـسرون ملاكـا ذو أجنحة، من نوع الملائكة التى اخترعتها اليهودية والمسيحية فى آدابهما عقب إتمام العهـد القديم. لقد كان تأثير التفسير الدينى على قراء العهـد القـديم قويـا حتـى أن كثـيرًا مـنهم يذكرون صراحة أن قصة بالعهد القديم تدور حول "يعقـوب والمـلاك" رغـم حقيقـة أن النص العبرى الذى فى متناول أيدينا لا يذكر ذلك.

لا تعد قصة الـصراع وجهـا لوجـه بـين يعقـوب والإلـه ذروة قـصة الـصراع بـين الإنسان ومصيره، بل إنها أيضا تسلط الضوء عـلى مفهـوم "الإلـه" كـما هـو موجـود بـين الجانب المادى والمعنوى. و"الإله" فى نظر أدباء سفر التكوين هو كيان محدد ومنفصل عـن أى كيان آخر فى العالم. إلا أن القصص عن الإلـه وعلاقاتـه بالبـشر تمـنح مغـزى جديـدًا لصراع الإنسان مع مصيره ، الصراع الذى يدور أحيانا بين الإنـسان وذاتـه ، كـما فى قـصة كافكا الأولى "قصة صراع"، والتى كتبت بوحى من قصة صراع يعقوب ، فيها يخرج رجل ليلا ويصارع من يعترضه حتى بزوغ الفجر، حتى يتضح له أنه لم يكن رجلا غـيره. ولقـد أطلق المخرج والكاتب الفرنسى كريس ماركر على فيلمه الوثـائقى حـول دولـة إسرائيـل "قصة صراع" وذلك على اسم قصة كافكا، أو على اسم مصدر إلهامها.

يدرك أديب العهد القديم أنه فى الواقع الذى ألفه بالكلمات يتحدث فيه عن حقائق وأحداث قد وقعت وليس فقط عن أفكار. ولكى يعيـدنا إلى أرض الواقـع فهـو يعلـق فى نهاية القصة المثيرة حول الإله والإنسان عن أن يعقوب قد عبر نهر الأردن ودخـل الأرض

الموعودة وهو يعرج على قدمه. هو ونحن فقط نعلم سبب عرجـه، والـذى يمـنح لخيالنـا تخيل هذه الشخصية البشرية، ذات لحم ودم ، والتى يشكلها الإبداع.

يتهم الإله فى سفر يونا بأنه إله رحيم وعطوف ومحسن

يسلط الضوء فى القصص السريالية الموجودة فى العهد القديم كـذلك ، مثـل قـصة يونا وقصة أيوب، على الصراع بين الإنسان والإله والذى وفقا لرأى أبطـال القـصة لـيس هناك مبرر أخلاقى لأفعاله.

صار الإنسان فى تلـك الإبـداعات مـدركا لعجـزه أمـام قـوى الكـون ومـسارات التاريخ والطبيعة وينسبهم جميعا للإله.

يحرص الأديب فى قصتى يونا وأيوب على تشكيل أبطاله الأدبيين وشخصياتهم من خلال سلوكهم والحوار والذى يعرض موقفهم واعتقـاداتهم بـشأن مـا هـو واجـب مـن الناحية الأخلاقية .

فى البداية لم يدرك القارئ لماذا حاول يونا النبى الهروب من أمر الإله، الذى يطلـب منه أن يصير نبيا على نينوى. يعلم القـارىء أن نينـوى هـى عاصـمة الـشر التـى احتلـت وقتلت وشردت الجموع من بلدانهم إلى بلدان أخرى. ومما لا شك فيه، وكـما يتـضح مـن القصة فيما بعد أن نينوى تستحق الدمار، مثل عواصم الشر الأخرى والتـى تنبـأ عـاموس بدمارها. إلا أن سفر يونا ليس سفر تنبوؤات ولكنه قصة قصيرة حول نبـى لا يـصدق أن نبؤته ستتحقق. وعلى ذلك اعتقد بأنه لا ينبغى الاعتماد على إلهه، ذلك الإلـه رقيـق القلـب والعطوف والرحيم والمحسن.

ينضم ذلك الإبداع المكتوب فى شكل القصة القصيرة إلى كتب "أسفار" فن البلاغة فى العهد القديم ، وذلك حسب تعبير تهكمى من المحـررين الـذين يـشككون فى مقـدرة النبوءة على توقع ما سيحدث فى المستقبل.

"سفر يونا" ذلك الإبداع الذى يعد نموذجا لفـن القـصة القـصيرة، والـذى يمثـل نموجا أمثلا لقصة متعددة التقلبات والمفاجآت، والتى تؤدى إلى نقطة أيديولوجية مفاجئة

للمواجهة بين الموقف الإنسانى للإله والموقف المتعصب للمؤمنين الذين يؤمنون بأن الحق يعلو ولا يعلى عليه.

تبدأ قصة يونا بوصف واقعى تقريبا، وفيها يسمع النبى أمر مهمته من فم إلهه على غرار أوامر كثيرة أخرى حملت مهام لخمسة عشر نبيا آخرين فى الأسفار المقدسة.

لم يكن رد فعل بطل القصة مشابها لرد فعل أى من الأنبياء الآخرين. حيث يحاول يونا الهرب من المهمة ومن إلهه، ويسرع بالنزول من مكان تواجده فى الجبال نحو ميناء يافا الكبير، ليبحر هاربا من إلهه إلى الجانب الآخر من العالم.

يدمج الأديب أحداث صغيرة تمنح القصة بعدا واقعيا حقيقيا. يسرع يونا لدفع أجرة الإبحار للربان، وأثناء الإبحار يغط فى سبات عميق كمن يهرب من اليقظة أيضا.

يعترف يونا فى نهاية القصة فقط بأنه حاول الهرب من الإله حيث إنه لم يصدقه ولم يصدق أنه ممكن أن يتنبأ باسمه. لم يكن لدينا فى هذه المرحلة الأولى من القصة تفسيرا للتصرف الغريب والذى فاجأ أيضا الملاحين الذين يصارعون الأمواج العاتية التى أرسلها عليهم الإله، فيصلى كل واحد منهم لإلهه على أمل أن ينقذ السفينة التى على وشك التحطم. ويونا فقط الذى يواصل النوم فى أطراف السفينة حتى أيقظه الربان متعجبا :لماذا أنت نائم؟ قم وادع إلهك.

وعندما استيقظ يونا وألقى الملاحون السهام يتضح أن يونا هو سبب الخطر. فيسأله الملاحون عن حرفته وأصله حتى اعترف يونا بأنه هو الآثم؛ فهو عبرى وأن الإله الذى يهرب منه هو الذى خلق اليم واليابسة، ولذلك فلا احتمال للنجاة إلا بإلقائه فى اليم.

يعد هذا هو اللقاء الأول بين يونا وأناس بسطاء جهلاء. وحتى عندما اضطر أن يكشف لهم عن إثمه وأن غرقه فقط هو الذى سينقذهم من الموت استمروا فى الإبحار على أمل التغلب على العاصفة. فقط عندما تلاشى الأمل وزادت العاصفة أخذوا يصلون للإله ليغفر لهم العمل الذى كانوا على وشك القيام به ويفعلونه.

عند هذه النقطة من القصة فقط تتوقف القصة عن الوضوح وتأخذ طابعها الخيالى وربما بسبب هذا ترسخت فى الذاكرة الثقافية لشعوب الغرب.

إن الإله لا يهتم بموت يونا بل بامتثاله، لذلك يسخر حوتا كبيرا وأمره بابتلاع يونا، لكن يونا يصمت بجلد ثلاثة أيام كاملة وهو محبوس فى أمعاء الحوت حتى لم يستطع التحمل ففغر فاه بصلاة تضرع لإنقاذه ، ولا شأن لهذه الصلاة بالخلاف بينه وبين الإله، ولكن صيغتها تماثل تضرعات شعرية موجودة فى سفر المزامير.

يلفظ الحوت يونا لليابسة فكرر الإله أمره له بالتنبأ على نينوى، ويعلم يونا أنه لا خيار له فذهب إلى نينوى كما أمر.

يعود الكاتب ويذكرنا بأبعاد هذه المدينة الكبيرة، فهى مسيرة ثلاثة أيام من أولها حتى آخرها. ويصل يونا بعد سير يوم واحد إلى داخل المدينة حيث المكان الذى سيبدأ نبوته ، وكأنه ملزم بواجب فرض عليه رغم أنفه.

بدلا من خطاب نبوءة شعرى ثرى بالاستعارات على غرار النبوءات المعروفة من أقوال الأنبياء الآخرين يقدم الكاتب هنا على لسان بطله صورة هزلية لنبوءة بالخراب، بأسلوب لغة البرقية من خمس كلمات" بعد أربعين يوما ستنقلب نينوى" . وكل من يعرف قصة انقلاب سدوم وعمورا يدرك جسامة الكلام الذى قيل بها رغم الاقتضاب والإيجاز والمغالاة.

يعلن الملك صوما عاما لكل سكان المدينة وبهائمها ويرتدى الجميع مسوحا معلنين ندمهم على الظلم الذى ظلموه لجيرانهم وعلى كل الشر الذى ارتكبوه على أمل النجاة من الخطر.

وكانت استجابة الإله فورية ؛ فقد تراجع عن قوله وأوقف الكارثة التى أراد أن ينزلها على نينوى. وعاشت عاصمة الشر ، مثل من سبقوها ومن سيلحقون بها ، لتمحو الشر بالندم والصلاة.

يقول الكاتب شخص واحد فقط لم يستطع أن يسامح على المغفرة. جلس أربعين يوما شرق المدينة وانتظر بفارغ الصبر وعدم إيمان وقوع الكارثة والتى لم تحدث. عندما اتضح له أن نبؤته كانت باطلة استشاط غضبا. معترضا على إلهه متهمه بأنه إله عطوف ورحيم واسع الصدر ذو منة وغافر للذنوب. ولذلك حاول يونا الهرب إلى ترشيش كما

يقول لإلهه. ثم يقر بأن موته أفضل من حياته، ويواصل الإله فى إثارته بسؤاله: هل أفـادك الغضب؟

يعد سفر يونا الإبداع الأدبى الوحيد فى العهـد القـديم الـذى يـبرز قـضية المغفـرة والرحمة. وهل حقا يستحق العصاة المغفرة إذا ما أنابوا وأظهروا علامات ندم وحزن عـلى الشر الذى ارتكبوه؟ أحقا؟ يسأل الإبداع، هل يوجد تبرير للعفو الـذى يهبـه إلـه رحـيم وعطوف وواسع الصدر وغافر المعصية حتى وإن كان الأمر يتعلـق بنينـوى ومثيلاتهـا؟. هل كان يونا محقا بأنه ليس هناك احتمال بأن تتحقق نبوؤات الخراب والعقاب التى لها مـا يبررها طالما أن الإله ليس إله صدق وعدل بل إله رحمة وإحسان؟

يحـاول الأديـب الإجابـة فى نهايـة عملـه الإبـداعى عـلى ذلـك، عنـدما يعـود إلى الأسلوب الواقعى الذى استهل به، وهذه المرة فى قصة حول شجرة اليقطين التى نمـت فى الصحراء التى استقر بها يونا وانتظر نتيجـة نبوؤتـه فى شـمس صـحراء العـراق الحارقـة. برغم من أن أوراق شجرة اليقطين أنقذت يونا من حرارة الشمس، إلا أن الإله أرسـل لـه دودة فتفانت وتلاشت شجرة اليقطين وتعرض يونا للدفء مجددا.

يلاحظ من الوهلة الأولى أنه لا علاقة بين القصة وذلك الحدث العـارض، والـذى اجتهد الأديب فى إيجاز كل تفاصيله. فهو يدمجه ويحوله إلى استهلال للفكرة الرئيسية له.

عندما يفقد يونا وعيه من شدة الحرارة بسبب زبول اليقطين، والذى سعد بإنقاذه، يكرر الإله استفزازه له ويسأله: هل حقـا اشـتاط غـضبك عـلى زبـول شـجرة اليقطـين؟ ويندفع يونا غاضبا قائلا: اشتطت غضبا حتى الموت. وفى تلك الإجابـة يعـرض الأديـب نظريته فى سياق واحد، وذلك عندما يضع على لسان الرب نهاية القصة بتلـك الأقـوال: " أنت عولت على شجرة اليقطين والتى لم تكد فى عملها أو تربيتها، والتى ظهرت وتلاشت بين عشية وضحاها، أفلا أشفق على نينوى المدينة الكبيرة التى تضم أكثـر مائـة وعـشرين ألف شخص، جهلاء، وبهائم كثيرة؟

وهذا الموقف تبناه كاتب قصة إبراهيم فى النقاش مع الإله حول أخلاقيات العقوبة الجماعية، فيتخذه الآن كاتب قصة يونا على لسان بطله الإلهى. وينهـى بـسؤال يحـول مـن

خلاله تعاطف القارىء مـن يونـا إلى الإلـه. وكـان قبـل هـذا الموقـف تعـاطف الأديـب والقارىء تجاه يونا بطل القصة الرئيسى والنبى المحبط المتطلع لتحقيق نبـوءة إلهيـه عادلـة وهى عقاب الآثمين.

فى نهاية القصة تتحول الأمور رأسا على عقب من خلال عرض الموقف الأخلاقـى للإله، هذه المرة على لسان الإله، والذى بناء عليه لا يجب عقاب شـعب معظمـه جهـلاء، حتى وإن كان زعمائه آثمين كنينوى.

ينضم سفر يونا لمجموعة الإبداعات الأدبية التى تحمـل رسـالة مثاليـة وأخلاقيـة والتى تشكل فسيفساء الفكر الإسرائيلى فى عـصر العهـد القـديم .وتتنـاقض الكثـير مـن الأفكار والمواقف المطروحة فى تلك الإبداعات مع بعضها البعض تناقضا صارخا، وذلك مثل وجهة نظر أديب سفر يونا المناقضة تماما لآراء معظم أنبيـاء العهـد القـديم والـذين لم يترددوا فى التأكيد على : الخراب ، والنفى والقتل الجماعى لشعوب كاملة وذلـك فى إطـار حديثهم عن مدن الشر الإسرائيلية وغيرها.

ومثلما اختارت إبداعات معاصرة برلين زمرا عاصمة للـشر ، كـان اختيـار نينـوى بشكل مقصود. فجرائم نينوى ضد الإنسانية معروفة فى العالم، وهـى مدونـة حتـى اليـوم ومعروضة فى النقوش الحجرية القديمة والتى أبدعها فنانون أشوريون. والتى تظهر فيهـا مواكب نصر جنود نينوى وهم يحملون على أسنة رماحهم رؤوس المنهزمين.

يحـول الأديـب الأحـداث التاريخيـة إلى خلفيـة للقـصة التراجيديـة الشخـصية والروحانية لأشخاص مثل يونا الذين ينخدعون بمعلومة أن الإله لا يعاقب الآثمين عـلى جرائمهم ضد الإنسانية.

ترسخ الفكرة المحورية لقصة يونا الأفكار المثاليـة الكثيرة فى فكـر العهـد القـديم المتسم بالتعددية؛ حيث التحول من اتهام الرب بأنه يقيم أحكامه بلا محاكمة إلى إلـه مـتهم بأنه عطوف ورحيم ومحسن وغافر الذنب.

يسال أيوب عن المذنب فى نكبته

تعد دراما أيوب إحدى قمم الشعر الدينى فى أدب العهد القديم والتى تقدم علامة استفهام حول مبادىء الإيمان بالإله العادل وتدخله فى حيـاة البـشر. يعمـل كتـاب سـفر أيوب على مواجهة ضحية البلية مع الإله ومع كل الذين يؤمنـون بـأن الـبلاء هـو عقـاب حتمى على الخطأ حتى وإن كان المخطىء لا يعرف خطأه.

يعد سفر أيوب تأليفًا جماعيًا لمجموعة مؤلفين ومحرر مسئول عن جمع المصادر وإعادة كتابة النصوص التى ألف منها سفر أيوب كما هو معروف لنا منذ ألفى عام. ويعرض مـن جمع سفر أيوب علينا إبداعا متكاملا ممكن أن نبحث فى مـصادره المنفـصلة ولكـن صـدق روبرت ألتر فى قوله ، الذى أعلنه باسم إدموند لينتس " بشأن محاولة قراءة مصادر بدلا من إبداعات العهد القديم.:" لا يمكن فصل الفرع عن الأصل الذى نشأ منه ".

تظهر وحدة العمل "سفر أيوب" كما هو موجود اليوم فى العهـد القـديم فى الـدور الذى يؤديه كل جزء منه فى خلق مغرى لإبداع متكامل.

يتم توظيف الافتتاحية الملحمية والحـوار الـدرامى، بـين أيـوب ورفاقـه، والخاتمـة المكونة من خطابين للإله، والنهاية الملحمية المختصرة التـى مـن شـأنها أن تتـضمن نهايـة جيدة لهذا الإبداع التراجيدى فى خلق مغزى وتميز لسفر أيـوب. وحتـى إذا مـا بـدا سـفر أيوب "اكتمال معيب" ،كما نظر إليه يائير هـوفمان فى كتابـه الرائـع حـول الـرؤىء الأدبيـة الفنية الفكرية والأخلاقية لهذا الإبداع، فيجب قراءته على أنـه إبـداع متكامـل، وعـلى أنـه أحد الإبداعات الكلاسيكية فى الأدب العالمى سواء من ناحية ثباته على مر الأجيال أو من ناحية تأثيره وكونه مصدر إلهام لكثير من الإبداعات الشعرية والفكرية على مر العصور.

يجعل مؤلف سفر أيوب القارىء يعرف من البداية أن أيوب محـق ورفاقـه مخطئـون فى ادعائهم بأن الآثم فقط هو الذى يستطيع توضـيح حجـم البليـة التـى تـصيب عائلتـه وأولاده. حيث إن إخلاص رفقاء أيوب وتمسكهم بإيمانهم الذى لا أساس له من الـصحة يحول الصدام العقلانى بينهم وبين أيوب إلى تعبير عن صراع درامى شخصى.

يحل البلاء مـن خـلال أشـخاص يهـاجمون آخـرين أو عـن طريـق قـوى الطبيعـة

كالزلزال الذى أباد سدوم وعمورا وكل من يعيش بها. وفى سفر أيوب يأتى المؤلف بكلا العنصرين للبلاء الموصوف فيه:حيث هجوم جيوش سبأ والكلدانيين ونشوب النار والرياح العاصفة التى تدمر البيت على أولاد أيوب وتقتلهم.

ينسب المؤمنون كلا السببين للإله. ولذلك فعليهم تبرير أفعاله باتهام البشر بالخطايا التى جعلته يفعل ما قد فعل، أو أن يتهموا الإله بالخبث الشيطانى كما فعل مؤلف أيوب فى استهلال إبداعه.

نخبر فى الافتتاحية أن البلاء الذى يحل بإسرة أيوب وأولاده هى نتيجة مكيدة دبرها الإله مع الشيطان. فأطلق الإله العنان للشيطان ليعامل أيوب وأسرته بقسوة بسبب إيمانه العظيم وليس بسبب إثمه. وفى وقت الاحتفال الذى يلتقى فيه من حين لآخر، أبناء الإله يراهن الشيطان الإله بأن إيمان أيوب لن يصمد إذا ما أختبر بالبلاء الذى سيضعه فيه.

من الناحية الإيمانية لرفاق أيوب الجهلاء فإن الإله لا يمكن أن يخطىء، ولذلك فالخطأ دائما يلقى على عاتق البشر، حتى وإن كانوا هم ضحايا البلاء وإن لم يخطئوا، حتى وإن كانوا رضع لا يستطعون الخطأ.

عندما حلت الكارثة بأملاك أيوب وأسرته وحلت الحمى بجسده حتى اضطر للتمرغ فى التراب، تنصحه زوجته بسب الإله والأيام. لكن أيوب لم يسب فهو يؤمن بالإله ويريد معرفة سبب، لماذا فعل به هذا الظلم .إنه يطالب بمحاكمة عادلة ضد الإله غير العادل بصورة فعلية. وهو غير مستعد لتقبل مزاعم رفاقه المتدينين الذين يجدون الإله عادلا دون معرفة الحقيقة، ويطلب لقاء مع الإله الذى يحاول أن يجعل نفسه عادلا أمامه.

استهل الجزء الشعرى للسفر بقصيدة لعنات مزعزعة موجهة ليوم ولادته فيلعن أيوب يوم مولده. تلعن القصيدة الحياة وتفضل عليها عدم الوجود. ولكنها لا تشمل اتهاما أو سبابا موجها للإله الذى سبب له كل هذا، حيث إن أيوب لا يعلم الحقائق المعروفة لنا. وعندما يقبل رفاقه لزيارته فى مرضه يحاولون إقناعه بأن الخاطىء فقط يستطيع تبرير البلاء الذى حل به، لكنهم لا يعلمون أيضا أن الإله آثم لأنه انصاع لإغواء الشيطان وسمح له بالقتل والألم والمرض.

يعرف أيوب أن رفاقه مخطئون لأن الذنب ليس ذنبه، ولكنه لا يعلم على من يلقـى هذا الذنب.

وفى مقابل كارثة أيوب وأنشودة شوقه للموت الذى هو أفـضل مـن تلـك الحيـاة، نجد ادعاء رفاقه السخيف والمتناقض مع كل مـا هـو معـروف للبـشر الـذين يتظـاهرون بالحكمة فى واقع الحال دون حكم مسبق .

يعرض من الكلمات الأولى اليفاز هتيماني ، المتحدث الأول من بين رفقـاء أيـوب، الادعاء الأساسى المتكرر فى صيغ شعرية مختلفة لترسيخ الموقف الدينى التقليـدى وهـو : لا يوجد فى العالم بشر يهلكون بدون ارتكاب خطايا، وكل منكوب فهـو مـستحق للنكبـة بسبب آثام بشرية وليست إلهية. لأنه ببساطة غير محتمل أن يكـون البـشر أكثـر عـدلا مـن الإله.

يعلم أيوب مثل القارىء أن ذلك الكلام ليس صحيحا. يـدين الأديـب ادعـاءات المتدينين الباطلة. والذين يبررون البلاء ويفسروه سواء من خلال أسلوب عـرض أقـوال رفقاء أيوب أو من خلال ألقاب غير صحيحة عن طريق يهوه فى نهاية الإبداع.

يعرض أيوب البطل الرئيسى فى هـذا الإبـداع عـلى أنـه رجـل متـدين مـن ناحيـة عقائدية (فى مقابل متدينين من ناحية الحفاظ على وصايا الشريعة). فهو يؤمن إيمانا كـاملا بإلهه، وبوجوده وبعدله أيضا حتى الآن. وخاصة أنه لايستطيع الاتفاق مع رفاقه ويطلـب فهم مبررات البلاء الذى حل عليه. فهو لا يستطيع التـسليم بعقيـدة أن الإلـه لا يـستطيع الخطىء.

ينسب أيوب كرجل متدين أيضا للإله كل المصائب التـى تحـل بالبـشر سـواء عـن طريق البشر أو الطبيعة. وعلى ذلك فهو بطلب من الإله أن يظهر ويبرر تلك الأفعال، فهو المسئول الوحيد عنها. وواضح لأيوب إذا ما وافق الإله ليمثل للمحاكمة أمامـه فـسوف يبطل ادعاء إليفاز ورفاقه لأنه غير محتمل أن يكون البشر أعدل من الإله.

يؤدى البناء المعقد للإبداع " أيوب" بالقارىء إلى معرفة أنه لا يوجـد للإلـه سـبب مقنع لتبرير أفعاله ، لأن الإله ، أو عوامل الطبيعة والتـاريخ المنـسوبة إليـه، يجلبـون الـشر

أحيانا. يدرك مبدعون آخرون فى العهد القديم أيضا ، مثل مبدعى سفر الجامعة وإرميا، ومبدعون مخلصون، مثل مبدع سفر أيوب الحقيقة أكثر من الإيمان بالعدل المطلق للإله ، فيعلمون أنه فى أحيان كثيرة يوجد صديق وشرير وهناك أشرار يحظون بكل ما تشتهى أنفسهم.

يحول الأديب المواجهة الفكرية بين أيوب ورفاقه إلى مواجهة شخصية ودرامية بين أناس يتخذون مواقف متناقضة لايمكن الربط بينهم. ويؤمن جميعهم بوجود الإله فى العالم.

يرفض أيوب الذى يواصل الإيمان بإلهه رغم أنه ضحية للكارثة،التى لا مبرر لها، سب الإله، ويرفض أيضا أن يجد له مبررا، وهو عكس رفاقه والحاخامات لوفافيطتش أو ليوئيل ماستمر.

يطرح الكاتب من خلال الحوار بين أيوب ورفاقه السؤال الذى يزعزع إيمان مؤمنين كثيرين فى عصرنا: كيف يمكن أن يكون الإله عادلا فى عالم يقوم فيه البشر بالقهر والمذابح الجماعية لبشر بسبب أصلهم القومى أو الطبقى أو العرقى أو بسبب آرائهم أو ديانتهم أو حالتهم الصحية؟

يقوم البطل الأدبى الإله ،الذى ظهر فى مستهل الإبداع، بالتدخل فى هذا الحوار فى الجزء الأخير منه فقط. وتفند أقواله، مثل الإطار الأدبى للعمل كله، كلام الرفاق المؤمنين بعدل الإله المطلق وبأسلوب الثواب والعقاب الذى يدير العالم به، جعلته يمتثل أمام محاكمة وتشكك فى عدله.

يتهم الإله فى ختام سفر أيوب الرفاق بأنهم مخطئون ويلقون اتهامات باطلة ويجب التكفير عنها ومصالحة أيوب.

يوضح الكاتب من خلال خطب يهوه أنه حسب رأيه فإن الإله ليس مسؤلا عن عناء البشر ولا ينبغى النظر إليه على أنه يعاقب على الخطأ، حيث إن الإله موجود فقط فى مصطلحات خلق الكون وألغازه حيث لا يستطيع البشر تفسير ذلك. (وهى رؤية تذكر باعتقاد أينشطين بسر ما هو موجود فيما وراء العلم ـ لغز القوانين المسيطرة على الكون).

يظهر يهوه فى الخاتمة كأنه يستجيب لطلب أيوب ليسمع أقواله. ويمثل خطابيه جمل إسفهامية مجازيه ليس فيهما تفسير للبلاء، الذى سببه الإله، وفقـا للقـصة، بموافقتـه عـلى خطة الشيطان.

يتيح استخدام الأديب صور البلاغـة المتميـزة فى خطـاب شـعرى تـساؤلى لبطلـه الإلهى عرض الخلاف الذى بين أيوب ورفاقه على أنه خلاف غير موضوعى لفهم الطبيعة الإلهية ودورها فى العالم.

بدلا من الإيمان بإله شخصى ، يعاقب ويثيب، يعرض هنـا إيـمان بإلـه يماثـل إيـمان بعقيدة فولتير التوحيدية: الإله هو كيان خالق للعـالم ومـا يحتويـه، ولا علاقـة لـه بالبـشر وأفعالهم أو الألم والعناء الذى يعانون فى حياتهم. وتوضح الأسئلة التى يطرحها الإله على أيوب فى خطابه الأول أن الإنسان لا يستطيع فهم أفعال الإله التى تتعلق بمسارات الخلق وتأسيس نظم فيزيائية وبيولوجية والتى لا شأن لها بالخطأ والعقاب أو الألم والسعادة .

يضيف الكاتب فى الخطاب الثانى وصف إيمانه بإلهه عـلى أنـه شخـصية أسـطورية رمزية تدخل فى مواجهة مع مخلوقات مرعبة مثل بهائم وحوت والتى تذكرنا بمخلوقـات مشابهة للأساطير الخاصة لبلاد النهرين. ويعرض الإله فى هذا الخطاب أيضا على أنه بعيـد عن عالم البشر وحياتهم. ومن هنا يتضح أنه من المنافى للعقل أن ينسب للإله أيـة مـسئولية عن معاناة البشر.

تفهم تلك الاستنتاجات من أقوال أو خطب يهوه المكتوبـة ، مثـل أناشـيد الطبيعـة المتميزة و مركبة من عشرات الأسئلة التى يطرحها يهوه على أيوب.

وكأنه من خلالها يجسد الشاعر فى وعينا الفجوة اللانهائية التى يكـشفها بـين الإلـه والإنسان، إيمانه بضألة الإنسان عندما يواجه الكون وإلهه، وعندما يحاول بلا أمل فهمهـما أو محاكمتها بمعايير إنسانية مثل الأخلاق والعدل.

وتقريبا لا تتعلق أى من الأقوال التى قالها يهوه بموضوع النقاش بين أيوب ورفاقه باستثناء أقواله بأنهم مخطئون. وعلى ذلك يقول يهـوه لأيـوب بأنـه لا منطـق لاتهـام الإلـه بخرقه لقانون العدالة ولا يجب اتهامه بالظلم كما فى مقولة يهوه : "لعلـك تنـاقض حكمـى تستذنبنى لكى تتبرر أنت"؟ (أيوب ٤٠ ، ٨).

يذكرنا خيال الكاتب بادعاء إبراهيم القديم ضد الإله بأنه لا يقيم العدل وأن الخلاف الحالى ما هو إلا حلقة فى سلسلة طويلة من المواجهات بين أبطال الأدب من البشر وبين البطل الأدبى الإله فى إبداعات العهد القديم من سفر التكوين حتى سفر أيوب.

ولأن كلام يهوه خارج عن موضوع الخلاف، فلم يكن لأيوب إجابة مناسبة لادعاءاته. لكن لأن الافتراضات التى تحتويها أسئلة يهوه تذكرنا بقدرة الإله يستمر أيوب فى القول بأنه لايستطيع أن يدرك لماذا حدث له ولعائلته هذا الظلم المريع.

يقول أيوب فى إجابته القصيرة ليهوه :"علمت إنك تستطيع كل شىء ولا يعسر عليك أمر"، "وَلكِنِّي قَدْ نَطَقْتُ بِمَا لَمْ أَفْهَمْ. بِعَجَائِبَ فَوْقِي لَمْ أَعْرِفْهَا". (أيوب ٤٢، ٢ – ٣)

يمنح الأديب فى النهاية على لسان بطله الإلهى إجابة على إليفاز هتيمانى، أول المتحدثين من الرفاق والذى عرض جوهر ادعائهم: "قَدِ احْتَمَى غَضَبِي عَلَيْكَ وَعَلَى كِلاَ صَاحِبَيْكَ، لأَنَّكُمْ لَمْ تَقُولُوا فِيَّ الصَّوَابَ كَعَبْدِي أَيُّوبَ". (أيوب ٤٢ ، ٧)

يحاول الأديب فى النهاية الملحمية لمأساة أيوب إيجاد مخرج سعيد للقصة المأسوية المفتقدة للأمل والمعروضة لنا فى هذا الإبداع. ويروى فى نهاية سفر أيوب أن الإله قد بارك أيوب ومنحه ثروة وأبناء وبنات جدد وكانت البنات أجمل من كل البنات وأثرى(لأن أيوب منحهن ميراثا خاصا لهن بخلاف مشاركتهن لإخوانهن الميراث) وبالإضافة لكل ذلك طال عمر أيوب وحظى برؤية أربعة أجيال من نسله.

لا تستطيع كل تلك الأشياء أن تمحو الجرم أو إحياء من ماتوا بلا ذنب، أو محو إثم المؤامرة بين الإله والشيطان.وتدل التجربة على عدم وجود تعويض يعوض عناء ضحايا البلاء. حيث يستمر ألمهم وحدادهم اللذين ليس لهما مبرر كما يدعى ذلك الإبداع الدينى النادر الذى ينتقد الإله.

ومن أجل التأكيد على السمة العالمية للمشكلة فلا يحرص الأديب على ذكر الهوية القومية لأيوب. حيث لا تتعلق تقوى أيوب بالحفاظ على فرائض ديانة بنى إسرائيل أو أى ديانة أخرى. ولقد كان أيوب صالحا حيث إنه كان مستقيما وصالحا ويحيد عن الشر. وكان أيوب يخشى الرب ليس بالذات الذى يدعوه الإسرائيليون يهوه.

يؤكد إبعاد أيوب عن ارتباط قومى ما كونـه بطـلا للإبـداع الخيـالى الـذى يعـرض الفجوة بين الرؤية التى ترى أن كل ما يحدث للإنـسان هـو مبـادرة مـن الإلـه وفعـل منـه وهناك من يرى أن الكون والطبيعة جزء منفصل من الناحية الأخلاقية غير مبالية بالمصير الإنسانى مثل الإله فى سفر أيوب.

يختلف الإله فى إبداع أيوب فى الغاية عن الإله الـذى هـو أب أو ملـك، إلـه الأيـام المفزعة والذى يدير حسابات شخصية فى كتاب الحياة والموت الـذى يتطـور فى نهايـة كـل العالم . وفى نهاية سفر أيوب يظهر الإله المختلف أيضا عن الشخصية التى رسمت فى بداية قصة السفر. ويظهر الإله فى ختام سفر أيوب كقوة مختزلة فى عملية الخلق وككيـان سـامى فوق تفكير البشر، لا يستطيعون معرفة أو فهم الأوجه المختلفـة لعمليـة الخلـق والـصراع اللانهائى مع الكائنات الخرافية التى تهدد الكون.(أى ما فوق النظام) وكأنه لا توجد نهاية لقوى الخراب التى تهدد الكون.

* * * *

الفصل الرابــع

تـعـدديـة ديـنـيـة وانقسام اجتماعى فى مرآة العهد القديم

تعددية ثقافية تميز اليهودية فى كل عصورها منذ عصر ما قبل العهد القديم

تمثل إبداعات أدب العهد القديم كما ذكر وثيقة تاريخية بعرضـها لواقـع اجتماعـى وثقافى ودينى، ألفـت فيـه هـذه الإبـداعات ووصـفته. فبالإضـافة إلى الآراء والمعتقـدات المتنوعة التى يعرضها متحدثون مختلفون فى أدب العهد القديم ويكثر فيه وصـف تفـصيلى لعادات دينية وعقائد وشـعائر كانـت شـائعة بـين بنـى إسرائيـل. وتوصـف فى الأسـفار التاريخية لمؤرخى العهد القديم (كما فى سفر القـضاة وصـموئيل الأول والثـانى، والملـوك الأول والثانى) وخطب أنبياء يهـوه ثقافـة لبنـى إسرائيـل تتـسم بالتعدديـة الدينيـة التـى انتشرت بين الشعب وفى أفنية الملوك وبين مئات أنبياء بنـى إسرائيـل الـذين عبـدوا بعـل وعشتروت. لقد ميز التوحيد ثقافة معظم بنى إسرائيل فى عصر المملكتين.

ويدعم الموقف النقدى للمـؤرخين والأنبيـاء الـذين يـستنكرون ظـاهرة التعدديـة حقيقة شهادتهم بأن الوضع كان هكذا فعلا.

وطبقا لتلك الشهادات فقد عبد معظم بنى إسرائيل فى المدن والقرى آلهة الـشعوب الكنعانية بجانب عبادة يهوه إله بنى إسرائيل أو بدلا منه. حيث وضع تمثال أشيرا، أم الآلهة الكنعانية، فى هيكل يهوه بالقدس ، وذلك وفقا لشهادات مـؤرخي العهـد القـديم، ثلثـى فترة وجود الهيكل والتى استمرت ٣٧٠ عـام (وفقـا لإحـصاء رفائيـل فتـاى). ووضـع المؤمنون من بنى إسرائيل تماثيل عشتروت وبعل "فوق كل هضبة عالية وتحت كل شـجرة نضرة" (حسب شهادة أنبيـاء العهـد القـديم). كـما عبـد بنـو إسرائيـل آلهـة مثـل مـوليخ وكاموش وذبحوا لها واحتفظوا بآلهة فى البيت ("ترافيم") آمنوا بأنها آلهة تشفى وتعالج.

يدل تعدد الشعائر والتماثيل على تعدد الديانات والمعتقدات التى انتشرت بـين بنـى

اسرائيل فى عصر العهد القديم ، بالإضافة إلى الانقسام داخل ديانة بنى إسرائيل. انقسمت ديانة بنى إسرائيل عندما أجريت الشعائر الدينية ليهوه على أنه عجل من الذهب فى مملكـة الأسباط العشرة ، وقدم بنو إسرائيل فى هياكل غالبية الجماعة ، فى بيت إيـل ودان، قـرابين ليهوه على أنه عجل من الذهب، وتعاملوا معه على أنـه الإلـه الـذى أخـرجهم مـن مـصر (حسب أقوال يربعام ووفقا لتقليد الكاهن الأكبر الأول هارون). أما فى هيكل الأقلية من اليهود فى القدس فقد استمروا فى إقامة شعائر ليهوه المتمثل فى شكل تماثيل "كروفيم" ذات وجه إنسان وأجنحة ضخمة والممتدة من الجدار إلى الجدار فى قدس الأقداس.

يستمر الأنبياء فى الإيمان بأن يهوه هو كيان لـيس لـه شـكل أو صـورة، كـما يـصفه الأدباء الذين ينسبون هذه العقيدة لموسى، أو كما يصيغه مؤلف قصة النبى الياهو فى صيغة شاعرية رائعة، والذى عرف أن الإله لـيس موجـودا فى الزلـزال ولا فى العاصـفة ، بـل فى صوت السكون التام.

وتعرض إبداعات العهد القديم من سفر التكوين وحتى سفر الجامعة وأيوب أراء كثيرة متنوعة مختلفة ومتناقضة مع بعضها البعض حول الإله وأخلاقياته وماهيته وشكله. وتعرض من خلال قصص وأشعار ومقالات فلسفية وخطابات وإبداع مـن الـدراما آراء متنوعة ومعتقدات تمثل فكر بنى اسرائيل وثقافتهم فى عصر العهد القديم بوصـفها ثقافـة تعددية. لقد تبلور منذ بداية فترة الاحتلال وحتى تدمير مملكتي إسرائيـل ويهـوذا الـوعى القومى لليهود، الوعى بالتضامن بين بنى إسرائيل كجماعة واحدة. وتتحقـق هـذه الهويـة القومية على الرغم من التضامن لدى الأسباط المختلفة وبدون علاقـة مـع الهويـة الدينيـة القومية للمؤمنين وللعابدين ليهوه على أنه إله خاص وعالمى.

كانت "ديانة إسرائيل"– تلك الديانة التوحيدية الأخلاقية التى آمـن المؤمنـون بهـا بيهوه على أنه إله خاص لا شكل له ولا صورة – حينذاك ديانة قومية بمعنـى : أنهـا ديانـة لجماعة واحدة فقط. ولكن "بنى اسرائيل" "وديانة إسرائيل" كانا منفـصلين عـن بعـضهما البعض. ففى فترة الازدهار السياسى والاقتصادى للمملكة الشمالية، تحت حكم آحـاب، أعلنت ديانة بعل وعشتروت على أنها ديانة للمملكة. وتم طرد أنبياء يهوه واختبئوا خوفـا من أن يقتلهم ملك مملكة إسرائيل.

وفى وقت بناء الهيكل الأول ليهوه قام سليمان ببناء هياكل لكل آلهة الشعوب المجاورة فى القدس. وبفضله صارت القدس عاصمة للتعددية الدينية والتى ضمت أيضا ديانة التوحيد. وقبل أن يبدأ الملك سليمان فى إضفاء مثاليته على التقليد اليهودى، اتهمه نبى يهوه بأنه يؤسس التعددية الدينية، وينشرها فى المملكة اليهودية حتى قبل أن تنقسم.

وبعد مرور مئات السنين على تدمير المملكة اليهودية والهيكل الأول فى القدس، استمرت ،حسب شهادة إرميا، عادة التضحية بأولاد وبنات على مذبح الإله موليخ فى سهل بن هنيوم والموجود اليوم بين صهيون ومتحف أرشيف الأفلام فى القدس. وقام إسرائيليون بتقديم قرابين بشرية وحيوانية، وقد شاركوا فى طقوس جنسية فى هياكل الكنعانيين، استخدموا فيها أدوات مقدسة (قد وجدت أيضا فى الهيكل الموجود بالقدس). وحسب شهادة الأنبياء، لم يمتنع بنو إسرائيل المتدينون عن ظلم واستغلال كل من يمكن استغلاله واستعباده من فقراء وأرامل ويتامى وعبيد وأجراء. وحسب رأى أنبياء يهوه فإن الإله مستعد للتنازل عن تنفيذ الفرائض الدينية الخاصة بالقربان والصلاة إذا ما انصاع بنو إسرائيل لمبادىء العدل والصدق والتى هى حسب رأيهم هى أصل العهد الذى قطع بين يهوه وشعبه.

ومن وجهة نظر أنبياء يهوه كان الصراع ضد الوثنية - أى العبادة بشعائر الآلهة الأجنبية - هو جزء لا يتجزأ من الصراع ضد عدم العدالة الاجتماعية التى تؤدى ، حسب وجهة نظرهم، إلى دمار الدولة اليهودية وخرابها.

تستمر التعددية فى يهودية العهد القديم فى التطور فى ثقافة اليهود فى كل العصور.

يستمر تعدد الآراء والمعتقدات المؤثرة فى حياة الثقافة والمجتمع، فى تمييز اليهودية أيضا بعد خراب الهيكل الأول فى القدس، وبخاصة فى فترة خراب الهيكل الثانى وبعد خرابه.

تتميز اليهودية فى كل جيل وعصر بالخلافات التى تقسمها إلى تيارات والتى أسهمت فى تطورها، ليكون هناك ربط بين أقسامها وتياراتها، وبهذا الشكل تتواصل الثقافة اليهودية كثقافة مختلفةعن كل الثقافات الأخرى.

بسبب الاحتكاك والتصادم المستمر بين التيارات اليهودية المختلفة، على الرغم من التباعد الجغرافى والطائفى الكبير بين تيارات اليهودية فى العالم، تتوطد الروابط بينها فى كل مرة يحتدم خلاف جديد يكاد يعصف باليهودية كلها. و حدث هذا عند انتشار حركة شبتاى تسفى المسيحانية والخلافات التى دارت حولها. وهذا ما حدث فى عصرنا مع انتشار الحركة الصهيونية والخلافات بشأن تبريرها وأماها.

تعمل الخلافات الدينية والأيديولوجية على التلاقى بين اليهودية العلمانية والدينية وتعمق إدراك أعضاء جماعات تيار معين تجاه التيارات الأخرى ومعها ـ الوعى القومى الذى لايتطابق مع الهوية الدينية ، مثلما فى عصر العهد القديم.

تتألف اليهودية من تيارات كثيرة وهى ليست أيديوجية بل هى ثقافة جماعة، وهى ذات وجوه متعددة وآراء كثيرة ومعتقدات دينية وعلمانية ، مختلفة عن بعضها البعض، وتتصادم مع بعضها البعض، وتجعل الأفراد يردون على الخلاف ويكونون مدركين ليهوديتهم. ومن هنا لا ينبغى القول "تقول اليهودية" كما لا ينبغى القول "يقول العهد القديم" . ويمكن فقط القول "يقولون فى اليهودية" أو "يقولون فى العهد القديم".

إن كلمة "يهودية معيارية" هى كلمة خاطئة لأنها لقب يطلق على تيار من تيارات اليهودية يرى نفسه "نموذجيا" وأنه يمثل اليهودية الصحيحة دون سواه. هكذا يرى الأرثوذكس أنفسهم ويستمرون فى الاعتقاد بأن يهوديتهم هى اليهودية المعيارية -حتى وإن رفض معظم اليهود،وحتى غالبية اليهود المتدينين، أسلوب تيار اليهود الأرثوذكس وأنماط حياتهم وأسلوبهم فى التعليم وكثيرًا من المعتقدات والفرائض التى يرى الأرثوذكس أنها مقدسة.

الانحرافات عن التوحيد فى العهد القديم فى إطار الديانة اليهودية

يعد التوحيد أى وهو الإيمان بإله واحد فقط، مجرد ومعنوى - كما صاغه مؤلفو قصص موسى وأسفار الأنبياء، أحد الإسهامات اليهودية المؤثرة للغاية فى ثقافة الشعوب، ولكن فى يهودية عصر العهد القديم قد ميز التوحيد فقط إحدى التيارات الموجودة فى اليهودية.

ومنذ الفترة الهلينية وحتى فترة التنور اليهودية، قد امتزجت الهوية اليهودية الدينية بالهوية اليهودية القومية، فكان اليهود، فى نظر أنفسهم ونظر الآخرين، أناس يتمسكون بديانة إسرائيل ويحافظون على فرائضها. وكانت الديانة اليهودية ديانة قومية، ديانة جماعة واحدة فى مقابل المسيحية والإسلام، فهما ديانتان عالميتان.

لقد حدث الانقسام هذه المرة داخل الديانة اليهودية. فقد تمسكت تيارات مختلفة بمعتقدات وآراء وشعائر ومواقف متناقضة مع بعضها البعض .

ففى مقابل الإيمان منذ عصر العهد القديم باقتصار الحياة على هذا العالم، فقد نشأ وتطور فى الديانة اليهودية الاعتقاد فى البعث، والآخرة، و تأجيل الثواب والعقاب للآخرة .

وفى مقابل الاعتقاد بخصوصية الإله ، فقد تسلل إلى الديانة اليهودية الاعتقاد فى مجموعة كبيرة من المخلوقات الإلهية الأخرى - مثل ملائكة وشيطان وجن وإلهات مثل الشخيناه والليليت وزوجات الإله .

لقد نشأت هذه المخلوقات الإلهية فى إبداعات أدبية ، مثل أدب هابطى المركبة والهياكل ، وأدب العصر الهلينستى - البيزنطى. فيشبه هيكل الإله فناء الملك الفارسى (وفقا لاقتراح يوسف دان). وفى مقدمتها يقف مساعد الملك - الملاك متترون، وهو فى السابق إنسان ويدعى حانوخ، وقد أحضره الملاك عنفيئيل إلى السماء، ويجلده أحيانا "بسياط من النار" مثل حادثة اليشع بن أفويا السيئة، ذلك الملحد الذى ينتقد أيضا تلك الأحداث فى السماء، متعجبا هل توجد سلطتان فى السماء، سلطة يهوه وسلطة متترون.

تلك القصص تعبر عن معتقدات مختلفة تماما عن معتقدات موسى والأنبياء حول وحدانية إله السماء والأرض. والذى لا يمكن تحديد مكانه، لأنه هو نفسه المكان.

وفى مقابل الإيمان الذى يتجلى فى توراة موسى حول تجريد الإله عن كل شكل وصورة، تتكرر فى الديانة اليهودية، وبخاصة فى إبداعاتها الأدبية والصوفية، الصورة الإنسانية للإله، كما فى كتاب "قامة مديدة" حيث يوصف الإله فى هذا الكتاب على أنه مسخ "يشبه إنسانًا كبيرًا ضعف الكون عدة مرات، أو فى صيغ أكثر اعتدالا، مثل ملك

يقيم علاقات جنسية مع زوجته كما فى كتاب "الزوهر" . وفى مقابل الإيمان بأن جوهر الديانة اليهودية هو الصدق والعدل، يسيطر على الديانة اليهودية الاعتقاد بأن جوهر الديانة اليهودية هو الحفاظ على فرائض الشريعة بنصها أى: بالنص الذى يصيغونه فى كتب مثل مائدة مرتبة أو نسخه المعدلة .

وفى مقابل فلاسفة متدينين مثل الحاخام موسى بن ميمون فى كتاب "دلالة الحائرين"، فالإله مجرد ليس فقط من كل محسوس، بل أيضا من كل تصور إنسانى. ويكون الاقتراب من ماهيته عن طريق الحكمة والتأمل الفلسفى، حيث اقتراب العقل الإنسانى بالعقل السامى الذى هو الألوهية.

وحسب هذا الاعتقاد فهناك فرائض وقتية، مثل فرائض القربان، التى هى إرث عبادة آلهة أخرى . ·

وفى مقابل معتقدات هؤلاء الفلاسفة العقلانيين، فقد انتشرت فى الديانة اليهودية معتقدات صوفية، كما فى القبالاه اللورانية، والتى وفقا لها فإن الحفاظ على فرائض الشريعة يؤدى إلى الخلاص، ليس فقط للجماعة بل للعالم ، فالعالم تفتت إلى شظايا منذ الخليقة، والتى لم تنجح، حيث إن نور التكوين ، قد إنفجر وحطم الأوعية، وشظاياه قد تداخلت فى الأغلفة، وشعب إسرائيل فقط هو الذى يستطيع خلاص العالم والشخيناه والإله من نفيهم .

وفى مقابل الإيمان بمبادئ هليل الأخلاقية، أنه لا يفعل الفرد بغيره ما يكره لنفسه، فقد سيطر التعصب على اليهودية الدينية التشريعية والذى تنتهج مع النساء كل أسلوب بغيض على الرجال الذين يشرعون والذين يجعلون أنفسهم مسئولين عن الحفاظ على فرائض الشريعة. فطبقا لصياغتهم التى تنظر إلى النساء على أنهن أناس نجسون طيلة نصف الشهر، وينتمون إلى نوع وضيع من البشر ، من المسموح عزله واضطهاده فى المعبد وفى المحكمة وفى التعليم وفى السياسة وفى القيادة وفى أحكام الزواج والطلاق .

وفى مقابل الاعتقاد الموجود فى العهد القديم بوجوب استئصال السحر ومستحضرى أرواح الموتى وسائر المشعوذين والسحرة ، وذلك من خلال الهمس

والتعاويذ والتفاخر بمعجزات الإنسان وقواه الخارقة، فقد انتشر فى الديانة اليهودية الاعتقاد فى قدرة قيادات السحرة وعظمتهم ومنزلتهم ومن يقومون بمعجزات أخرى، أحياء وأموات، والذين يستخدمون القبور كوسائل لعلاج العنوسة والعقم والأمراض العضال.

لقد استمر انتشار السحر فى اليهودية الدينية فى عصرنا أيضا، رغم التقارب بين السحر والإلحاد، فكلاهما يعتمد على الإنسان ومبادرته وأفعاله التى تتجاهل الإله ورغبته وقدرته.

تقارب روحانى بين أدب العهد القديم واليهودية العلمانية فى إسرائيل

هناك معتقدات كثيرة سائدة فى اليهودية العلمانية تماثل المعتقدات التى سادت فى أوساط التوحيد الأخلاقي فى يهودية العهد القديم وفى تعاليم الأنبياء، باستثناء اعتقاد العلمانيين بأن الإنسان هو الذى ابتكر الإله. فرغم أن أدباء العهد القديم هم الذين شكلوا الإله فى نتاجهم، إلا أنهم آمنوا بأن الإله قد خلق الإنسان.

ويفضل اليهود العلمانيون ، مثل الأنبياء، أعمال الصدق والعدل على الصلوات وتقديم القرابين للإله. ولا يؤمن العلمانيون، مثل أدباء العهد القديم، بالبعث والآخرة. وهم مثلهم يؤمنون بأن العدل يجب أن يتحقق هنا والآن، ولا يؤجل الثواب والعقاب للآخرة والتى هى غير موجودة.

ويؤمن العلمانيون الإنسانيون، مثل موسى والأنبياء بقيم عالمية، مثل التى صيغت فى الوصايا والتى وفقا لها يتم الحكم على جميع الشعوب بما فيها بنو إسرائيل، والذى لا يعتبر شعبا مفضلا فى نظر الإله، كما يزعم عاموس، بل شعب من الشعوب الكثيرة التى يهتم بها الإله العالمى ـ مثل الأحباش والأراميين والفلسطينين.

ويؤمنون أيضا فى اليهودية العلمانية ،مثلما فى توحيد العهد القديم، بوجوب سجن كل ساحر وساحرة وطردهم وكل عراف ومشعوذ، والذين ينجحون فى خداع الجمهور بقدرتهم الخارقة ويستغلون خداعهم لحشد نفوذ سياسى.

وحيث إن أنماط حياة اليهود العلمانيين ليس فيها مكان لكتب الشريعة ومناقـشات حول الفرائض وسبل الحفاظ عليها، لذلك فإن دورها فى الحياة الثقافية والتعليمية لليهود العلمانيين ليس محوريا.

وبسبب التقارب الروحانى بين اليهـود العلمانيـين وأدب العهـد القـديم فـإن هـذا الأدب يلعب دورا محوريا فى تشكيل وعيهم القومى وتراثهم التاريخى والثقافى.

ويسبب التباعد الروحانى وانحصار الـدور الـذى يـشغله أدب الـشريعة فى حيـاة اليهود العلمانيين، فإنه يحتل مكانة هامشية فى تعليم يهودية اليهود العلمانيين وثقافتهم.

إن معتقدات اليهود العلمانيين باقتصار الحياة على هذا العالم تقربهم من أدب العهد القديم الذى تنتشر به تلك المعتقدات والتى أثـرت عـلى اتجاهـات الإبـداع وآراء الأنبيـاء الأخلاقية والنظرة إلى البشر وحياتهم. وتتجلى هذه النظرة فى معظم قصص العهد القـديم التى تروى من وجهة نظر الإنسان ، مقابل الأساطير الوثنية التى تحتـل فيهـا الآلهـة أدوارا محورية.

لا تقوم معظم حكايات قصص العهد القديم على أحداث خارقة بل على حكايات إنسانية تتجلى من ناحية بدنية وسيكولوجية معا.

يلعب العهـد القـديم، بوصـفه الأسـاس الأدبـى الوحيـد المـشترك لكـل تيـارات اليهودية، دورا متميزا فى تشكيل الوعى القومى اليهودى فى اليهودية الإسرائيلية.

يعد أدب العهد القديم هو مصدر لغة الحديث والاتصال والإبـداع لمعظـم شـباب اليهود الذى يدرس اليوم فى إسرائيل. ومن سن الروضة وحتى الجامعة يلتقى الدارسـون غير المتدينين فى نظم التعليم اليهودى فى إسرائيل بقـصص العهـد القـديم والشخـصيات الفاعلة به.

إن النجاح غير المسبق المتمثل فى تحويل لغة إبداع تعود إلى ألفـى وخمـسمائة عـام إلى لغة حديث وإبـداع وتعليـم جـامعى واتـصالات يوميـة وإلى لغـة صـحافة وتكنولوجيـا وجيش، يميز حياة اليهود الثقافية فى إسرائيل عن كل التيارات اليهودية فى الخارج.

تمثـل قـدرة أطفـال اليهـود عـلى القـراءة فى القـرن الواحـد والعـشرين المـيلادى لمخطوطات قديمة ترجع إلى القرن الخامس قبل الميلاد باللغة التى دونت بها أحد الظواهر المتميزة فى تاريخ ثقافة معظم الشعوب فى العالم.

تعد اللغة التى نشأنا عليها وتعلمنا بها وحلمنا وعشنا بها حيـاة اجتماعيـة وثقافيـة، عاملا مؤثرا للغاية. وتشكل اللغة العبرية والعهد القديم الذى هـو مـصدرها فى إسرائيـل جسرا بين حاضر ثقافة الشعب وماضـيه. ويـستخدم الإسرائيليـون عمـدا أو بغـير عمـد تعبيرات عهد قديم أصيلة استنادا على ما تم استيعابه فى وعيهم من خلال اطلاعهـم عـلى العهد القديم. وتؤدى مثل هذه العلاقة بإبداعات كلاسـيكية دورا محوريـا فى التعلـيم وفى عملية تأهيل الفرد اجتماعيا وثقافيا تظهر فى كل مجتمع قومى، وذلـك منـذ ثقافـة القبائـل الأبوريجانية وحتى ثقافة اليونان الكلاسيكية أو ثقافة المجتمع المثقف فى انجلـترا وفرنـسا وألمانيا فى القرن التاسع عشر.

يميز الأطفال اليهود فى إسرئيل منذ سن مبكرة مواقـع جغرافيـة فى العهـد القـديم ومواقع جغرافية معروفة لهم من الحياة ومـن خـلال تنزهـات مـع الأسرة أو مـع فـصول المدرسة. ويمتزج هذا التعرف مع معرفة الأحداث التاريخيـة الموصـوفة فى العهـد القـديم التى تشكل أحد مركبـات مـضمون الأعيـاد القوميـة والرسـمية فى إسرائيـل مثـل: عيـد الفصح، والمظال ، والتاسع من آب وعيد الأسابيع[1] .

يتعرض الأطفال والكبار فى اليهودية الإسرائيلية شهريا وأحيانـا أسـبوعيا لـبرامج بث الراديو والتليفزيون تتناول موضوعات ،أو إبدعات عهـد قـديم، ونقـاش عنـد كـل

---

(١) عيد الأسابيع : مدة هذا العيد يومان ـ السادس والسابع من شهر سيفان (أخر مايو وأول يونيو) وهـو بهـذا عيد الحصاد. وكان الفلاحون اليهود يأخذون أول ثمار الحصاد إلى الهيكل، وقد بعث هذا التقليد فى إسرائيـل حيث يأخذ أعضاء مـزارع الكيبـوتس والموشـاف بـاكورة انتـاج الأرض ويقدمونـه لا إلى الهيكـل وإنـما إلى الصندوق القومى اليهودى، ولكن هذا العيد ليس عيد حصاد وحسب، وإنما هو عيد له مناسبة تاريخية أيـضا وهى نزول التوراة والوصايا العشر على موسى عليه السلام فوق جبل سـيناء، فيزينـون المعابـد بـالزهور والنباتـات ويقيمون حفل زفاف للتوراة تماما كأنها عروس .
غازى السعدى:الأعياد والمناسبات والطقوس لدى اليهود . ص ١٩.

اكتشاف أثرى وخلاف بين أثريين ، أو إبداعات أدبية وبحثية قد ألفت بوحى من العهد القديم أو تتناوله.

يعمل التعرض الدائم لإبداعات العهد القديم والعلاقة اللغوية بين لغة الحاضر ولغة العهد القديم على توطيد التقارب الروحانى بين يهود إسرائيل وأدب العهد القديم، وفى المقابل فاليهود الأرثوذكس الذين يشعرون بتقارب روحانى كبير من إبداعات التلمود والمدراشيم، يستوعبون إبداعات العهد القديم فى إطار التفسير التلمودى والمدراشى فقط.

* * * *

الفصل الخـامـس

إبداعات أدبية علمانية فى العهد القديم

إن الغالبية المطلقة من الإبداعات التى جمعت فى العهد القديم هى إبداعات دينيـة ، بمعنى: إبداعات يلعب فيها الإيمان بالإله يهوه دورا محوريا، والإله هو أحد أبطال الحكاية ويؤثر على تطورها وعلى المسارات التاريخية المعروضه بها.

ولقد أدرج محررو الصيغة الأخيرة لأسفار العهد القديم بهـا نـماذج مـن إبـداعات أدبية علمانية أيضا، بمعنى: إبداعات لم يذكر فيها الإله والإيمان به مطلقـا ولا يلعـب فيهـا الإله والإيمان أى دور حاسم.

يؤكد واقع تلك الإبداعات فى العهد القديم على أنه يعكس ويعرض مجمل الثقافـة التى على ضـوئها عـاش بنـو إسرائيـل فى ذلـك العـصر، والـديانات المتعـددة التـى لديـه والإبداعات والظواهر الأخرى التى لم يكن لها أى علاقة بالدين.

قصص يوسف ويهودا ويوتام وتامار وروث وداود وأبشالوم

توجد من بين الإبداعات العلمانية فى العهد القديم إبـداعات مـستقلة أو إبـداعات مدرجة كوحدات أدبية مستقلة فى إطـار إبـداع آخـر مثـل: قـصة حيـاة يوسـف، القـصة الطويلة والمدرجة داخل راوية الآباء والأمهات بسفر التكوين، والتى تصف حيـاة بطلهـا منذ أن كان طفلا لديه طموحات وأحلام عظيمة، ابن الزوجـة التـى يحبهـا أبـوه ، ويـرى نفسه أنه أفضل من والده وأخوتـه، ثـم باعـه أخوتـه عبـدا للإسـماعيليين والـذين بـاعوه لمصرى ثرى، ويصل يوسف بفضل مجهوده إلى منصب حاكم ونائب الملك فى أكبر دولة فى العالم فى ذلك الحين. ويحكم يوسف في تلك الدولة بفضل شخصيته وفطنتـه ومـشروعاته الاقتصادية، ثم يتزوج ابنة كاهن مصر ويربى أبناءه مثل المصريين تماما، حتـى أن والـده لم يتعرف على أحفاده مطلقا عند قدومهم لتلقى بركته وهو على فراش الموت. ويعد يوسـف

هو الشخص الأكثر عزلة فى أدب العهد القديم . فرجال البلاط المصرى ليسوا على استعداد للأكل معه، بسبب أصله العبرى، وحتى عندما ترأس المملكة لم يأكل مع إخوته عندما يخفى شخصيته عنهم بسبب طبيعته التى تميل للانتقام.

وفى خطاب يهودا إلى يوسف، وهو يعد إحدى درر الأدب البلاغى اليهودى، ينجح فى إنقاذ أخيه الصغير وأبيه من انكسار القلب، الذى لا يتحمله، ويسبب تحولا دراميا فى قصة يوسف وإخوته المعقدة. وعندئذ يذكر يوسف للمرة الأولى إمكانية أن جميع الأحداث قد أحدثها الإله.

البناء النموذجى لهذا الخطاب القصير يؤدى بالقارئ إلى الإيمان بقدرته على تغيير القصة ، وحتى تحطيم قلب يوسف، ذلك اليهودى الذى تحول إلى مصرى صارم ومنقم وقوى ، ويستمر لسنوات عديدة فى ظلم إخوته وأبيه أيضا حيث يخفى عنهم مصيره وهويته لسنوات عديدة بالرغم من قصر المسافة بين قصره وخيام والده والتى على بعد مسيرة أيام معدودة.

كان خطاب يوتام عن الأشجار التى لم تستطع أن تجد لها ملكا بين الأشجار المثمرة وكانت ملزمة بالاكتفاء بالعواليق - شجرة شائكة عديمة الأوراق والثمار، تلك الشجرة تكمن قوتها فى النيران التى تخرج منها وتحرق كل أشجار الغابة، إحدى الاستعارات العالمية الأكثر فطنة حول قصور أى نظام سياسى تتحكم فيه الأشجار غير المثمرة فى الأشجار المثمرة. بمعنى أن يتحول في النظام السياسى عديمى الثقافة والموهبة فى مجال معين إلى مسيطرين خطيرين على كل من يحيط بهم ،لأن المثقفين وذوى الموهبة والخبرة يعتقدون أنه غير مرغوب استنفاذ قدرتهم وحياتهم فى السيطرة على أناس آخرين. ولذلك فهم يرفضون كما يقول يوتام "التحرك على الأشجار". والنتيجة، حسب قول يوتام فى القرن العاشر أو الحادى عشر قبل الميلاد هى أن العليقات تسيطر على كل حكم وسلطة، والنار تخرج منها فى أوقات معينة وتلتهم كل أشجار الغابة.

وقد وضع المؤلف الخطاب على لسان يوتام كجزء من الصراع السياسى على عرش المملكة المختارة فى نهاية الألف الأول الميلادى ، لكن قوة هذا الإبداع تكمن فى المثل الذى يصيغه ويمكن فهمه منذ الألف الأول قبل الميلاد وحتى اليوم.

تعد قصة تامار زوجة عير التى تنكرت كزانية وأغوت يهودا لترغمه على الخضوع للواجبات التى تفرض عليه حكم اليبوم[1] حتى اضطر للقول "هى أصدق منى" عندما أعفى عنها بعد أن كان الحكم عليها الحرق لأنها حملت منه سفاحا، أحد التعبيرات الكثيرة لتعاطف أدباء (أو أديبات) العهد القديم مع أبطالهم من النساء، والتى من خلال حيلتها الجنسية فقط تتمكن من الصراع ضد وضعهن المتدنى وتعلقهن المطلق بالرجال، حتى وإن كانوا مخطئين، مثل المستمنى الذى يقتل نسله بقذف منيه أرضا أثناء مضاجعة تامار، أرملة أخيه، لكى لا يرث أبنائها مع أبنائه.

تنتمى أيضا قصة روث المؤابية إلى سلسلة نساء يعانين من ضائقة كبيرة، حيث إنهن أرامل وعاقرات ينقصهن رجل يحميهن أو يعوضهن عجزهن. تحتاج المرأة هنا أيضا إلى حيلة جنسية وليست فى حاجة إلى مساعدة الإله لكى تتخلص من محنتها، ، عندما تنصاع لتوجيهات حماتها وتغتصب بوعز الثرى، فقد أقبلت إلى فراشه وهو نائم مخمور(مثل اغتصاب ليئة ليعقوب) فأجبرته الزواج منها وأن يؤدى بعد وقوع الأمر التزامات اليبوم التى تلزم الرجال من أبناء أسرة زوج الأرملة التى لم تنجب.

وتعد قصة اغتصاب تامار أخت أبشالوم على يد أخيها أمنون، بدايه قصة علمانية رئيسية فى رواية تاريخية عن حياة داود، لا يلعب الإله فى معظم أجزائها دورا. وتعتبر قصة الاغتصاب هذه بداية تدهور العلاقات بين داود وابنه المحبوب. وصل هذا التدهور إلى

---

(١) اليبُّوم» كلمة عبرية تعنى «زواج الأرملة» الأرملة التي مات زوجها ولم تنجب أطفالاً". ويُحرِّم العهد القديم زواج أرملة الأخ إذا كان لها أطفال، لكنه يوجب مثل هذا الزواج إذا لم يكن لها أطفال. وقد جاء في سفر التثنية (٢٥/ ٥ – ١٠): "إذا سكن إخوة معاً ومات واحد منهم وليس له ابن فلا تصير امرأة الميت إلى خارج لرجل أجنبي. أخو زوجها يدخل عليها ويتخذها لنفسه زوجة ويقوم لها بواجب أخي الزوج. والبكر الذي تلده يقوم باسم أخيه الميت لئلا يُمحَى اسمه من يسرائيل".
وإن لم يرض الرجل أن يأخذ امرأة أخيه تصعد امرأة أخيه إلى الباب إلى الشيوخ وتقول قد أبى أخو زوجي أن يقيم لأخيه اسماً في يسرائيل. لم يشأ أن يقوم لي بواجب أخي الزوج. فيدعوه شيوخ مدينته ويتكلمون معه، فإن أصرَّ وقال لا أرضى أن أتخذها، تتقدم امرأة أخيه إليه أمام أعين الشيوخ وتخلع نعله من رجله وتبصق في وجهه وتصرخ وتقول هكذا يُفعَل بالرجل الذي لا يبني بيت أخيه. فيُدعى اسمه «بيت مخلوع النعل».
وتصبح المرأة عجوناه إن رفض الأخ أن يتزوجها ويخضع هو لطقوس خلع النعل، وقد تظل المرأة عجوناه إن كان الأخ قاصراً أو غائباً أو مفقوداً.

ذروته عند تمرد أبشالوم على أبيه، الذى لم يرد على الفعل الخاطئ الذى ارتكبه أمنون لتامار. وفى قصة انتقام أبشالوم ونجاحه يفر الملك داود من عاصمته، ويقوم أبشالوم بمضاجعة نساء أبيه، الملك المنفى، علانية وحاربه حتى المعركة الأخيرة التى قتل فيها أبشالوم عندما اشتبكت جديلة شعره بفرع أحد الأشجار، وبذلك يحسم الصراع لصالح جيش داود.

شكلت نهاية هذه القصة إحدى الصور الحزينة فى أدب العهد القديم، التى يبكى فيها الأب حزنا على موت ابنه المحبوب، وأنه لم يسعد مطلقا بالنصر الذى قمع فيه التمرد. وتحولت صرخة الحزن لداود، الأب الذى ثكل ابنه، قصة نجاح داود ،الذى تخلص من كل مشكلة واجهته فى حياته، إلى ذروة المأساة هذه الرواية التاريخية، ليبدأ الفصل الأخير من حياة داود العجوز، والذى اهمل شئون المملكة وانزوى بأفيشج هشونميت الفتاة التى تنقذه من الوحدة التى سيطرت عليه فى سنواته الأخيرة.

استير رواية سياسية حول إلغاء خطة الحل النهائى

تلعب الرواية السياسية القصيرة استير أكبر دور فى ثقافة اليهود من بين الإبداعات العلمانية الموجودة فى العهد القديم. وكما يوضح الأديب فقد خصصت هذه الرواية لإحباط الخطة الأولى من "الحل النهائى" لمشكلة اليهود، مشكلة خصوصيتهم والاختلاف بينهم وبين جميع الشعوب التى يعيشون بينها.

تصف القصة تشتت اليهود فى كل بلدان الامبراطورية الفارسية المسيطرة على معظم العالم المعروف لأدباء العهد القديم. ومن بين زعمائهم مردخاى الوسيط الحارس على بوابة فناء قصر المملكة، يدخل إلى داخل القصر قريبته الشابة استير. واستير هى أول امرأة يهودية تخفى يهوديتها، وتنجح بذلك فى الاشتراك فى مسابقة المضاجعة العالمية التى ينظمها الملك الذى يختار ملكة جديدة تنضم إلى قصره وتفوز بها.

وعلى الرغم من أن الحديث يدور حول خطر الإبادة البدنية لجميع اليهود فى العالم فلا يدخل الأديب الإله فى حكاية انقاذهم. ويلقى مردخاى المسئولية كلها على استير التى اتخذت لنفسها منزلة رفيعة فى القصر باخفائها يهوديتها. وبالرغم من حيرتها ومخاوفها فإن

تلك اليهودية الصغيرة حملت على عاتقها المهمة وأظهرت مهارة رائعة فى إعدادها لفخ جنسى كمكيدة من مكائد فناء المملكة وهو أسلوب ظهر بعد مرور قرون كثيرة فى الأدب الذى يصف المكائد التى تدبر فى فناء المملكة الفرنسية. وفى مشهد إغراء ألزم رئيس الوزراء الذى خطط لإبادة اليهود ليبدو وكأنه يحاول أن يبتهج أو يغتصب الملكة، وتنجح استير فى إفشال هذا المخطط على فراشها. وفى نفس الوقت يخرج الملك ليرتاح فى الشرفة فيراهما وتنجح استير فى إحداث انهيار سياسى وإفشال خطة الحل النهائى وإعدام المخطط لها وكل أبنائه.

تنجح استير بدون الكشف عن هويتها اليهودية فى أن ترقى عمها إلى منصب رئيس الوزراء فى الإمبراطورية الفارسية، وهو ثانى يهودى يصير رئيس الوزراء لأعظم دولة فى العالم فى أدب العهد القديم.

يحاول الأديب مثل باقى مبدعى النثر فى العهد القديم أن يكسب قصته طابع الإبداع التاريخى فيخرج الحكاية من حدود فناء الملك ويصف احتفالات انتصار الجماعات اليهودية فى خارج فلسطين على أنه قد رفع عنهم حكم الإبادة الجماعية الذى خطط له وأعلن فى فناء الملك. وتتحول الاحتفالات إلى مذابح انتقام يقوم بها اليهود ضد جيرانهم بما يشبه تمرد جماعات اليهود خارج فلسطين على الإمبراطورية الرومانية فى القرن الثانى.

وتنضم هذه القصة الدموية المروعة فجأة إلى القصص المحلية وتساعد على أن يؤدى الإبداع أدواره فى الحياة الثقافية لجماعات بنى اسرائيل فى العالم طيلة حوالى ألفى عام.

بدأ اليهود الذين عاشوا كأقليات مضطهدة وذليلة وطريدة فى كل البلدان المسيحية والإسلامية فى آسيا وافريقيا وأوربا، ينظرون إلى رواية "استير" على أنها القصة التى تحقق آمالهم الكامنة فى التسلل إلى الطبقة الحاكمة والانتقام الدموى من مضطهديهم.

وحيث إن القصة تتجاهل تماما إله إسرائيل فقد استخدمت "لفيفة استير" فى احتفالات الكرنفال والتنكر وعدم الالتزام بأى سلوك أخلاقى وعقلانى وتشمل فرائض الشراب حتى الثمالة " حتى أنه لا يفرق بين هامان الملعون ومردخاى المبارك"

ويتم الاحتفال بعيد البوريم[1] (عيد القرعة - الحـظ والرهـان) العلمانـى (بـدون راحة وشعائر) لدى اليهود تخليـدا لـذكرى انتـصار اسـتير وتنكرهـا النـاجح، مثـل عيـد الكرنفال الموجود فى كل ثقافة، فى هذا اليوم من العام يتاح كل المحظورات، ويسير الناس بأقنعتهم وكأنهم قد غيروا هويتهم عن طريق القناع. وقد أضـافوا فى الثقافـة اليهوديـة إلى عيد الكرنفال السنوى مبررًا تاريخيًا يرتبط بذكرى قصة استير ومعجزة إنقـاذ اليهـود مـن كل محاولات الإبادة التى حاولوا فيها تدميره.

لعب الإبداع والعيد دورا حاسما فى الثقافة والفـن وفى فـن المـسرح لـدى اليهـود. وبداية من المسيرات الاحتفالية فى الـشارع مـن قبـل شـباب المـدارس الدينيـة فى العـصر الوسيط (انظروا شيفعار "تاريخ المسرح اليهودى") والـذين تنافـسوا فى احتفـالاتهم مـع الطلبة المسيحيين وفى عروض المسرحيات تمجيدا للعيد (فوريمشفيل ومـسرحيات عـصر النهضة مثل "صفاء كوميديا الـزواج" للكاتـب دى سـومى). وشـكلت تلـك المـسرحية مرحلة مبكرة فى تاريخ المسرحيات والمسرح اليهودى الشعبى بداية من عـصر الهـسكالاه والمسرح اليهودى الحديث المتطور فى القرن العشرين فى جزء كبير من الخارج وفلسطين.

يوجد بين إبداعات النثر العلمانى فى العهد القديم كما ذكر آنفا قـصص كثـيرة مثـل قصة أستير وقصة تامار زوجة عير، وقصة روث وقصة تامار أخـت أمنـون وقـصة حيـاة يوسف وقصة صراع إرميا فى بلاط مملكة صدقياهو، قصة نحميا وغيرها.

نشيد الأناشيد - إبداع علمانى نموذجى شوهه التفسير الباطنى

يعد أعظم إبدعات الشعر العلمانى فى العهد القديم هـو قـصيدة الحـب النموذجيـة بين رجل وامرأة. ولأنه إبداع علمانى - لا يلعب فيه الإله دورا ولا يذكر اسـمه مطلقـا - فقد تغلف هذا الإبداع بتفسير باطنى وصوفى حتى توارت قوته وتميزه الإبداعى الأصـيل عن أعين الكثيرين.

---

(١) عيد البوريم: بالعبرية عيد البوريم من كلمة بور ومعناها قرعة. ويحتفل به فى الرابع عشر من آذر "مـارس" وهو اليوم الذى أنقذت فيه إستير يهود فارس من المؤامرة التى دبرت لذبحهم. ويحتفل اليهود بهذا العيد بـأن يسرفوا فى الشراب (ولذا سماه العرب عيد المساخر أو عيد المسخرة). ويعتاد اليهود فى هذا اليـوم عـلى لـبس الأقنعة والملابس التنكرية على طريقة المهرجان. وهذا العيد لايمت بصلة إلى الشريعة.

يشير الاسم " نشيد الأناشيد" إلى إدراك محررى العهد القديم لعظمة هذا الإبداع الشعرى العلمانى فى الأدب العالمى وأهميته. وعلينا أن نفترض أن محررى العهد القديم فى بداية الألف الأول للميلاد عرفوا الآرامية واليونانية والعبرية وعلموا مثلنا تماما قيمة الإبداعات الأدبية. وربما لذلك صمموا على إدراج الإبداع العلمانى "نشيد الأناشيد" فى الأسفار المقدسة وذلك رغم الخلافات والمزاعم التى زعمها معارضوها . وأعربت المعارضة لإدرج نشيد الأناشيد فى الأسفار المقدسة عن الإدراك لقدرته وفلسفته الحسيه وقوته الجنسية والجمالية وإسهاماته فى فهم سمو الحب الجسدى فى الانطباع الروحانى للبشر.

ينسب المحررون "نشيد الأناشيد" لسليمان، ذلك الملك الذى حظى فى عصرهم بالمثالية بوصفه ملك عظيم، ناجح وثرى وحكيم، جمع بين نساء كثيرات بما فيهن ملكة سبأ التى اجتازت مسافات كبيرة لتكون معه.

إن نسب نشيد الأناشيد للملك سليمان يضيف إلى سائر خصاله الممتازة موهبة أنه شاعر علمانى وهو ملك محبوب فى عرف اليهود. ورغم أخطائه الدينية؛ فقد أقام شعائر دينية لآلهة الشعوب المجاورة فى الهياكل التى بناها لها فى القدس

تتجلى عظمة سفر نشيد الأناشيد بوصفه شعر حب علمانى من خلال من يعرفون العبرية، والذين يفهمون معظم كلماته وتعابيره بدون شرح، فيدركون الشعر بأحاسيسهم وليس فقط بعقلهم، لأن الإحساس بأن كل شعر عظيم يصل بمستوعبيه إلى الكمال بكل كلماته. فيشمل الإيقاع اللغوى، وتبادل منولوج الحزن بمنولوج البهجة، ثم الانتقال من ديالوج إلى أنشودة، ومن حديث الفرد إلى حديث الجماعة، ومن تنوع الصور والأساليب واستعارات أحداث فى طبيعة فلسطين ومناظرها الطبيعية إلى مشاعر المحبين. ينضم كل هذا إلى الواقع الحسى الذى يبدع فى هذه القصيدة والدراما التى تحل بها : حب الصبية للراعى وذكرى البهجة معه، حب الملك الذى يعرض عليها كل ما هو كامن فى القصر، حتى أنها لم تصدق نفسها عندما صعدت مع النبيل إلى المراكب، ولكنها شعرت كأنها أسيرة وراء الباب المغلق، فبدأت تتجول وتبحث عما أحبته نفسها، على الرغم من رجال الشرطة الذين لاحقوها وضربوها لكن انتصر حبها.

وفى القصائد الختامية واللقاء مع محبوبها ومغازلاتها معه فهى تثير الحب والسعادة لدى كل رفيقاتها ليسعدوا بسعادتها وأن يتركوا للملك ذهبه وكنوزه.

كل قراء نشيد الأناشيد مترجما، مثل كل تراجم الشعر العظيم، يقرأون إبداعًا موجزًا قد تضاءلت قيمته الشعرية. لكن حظى أيضا فى تراجم أخرى بتقدير العارفين بالأدب جيدا فى العالم كله. كثيرون منهم (مرنان حتى بوجه وماكس برود) صاروا مدركين أنه شعر غنائى (عاطفى) ينطوى على دراما مسرحية، وتصيغ شخصيات وتواجهها بصدام قصصى و عاطفى.

لعب إبداع نشيد الأناشيد فى ثقافة اليهود أدوارا كثيرة ومختلفة فيما بينها اختلافا قطبيا. فالذين يفهمون هذا الشعر على أنه إبداع شعرى يفهمون الكلمات والتعبيرات فهما سطحيا بمعنى: المغزى المنسوب لتلك الكلمات بسب تنوع مهامها فى الاستخدام اليومى للغة التى كتبت فيها المصدر.

وهذا جوهر التفسير الظاهرى : تفسير النص حرفيا من خلال التعامل مع الكلمات المكونة وفقا للمغزى(= الوظيفة كما يقول فيطجنشتين) نربط بينها حينما نستخدمها فى مناسبات وحالات مختلفة بعيدا عن النص الذى نقوم بتفسيره تفسيرا سطحيا.

إن الذين يقرأون نشيد الأناشيد قراءة سطحية يقرأونه على أنه أنشودة قطرية للاحتفال بعيد الربيع والحب. وفى التقليد اليهودى الدينى ربطوا نشيد الأناشيد بأسطورة عيد الفصح، فيقرأوه الأشكناز والسفاراد المتدينون فى ليلة عيد الفصح وكأنهم بذلك يدركون أنه ليس فقط عيدًا تاريخيًا بل إنه أيضا عيد قديم للربيع يعود إلى ما قبل الخروج من مصر.

بدأت القصيدة فى فلسطين بداية من القرن العشرين تحتل مكانة كبيرة فى الثقافة اليهودية العلمانية التى تطورت فيها بالعبرية. فقد لحنها كثيرون بألحان وتحولت إلى أشعار وطنية. و يعد نشيد الأناشيد مصدر إلهام لقصائد وأغانى جديدة مصحوبة برقصات شعبية جديدة ، وقد خصصت إبداعات فى فن الرسم لشخصيات قد تم تشكيلها فى هذا الإبداع.

بدأت مؤخرا القصيدة تعود لتحتل مكانة فى عيد الفصح العلمانى.(صيغة درامية وفقا لصيغة الراهب الفرنسى فوزياه، والتى تحافظ على نظام العبارات والجمل الأصيلة ولكنها تقسمها بشكل يمكن أن تمنح قارئها أصواتا كثيرة مثل المسرحية ، التى نشرت فى كتاب عام ١٩٦٥ ثم أعيد طبعها عام ١٩٩٥فى مجلة يهودوت حوفشيت باسم "الأجادا الإسرائيلية الجديدة"

يتسبب سفر نشيد الأناشيد فى الانطباعات الموصوفة آنفا ، ويستطيع أن يؤدى أدوارا متعددة فى ثقافة الأغلبية المعاصرة وذلك عن طريق قراءته قراءة ظاهرية بمعنى : القراءة التى تنسب الكلمات والتعبيرات معنى معروفًا للقارئ من خلال الخبرة المتراكمة، وهو بذلك يعرف الأدوار (= الدلالات) التى تقوم بها تلك الكلمات والتعبيرات فى المناسبات المختلفة لحياتهم.

يتعرف القارئ بدون وساطة على تعبيرت فى نشيد الأناشيد مثل : "ياجمالك محبوبتى، يالروعتك – عيناك يمامتان" و"ياجمالك حبيبى اللطيف فى فراشنا الدفئ" و" حبيبى بين البشر كالتفاح على أشجار الغابة" و"رغبت فى حضنه وثمار حلو المذاق" و" شماله تحت رأسى ويمينه تعانقنى" و"استحلفكم يا بنات القدس، بظبية وآيائل الحقل، إذا أشعلتم أن تثيروا حبا حتى ترغب"

وبفهمه الكلمات على بساطتها، يعد انطباعا أيضا لمعظم الدلالات العاطفية والممزوجة بالحسية المثيرة بذكرى وحنين المحبين، حيث إنه يتعرف على التعبيرات اللغوية التى يتكون منها أجزاء ذلك النشيد وارتباطها بالحوار العبري.

إن فهم كهذا لقطع الشعر بدون وساطة هو جوهر الانطباع العاطفى والقيم الجمالية الموضحة له. وتجاهل أسلوب الاستيعاب وفهم كهذا من خلال تفسير باطنى، والذى يضفى دلالات غريبة لمضمون القصيدة وروحها، يلغى ذلك الانطباع الحسى ويحول القصيدة إلى نص من الألغاز التى تجعل القارئ مشغولا بفك شفرته أو الانشغال بتفسير تقترحه تفاسير باطنية أخرى.

أميل إلى رأى الذين يقولون أن الرابى عقيبا، فى القرن الثانى ميلاديا، قد اقترح هذا التفسير الباطنى لكى ينقذ نشيد الأناشيد من الاختزان الذى طالب به حاخامات متدينون

متشددون، وقد حدد فى مكر أن نشيد الأناشيد هو قدس الأقداس وليس مقدسا فقط كسائر النصوص فى العهد القديم. ولكى يبرر موقفه هذا احتاج إلى تفسير يبعد فهم النشيد عن مصدره، مثل التفسير الذى يحدد بأن النشيد هو تعبير عن علاقة حب بين الإله والكنيسة الكاثوليكية، أو بنو إسرائيل. أى تفسير يمكن أن يؤهل لضم النشيد إلى الكتابات المقدسة اليهودية والمسيحية، رغم أنه إبداع علمانى وشعر غزلى.

يوجد بعد مماثل بين التفسير الظاهرى والتفسير الباطنى فى تطرق المفسرين لكل إبداعات العهد القديم ومتمثل فى توضيح التفسير الذى يتطرق إلى نشيد الأناشيد. حرص الرابى راشى ، وهو من كبار مفسرى العهد القديم فى العصر الوسيط، فى حالات كثيرة على عرض التفسيرين – التفسير الظاهرى الذى يعبر عن فهم النص الأصلى بحرفيته، والتفسير الباطنى، أو كما قالوا له "المثالى" والذى يعرض مضمون النص ومفهومه كمثال لفكرة أو لظاهرة تهم صاحب التفسير، إلا أنها لا توجد مطلقا فى النص الأصلى. فالقطعة التى تبدأ فى نشيد الأناشيد بجملة "إننى سوداء ويا جمال بنات القدس" يقدم راشى التفسير الظاهرى لها بقوله :"أنتن يا صديقاتى لو أننى بسيطة فى نظركن، إذا ما تركنى رجلى بسبب سوادى ، فإن سوادى بسبب سفوع الشمس، فإننى جميلة وتقاطيع جسدى جميلة، لو أننى سوداء مثل خيام الأعراب وقد اسودت بسبب الأمطار، والمنصوبة دائما فى الصحراء فمن السهل أن اغتسل وأصير مثل الخيام الجميلة.

ولكن يقول راشى أن هناك من يقدمون هذه الفقرة على أنها "نموذج" يرمز للحب بين شعب إسرائيل والإله. وحينئذ فإن تفسيرها وفقا لكلام راشى : " أنا سوداء (تفسيرها شعب إسرائيل) فى أفعالى جميلة وفى أفعال آبائى ، يوجد من أفعالى ما هو جميل، إذا ما كان بى إثم العجل، لدى حق فى تلقى التوراة. وينادى الأمم "يا بنات القدس" وذلك لأنها ستكون عاصمة للجميع فى المستقبل.

عندما يفسر راشى تعبير " نهديك" فإنه يكتفى بالتفسير الباطنى " نهديك المطعمين لك تعنى موسى وهارون "

وعندما تتطرق التفسيرات الباطنية إلى نهدى شولاميت على أنهما "موسى وهارون" تتضح لنا السخرية والتعسف فى التجربة ، والتى تضفى تفسيرا متعمقا بشأن حب الإله وبنى إسرائيل لأنشودة الحب هذه.

ويبدو التفسير الباطنى خطيرا من الناحية الاجتماعية والسياسية وذلك عندما يقرأ مفسرون معاصرون معادون للصهيونية الفقرة " أقسمت عليكن يا بنات القدس ألا تشعلوا وألا تثيروا الحب حتى ترغب" على أنها تصريح إلهى ضد الصهيونية، والتى لم تنتظر المسيح المعجزة، بل استعجلت الأحداث، وتحقق من تلقاء نفسها، نبوءة الاسترجاع وتجديد دولة اليهود فى الوطن القديم ، كما صاغها الأنبياء ، والمسحاء والفلاسفة مثل موسى بن ميمون وسبينوزا.

تكمن خطورة تفسير تعسفى كهذا فى إرجاع كل فكرة سياسية لمفسر إلى نص مقدس فى نظر يهود متدينين، وكأن هذه الأقوال قيلت فى النص نفسه.

يزداد ذلك التفسير التعسفى قسوة عندما يقوم حاخامات مثل يؤئيل ماستهر ومن على شاكلته باتهام الصهاينة وباقى العلمانيين بأنهم سبب االنكبة النازية، وذلك بسبب الأثام التى ارتكبوها فى حق الإله، وهذا بناء على التفسير السياسى الذى ألصقوه بالفقرة الموجودة فى أنشودة الحب هذه.

يمثل التناقض بين التفسير الظاهرى لنشيد الأناشيد والتفسيرالباطنى له نموذجا للفجوة بين الرؤيتين المؤثرتين للغاية على دراسة اليهودية والتى يلعب فيها العهد القديم دورا رئيسيا.

* * * *

الفصل السادس

التعارض بين التأويل الظاهرى للأدب وبين المنهج الديني والتفسيري للعهد قديم

هناك تباين جوهرى بين الرؤية الدينية التقليدية لدراسة العهد القديم، والتى تنظر إلى نص العهد القديم على أنه جزء لا يتجزأ من مجموعة النصوص التفسيرية للتوراة الشفاهية أو التفاسير الدينية التى جاءت على إثرها، وبين الرؤية التى تهدف إلى قراءة الإبداع الأصيل فى العهد القديم على أنه نتاج مستقل ومنفصل عن التفاسير الدينية.

تعتبر هذه النظرية أدب التفسير وحدة قائمة بذاتها داخل ثقافة اليهود، وهذه الوحدة تحتوى على مئات الإبداعات المعاصرة، وعشرات الإبداعات التى ترجع إلى عصر التنوير والعصر الوسيط والعصر الهلينستى البيزنطى ،والذى تضمن أيضا تفسيرات باطنية لمؤلفى التوراة الشفهية، وهذا يعد واحدًا من التيارات الكثيرة التى أنتج فيها إبداعات تنتسب إلى العهد القديم.

ضرورة تجريد نص العهد القديم من ردائه التفسيرى

يعد تجريد العهد القديم من التأويل الباطنى ضروريا من أجل تبنى تراث ثقافى قومى فى اليهودية العلمانية. ويمكن أن يشكل أيضا سفر نشيد الأناشيد، وهو إحدى مرتكزات الموروث الثقافى المشترك للتيارات المختلفة الموجودة فى اليهودية، وهو بذلك مثله مثل إبداعات نموذجية أدبية أخرى فى العهد القديم.

توقف معظم الشباب اليهود فى بلدان الخارج عن التعرف على العهد القديم، حيث غاب عن المقررات الدراسية فى المدارس غير اليهودية، والتى يدرس فيها معظم الصبية اليهود فى تلك البلدان. ولا يدرك معظم الشباب اليهود العلمانيين المتمين

للتيارات اليهودية المختلفة فى بلاد الخارج أن العهد القديم هو جوهر اليهودية والمصادر الأخرى. والتى انفصلت تدريجيا عن الموروث الثقافى المشترك للتيارات اليهودية لليهود.

يعد تعديل هذا العيب مرتبطًا بتجديد التعارف مع الإبداعات الأدبية التى يحويها العهد القديم، وإلقاء الضوء عليها بوصفها إبداعات أدبية تؤدى إلى انطباع حسى وعقلانى لكل قارىء مدرك والتى من شأنها أن تكشف لهؤلاء اليهود جوهر ثقافتهم القومية، حيث يتراجع اليهود الشباب غير المتدينن عن اليهودية عندما تعرض عليهم على إنها ديانة فقط. ويتراجعون بنفس الأسلوب عن إبداعات العهد القديم عندما تعرض عليهم ببعض من التفاسير المصحوبة بالتفاسير الدينية.

ونجد فى أدب التفاسير بالطبع إبداعات ذات قيمة ذاتية، مثل كثير من الشروح التفسيرية الأسطورية التى جمعها بيالك ورفينوتسكى ومن على شاكلتهم وذلك فى آداب أحدث عهدا.

ينضم أدب الأجادا والتفاسير الدينية للعهد القديم لباقى الإبداعات التى ألفت خلال ألفى عام بوحى من العهد القديم. وقد استخدمت فيها بعد كنصوص تفسيرية لأدبه. وتشكل كل تلك الإبداعات وحدة منفصلة عن أدب العهد القديم. حيث تختلف الإبداعات الأدبية التى فى مجموعة الإبداعات المنتسبة للعهد قديم فى جوهرها عن إبداعات العهد القديم من عدة نواح؛ سواء من ناحية العصر التى ألفت به أو من ناحية الرؤية الدينية أو العلمانية لمؤلفيها أو من ناحية الأهداف والوظائف التى تؤثر فى تقافة اليهود وثقافة العالم.

على ذلك لا ينبغى أن نلحق أحد تلك الإبداعات لنص العهد القديم كما هو متبع فى طبعات العهد القديم الدينية التى فيها مجموعة سطور معدودة لنص العهد القديم ومحاطة بعشرات السطور للنصوص التى تنسب لهذا الإبدع.

وبينما منحت إبداعات العهد القديم تعبيرا أدبيا عن الحياة ونظرة الأفراد الذين عاشوا فى عصر العهد القديم، فإن الإبداعات المنسوبة للعهد قديم تعكس العصر التى ألفت فيه، مثل إذدواجية العالم فى الوعى الدينى اليهودى والمسيحى فى العصر الهلينستى،

عندئذ بدأت معرفة الحياة التى أعقبت الموت، وتحولت هذه المعرفة إلى أساس الرؤية الدينية المعارضة تماما للرؤية الدينية لمعظم أدباء العهد القديم والأنبياء.

أرادت كثير من الإبداعات التفسيرية إرساء رؤى وفرائض جديدة على فقرات العهد القديم لكى تمنحها فاعلية وقدسية وكأن مصدرها أقوال موسى والأنبياء. ولقد كانت الشريعة التى تطورت فى شكل توراة شفاهية نتاج حركة الحاخامات الإصلاحية التى غيرت شريعة العهد القديم؛ حيث أضافت عليها وأبدعت شريعة جديدة والتى جاءت بتفسيرات متعمقة لارتكازها على فقرات أو أجزاء من فقرات من العهد القديم.

تختلف أهداف تلك الإبداعات التفسيرية ووظائفها بالطبع فى جوهرها عن الوظائف التى لعبتها إبداعات العهد القديم المختلفة وأهدافها. إلا أنها لا تمثل إشكالية واحدة، ولا ينبغى النظر إليها بوصفها إبداعا أيديولوجيا دينيا واحدا كما حاولت تفسيرها تفسيرات متعمقة.

فصل الإبداعات التى ألفت بوحى من العهد القديم عن الأدب الأصيل

الذى يرغب فى معرفة الإبداعات الأدبية المنسوبة للعهد قديم أو التى ألفت بوحى منه فإنه سيحتاج إلى مقتطفات من إبداعاته المعاصرة أو التى ترجع للماضى من بين مجموعة من آلاف إبداعات الأدب النثرى والفنون والبحث والتفسير والفكر الدينى والتى ألفت فى عصرنا أو فى كل العصور الماضية.

ويتشكل من هذه المجموعة التى تضم إبداعات ذات مستويات مختلفة مثل: "موسى" لشالوم إيش و"موتى الصحراء" لبيالك و "وصف صراع" لكافكا و"تامار زوجة عير" ليعقوبسكون و"شاؤل" لتشيرنحوفسكى و"ضربات مصر" لألترمان و"فن النثر فى العهد القديم" و"فن الشعر فى العهد القديم" لروبرت ألتر و"كتاب الإله" ويوسيفوفيتشى و"إكمال الناقص - أيوب" ليحزقيال هوفمان و"فن التنظيم - القضاة" لـ ى أميت و "الشعر فى العهد القديم" ل أ. دوهريم و تفاسير أو ميرتو كاسوطو ، و"نمرود" لدينتسيجر ويتراجيم هداسا ـ الأسباط لشاجال ، وأوبرا "موسى وهارون" لشينبرج وغيرها الكثير.

وتضم المجموعة التى تتألف منها الإبداعات المختارة التى تنتمى للعهد قديم بالطبع أيضا إبداعات من عصر التنوير والعصر الوسيط والعصر الهلينستى البيزنطى. وستضم بالطبع إبداعات من التيارات المختلفة التى أثرت فى الثقافة اليهودية فى كل عصر. فعلى سبيل المثال سيضم من العصر الهلينستى البيزنطى إبداعات التفاسير الباطنية لمبدعى التوراة الشفهية وأدب المدراشيم بالإضافة إلى الإبداعات التى تمثل تيار اليهودية اليونانية والذى يحوى داخله إبداعات فيلون السكندرى ويوسيفوس فلافيوس ويحزقيال هدرمطورج، ومبدعى عشرات النقوش فى معبد دورا إيروفورس، ومبدعى شخصيات العهد القديم المرسومة بالفسيفساء فى معابد غزة وطبرية وصفورى وبيت ألفا ، والأسفار الخارجية ، والعهد الجديد ولفائف البحر الميت وغير ذلك.

اقترح كل هؤلاء المبدعين صيغ تفسير خاصة بهم لإبداعات عهد قديم. وأضيفت على كل ذلك إبداعات باحثين - مؤرخين وآثريين ولغويين - بحثوا فى المصادر التى أشتق منها أدب العهد القديم والعلاقة بينه وبين الآداب القديمة الآخرى.

ومن المجموعة المختارة التى تعرض من بين آلاف الإبداعات التى تنتسب لأدب العهد القديم والتى تفسره فى الحاضر والماضى يمكن أن نلم بآراء متنوعة حول نص العهد القديم من منطلق المتعة والتجربة الناتجة عن الإبداعات المختارة ذاتها

لن ينضم أى عمل من تلك الإبداعات إلى نص العهد القديم الأصلى ولن يطمسه. وسيتم دراسة إبداعات العهد القديم كما هى معروضة " مجردة" كما يقول بوبر كما سماها أو قرأها الشعب فى عصر العهد القديم ومترجميه.

التفسير الظاهرى قاسم مشترك لتفاسير فردية

يتجلى الإبداع مجردا للقارئ الذى يفهم لغته، حيث إنه يدرك الاستخدامات المختلفة للكلمات التى تتشكل منها، وهو على هذا يدرك المكتوب بسلاسة. ويكشف لنا أسلوب هذه القراءة كل إبداع ونص أدبى فى العالم بما فى ذلك الإبداع فى العهد القديم، وتختلف بالطبع كل قراءة فردية عن الأخرى ولكن يوجد قاسم مشترك بين القراءات الفردية لمدركى اللغة التى بها كتب النص. ولا نطلق على هذا القاسم المشترك "التفسير

الظاهرى" فالقراءة المفسرة للنص بمساعدة المعرفة المشتركة لمتحدثى هذه اللغة،الذين ينجحون فى العيش والتعامل بها، حيث إنهم يعرفون المغزى الحرفى للكلمات بمعنى: وظيفة تلك الكلمات والدور الذى تؤديه أو ممكن أن تؤديه كلما أوضح فيتجنشطين فى "أبحاث فلسفية". ولكى لا تنشأ لغة خاصة فيوجد للكلمات والتعبيرات الحرفية دلالة معروفة للجمهور الذى يتحدث باللغة التى كتب بها الإبداع. ويعد التفسير الظاهرى تعبيرا عن فهم الكلمات والتعبيرات التى فى الإبداع المفسر على أساس معرفتنا بدلالاتها العلانية.

عندما يحل التفسير الباطنى أى "السر والرمز" محل التفسير الظاهرى يختفى الشرط الحيوى لتكوين الانطباع الأدبى عن الإبداع الأصلى حيث إن دلالة الكلمات تختلف حسب المفسر ، ولا تكتفى بأن تكون علانية. فتأخذ الكلمات دلالة فى اللغة الخاصة التى يحاول المفسر إضفائها على الكلمات (مثل الشديين يعنى : موسى وهارون)، ويختفى الإبداع الأصيل فى طيات الإبداع الآخر ذي الدلالات القسرية التى اختلقها المفسر الباطنى.

وفى هذا الإطار فلا تباين بين التفسير الدينى الباطنى والتفسير العلمانى الباطنى والمعاصر والذى يعتبر النص فقط مجموعة رموز يرمز بها المفسر، و يطرحها دون أى اعتبارات للدلالة اللغوية العلنية التى يتألف منها الإبداع. فكلاهما يقرأن فيه ما ليس به وطالما أنه لايوجد فلا نهاية له ولا حدود للتفسيرات الباطنية.

يقترح قراء سفر نشيد الأناشيد الأصلى بالأسلوب الظاهرى صيغ قراءة مختلفة لنص العهد القديم، كالنظر إلى هذه القصيدة على أنها دراما ممكن أن تؤلف أناشيد كثيرة تدور حول حكاية محورية يتعارض فيها عشق الملك مع عشق الراعى فى قلب صبية التى هى بطلة المسرحية. وتعتمد صيغ تلك القراءات الفردية على أساس التفسير الظاهرى وعلى فهم الكلمات والتعبيرات اللغوية للشعر كما تتحقق فى اللغة التى كتبت بها. وفى هذا الجانب ، يوجد فى هذه القراءة صلة مباشرة بالواقع اللغوى والإنسانى المستخدم فيها. وقال برجستون عن أحد قراء نشيد الأناشيد بوصفها مسرحية - وهو الراهب بوذا :"إنه كان رجلا رائعا، ولم يترك فكرة ما تقف بينه وبين الواقع على الاطلاق.

كتب التفسير الظاهرى القديمة، الترجمة السبعينية

كان التفسير الظاهرى الأسلوب الرئيسى لقراءة أدب العهد القديم فى العصر الهلينستى، وهو ما توضحه التراجم الأولى لإبداعات هذا الأدب. قبل اتمام العهد القديم بسنوات كثيرة بدأت الطوائف التى تتحدث اليونانية والآرامية فى ترجمة الإبداعات التى تم تقديسها فى التقاليد والتى سوف تلحق فى أنتولوجيا العهد القديم. ويمكن أن تكون كل ترجمة نصا تفسيريا باطنيا يمثل الأصل وذلك من خلال تعبيرات ذات دلالة بعيدة عن الدلالة الأصلية. ولكن معظم التراجم التى بدأوا فى إبداعها منذ بداية العصر الهلينستى - البيزنطى اتبعت الأسلوب الظاهرى فوجدوا تعبيرات لغوية مشابهة فى دلالتها للأصل.

ينظر إلى أسفار كثيرة ضمت بعد ذلك إلى العهد القديم العبرى على أنها أسفار مقدسة تقليدية منذ النصف الأول قبل الميلاد. ولعبت الترجمة السبعينية من العبرية لليونانية والتى بدأت فى القرن الثالث قبل الميلاد، دورا جوهريا فى ثقافة اليهود وثقافة الشعوب بتقديمها إبداعات العهد القديم بصيغة قريبة من الأصل وبالأسلوب الذى أتاح لمتحدثى اليونانية فى الشرق الأدنى القديم وجنوب أوربا الاطلاع على الإبداعات النموذجية فى الأدب العبرى وعلى مبادئ التوراة وعقيدة التوحيد عند موسى والأنبياء، وعلى التراث التاريخى لليهود الذى تم إرساؤه فى تلك الإبداعات بوصفها أساس الوعى القومى لليهود.

نمت قراءة التوراة فى المعابد بلغة مفهومة للمستمعين الوعى القومى اليهودى حيث إنه ممتزج بالدين. وانتشر أدب العهد القديم بين الطوائف اليهودية الكبرى التى تتحدث اليونانية فى مصر وليبيا وفى مدن هلينستية عديدة فى فلسطين وفى دول أخرى فى آسيا وجنوب أوربا وذلك من خلال التراجم، فالتراجم كانت قاسما مشتركا لجميع الطوائف اليهودية وتياراتها فى العصر الهلينستى.

و لعبت التراجم إلى الآرامية دورا مماثلا لدى الطوائف اليهودية فى فلسطين والبلدان الشرقية والتى كانت لغة الحديث والإبداع فيها هى الآرامية. وكان من الممكن

أن ينشر الوعى بالموروث التاريخى والثقافى المشترك بين طوائف اليهود بفضل أسلوب التفسير الظاهرى. ولعبت المعابد التى انتشرت فى زمن الهيكل الثانى وبخاصة بعد تدميره دورا جوهريا فى نظام تعليم الكبار والصغار والذى بدأ يتطور بين طوائف اليهود. وكانت القراءة فى أسفار العهد القديم بمثابة حجر الزاوية وجوهر المادة الدراسية فى نظام التعليم اليهودى فى اليهودية الدينية فى تلك الأيام، مثلما فى اليهودية العلمانية فى هذا العصر.

ولقد تليت فى أيام السبت والأعياد ،والتى تحولت بالتدريج من أعياد مرتبطة بالطبيعة إلى أعياد تاريخية، فصول من أسفار العهد القديم وذلك من خلال تنشيط موسمى لإدراك الأدب والموروث التاريخى الذى آمن اليهود وغير اليهود بأنه يتمثل بصدق فى العهد القديم.

إن القراءة بأسلوب ظاهرى والتى تم التعبير عنها فى معظم فقرات التراجم لليونانية والآرامية كانت ضرورية للحفاظ على التراث التاريخى والثقافى المشترك لليهود ذوى الرؤى المختلفة وتطويره، ومن هؤلاء: الفريسيون والصديقيون والأسانيون والقومرانيون والمتهلنون والربانيون والقراؤون والسامريون والمسيحيون اليهود.

ويوضح الباحثون أن معظم الصيغ المترجمة قد كتبت بتعبيرات لغوية مفهومة للقراء ومن خلال الدلالة الشائعة للتعبيرات فى لغة الترجمة، بسبب الوظائف التى تؤديها فى اليونانية والآرامية والتى لاعلاقه لها بأدب العهد القديم.

وعلى ذلك يستطيع القارئ فى النص المترجم أن يوجه فكره نحو الواقع الذى ينعكس فى الإبداع الأدبى الأصلى الموجود فى العهد القديم العبرى. وهناك استثناءات عن هذه القاعدة تدل على القاعدة مثل: المطلب الإنسانى فى نص العهد القديم عدم طهى الجدى الرضيع والمترجمة فى ترجمة أنكلوس على أنها تحريم أكل اللحم مع اللبن. ونتجت هذه الترجمة الغريبة عن فهم أنكلوس للفريضة التى تم استحداثها من قبل الإصلاحين، وذلك بعد اتمام العهد القديم، والتى وفقا لها محظور أكل اللحم واللبن فى آن واحد. حيث يفهم أنكلوس الفقرة خلال ربطها بالفريضة التى ظهرت متأخرا، فهو يفسر

الأصل بأسلوب متعمق، وكأن أديب العهد القديم قصد الفرائض الجديدة المرتبطة بالكاشير[1]. وتفسير باطني من هذا النوع يشوه الأصل ومقصده، ويدل على التباين الموجود بين التفسير الظاهرى والتفسير الباطنى.

يتضح فى نظر القارئ الذى يعرف أدب العهد القديم، أن ترجمة هذه الفقرات التى قام بها أنكلوس لا أساس لها، لأنه يعلم أن أكل اللحم واللبن غير محرم فى العهد القديم، ولذلك استطاع أبو الأمة الإسرائيلية أن يطهى وجبة لحم ولبن ويقدمها للإله عندما استضاف مبعوثيه فى منزله.

منذ التراجم السبعينية إلى اليونانية فى العصر الهلينستى وحتى تراجم أسفار العهد القديم التى قام بها إدوارد دوهرم للفرنسية وروبرت ألتر للإنجليزية فى القرن العشرين واللذان استخدما أيضا أسلوب قراءة نص العهد القديم كما هو مفهوم للعالمين باللغة العبرية ومتحدثيها. واستمر تقليد التفسير الظاهرى الذى تجدد فى نظام التعليم اليهودى العلمانى فى فلسطين فى النصف الأول من القرن العشرين، وذلك فى أعقاب التقليد الذى بدأ يتبلور فى فترة التنوير ووفقا لمبدأ قراءة إبداع العهد القديم كإبداع مجرد من التفاسير الباطنية.

إحياء اللغة العبرية كلغة للحديث

منح تجدد اللغة العبرية كلغة للحديث والإبداع فى أوربا فى نهاية القرن التاسع عشر فى فلسطين، وخلال القرن العشرين روحا جديدة لنص العهد القديم الأصلى فى وعى دارسى الثقافة العبرية، فيستمتع الأولاد الذين لغتهم الأصلية هى العبرية بالفرصة النادرة لقراءة إبداعات ترجع إلى ألفين حتى ثلاثة آلاف عام باللغة الأصلية التى كتبت بها وباللغة القريبة للغة الحديث اليومى لهم. ويفهم من يعرفون العبرية، ويستخدمونها كلغة حديث واتصال وإبداع، معظم التعبيرات اللغوية التى تتألف منها إبداعات العهد

---

(١) «كاشير» كلمة عبرية تعني حرفياً «مناسب» أو «صالح»، و تعني «الطعام المباح شرعاً» حسب الشريعة اليهودية.

القديم. وعلى ذلك ينتشر التفسير الظاهرى بين قراء العبرية المتحررين من أى التزام لربط كل نص عهد قديم بتفاسيره التقليدية الشائعة فى اليهودية الدينية الأرثوذكسية.

إن قراءة العهد القديم بأسلوب ظاهرى يعود يعقوب للصراع مـع الإلـه فى فنيئيـل "وجها لوجه" كما يقول بلغة مفهومة للجميع. فالملاك الذى ابتدعه المفسرون، يختفى مـرة أخرى عن قصة العهد القديم التى لم يكن فى الأصل موجود بها مطلقا.

* * * *

الفصل السابع

مزايا النظرة إلى العهد القديم باعتباره أدبا ومخاطر الاكتفاء بالمنهج النقدى للعهد القديم

عادت فى النصف الثانى من القرن العشرين مجددا النظرة لإبداعات العهد القديم على أنها إبداعات أدبية يمكن قراءتها كإبداعات خالصة وتفسيرها بأسلوب ظاهرى بعيد عن التفاسير المباطنية الدينية، وذلك من منطلق مقارنتها بإبداعات أخرى فى الأدب اليهودى وفى كل آداب العالم فى كل العصور.

ينظر الأدباء الذين يقرأون العهد القديم على أنه أدب إلى مجموعة الإبداعات التى فى أنتولوجيا العهد القديم على أنها ستعرض أدب اليهود فى الألف الأول قبل الميلاد وتتعارض هذه النظرة للعهد قديم مع النظرة إليه على أنه إبداع واحد متكامل ذو رسالة دينية واحدة. كما يتعارض أسلوب القراءة فى العهد القديم بوصفه أدب مع النظرة التى من خلالها يقرأ كل إبداع عهد قديم على أنه فقط مجموعة مصادر مختلفة ينبغى بحث كل واحد منها على حده. وبالأسلوب الذى يفصل الإبداع عن مكوناته المفترضة ويلغى امكانية القراءة فيه بوصفه إبداعا أدبيا.

إن قراءة إبدعات العهد القديم بوصفها إبداعات أدبية خالصة معروف بالطبع بالنسبة للتخمينات المتعلقة بالمصادر المختلفة التى ألحقت بالإبداع الخالص. ويمكن التخمين بأن "مؤلف الإبداع الأدبى العهد القديم" هو اسم لمجموعة من مؤلفى نصوص كثيرة ومحررين قد ألحقوها فى وحدة واحدة. وعلى ذلك يمكن بالطبع محاولة فصل سفر "أيوب" أو "نشيد الأناشيد" فى وحدات التى وفق افتراض الباحث كانت توجد منفصلة وذلك قبل أن يتم ضمها لتلك الإبداعات الأدبية. ولكن يمكننا قراءة الإبداع كوحدة أدبية امتزجت فيها المصادر المفترضة والتى تؤدى إلى انطباع حسى وفكرى وعاطفى متكامل رغم معرفتنا أنه تم تأليفه من وحدات قديمة وكثيرة.

إن القراءة المتجددة فى العهد القديم على أنه أنتولوجيا للإبداعات الأدبية التى تعرض معظم الأصناف فى الأدب العالمى الغربى تسهم فى تجديد الصلة بإبداعات العهد القديم. ويكشف العلمانيون الذين لا يعتبرون العهد القديم إبداعا من الإله ولا يتعاملون معه على أنه نص دينى أو مقدس، مجددا الإبداع الأدبى المؤثر والممتع والمثير للفكر والارتباط بالأبطال المشكلين فيه.

تختلف هذه القراءة فى العهد القديم جوهريا عن القراءة المتعمقة التى فى التقليد الدينى، كما أنها تختلف أساسا عن تحليل إبداع العهد القديم إلى مصادر بهدف البحث التاريخى واللغوى.

يتجاهل العلمانيون الذين يقرأون العهد القديم على أنه أدب أبحاث نقد العهد القديم والنظريات المقترحة فيما يتعلق بمصادر النص الخاصة بالعهد القديم. ولكى يستطيعوا قراءة إبداعات العهد القديم على أنها إبداعات أدبية خالصة يجب عليهم إرجاء عدم الثقة فى أن تلك الإبداعات هى إبداعات أدبية خالصة.

لقد وضح كولريدج أن مبدأ "إرجاء عدم الثقة" هو شرط للاستمتاع وتكوين انطباع عن كل الإبداعات الخيالية الأدبية بأنواعها. وندرك بالطبع فى وقت قراءة أى إبداع أدبى أنه إبداع خيالى وليس تقريرًا لوقائع حدثت فى الواقع. وعند قراءة الأدب الخيالى فإننا نرجئ عدم الثقة تجاه الحقائق التاريخية للأحداث الموصوفة فى الإبداع. ويرتبط التأثر الأدبى والانطباع بالاستناد إلى الحكاية والأحداث المكونة لها وكأنها تعكس أحداثا فى الواقع. وبفضل " إرجاء عدم الثقة" فى حقيقة ما ورد فى الإبداع الخيالى يمكن أن يصير قراء الروايات أو مشاهدى الأفلام مهيئين ليكونوا متوترين أو خائفين، حزناء أو سعداء وفقا لما يدور فى الحكاية وذلك من خلال التعاطف مع أبطالهم وكأنهم أناس أحياء وليسوا أبطالا من صنع كلمات أو أدوار يؤديها الممثلون.

يتعلق الشئ نفسه بالإبداعات الأدبية الخيالية الموجودة فى العهد القديم. حيث إننا نرجئ عدم الثقة فى أنها إبداعات خالصة تتجاهل بشكل مؤقت الافتراضات ونتائج الأبحاث حول نقد العهد القديم فيما يتعلق بالمصدر "اليهوى"، و"الإلوهيمى"

و"الكهنوتى" و"التثنوى". وذلك وفقا لافتراض أدباء سفر "أخبار الأيام" ونتجاهل بشكل مؤقت المفارقات التاريخية فى وصف الإبداع.

يعد إرجاء عدم الثقة فى كمال الإبداع وفى كونه تقريرا لأحداث وقعت وفقا لما هى موصوفه فيه يتيح تجاوبا شعوريا واستجابة أخلاقية وفكرية تجاه الإبداع وأفعال أبطاله: مثل اتفاقنا مع إبراهيم بأن قاضى الأرض لم يقم محاكمة عند فرض عقوبة جماعية. أو تأثرنا واتهامنا إبراهيم الذى قدم ابنه للمذبح مقربا السكين من رقبته ليقدمه قربانا لإلهه.

إسهام مدرسة "العهد القديم بوصفه أدبا" التى تطورت فى القرن العشرين

أسهم أدباء كثيرون فى استحداث القراءة فى إبداعات العهد القديم على اعتبار أنها إبداعات أدبية خالصة. وسلطت إبداعاتهم الضوء على عناصر الانطباع الحسى - العاطفى والجمالى - حيث إننا نشعر به عند الالتقاء مع شكل إبداع العهد القديم ومضمونه.

فى إبداعات أدبية كثيرة ، فى العهد القديم المسمى بالإبداعات الخالصة تتجلى قدرة تأمل الإبداعات النموذجية الأدبية فى التجربة الإنسانية. حيث يواجه القارئ مشاكل أخلاقية، كالتى يواجهها كل الشر. وبسبب قراءتها على أنها وحدات أدبية خالصة فنكشف قدرتها فى صياغة شخصيات بطولية أدبية إلهية وإنسانية موجودة فى الإبداعات وتعيش فى وعينا على أنها أبطال تاريخية حية.

فبعد كتاب "ميمزيس" لأورباخ ظهر روبرت ألتر ليمهد الطرق لرؤية العهد القديم باعتباره أدبا (حتى لو أنه هو نفسه تخلى عن تعبير "العهد القديم أدب" ففى رأيه هذه المقولة هى مفهومة من تلقاء ذاتها ولا معنى لقولها) . وفى كتب روبرت ألترعن فن النثر وفن الشعر فى العهد القديم، وفى مقالاته الكثيرة والمخصصة لأنواع مختلفة فى هذا المجال. وفى ترجمة سفر التكوين للإنجليزية (مع شرحه وتفسيره)، وإعداده بالاشتراك مع فرانك كرمود كتاب "دليل العهد القديم الأدبى"، يشكل روبرت ألتر الناقد الأدبى الأكثر تأثيرا فى هذه الحركة الشاملة لمجددى القراءة فى العهد القديم على أنه مجموعة إبداعات أدبية.

ومن بين الكتب الكثيرة المـؤثرة فى أسـلوب القـراءة فى عـصرنا الكتـب التاليـة: " كتاب الإله" لجبرائيل يوسيفوفيتش ، "فهم التكوين" و"قصائد المزامير" لنـاحوم سـارنا، "العهد القديم بوصفه أدبا" لصموئيل ديتشس ، "الجامعة" لروبرت جـورديس ، "الـسرد والشعر فى سفر صموئيل" ج. فـأفوكلمان ، "كتاب جى" هرولد بلوم ، "الشعر الدينى فى العهد القديم" إدورد دوهرم ،"يوسف وإخوتـه" تومـاس مـان، "سـبيل العهـد القـديم" مارتن بوبر، "الكمال الناقص" ياثير هوفمان، "سفر القضاه وفن التنظيم فى العهد القـديم" ياثيرا أميت ، "القص فى العهد القديم " فرانك فولق ،"داود" ياثير زكويتش ، "فن القـص فى العهد القديم " شلومو دوف جويتين ،" فن السرد فى العهد القديم" مثـير شـطينبرج .. إلخ .

ويتأثر تجدد القراءة فى العهد القديم بكتب الفكر والنقد. والنظرة لإبداعات العهـد القديم على أنها إبداع أدبى موجودة فى مئات الإبداعات التى ألفت بـوحى مـن إبـداعات العهد القديم ؛ فى النثر والشعر والموسيقى وفن الرسم والنحت والسينما والمسرح.

لا تقلل الصيغة الدينية للإبداعات الأدبية فى العهد القديم والتى فى إطارها يلعـب الإله واالعقيدة دورا حاسما، من القـوة الـشعرية للإبـداع فى الحيـاة الروحيـة للعلمانيـين. وتؤثر الإبداعات الدينية فى كل الأزمنة والأديان مثل الإبداعات الفنية والأدبيـة فى حيـاة ذوى الثقافة العلمانية من اليهود مثل كل الـشعوب. ولقـد تحولـت الإبـدعات الأدبيـة فى العهد القديم مجددا لتكون أحد موضوعات الدراسة فى نظـم التعليـم اليهـودى العلمانـى وذلك باندماجها فى دراسة ثقافة اليهود والشعوب التـى يعـيش بينهـا. ونعمـق دراسـات كتلك وعى اليهود العلمانيين بجوهر ثقافتهم القومية وترسخه.

خطورة ربط التفسير الرمزى بالإبداع الأدبى للعهد القديم

إن اقتراح أساليب قراءة إبداعات العهـد القـديم عـلى أنهـا إبـداعات أدبيـة تـترك انطباعا قد أنقذها من الإهمال والضياع فى ظل تخبطات التفاسير الدينية التى ارتبطـت بهـا وطمستها، ومن التفـسير الرمـزى ذي النزعـة العلميـة والـذى يوجـه إلى تأويـل الـنص الأصلى.

تعرض التفاسير الرمزية بأنواعها كل نص على أنه قناع مستتر بالنص وكامن ومخفى فى الإبداع ولكنه ينكشف ويتجلى و فسر على يد المحلل الذى يخلصه من خباياه. فنص الإبداع يحمل تشكيلة من مجموعة رموز تكمن دلالتها فى إشارات مستترة عن عين القارئ ولا تنكشف إلا عن طريق المحلل الذى يعرف الأهداف السياسية والأيديولوجية أو السيكولوجية الكامنة فى النص.

يستمر التفسير الرمزى بأنواعه فى أسلوب التفسير الدينى التقليدى، بتحويله للإبداع بتضعيفه وتحويله عن الأصل المتعسر على الوعى ولا يستطيع بشكله الجديد إثارة انطباع حسى وعاطفى أو تطوير علاقة مع الأبطال والمبدعين.

توجه التفسيرات الدينية والعلمية الرأى إلى مجموعة الرموز المفترضة من قبل المفسرين وتهمل الإبداع الذى يبدو لهم مجموعة رموز فقط. إن عمل مث هذا العمل يحيد القدرة الفاعلة العاطفية للإبداع ويلغى مكانته كقوة مؤثرة فى الحياة العاطفية والحسية والثقافية لقرائها.

لقد سيطرت هذه الرؤية على غالبية أقسام دراسة الأدب والفن فى جامعات العالم، فى سبعينيات القرن المنصرم، فأبعدت معظم الطلبة عن دراسات الأدب، وقد اختفت، فى أقسام الأدب بالجامعات تحت تلال التفاسير والتحليلات الرمزية بأنواعها ، مثلما حدث لنص العهد القديم الذى طمس تحت تلال التفاسير الدينية.

ولتصحيح هذا التشويه يجب فصل قراءة إبداعات الأدب عن القراءة والدراسة فى الأبحاث والتفسيرات التى تستخدم فى نصوص إبداعات الأدب كمادة خام لإبداعات تفسيرية أخرى.

توجد بالطبع بين الإبداعات التفسيرية ـ الدينية والعلمية على حد سواء ـ إبداعات مهمة من الناحية العقلانية أو الفرضيات الثاقبة حول الدوافع السياسية والسيكولوجية المتاحة لمؤلفى الإبداع. ولكن أيضا غير أنه عندما تكون إبداعات مثل هذه الإبداعات جديرة بالدراسة فلا ينبغى ربطها بأى نص أدبى.

دور العهد القديم فى ثقافة اليهود فى عصرنا وفى الماضى

أدت إبداعات العهد القديم دور الإبداعات الأدبية الكلاسيكية فى ثقافة اليهود فى كل العصور والبلدان.

إن الإبدعات الكلاسيكية فى ثقافة قومية ما هى إبداعات تدركها النخبة المثقفة والحاكمة فى مجتمع قومى وتعمل على نشرها بوصفها مكونة للتراث التاريخى والثقافى للشعب.

يستمر الأدب الكلاسيكى فى العيش ولعب دورا طالما يتعرض أفراد الشعب لإبداعاته. وتتسبب إبداعاته العاطفية فى انطباعات عاطفية وتسهم فى معرفة الموروث التاريخى والثقافى المشترك. وتوجد مستويات مختلفة لهذه المعرفة لدى طبقات الشعب المختلفة، فى العصور المختلفة من تاريخ ثقافته.

بدأت الإبداعات الأدبية فى العهد القديم تؤدى تلك الأدوار بالفعل فى النصف الثانى من الألف الأول قبل الميلاد، قبل اتمام العهد القديم. لقد جمعت الإبداعات الأدبية التى انتشرت فى ثقافة اليهود ولعبت دور الأدب الكلاسيكى القومى على يد محررى أنتولوجيا العهد القديم عندما اكمل العهد القديم على أنها مجموعة من الأسفار المقدسة لليهود فى بداية الألف الأول الميلادى.

لعبت تلك الإبداعات وظائف جوهرية فى ثقافة الطوائف اليهودية فى الخارج وفلسطين وذلك فى إطار نشاط المعبد الذى التفت حوله الطوائف اليهودية ثقافيا. ففى المعابد التى كانت بمثابة مراكز تعليمية وثقافية وطائفية فى أيام السبت والأعياد تمت قراءة إبداعات العهد القديم على مسامع الجمهور من المصدر العبرى والترجمات للغات التى انتشرت بين اليهود واستخدمت فى الحديث.

كانت قراءة العهد القديم مصحوبة بالتفاسير التى من خلالها استمر تطور أدب البلاغة لليهود والذى تكمن مصادره فى خطب الأنبياء. ولقد تطور فى العصر الهلينستى

فى فلسطين وبابل أدب تفسير الهلاخا(١) والأجادا(٢)، وذلك بجانب إبداعات أدب التفاسير لمفكرين يهود متهلنين مارسوا عملهم فى بلدان واقعة غرب فلسطين مثل فيلون، يوسيفوس، يحزقيال همحزاى وآخرون وذلك على أساس مجموعة التفاسير تلك.

لقد رسخت عادة قراءة إبداعات العهد القديم على مسامع الجمهور أسبوعيا والدراسة فى إطار التعليم اليهودى، مكانة أدب العهد القديم بوصفه أدبا كلاسيكيا لليهود.

---

(١) «هالاخا» كلمة عبرية تعني «التشريع» أو «الشريعة». وعادةً ما يتم الحديث عن «هالاخا» مقابل «أجادا» (القصص والمواعظ). ويحتوي التلمود على أجزاء هالاخية وأخرى أجادية، أي على أجزاء تشريعية وأخرى قصصية وعظية.

(٢) الأجادا معناها «أسطورة» أو «حدوتة فلكلورية. وتستخدم هذه الكلمة للإشارة إلى الفقرات التلمودية التي تعالج الجوانب الأخلاقية أو القصصية الوعظية أو الأدعية أو الصلوات أو مديح الأرض المقدَّسة أو التعبير عن الأمل في وصول الماشيَّح. كما تشير إلى الأجزاء التي تتناول التاريخ والسير والطب والفلك والتنجيم والسحر والتصوف.
وتُقرَن الأجاداه دائماً بالهالاخا. وتُعرَف الأجاداه بأنها ذلك الجزء من التعاليم الحاخامية الذي لا يعالج الهالاخا (أو الجوانب القانونية أو التشريعية). وحتى حينما تتعرض الأجادا إلى مثل هذه الجوانب، فإنها تقتصر دائماً على الحديث عن الحكمة من إرسال القوانين. ويقول الحاخامات إنه يمكن استخلاص الأجادا من الهالاخا، ولكن العكس غير صحيح لأن الهالاخا هي الأصل والأساس. والأجادا هي من باب التفسير القصصي، ولذلك فليس لها وزن وثقل الهالاخا. وتختلط العناصر الأجادية بالعناصر الهالاخية في التلمود. وتتسم المشناه بقلة العنصر الأجادي فيها على عكس الجمارا. وتُطبَع أحياناً المقطوعات الأجادية من التلمود في كتب، ويُطلَق على مثل هذه الكتب أيضاً «أجادا».
وتتَّسم القصص الأجادية بمبالغاتها الأسطورية ومعانيها الغريبة. وقد حاول الفلاسفة اليهود الدينيون أن يفسروها تفسيراً عقلانياً، ولكنهم لم يهتموا بها كثيراً. وهذا على عكس المفكرين القبَّاليين الذين اهتموا بها وطوروها واستفادوا منها في تفسيراتهم المفتعلة. وقد أثرت الأجادا تأثيراً عميقاً في الوجدان الديني الشعبي اليهودي، ونبتت في تربتها القبَّالاه. ويمكن القول بأن الأجادا والقبَّالا هما اللذان صاغا هذا الوجدان. أما الجوانب التشريعية في التلمود، فقد كانت مقصورة على الأرستقراطية الدينية التي كانت موجودة في المدارس التلمودية العليا (اليشيفات) والمراكز الدينية الكبرى بعيداً عن القرى والمدن الصغيرة. وقد ثار كثير من المفكرين الإصلاحيين على الأجادا.
وتُستخدَم كلمة «هاجادا» أحياناً للإشارة إلى «أجادا»، وإن كان معظم العلماء يفضلون استخدام كلمة «أجادا» على أن يقتصر استخدام كلمة «هاجادا» على الإشارة إلى صلوات عيد الفصح والكتب التي تضم الأدعية والصلوات الخاصة بهذا العيد.

استمر العهد القديم "الوطن المتنقل لليهود"، كما أطلـق عليـه هينـا، فى لعـب دور مركزي فى النشاط الثقافى والتعليمى فى اليهودية. لقد بدأ التلمودان بعد اتمامهما - بما أنهـما يمثلان التوراة الشفاهية - وذلك منذ قبيل نهاية الألف الأول للميلاد أن يحلا محل العهـد القديم فى صدارة المنـاهج الدراسية لـدى التيـارات اليهوديـة الربانيـة. وظلـت الطائفـة القرائية الكبرى، التى طالبت بجعل العهـد القـديم فقـط هـو الكتـاب الرئيـسى للثقافـة اليهودية والتشريع، مخلصة للعهد قديم وجعله موضوع الدراسـة الرئيـسى فى الدراسـات اليهودية.

استمر تقليد القراءة الأسبوعية لإبداعات العهد القديم أيام السبت والأعيـاد بـين التيارات اليهودية وقد أتاح ذلك للعهد القديم الاستمرار فى التأثير بوصفه أدبا كلاسـيكيا بين اليهود الذين لم يتلقوا تعليما فى المدارس التلمودية.

استمر العهد القديم فى كونه الأساس ومرجعية التلمود والمدراشيم وأدب القبالاه والذين واصلوا التطور فى العصر الوسيط ورسخوا نظرية أن العهد القديم هـو الأسـاس المشترك لثقافة كل الطبقات فى المجتمع اليهودى، وبين كل الطوائف وفى كل البلدان.

فى العصر الوسيط والعصر الحديث فى الطوائف اليهودية فى أفريقيا وآسـيا وأوربـا عرف يهود مثقفون العبرية وذلك بفضل دراسة العهد القديم فى دوائر التعلـيم اليهـودى. واستمرت معظم إبداعات الأدب والفن فى اليهوديـة فى العـصر الوسـيط وجـزء كبـير فى عصر التنوير فى التعامل مع إبداعات العهد القديم باعتبارها مصدر الإلهام والمرجعية.

سيطر فى نظم التعليم اليهودى الأرثوذكسى والذى تطور فى العصر الحـديث أدب التلمود والمدراشيم على مناهج التعليم ونحيت دراسة العهد القديم جانبا.

تحولت الهلاخا إلى الموضوع الرئيسى فى الدراسة لدى التيـار الأرثوذكـسى منـذ أن توقفت عن التطور وتحولت من سياق حوارى متعدد لمجموعة من قوانين ثابتـة جمعـت فى كتاب المائدة المرتبة. واسـتمرت التعدديـة الثقافيـة المميـزة لمجمـل إبـداع العهـد القـديم والمعروضة به فى العصر الحـديث فى التطـور بـين التيـارات اليهوديـة غـير الأرثوذكـسية. وعادت حركات دينية جماعية، مثل الإصلاحين والمحـافظين، وحركـات يهوديـة علمانيـة

جماعية ، صهيونية ومعادية للصهيونية، إلى العهد القديم بوصفه أساس التعليم اليهودى وجوهره. و تم تنحية دراسة التلمود جانبا فى المدارس اليهودية العلمانية فى فلسطين.

إن الثقافة اليهوية المطروحة فى العهد القديم والتى تتسم بتعدد الآراء والعقائد والفرائض والنظريات حول الإله والأسس الأخلاقية والشعائر الدينية، قريبة من الثقافة اليهودية التى تطورت فى فلسطين فى القرن العشرين، وبعيدة عن اليهودية الدينية التشريعية المعروضة فى التلمود، والتى تعرض فيه آراء مختلفة تتركز حول اشكالية الجدل الدينى حول الشريعة.

لقد هجر معظم اليهود منذ نهاية القرن التاسع عشر وحتى السنوات التى سبقت أحداث النارية التيار اليهودى الأرثوذكسى وأنماط حياته ونظم التعليم الخاصة به وثقافته. وزاد بين الطوائف الأرثوذكسية - الحسيدية ومعارضيها - الانغلاق إزاء ثقافات الشعوب والتيارات اليهودية الأخرى الدينية والعلمانية. وبينما عاد العهد القديم ليحتل مكان الصدراة فى معظم نظم التعليم اليهودى فى العالم، استمرت مؤسسات التعليم الأرثوذكسى فى التركيز على دراسة التلمود أو الاكتفاء به فقط.

يلعب العهد القديم فى ثقافة اليهود فى إسرائيل دور الأدب الكلاسيكى، الذى يرسخ الوعى القومى ويحتل مكان الصدارة فى التعليم وفى ثقافة اليهود للأغلبية العلمانية بين السكان اليهود، ويشكل مصدر الإبداع لمعظم إبداعات الثقافة الإسرائيلية - الشعر والغناء الشعبى، والأدب والفن والفكر والبحث.

استمر تقليد القراءة فى العهد القديم أيام السبت والأعياد فى التحور لدى الطوائف الثقافية العلمانية. فعلى سبيل المثال نجد أن فى عشرات المعابد العلمانية فى الولايات المتحدة يقرأون نصوص عهد قديم فى إطار التعليم أو احتفالات بلوغ الابن أو البنت سن التكاليف ، دون الحفاظ على نظام الوقف فى القراءة التقليدى والمتبع فى المعابد الدينية.

ومنذ بداية إطلاق بث إذاعى لراديو بالعبرية (وذلك فى عهد الاحتلال البريطانى ومنذ قيام إسرائيل، فى التليفزيون) تدرج مقتطفات من نصوص العهد القديم فى البث اليومى ويوم السبت والأعياد الخاصة.

لقد أجريت فى عشرات المعابد العلمانية ولدى جماعات وطوائف علمانية أخرى فى الولايات المتحدة وفى كندا وفى مراكز ثقافية علمانية فى باريس وبريسل، طقـوس احتفـال وصول أولاد وبنات لسن التكاليف مرتكزة على إصحاحات من العهـد القـديم. ويختـار تلك الإصحاحات الصغار الذين يحتفلون بهم ، ويجهز الصغار أعمال ومحـاضرات تـرتبط بإبداع العهد القديم الذى اختاروه. وتجرى احتفالات علمانيـة لوصـول الأولاد والبنـات سن التكاليف فى فلسطين بدءا من مطلع القـرن العـشرين فى أكثـر مـن مـائتي مـستوطنة تعاونية وفى شكل احتفالات أسرية وجماعية أخـرى. وتـم فى الجماعـات العلمانيـة ابتكـار مناهج دراسية خاصة بمناسبة طقوس سن التكاليف ، جماعية وفردية ، وتسنخدم فى كثير منها إبداعات عهد قديم.

يواصلون فى الثقافة العلمانية اليهودية تقليد قراءة إبداعات العهد القـديم فى أعيـاد ثابتة ويرسخونه. وجدد كثير تقليد ربط إبداعات أدبيـة للعهـد القـديم بأعيـاد إسرائيـل. وتثرى هذه العادة مضمون الاحتفـال بأعيـاد إسرائيـل ويكـشف عـن وجـوه جديـدة فى إبداعات العهد القديم، من منطلق معرفتها ومقارنتها بإبداعات قد كتبت بوحى منها ، أو النظرة إليها فى الثقافة المعاصرة وثقافات الماضى. ولقد ربط التقليد الدينى إبداعات مثالية فى أدب العهد القديم بالأعياد الكبـيرة فى التقـويم الـسنوى: "التكـوين " بـرأس الـسنة، و"يونا" بعيد الغفران، و"الجامعة" بعيد المظال، و"لفائف استير" بعيد البـوريم، و"نـشيد الأناشيد" بالفصح، و"روث" بعيد الأسابيع، و"سفر المراثـى" بعيـد التاسـع مـن آب (أو يوم ذكرى أحدث النازية).

وهناك من يضيفون عليهم مقتطفات من أسـفار المكـابيين - فى عيـد الحانوكـا[1]،

---

(١) عيد الحانوكا : أو عيد التدشين هو عيد له طبيعة سياسية وصهيونية وتاريخية فى الخامس والعشرين من شهر كسلو الذى يقابل الذى يقابل ديسمبر. ومناسبة هذا العيد ترجع إلى سنة ١٦٥ ق م إذ كانت فلـسطين تحـت الحكم اليونانى، وحاول القائد اليونانى انتيوخوس إيفانس إرغام اليهود الـواقعين تحـت حكمـه عـلى تـرك دينهم، والدخول فى الوثنية اليونانية ولكن الكاهن الأكبر متاتيا أعلن المقاومـة، يعاونـه فى ذلـك أحـد أبنائـه واسمه يهوذا المكابى، واستطاعا انتزاع المعبد اليهودى من الجيوش اليونانية وفى ٢٥ كـسلو مـن هـذه الـسنة أخرجت التماثيل اليونانية من الهيكل وزوده متتايا وابنه يهـوذا المكـابى بمـذبح طـاهر جديـد، وأعيـد فتحـه للشعائر اليهودية. وهذا هو السر فى تسميه هذا العيد بعيد التدشين

=

وقصة حياة إرميا ومقتطفات من نبوءته فى صوم جادليا أو يوم ذكرى مقتل رابين، مقتطفات من قصة حياة داود والملوك فى عيد الاستقلال، وقصص يوسف وموسى فى عيد الفصح.

ربط من يتحدثون العبرية ويستخدمونها لغة حديث وتعلم وثقافة وترفية وإبداع علاقة لغوية فريدة بالعهد القديم وخاصة معظم الشباب الذى يعيش داخل ثقافة اليهود فى إسرائيل. ولقد تطورت هذه العلاقة منذ ثورة تجديد اللغة العبرية فى مطلع القرن العشرين. وخلال عقود قليلة توطدت العبرية مجددا وصارت لغة شعب اليهود الذى يعيش فى إسرائيل وملايين اليهود الذى تم استيعابهم فى إسرائيل خلال النصف الثانى من القرن العشرين.

ويمثل تجديد لغة قديمة وتحويلها إلى لغة حديثة تستخدم فى كافة الأغراض والمجالات، بعد أكثر من ألفى عام لم تكن لغة للحديث لليهود، ظاهرة لا مثيل له فى تاريخ الثقافة العالمية.

لعب العهد القديم دورا رئيسيا فى هذا الانقلاب الاجتماعى الثقافى. وبرز تأثير عبرية العهد القديم على لغة الحديث والإبداع بإسرائيل، واستمر مع تطور اللغة وإثرائها بآلاف الكلمات والتعبيرات التى لم ترد فى العهد القديم.

لا يعرف جزء كبير من متحدثى العبرية ومبدعيها مطلقا أصول العهد القديم للتعبيرات التى يستخدمونها. ويبرز تغلغل لغة العهد القديم فى لغة الحديث الحديثة

=

والطابع المميز للاحتفال بهذا العيد هو اشعال الشموع الكثيرة والأنوار المختلفة لمدة أسبوع كامل.

ويحتفل بهذا العيد حتى اليوم ويطلق عليه أيضا عيد الأنوار أو عيد الشموع. لضرورة إشعال الشموع فى أيام العيد الثمانية.

ويُحتفَل بالعيد في إسرائيل على أنه عيد ديني قومي، فتُوقَد الشمعدانات في الميادين العامة، وتُنظَّم مواكب من حملة المشاعل. تم تخصيص شمعدانات خاصة لهذا العيد ويتم زخرفتها بشكل جميل وتصنع أحيانا من النحاس أو الفضة أو المعادن الأخرى.

انظر: د. حسن ظاظا: الفكر الدينى الإسرائيلى "أطواره ومذاهبه". مكتبة سعيد رأفت القاهرة. ص ٢٠٥ – ٢٠٧.

وتوحدها معها فى الكلمات والتعبيرات التى يستخدمها الإسرائيليون فى اللغة اليومية، وفى استخدام استعارات واستشهادات من أدب العهد القديم فى لغة الأدب، وفى اشتقاقات التراكيب النحوية وقواعد الكتابة.

لقد كان أبطال العهد القديم وموضوعاته بمثابة موضوعات إبداعات عبرية حديثة فى مجالات الشعر والنثر والرسم والنحت وفنون العرض. حيث استمرت قائمة الإبداعات الطويلة والتى ضمت إبداعات كتبت بوحى من إبداعات العهد القديم وتتحدث للجمهور بلغته وهذا بداية من قصائد بوب الغنائية، - "منفى" و"خلق العالم" وحتى إبداعات الشعر الدينى المأسوى حول موضوع الذبيح الذى تجدد فى وعى جيل الآباء الإسرائيليين المعاصرين، من عروض حول موضوعات من العهد القديم وحتى تحول نص العهد القديم نفسه إلى إبداع مسرحى قائم بذاته، مثل مسرحة "قال وذهب" لرينا يروشلمى .

يحتل العهد القديم دورا جوهريا فى إسرائيل ليس فقط فى الحياة الثقافية والفنية بل أيضا فى الحياة الاجتماعية والسياسية فى دولة اليهود. وتستند الأيديولوجية الصهيونية وكذلك الحركات السياسية المختلفة والفاعلة فى إسرائيل، إلى أدلة تاريخية وأدبية من العهد القديم لإرثاء مواقف حول خلافات سياسية عقلانية.

وفى مقابل الذين يستخدمون أدب العهد القديم لإرساء سياسة إسرائيل كدولة يهودية على "أرض إسرائيل الكاملة" نجد معارضين يستندون إلى دلائل فى العهد القديم وفقا لها فقد تمركزت غالبية الدول اليهودية فى عصر العهد القديم فى أجزاء من أرض فسطين فقط بجانب دول أخرى مستقلة عاشت فى حدود فلسطين. وخلال عقود قليلة فقط من عصر مملكة داود وسليمان احتلت مملكة أسباط بنى إسرائيل مناطق لشعوب أخرى غرب الأردن. وفى عصر حفيد داود انقسمت دولة اليهود إلى دولتين وقد سيطرتا على أجزاء من فلسطين فقط.

تم التعبير عن فكرة عودة اليهود إلى فلسطين من خلال الأنبياء فى العهد القديم وكانت القاسم المشترك لكل تيارات الصهيونية والتى تؤمن بحق اليهود، مثل كل شعب

فى العالم، فى العيش فى دولة سيادية بشكل يتيح لكل اليهود الراغبين أو المحتاجين للقدوم إليها. ولكن يوجد فى العهد القديم أيضا الدليل الأول على أن غالبية اليهود الذين خرجوا من فلسطين لم يعودوا إليها. وأن عددا ضئيلا من الذين ذهبوا إلى بابل وذريتهم فقط هم الذين استجابوا لدعوى الإمبراطور قورش بالسماح لليهود بالعودة ثانية إلى وطنهم وتشيده مجددا. فتجاهل معظم الشعب فى بلدان بابل ومصر نداء قورش مثلما تجاهل معظم الشعب فى القرن العشرين تصريح بلفور واستمروا فى العيش فى كل بلدان العالم.

واعتبر التجمع اليهودى الصهيونى والعلمانى فى فلسطين، بداية من مستهل القرن العشرين، نفسه يحقق أمل أنبياء العهد القديم ويمهد مجددا لإقامة الدولة اليهوية المستقلة فى فلسطين.

وطد النظام السياسى (بخاصة بن جوريون وديان) والنظام التعليمى (فى المدارس والحركات الشبابية) بسبل متنوعة الصلة بالعهد القديم وفلسطين والمناظر والمواقع الموصوفة فى العهد القديم والتى تنكشف فى الحفريات والجولات فى كافة فلسطين. وكان علم آثار العهد القديم أحد الموضوعات الجديدة فى الصحف اليهودية منذ قيام الدولة وقبلها.

كان الإيمان بالتراث التاريخى والثقافى وبأن العهد القديم يشكل وعى كل تيارات اليهود وثقافتهم، هو أساس الاتجاهات المسيحانية الدينية والعلمانية والتى صاحبت تاريخ اليهود منذ التمرد على روما والحروب الأهلية بين فصائل اليهود فى القدس والتى أدت إلى خراب الهيكل على أيد الرومان فى القرن الأول الميلادى.

اعتمدت الحركة المسيحانية الدينية (كالحركة الجماعية لنتان من غزة وشبتاى تسفى) والحركات المسيحانية العلمانية (كالحركة الصهيونية السياسية) على إبداعات العهد القديم وعلى الأمل الذى تم التعبير عنه فيها وهو عودة اليهود لدولة يهودية، وأن تكون الدولة مركزًا قوميًا للتوحيد الأخلاقى والتبشير بالسلام لكل الشعوب.

كانت الصعوبات التى واجهتها تلك الحركات أثناء تنفيذ أهدافها تتمثل فى التباين الهائل بين المثالية والواقع عندما أرادوا تحقيقها ولكن هذا لم يضعف من حماس المؤمنين

بإمكانية تحقيقها. ولقد احتاجت الصهيونية العلمانية التى بدأت تحقيق المثالية التى كانت بمثابة حجر الزاوية فى أيديولوجيتها إلى العهد القديم وأقوال الأنبياء لكى تتحول هذه الأيديولوجية المستحدثة إلى جزء لا يتجزأ من اليهودية بوصفها ثقافة لليهود. وكلما انتشرت العلمانية بين يهود العالم كلما ابتعد اليهود فى معظم التيارات عن دراسة اليهودية بكل أنواعها، وزادت أهمية العهد القديم بوصفه الأساس المشترك الوحيد لدراسة اليهودية بوصفها ثقافة فى نظم تعليم كل اليهود.

* * * *

الفهـــرس

* * * *